

سياسة

صَلَاحُ الدِّينِ الأيوبي
في بلادِ مصرَ والشَّامِ والجزيرة
٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣ م

رسالة ماجستير قدمت الى جامعة بغداد
باشراف الاستاذ محمد توفيق حسين وقد
نالت درجة جيد جدا

دريد عبد الفتاح نوري

مدرس مساعد - قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الموصل

ساعات جامعة بغداد على طبعه

مطبعة الارشاد
بغداد - ١٩٧٦

سياسة صلاح الدين الأيوبي

دريد عبد

تراجم
تكراري
٤
٣
٢٤

THE POLICY OF SALADIN IN GREATER
SYRIA, EGYPT AND AL-JAZEERA
570-589 A.H. / 1174-1193 A.D.

Athesis

Spbmitted to the Council of the College of Arts. Th
University of Baghdad in Partial Fulfilments of Maste
of Arts in Islamic History.

By

Dorayed Abdul Kader Noori

رقم تسلسل التعظيم (٨٦) للسنة الدراسية (١٩٧٥/١٩٧٦)

Baghdad — 1976

سعر النسخة (ديناران ونصف)

سياسة

صَلَحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ
فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ
٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣ م

وَرَبِّهِ عَبْدُ الْقَادِرِ نَوْرِي

سَاعَدَتِ جَامِعَةُ بَغْدَادَ عَلَى طَبْعِهِ

مطبعة الارشاد

بغداد - ١٩٧٦

الاهداء

الى القادر القاهر ..
الذي هيا لهذه الامة من وحدها .. ومن قادها لتحرير
اولى القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ،
ومعراج الرسول ومقر الانبياء (عليهم السلام)

اليه جل جلاله ..
واياه نسأل ، في محنة فلسطين هذه ، أن يهيىء لهذه
الامة ما هيا لها من قبل ، ويكتب لها النصر الذي
كتب .

اليه ترجع الامور ..



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يشكل 'عصر' الحروب الصليبية ، بالنسبة للشرق والغرب على السواء ، تجربة خطيرة مليئة بالحوادث والغطات ما زالت تتطلب المزيد من الدراسات والابحاث . ويعتبر 'عصر' صلاح الدين ، من اهم فترات الحروب الصليبية ، خاصة بالنسبة للشرق الاسلامي ، لما نلاقه اليوم من مخاطر تمثلت بالهجمات الاستعمارية والصهيونية ، على العالم العربي واحتلال فلسطين . ومما يجعل دراسة مسيرة صلاح الدين وجهاده وما واجهه من مشكلات وما قدم من حلول ، أمراً مفيداً وملهماً لابناء امتنا العربية ، ان صلاح الدين عاش في فترة تشابهت ظروفها وحوادثها مع وضعنا الراهن ، من نواح عديدة ، وأنه تمكن بفضل ما امتاز به من مقدرة سياسية وعسكرية أن يبعد للمنطقة العربية الاسلامية حريتها وامنها وأن يطرد الغزاة من معظم ما استولوا عليه من البلاد .

ورغبة مني في مشاركة أمتي في البحث عن حلول لمشكلاتها ومعايشة قضاياها المصيرية ، فقد اخترت موضوع رسالتي التي توضح كيف تمكن صلاح الدين من توحيد الامة وتحرير القدس على ذلك يفيد في تحريك ابناء الامة للعمل من اجل التحرير والوحدة في الوقت الحاضر .

وما زالت المكتبة العربية بحاجة الى كتاب يبحث في سياسة

صلاح الدين بحثاً كاملاً لأن أغلب المراجع العربية الحديثة تقريباً تقتصر على الجوانب العسكرية أو السياسية فقط في حياة صلاح الدين ، وربما أشارت إلى ذلك عرضاً في سياق حديثها عن العلاقة بين الشرق والغرب ، أو عن الحروب الصليبية عامة . أما البحث عن سياسة صلاح الدين الداخلية والخارجية ، وموقفه من الصليبيين والخلافة العباسية والحركة الاسماعيلية والأتاكية ، والنظم الاقتصادية والإدارية ، التي كان له الأثر الكبير في تطويرها مع دراسة كل هذه الجوانب على حدة ، فما زال في مراحلها الأولية . وهذا ما جرّاني على المساهمة في بحث هذا الموضوع الخطير .

عاش صلاح الدين في البيئة الزنكية ، وتعلم من سلطان الشام نور الدين محمود بن زنكي الكثير من فنون الحرب والسياسة ، كما شاهد عدة معارك واشترك بها ضد الصليبيين الذين كانوا يغرون على بعض مناطق الشام ، حتى أعجب به من رآه وتوقع له مستقبلاً زاهراً ، صحب عمه اسد الدين شيركوه إلى مصر ثلاث مرات . وفي المرة الثالثة تقلد شيركوه منصب الوزارة لدى الخليفة الفاطمي . ولم يمض على تعيينه سوى بضعة أشهر حتى توفي ، فانتخب من بعده صلاح الدين ، وكان ذلك سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م . وبعد مضي ثلاث سنوات اسقط الخلافة الفاطمية ، ثم أعقب ذلك وفاة نور الدين محمود . وكان لوفاته أثر كبير في إبراز شخصية صلاح الدين وتحديد العلاقة بينه وبين القوى التي كانت تتنازع من أجل الاستيلاء على منطقة الشام وهي : الحركة الاسماعيلية

والزنجيون والصليبيون والخلافة العباسية •

في تلك الفترة كانت منطقة الشام والجزيرة مفككة الاوصال ، ولم يكن بين رجال البيت الزنكي من امكنه ان يصبح خلفاً لنور الدين محمود ، وأن يحتل المكانة المرموقة التي توهله لقيادة الامة ، والتصدي للصليبيين ، الذين اصبح خطرهم يهدد أمن الشام وأهله •

وكان المشرق الاسلامي آثمذ ، يعيش استمرار ثورة فكرية ودينية وادبية ، تكونت استجابة للتحدي الذي أوجده الصليبيون إثر دخولهم الشام واحتلالهم البيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م وقتلهم وتشريدهم آلاف المسلمين • فكان جمهور المسلمين يشور ، بين الفترة والاخرى ، مطالباً حكامه بالتحرك السريع لازالة العدو وأن • غير ان ضعف الخلافة العباسية في بغداد ، وتفرق كلمة الامراء المسلمين واختلافاتهم الكثيرة ، من اجل الحفاظ على سلطانهم واماراتهم ، وتعاون بعضهم مع عدوهم ، اقتضى ظهور قائد قدير يتصدى للاوضاع الراهنة ويحتل مكانة نور الدين في مقاومة الاعداء •

وبفضل المواهب التي امتاز بها صلاح الدين ، تمكن أن يحتل مكانة نور الدين وان يستغل الظروف ، فقد استطاع ان يوحد بلاد مصر والشام والجزيرة ، وان يقود عساكر المناطق الموحدة لمحاربة الغزاة الصليبيين • ولم يمض سوى ثلاثة عشر عاماً من بدء كفاحه سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م حتى تمكن من تحرير القدس سنة

٥٨٣هـ / ١٨٨٧م ، ثم أُجبرَ أعداءه ، بعدَ مضي خمس سنوات ، على توقيع معاهدة سلامٍ والانسحاب من ارضِ الشام ، بعدَ فشل الحملة الصليبية الثالثة .

ومن المفيد ان اذكر ان دراسة عصرِ صلاح الدين ، لا تعني فقط دراسة جزء من تاريخ دولة من الدويلات الاسلامية التي ظهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين وهي الدولة الايوبية ، فحسب ، بل تعني دراسة قطاع من تاريخ الخلافة العباسية من جهة ، ودراسة تاريخ خاص لقائد من القواد المسلمين البارزين . ولعل اهمية عصرِ صلاح الدين لا تكمن في كونه عصرًا من عصور تلك الدويلات التي ظهرت في العصور الوسطى ، ابان ضعف السلطة المركزية ، ولا مجرد كونه مركزاً هاماً من مراكز الاشعاع الثقافي ، بل لكونه من العصور التي تشابهت وظروف عصرنا ، من جوانب عديدة ، وهذا مما قد يساهم في فهم مشاكلنا المعاصرة ، ويدفع بنا الى التعرف على العوامل التي جعلت صلاح الدين وجنده ، يقفون سداً منيعاً بوجه الغزو الصليبي الذي كان يستهدف القضاء على الوجود الاسلامي في منطقة الشام .

تشمل الرسالة على خمسة فصول ، خصص الفصل الاول لدراسة احوال المسلمين السياسية في القرن السادس الهجري واسباب الحروب الصليبية ، والاساليب التي اتبعها الصليبيون في الاستيلاء على المناطق الاسلامية . والبحث عن اصل صلاح الدين ونشأته ودخوله مصر ، وتقلده منصب الوزارة الفاطمية ، ثم

سيطرته على مقاليد الامور في مصر حتى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ليكون
هذا الفصل قاعدة الفصول الاخرى وركزتها •

اما الفصل الثاني : فقد بحث فيه سياسة صلاح الدين في
إعادة الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة في الفترة الواقعة
ما بين سنتي ٥٧٠ و ٥٨٢هـ / ١١٧٤ - ١١٨٦م • بعد أن اوضحت
اضطراب الاحوال السياسية بعد وفاة نور الدين واسباب تقدم
صلاح الدين الى الشام ، ثم تحليل موقف صلاح الدين من الموصلين
والحليين واهالي سنجار وآمد •

وفي الفصل الثالث بحث موقف صلاح الدين من القوى
الصليبية ، وعن اسباب محاربتهم ، وحملت المارك التي وقعت بين
الجانيين ، وبينت اهميتها ، كمعركة حطين مثلاً سنة ٥٨٣هـ /
١١٨٧م والتي كان فتح بيت المقدس من نتائجها • وقد وقفت قليلاً
على احوال القدس قبل الفتح وبعده ، والاعمال التي قام بها
صلاح الدين في القدس بعد فتحها ، وعن اول خطبة أُلقيت في
المسجد الاقصى بعد تحريره • وقد اعقب ذلك الحديث عن موقف
صلاح الدين من الحملة الصليبية الثالثة واسبابها ، وامكانيات
صلاح الدين في صد هجماتها • وعن العلاقة بين ريتشارد
وصلاح الدين واسباب عقد الصلح بين الجانيين واهمية ذلك
الصلح •

اما الفصل الرابع : فقد خُصص للبحث عن موقف صلاح الدين
من الحركة الاسماعيلية والخلافة العباسية • وقد قدمت للفصل

بعده صفحات عن تاريخ الاسماعيلية ليكون البحث وحدة متكاملة ،
يستطيع القارئ بموجها أن يتلمس الأسباب الخفية لظهور الحركة
الاسماعيلية ، وماهية اهدافها ، والعوامل الحقيقية التي دفعتهم
لمحاربة صلاح الدين .

وبحث في الفصل الخامس والاخير النظم الحضارية ، وسياسة
صلاح الدين الداخلية ، فتكلمت عن الكتابة والكتاب وعن القضاء
وعن موارد الدولة ومصرفاتها . وعن اهتمام صلاح الدين
بالمدارس والتعليم . وحللت العلاقة بين صلاح الدين وامرائه .
وكيفية ادارته للمدن والقلاع . وينتهي الفصل بالحديث عن الجيش
ونظم التعبئة والبحرية وانواع المراكب واهميتها .

ورغم أن البحث مغري ومفيد ، غير أنه واجهتني عدة صعوبات
كان من أهمها عدم معرفتي للغة الفرنسية ، التي كتب بها العديد
من الدراسات عن الحركة الصليبية الثالثة ، التي اشركت فيها فرنسا .
وقد تغلبت على هذه المشكلة بالاستعانة بالعارفين باللغة الفرنسية على
ترجمة النصوص المهمة .

اضف الى ذلك قلة ما وجد في المصادر التاريخية من معلومات
عن النظم الحضارية في عهد صلاح الدين ، وربما ندرتها . لاهتمام
المؤرخين بالجانب السياسي والعسكري لان عصر صلاح الدين شهد
تبدلات عسكرية وسياسية خطيرة ، كسقوط الدولة الفاطمية ووفاء
نورالدين ، وتبوء صلاح الدين قيادة المسلمين في مصر والشام وبلاد

الجزيرة وغيرها من المناطق ، وسقوط القدس ، وما حدث من
اصطدامات عسكرية بين صلاح الدين وقادة الحملة الصليبية الثالثة .
كل ذلك دفع بالمؤرخين الى نسيان الجانب الحضاري والثقافي ، أو
الاقبال من شأنه .

وثمة ملاحظات لا غنى عن تبيانها بصدور الطريقة التي اتبعتها

في البحث :

أولاً :- اتخذت جانب التحفظ عندما كنت 'أقتبس' رأياً تاريخياً معيناً ،
وكنت 'اسأل' هل 'تستطيع' تلك المصادر ان توصلني حقاً
وبدقة الى ما اريد ان أعلمه ؟ وهل ان تلك المصادر
تثبت 'صحة' ما أردت كتابته ؟

ثانياً :- لم اكف بنقل الروايات التاريخية من مصادرها ، بل كنت
ابحث ايضاً عن المصادر التي نقل عنها المؤرخ 'روايته' .
فمثلاً نقل المؤرخ 'ابو سامة' (ت : ٦٦٥ هـ) في حديثه عن
صلاح الدين ، الكثير من الروايات عن الاصفهاني وابن
الاثير وابن ابي طي . وهم مؤرخون لهم و'جّهات' نظر
مختلفة عن صلاح الدين .

فاين 'ابن ابي طي' شيعي المذهب . ومن المحتمل ان تكون
له وجهة نظر خاصة عن صلاح الدين الذي اسقط الدولة
الفاطمية الشيعية المذهب .

والاصفهاني كان وزير صلاح الدين وكتابه . اما

ابن الاثير فقد كان موصلياً الشيعة . كما سنرى فيما بعد -
وكان صلاح الدين قد حاصر الموصل عدة مرات . فهل
يا ترى يمكنُ لباحث أن يصل الى حقيقة تاريخية ، وهو
يشير فقط الى 'ابي شامة' كمصدرٍ لمعلوماته من دون ان
يذكر من اين استقى ابو شامة رواياته ؟ ولذلك حاولتُ
الرجوع الى المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون اللاحقون .
ثالثاً :- وعندما كنت ابحث عن الصيغة التي تجعلني اثق بما كتبت ،
كنت اتساءل : كيف اتمكن ان أثبت ما كتبتُه ؟ ومن
كل ذلك توصلت الى حقيقة أنه متى استطاع المؤرخ ان
يعرف ليس فقط ما كتب ، وانما لماذا كتب ، فإنه في طريقه
ليكون مؤرخاً ناقداً اضافة الى كونه مؤرخاً مدركاً . ولما كان
لكل مؤرخ ميوله ونزعاته ، التي ربما اثرت على كتابته .
لذلك دفعني هذا مسبقاً الى دراسة حياة كل مؤرخ ، وخاصة
اولئك المعاصرين لصلاح الدين . لا تلمس من ذلك موقفه
من صلاح الدين ، ولا كون على حذرٍ عندما اقتبس
روايته .

رابعاً :- ورد في البحث ذكر العديد من أسماء المعارك أو الحوادث
التي لا تعتبر من صميم البحث وقد اشرت اليها اشارة
سريعة ، واكتفيت بذكر محدد من المصادر ذات العلاقة في
الهوامش لتكون دليلاً لمن أراد الاستزادة في البحث عنها .
وأخيراً يطيب لي أن أسجل شكري وعرفاني لاستاذي

محمد توفيق حسين الذي تمت هذه الرسالة تحت إشرافه ،
وليس من بذكر لي عوناً من اساتذة جامعتي بغداد والموصل .
وختاماً لا ادعي كمال بحثي هذا ، وارجو أن أكون قد وفقت ،
ولو بعض التوفيق ، فيما سعت من أجله . والله تعالى ولي
التوفيق .

بغداد - محرم الحرام ١٣٩٦هـ

كانون الثاني ١٩٧٦م

دريد عبدالقادر

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة الموصل

تحليل المصادر والمراجع

أ - المصادر العربية المعاصرة لصلاح الدين :

ادرك عصر صلاح الدين عدد من المؤرخين والرحالة ، وهم قسمان :
قسم خصص فلمه للكتابة عن صلاح الدين وعصره وأشار اليه القسم الثاني
في سياق تأريخه للحوادث ، أو حين مروره في الشام . ونظرا لاهمية
المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين ، الذين هم الركيزة الاولى في كتابة هذه
الرسالة ، رأيت ان اتناولهم بالنقد والتحليل وهم حسب سنوات وفاتهم :

١ - عمارة اليميني^(١) (ت : ٥٦٩هـ)

شيعي المذهب ، تعاون مع اتباع الدولة الفاطمية للقضاء على صلاح الدين
بعد اسقاط الخلافة الفاطمية . غير ان المؤامرة نشلت واعدم عمارة . قدّم
في كتابه « النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية » معلومات قيمة عن
مصر قبل دخول الايوبيين اليها . وخاصة ما كان يدور بين الوزراء من
نزعات للسيطرة على الوزارة ، فقد شاهد عمارة دخول صلاح الدين لمصر
سنة ٥٦٤هـ وكيف أعاد الوزير شاور الى الوزارة . كما قدم معلومات
جيدة في معرفة أسباب عودة صلاح الدين وعمه شيركوه الى الشام بعد
وصولهم الى مصر ، وكان عمارة شاهد عيان لدخول صلاح الدين لمصر في
المرّة الثالثة ، وسجل كل ما شاهده بنفسه ، واثرت تلك الحملة في ايقاف
الاعمال التخريبية التي قام بها الصليبيون في مدينة بليس والفسطاط^(٢) .
وبصورة عامة فعمارة لم يكن ممن ارخ لصلاح الدين تأريخا كاملا ،

(١) سوف اشير فقط الى شهرة المؤرخ ، تحاشيا للتكرار ، ونلفت
النظر الى ان الاسم ورد كاملا في قائمة المصادر والمراجع .

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات (البصرة : ١٩٦٧) م ٤ : ٢٥/١ ؛
بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة : ١٩٥٤) : ١٣١ .

انما ذكر شيئاً من اخباره في سياق حديثه عن الوزارة والوزراء الفاطميين ،
وقد اعتمدت على بعض ما كتبه فيما نقله الينا أبو شامة في الروضتين •

٢ - الرحالة بنيامين (ت : ٥٦٩هـ)

يهودي العقيدة ، زار منطقة الشام وكتب ما شاهده في رحلته •
وقدم معلومات قيمة عن احوال الشام السياسية والعسكرية قبل تسلم
صلاح الدين زمام الامور فيها غير ان قيمة الرحلة تكمن في ما قدمته من
معلومات نادرة اوضحت العلاقة الحقيقية بين الحركة الاسماعيلية واليهود ،
فقد اوضح بنيامين ، وهو اليهودي العارف بأحوال اليهود أكثر من غيره ،
بأن أربعة آلاف يهودي كانوا يعملون ضمن نطاق الحركة الاسماعيلية ،
وانهم كانوا يتنقلون معهم في الجبال ، وان راس الجالوت ببغداد كان
يرسل العلماء اليهود لمساندة تلك الحركة^(١) • وفي هذا ما يوضح القاعدة
والاهداف التي كانت عليها الحركة الاسماعيلية ، وأسباب مقاومتها
لصلاح الدين والخلافة العباسية ، وأسباب محاربة المسلمين السنيين لها •

٣ - ابن ابي طيء ولد سنة ٥٧٥هـ

يحيى ابن النجار ، كان والده من أعيان الشيعة في حلب^(٢) • ارخ
للسلطانين نورالدين وصلاح الدين ، وأعطى مدينة حلب قدرا ملحوظا من
اهتمامه ، له عدة مؤلفات^(٣) ، وقد اتبع طريقة الحوليات في الكتابة
التاريخية • وقد ظهرت ميوله واضحة في كتابته ، وخاصة في تصوير

(١) رحلة بنيامين (بغداد : ١٩٥٤) : ١٥٣ - ١٥٤ •

(٢) أبو شامة ، شهاب الدين ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية
والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٧هـ) : ١٧٤/١ •

(٣) للاطلاع على مؤلفات ابن ابي طيء التاريخية انظر :

Cahen, La Syrie du nord a l'epoque des Croisades (Paris,
1940), P. 55.

مساندة الشيعة في حلب للملك الصالح بن نور الدين ، بأنها كانت معارضة تمثل أهالي حلب جميعا . بينما كانت الحقيقة بعيدة عن ذلك . اذ كان أهالي حلب السنيون ، وهم كثير ، مستبشرين بقدوم صلاح الدين كما سيتبين ذلك في الفصل الثاني .

غير ان ابن أبي طي ، في المواقف الاخرى التي لا تمس الشيعة انزارية ، كان يقف موقفا معتدلا من صلاح الدين . فقد علل مثلا أسباب انسحاب صلاح الدين من حصار مصياف - مركز حصون الاسماعيلية في الشام - بأنه كان لأسباب سياسية وعسكرية ، لهجوم الصليبيين على بعض مدن الشام الاسلامية^(١) ، وهو تعليل معقول .

اما مصدر اعتمادي على روايات ابن أبي طي : فكان كتاب الروضتين لأبي شامة ومصادر أخرى .

٤ - أسامة بن منقذ (ت : ٥٨٤هـ)

قدم في كتابه « الاعتبار » الذي هو من كتب السيرة الذاتية والمذكرات ، ما كان يشاهده في حياته اليومية من أخلاق الصليبيين ومعاملتهم للمسلمين . وقد أشار الى صلاح الدين عرضا ، وامتدحه واعتبره محي سنة الخلفاء الراشدين ، وأنه صلاح الدنيا والدين^(٢) . وفي هذا ما يوضح سياسة صلاح الدين وخلقته .

٥ - القاضي الفاضل (ت : ٥٩٦هـ)

محي الدين العسقلاني ، كان متولي ديوان المكاتبات في العهد الفاطمي ، ولما تولى صلاح الدين الامر بالقاهرة ، قرب به اليه لحسن خلقه ومقدرته في الكتابة ، حتى أصبح وزيرا للسلطان يتنقل معه حيثما ذهب . وكان

(١) انظر : الروضتين : ٢٦١/١ .

(٢) كتاب الاعتبار (برنستون : ١٩٣٠) : ١٦٤ ، ١٦٥ .

صلاح الدين يستشيرهُ حتى في الامور الشخصية^(١) . ولهذا فان ما كتبه من رسائل ومنشورات وكتب تعتبر ذات قيمة تاريخية كبيرة .

اعتمدت على كثير من تلك الكتب والرسائل ، التي كان يرسلها للامراء بتوقيع صلاح الدين . وقد افادني في معرفة الكثير من جوانب سياسة صلاح الدين وأهدافه العامة . وكان مصدر اعتمادي على ما دونه الفاضل ، فيما ورد من نصوص في كتاب الروضتين لابي شامة ، ووفيات الاعيان لابن خلكان وغيرهما .

٦ - ابن الجوزي (ت : ٥٩٧هـ)

قدّم ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في أخبار الملوك والامم » وهو من كتب التواريخ العامة ، معلومات مفيدة ، غير انها مختصرة ، وربما اقلت بعض الاضواء على حقيقة العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين وموقف صلاح الدين من الاسماعيلية .

٧ - الاصفهاني (ت : ٥٩٧هـ)

عبدالله محمد بن محمد كان من كتاب عصره المشهورين ، يتميز اسلوبه ، واسلوب القاضي الفاضل ، بالاسراف في المحسنات اللفظية والصياغة البديعية ، غير ان تأليفه كان يحوى الكثير من الروايات التاريخية الممتازة التي تستحق العناية لان مؤلفها شاهد وعاصر الاحداث بنفسه ، ثم سجلها باسلوبه الادبي ، الذي اتعبنى كثيرا في استخلاص الحقيقة من تحت ركाम الصنع الادبية والتفنن البياني .

ومن الخطأ أن نقول ان تأليف الاصفهاني عن صلاح الدين - على ما وجد فيها الكثير من المدح - كانت احدى وسائل الاعلام والدعاية

(١) انظر الروضتين : ٢/١٦٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ .

للسلطان ليس الا • ذلك لان صلاح الدين باجماع المصادر ، كان رجل عصره وهو مثال القائد الذي حرك ابناء جيله نحو محاربة الغزاة ، ولذلك فان مدح الاصفهاني له كان نابعا من ايمانه العميق بوصف حقيقة ما كان عليه صلاح الدين ، وليس الدعاية له •

كان الاصفهاني من كتاب ووزراء نورالدين محمود • ولما توفي نورالدين سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م انتقل الاصفهاني الى خدمة صلاح الدين • والسبب في ذلك يكمن - كما ذكر الاصفهاني نفسه في البرق الشامي - انه « لما توفي نورالدين احتل أمري واعتل سري ، وفاض دمعي ، وغاص بحري وعلت حسادي وبلغ مرادهم اضدادي »^(١) وهذا ما يدفع الى ان نأخذ بتحفظ ما كتبه الاصفهاني عن الزنكيين بعد وفاة نورالدين •

وقد استخدم الاصفهاني في كتابته صيغة جمع المتكلم • فكان حينما يحدثنا عن حركات صلاح الدين العسكرية والتي كان الاصفهاني الى جانبه فيها يقول « واشرفنا على جبله » ، « ورحلنا ظهر يوم كذا »^(٢) • وقد علل المستشرق جب أسباب استخدام صيغة الجمع فقال : « لا تجوز نسبة هذه الى الغرور والاعتداد بالنفس ، بل الى عاداته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين »^(٣) • والحقيقة ان الاصفهاني عندما يحدثنا بتلك الصيغة ، لم يقصد بها الكلام عن ذاته ، انما كان يعني العسكر الايوبي ككل ، وهو أحد أفرادهم ، فاذا ما ذكر « واشرفنا » فالمراد بها صلاح الدين وجنده والاصفهاني • وليس في هذا ما يثير النقد • وقد الف الاصفهاني

(١) البنداري ، قوام الدين ، سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن (بيروت : ١٩٧١) : ١ / ١٥٩ •

(٢) الاصفهاني ، عمادالدين ، الفت القسي في الفتح القدسي (ليدن : ١٨٨٨) : ١٣٦ ، ١٤٣ •

(٣) صلاح الدين الايوبي ، تحرير يوسف أيبش (بيروت : ١٩٧٣) : ١٠٥ •

خمسة كتب في التاريخ ، والذي يعني منها ما كان له علاقة بمادة
بحثي وهي :-

أ - كتاب البرق الشامي : تحدث فيه الاصفهاني عن نفسه ، وتاريخ
نشأته ورحلته من العراق الى الشام وخدمته السلطانين نورالدين
وصلاح الدين وأسباب الانتقال الى خدمة صلاح الدين ، وحقيقة العلاقة
بين الزنكيين والايوبيين . ويغلب على هذا الكتاب طابع المذكرات
الشخصية . فقد وصف فيه ما شاهده بنفسه أثناء مصاحبته لصلاح الدين
من طرقات واهرامات بالقاهرة ، وخاصة وصف هرم أبو الهول^(١) . ويقع
الكتاب في سبع مجلدات لا يوجد منها سوى الجزء الثالث الموجود الآن في
مكتبة بودلين بجامعة اكسفورد رقم ١١ Bruce والجزء الخامس الموجود
بنفس المكتبة تحت رقم ٤٢٥ Marsh^(٢) .

وقد اعتمدت على مادة هذا المصدر فيما نقله لنا أبو شامة في
الروستين . بالاضافة الى المختصر الذي الفه البنداري (المتوفى سنة
٦٤٣هـ) المحقق من قبل الدكتور رمضان ششن (بيروت ١٩٧١) والذي
اطلق عليه اسم « سنا البرق الشامي » . وقد جمع هذا الكتاب الكثير من
روايات البرق الشامي ، وافادني كثيرا في معرفة العلاقة بين صلاح الدين
ونورالدين ، كما القى هذا المختصر أضواء كثيرة على بعض الجوانب
الحضارية لعصر صلاح الدين .

ب - كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي : وهو المصدر الثاني
المهم الذي اعتمدت عليه . وقد شرع الاصفهاني بتأليفه بعد وفاة
صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م واقتصر فيه على ذكر فتوحات صلاح الدين

(١) انظر سنا البرق الشامي : ٢٣٦/١ - ٢٣٨ .

(2) Cahen, op. cit., P. 55.

مبتداء من سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م • وقد حوى هذا المصدر سجلا كاملا بأعمال صلاح الدين وتحرّكاته العسكرية والسياسية ، وأسباب استمراره بالحرب مع الصليبيين ، والاسباب التي دفعته لوقف القتال وعقد معاهدة السلام • كما أفادني هذا المصدر في معرفة وسائل الصليبيين التي استخدموها في حرب المسلمين ، وخاصة استخدامهم الجنس كسلاح ثان الى جانب الاسلحة المادية^(١) •

ج - خريدة القصر وجريدة العصر : وهو كتاب أدبي جمع الكثير من القصائد الشعرية وأسماء الشعراء الذين عاصروا صلاح الدين ومدحوه ، أو وصفوا أعماله شعرا • وقد أفادتني تلك القصائد في معرفة موقف الشعب المصري من صلاح الدين بعد اسقاطه الخلافة الفاطمية وموقف أهالي دمشق من صلاح الدين بعد دخوله مدينتهم سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م • كما أفادني تلك القصائد في معرفة الحركة الادبية التي تزعمها الشعراء لدفع الناس الى تحرير القدس^(٢) •

٨ - ابن مماتي (ت : ٦٠٦هـ)

قدم ابن مماتي في كتابه « قوانين الدواوين » مادة قيمة في معرفة النظم الاقتصادية وما كانت عليه أحوال مصر الزراعية والاقتصادية قبل استلام صلاح الدين الامر وبعد ذلك مما أفادني في استنتاج دور صلاح الدين في تطوير تلك النظم • هذا بالاضافة الى ان الكتاب يعرف الكثير من المصطلحات الاقتصادية مثل « مال الجوالي » ، « ضريبة المتجر » ... الخ وفي الكتاب معلومات قيمة عن مقدار الضرائب التي كانت تؤخذ من

(١) انظر الفتح القسي (ليدن : ١٨٨٧م) : ٢٢٨ - ٢٢٩ •

(٢) انظر مثلاً خريدة القصر وجريدة العصر (دمشق : ١٩٦٨)

القسم الثالث : ٢٧٧/١ •

المزارعين والتجار الأجانب ونظرا لأن ابن مماتي كان يعمل في الدواوين المصرية ، لذلك فإن المعلومات التي قدمها ثمينة لأنها صادرة عن ذي خبرة وممارسة^(١) .

٩ - ابن جبير (ت : ٦١٤هـ)

اندلسي المولد والنشأة ، غادر موطنه ثلاث مرات بطلب الرحلة . وقد كتب في رحلته مذكراته الشخصية التي دونها مما شاهده بنفسه . والرحلة غير مخصصة للكلام عن صلاح الدين . غير ان بعض صفحاتها كانت في الحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبعض المدن التي زارها في منطقة الشام والجزيرة على عهد صلاح الدين وقد عكست تلك الصفحات سياسة صلاح الدين العامة .

رحل ابن جبير الى الشام لزيارة القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وشاهد بعينه هيثة العسكر الاسلامي ، وبعض المعارك التي خاضها ضد الصليبيين ، وفي أثناء قيامه برحلته دخل عددا من الحصون الاسلامية التي كان الصليبيون قد استولوا عليها فوصفها ، ودون ما شاهده عن الحياة التي كان يعيشها الاسير المسلم وكيف كان يرسف بالقيود والاغلال . كما شاهد ابن جبير بعينه الاسرى الصليبيين الذين كانوا قد اغاروا على منطقة الحجاز وهددوا المدينة المنورة^(٢) .

١٠ - ابن شاهنشاه (ت : ٦١٧هـ)

من أقرباء صلاح الدين اذ كان والده ابن أخيه وكان اثيرا عنده ، حتى انه ولاء ادارة الكثير من المدن وكلفه تربية ولده الملك عثمان . وبعد وفاة معين الدين والد ابن شاهنشاه - سنة ٥٨٧هـ ابقى صلاح الدين ابن

(١) انظر مثلا : قوانين الدواوين : ٣٢٥ - ٣٢٦ ، ٣٥٤ .

(٢) انظر : رحلة ابن جبير : ٢٥٩ .

شاهنشاه على ولاية ما كان بيد والده من مناطق وهي : حماة والمعة وسليمة ومنبج وقلعة نجم^(١) . وفي مدة بقاء ابن شاهنشاه في حماة اشترك سياسيا وعسكريا في الحرب ضد الصليبيين والى كتاب « مضمار الحقائق وسر الخلائق » وقد بدأ فيه بذكر الاحداث منذ سنة ٥٧٥هـ حتى سنة ٥٨٢هـ .

يقدم الكتاب مادة تاريخية قيمة عن علاقة صلاح الدين بالصليبيين ، وعن علاقته بالبيت الزنكي وسبب محاصرته لكل من سنجار والموصل . وتكمن قيمة تلك الروايات في كون مؤرخها قد عاصر الاحداث بنفسه هو ووالده . ورغم قيمة المادة التاريخية وصدقها ، غير ان الكتاب لم يعزل من بعض المبالغة ، فقد كان ابن شاهنشاه يمدح والده ويرجع سبب الانتصارات اليه ، حتى انه بلغ من شدة اعجابه بوالده ان صور صلاح الدين لا يقدم على عمل الا بمشورته^(٢) .

١١ - عبد اللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩هـ)

رحالة الف كتاب « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة من ارض مصر » . زار منطقة الشام في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين في عز انتصاراته بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م . ولما سمع باكرام صلاح الدين للعلماء ، وكان اذ ذاك بالموصل ، سافر الى دمشق ، ثم توجه الى فلسطين ، ودخل العسكر الاسلامي واحتلط بالجيش الايوبي بظاهر مدينة عكا . وقد وصف لنا وصفا علميا دقيقا حالة السوق الذي كان يرافق العسكر وطرق التموين . كما نقل الينا صفة صلاح الدين

(١) انظر مقدمة المحقق الدكتور حسن حبشي صفحة رقم (و) : ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيبال (القاهرة : ١٩٥٧) ٣٧٩/٢ .

(٢) انظر : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ .

بعد دخوله القدس وكيف كان العلماء والأمراء يجتمعون حوله ويتدارسون
أُمور المسلمين^(١) . وكان مصدر اعتمادي على روايات البغدادي مما نقله
المقرئزي في كتابه السلوك وبعض المراجع الأخرى .

١٢ - عز الدين ابن الأثير (ت : ٦٣٠هـ)

يعتبر كتابه الكامل في التاريخ من كتب التواريخ العامة ، ذات القيمة
الممتازة وقد ذكر فيه تاريخاً كاملاً للدولة الزنكية والايوبية . ونظراً لكونه
موصلي البيئة ، ويعمل في الإدارة الزنكية ، لذلك فإن ما قدمته من معلومات
عن الزنكيين كان كبيراً ودقيقاً لم تشر إلى بعضه المصادر الأخرى .

وفيما يخص الحديث عن صلاح الدين ، فإن ابن الأثير لم يكن
متجرداً من العواطف الذاتية بالكلية فهو يلقي شيئاً من الريبة والشك على
سياسته التي اقتضت وحدة البلاد وانضمام اتابكة الجريزة وسنجار وحلب
إليه لمحاربة الصليبيين . ويشوه إلى حد ما هذه السياسة فقد علل كلا
أسباب انسحاب صلاح الدين في حصار قلعة صياف لخوفه من مقدم
الاسماعيلية سنان^(٢) . كما علل أسباب فتح صلاح الدين لليمن ، لاتخاذها
مدجاً له في حالة محاربة نورالدين له . وفي الكلام عن إسقاط الخلافة
الفاطمية يرى ابن الأثير أن صلاح الدين « كان يكره قطع الخطبة لهم
خوفاً من نورالدين فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها
منه ، فكان يريد أن يكون العاضد معه ... »^(٣) . ومعنى هذا أن العلاقة
بين صلاح الدين ونورالدين كانت سيئة ، وأن صلاح الدين لم يكن يرغب
باسقاط الدولة الفاطمية ، وإنما أجبر على ذلك . وتفسير ابن الأثير هذا

(١) انظر مثلاً : السلوك (القاهرة : ١٩١٤) ق ١ : ٩٤/١ .

(٢) انظر : الكامل : ٤٣٧/١١ .

(٣) الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٦) : ٣٦٨/١١ .

بعيد عن الحقيقة التاريخية لأن صلاح الدين سواء بحم عقيدته السنية ، أو بدافع الرغبة في السيطرة والاستقلال ، كان يرغب في ازالة الدولة الفاطمية • وقد دلت أعماله على ذلك قبل اسقاطه للخلافة الفاطمية كما سوف يتبين ذلك في الفصل الاول •

وفي الحرب التي خاضها اتابك الموصل سيف الدين غازي ضد صلاح الدين سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م وانهزاه منها • يحاول ابن الاثير ان يتلمس الاعذار لجند الموصل واتباعهم ، فيضع تبعية الخسارة على عاهل القائد الزنكي (عز الدين زلفندار) فيتهمه بالجهل بتدبير أمور الحرب ، وبأنه وضع اعلام الموصلين في وهدة من الارض • ولما لم يرها الناس ظنوها انهزام القيادة الزنكية فانهزموا أمام العسكر الايوبي^(١) • ولو تفحصنا الكامل لوجدنا ان ابن الاثير كان يكره زلفندار كثيرا ويتحایل عليه ، ولذلك وضع عليه تبعية الخسارة^(٢) •

وتظهر نزعة ابن الاثير الموصلية المتطرفة ، وتعصبه الواضح لها عندما يتحدث عن حصار صلاح الدين للموصل الاول سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ • حيث اضاف على أهالي البلاد نوعا من البطولة والقدرة العسكرية ، بحيث انهم كانوا يضربون قائد جند صلاح الدين من أعلى السور باللائكة (أسفل الحذاء) فيصويوه بها • وما ذلك الا لاهانة العسكر الايوبي ، ثم يتمادى ابن الاثير بسرد قصة اللائكة وكأنه كان حاضرا في مجلس صلاح الدين فيقول : ذهب قائد جند صلاح الدين المدعو (جاولي الاسدي) الى صلاح الدين ورمى أمامه اللائكة ، وحلف انه لا يقاتل أهل الموصل أنفة

(١) انظر : الكامل : ٤٢٨/١١ •

(٢) للاطلاع على احكام ابن الاثير في زلفندار التي يستبان منها حقده عليه انظر : الكامل : ٤٠٧/١١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ •

حيث ضرب بهذه • علما بان ابن الاثير كان في تلك الاوقات محاصرا داخل الموصل • ثم يتحدث ابن الاثير عن المواصله فيقول : كانوا ينصبون تسعة مجانيق أمام استجنيق الايوبي الواحد ، وانهم استمروا في القتال ولم يرضوا بالتنازل حتى اضطر صلاح الدين الى فك الحصار • والحقيقة ان صلاح الدين ترك حصار البلد ، لانه فضل فتح سنجار أولا ثم العودة الى محاصرة الموصل ثانيا ، خاصة وان الخليفة العباسي لم يكن قد منحه تقليد الموصل بعد •

وفي حصار الموصل الثاني سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م كان ابن الاثير احد المشاركين في الدناح عن المدينة ضد صلاح الدين • ولذلك فلا غرابة ان يهاجم ابن الاثير صلاح الدين بقلمه اذا كان يهاجمه بسلاحه • فيصور ضعف المواصله في الدفاع عن مدينتهم ، وارسالهم النساء بالتوسط لدى صلاح الدين لاختذ الامان منه ، بأنه لم يكن يدافع الجبن والخوف من صلاح الدين ، انما لدفع الشر ليس الا • علما بان مجرد وصول العسكر الايوبي الى اسود الموصل وعدم خروج المواصله لحربهم ، وارسالهم الرسل الى بغداد للتوسط لدى صلاح الدين ••• لهي أدلة عملية على عدم مقدرة المواصله على مواجهة أعدائهم ، لعلمهم يقينا بأنهم الاضعف قوة والاقول جندا وناصرا^(١) •

وتستبان مشاركة ابن الاثير عواطف أبناء الموصل تجاه صلاح الدين ، ان لم اقل تحامله عليه ، مما ذكره عن مرض صلاح الدين في رمضان من سنة ٥٨١هـ ، في وقت كان فيه صلاح الدين مصمما على استمرار حصار الموصل ، واجبارها للدخول في الوحدة لتحرير القدس ، فهو يقول : « فينما الرسل تتردد في الصلح اذ مرض صلاح الدين فامنت الدنيا ،

(١) انظر : الكامل : ٥١٢/١١ ، ٢١٥ - ٥١٦ •

وسكنت الدهماء ، وانخسمت مادة الفتن «^(١) . وكأن صلاح الدين هو السبب في كل ما كان يحصل من اضطرابات في منطقة الشام والجزيرة !! .

وفي تعليل دخول صلاح الدين لمدينة سنجان ، يصور ابن الاثير ان القوة الايوبية لم تستطع دخول البلد لولا تواطؤ بعض الامراء الاكراد من الداخل مع صلاح الدين ، وانه لو قاتل أمير سنجان صلاح الدين لخرجه من البلد ، ولو امتنع بالقلعة لحفظها^(٢) . وابن الاثير في كل هذا واهم لان امير سنجان لم يمتنع بالبلد ، الا لان اعيان سنجان طلبوا الانضمام الى صلاح الدين ، حتى انهم خرجوا للقائه مستبشرين فأبقاهم في مناصبهم الادارية^(٣) . ثم لو امتنعوا عليه ، فانه لم يكن بمقدورهم مقاومة القوة الايوبية . هذا وان المؤرخ ابن شاهنشاه الذي كان من الامراء المحاصرين لسنجان ، لم يشر أية اشارة الى وجود تعاون بين أكراد سنجان وصلاح الدين^(٤) .

اما اسلوب ابن الاثير في الكتابة ، فقد كان سلسا بسيطا ، اتبع طريقة الحوليات وذكر الاحداث التي تقع بيوم وشهر بشهر وسنة بعد أخرى . غير انه استخدم أحيانا عبارات التعظيم للامر والتفخيم له ، مما يلبس على القارئ البسيط معرفة حقيقة الامر . فمثلا عندما يتحدث عن نجاة صلاح الدين من الاسماعيلية ، عندما أرادوا قتله سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م يقول ابن الاثير : « وركب صلاح الدين كالمذعور لا يصدق بنجاته »^(٥) . وعند

(١) الكامل : ٥١٧/١١ .

(٢) الكامل : ٤٨٧/١١ .

(٣) انظر : مضممار الحقائق وسر الخلائق : ١١١ .

(٤) نفس المصدر والمكان السابق .

(٥) الكامل : ٤٧٠/١١ .

انهزام سيف الدين غازي امام صلاح الدين يقول : « وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو » ، (١) .

كما كان يستخدم حرف (لو) في أغلب تحليلاته للمواقف التاريخية ، وهذا مما يبعد صفة العلمية عن تلك التحليلات كان يقول : « ولو ان المسلمين لزموا القتال الى الليل لبلغوا ما أرادوه » (٢) ، « ولو قاتل على تلك الناحية ... » (٣) .

اما مصادره في الكتابة عن صلاح الدين ، فكانت ما يشاهده بنفسه ، أو ما يسمعه من معاصرين شهدوا الحوادث بانفسهم أو سمعوها ، وكثيرا ما كان يستخدم الاسناد المجهول كأن يقول : « بلغني من خير باحوال صلاح الدين » (٤) ، « وبلغني ان كذا » (٥) ، « وهذا ما سمعته من اكثر من واحد » (٦) ، « وحدثني من اثق به » (٧) ، « وحكي لي بعض اصحابنا » (٨) . وربما يذكر أحيانا مصدره فيقول : « فحكي لي عن الملك الافضل » (٩) ، « حكي لي طيب نور الدين الرحبي » (١٠) .
ومع كل ما وجد في كتاب الكامل من سليات ، فقد كان بالنسبة لي

(١) الكامل : ٤٢٨/١١ .

(٢) الكامل : ٣٥/١٢ .

(٣) الكامل : ٤٨٧/١١ ، وانظر الصفحات التالية من الجزء

٣٤/١٢ ، ٣٩ ، ٧٠ .

(٤) الكامل : ٥٢٤/١١ .

(٥) الكامل : ٣٦٢/١١ ، ٥١٨ .

(٦) الكامل : ٣٦٠/١١ .

(٧) الكامل : ٧٦/١٢ ، ٨٨ .

(٨) الكامل : ٨٢/١٢ .

(٩) الكامل : ٥٣٦/١١ .

(١٠) الكامل : ٤٠٢/١١ .

من المصادر المهمة والاولية التي اعتمدت عليها ، نظرا للمادة الغزيرة التي قدمها ، والتي كان من معاصريها • ونظرا لكونها اعطت وجهة النظر الزنكية المخالفة للوجهة الايوبية ، وخاصة فيما يخص العلاقة بين صلاح الدين والزنكيين • وهذا الاختلاف الحاصل في ايراد الروايات التاريخية يدفع الى المزيد من التحري عن الروايات اصادقة للوصول للحقيقة عن طريق نقدها ، ومعارضة بعضها ببعض • ولو لم يكتب لنا ابن الاثير (الكامل) لضاعت علينا حقائق كثيرة • ومن الجدير بالذكر ان ابن الاثير ميّز بين النصارى والفرنج • فاطلق اسم النصارى على كل من يدين بالنصرانية في المشرق الاسلامي • بينما اطلق اسم الفرنج على كل النصارى القادمين من الغرب لمساندة نصارى المشرق في حربهم للمسلمين^(١) • وقد اعتمدت تقسيم ابن الاثير هذا ، غير اني اطلقت اسم الصليبيين بدلا من الفرنج •

اما الكتاب الثاني الذي اعتمدت عليه فكان « الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية » الذي الفه للأسرة الزنكية • وقد تحدث في هذا الكتاب أيضا عن صلاح الدين في خلال حديثه عن علاقة تلك الاسرة بالايوبيين • غير ان ابن الاثير لم يضيف جديدا الى ما ذكره عن صلاح الدين في « الكامل » بل لقد اختصر كل ما ثبت انتصار صلاح الدين على الزنكيين وحاول ان يشير اليه عرضا • غير ان الكتاب قدّم معلومات كثيرة عن أفراد البيت الزنكي وتقييم كل واحد منهم •

١٣ - بهاء الدين يوسف ابن شهاب (ت : ٦٣٢هـ)

موصلي البيئة ، غير انه يتخلف عن ابن الاثير في ان نزعه الموصلية لم تؤثر على كتابته • كان يعمل لدى اتابكة الموصل ، وقد كلفوه مهمة القيام بالسفارة الى صلاح الدين بعد فتح القدس سنة ٥٨٣هـ • ولما وصل

(١) انظر الكامل : ٥٥٣/١١ •

الى صلاح الدين ، اعجب به لدينه ، وصدق ومقدرته في الكتابة ، فابقاه الى جانبه ، وكان ابن شداد نفسه قد مال الى صلاح الدين واحبه لحبه في الجهاد . فخدمه بصدق والى له كتابا في الجهاد وفنونه كما الف كتابا آخر بحث فيه سيرة صلاح الدين كاملة وبصورة مركزة أسماء « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » . وقد افادني كثيرا في معرفة الصورة الحقيقية لشخصية صلاح الدين وسياسته ، وما كان يهدف اليه . لان ابن شداد كان ملازما لصلاح الدين ومرافقا له . كما ان كتابته تميزت بالصدق والحياد . فلم يكن متحزبا للزنكيين أو لصلاح الدين ، ولم يكن يهمله سوى ذكر الحقيقة .

ومما هو جدير بالذكر ان للكتاب عدة طبعات ، وقد اعتمدت (طبعة القاهرة ١٩٦٤) لمحققها الدكتور جمال الدين الشيال ، نظرا لدقتها ووضوحها والهوامش العلمية الكثيرة التي زينها بها المحقق ، خاصة تلك التي أشار فيها المحقق الى اهمية النص التاريخي الذي اورده ابن شداد ، أو تلك التي تشير الى ان مصدرها كان سماعا أو مشاهدة أو مشاركة كأن يقول : « هذا النص يشير فيه المؤلف الى انه يروى عن مشاهدته أو مشاركة »^(١) . هذا بالاضافة الى ان المحقق شرح الكثير من الكلمات والمصطلحات التي كانت بحاجة الى الشرح والايضاح .

ب - المصادر الصليبية المعاصرة لصلاح الدين :

عاصر صلاح الدين عدد من المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عنه ، خلال تأريخهم للحوادث الصليبية وكانت ايجابياتهم عن صلاح الدين ذات قيمة تاريخية كبيرة لان ما يضمن الحقيقة ويلفت النظر اليها ، انها صادرة

(١) انظر مثلا : النوادر السلطانية : صفحة (١٤) هامش (٥) :

صفحة (١٧) هامش (٣) ؛ صفحة (١٩) هامش (٢) .

من الاعداء • وقد اعتمدت على بعض اولئك المؤرخين بصورة غير مباشرة ، عن طريق اخذ بعض النصوص المهمة مما نقله الينا بعض المؤرخين المحدثين منهم ، كلود كاهن ، روزبلت ، شامبدور ، رنسيمان ، هارولد لامب ، سعيد عبدالفتاح عاشور ومن اولئك المؤرخين المعاصرين لصالح الدين هم :-

١ - وليم الصوري : كان على عهد الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وقد عاصر صلاح الدين قبل معركة حطين ، وشهد سقوط القدس بيده ، وذهب لبعض الدول الاوربية لاستنفا رجالها في سبيل اعادة البيت المقدس للنفوذ الصليبي • وقد الف كتابا هو عبارة عن مذكرات شخصية اسماه :

Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum (١)

٢ - الشاعر امبروز : شهد بعينه المعارك الدائرة حول عكا بين صلاح الدين والصليبيين سنة ١١٨٦م وحديثه لا يخلو من صدق بعيد عن التعصب • فقد وصف لنا شعرا قوة العسكر الايوبي وتعاون أفراده وصلابة مقاومتهم ، رغم اختلاف قومياتهم وطول نفسهم في القتال ، بحيث لم يدعوا للصليبيين وقتا للراحة أو لتناول طعامهم ، وانهم كانوا يقاتلون ليل نهار • كما قدم معلومات قيمة عن أسباب الخلاف الذي وقع بين الصليبيين انفسهم ، وسبب تولي ريتشارد قيادة الصليبيين في الشام وانسحاب الافرنسيين الى فرنسا • وقد دوّن احداث العرب الصليبية الثالثة في شعر منظوم عنوانه : *L'Estoire de la Guerre Sainte* (٢) •

(1) Look: Cahen, op. cit., PP. 7-17; Runciman, A History of the Crusades, 11, P. 379; Ency Britanica, Vol, 10 (Art. W. of Tyre) P. 667.

(١) انظر : هارولد لامب ، شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبدالله (بغداد : ١٩٦٧) : ١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ •

ج - مفاضلة بين المصادر العربية المعاصرة لصلاح الدين :

من دراسة تحليل المصادر العربية السابقة ، يتبين انه اרך لصلاح الدين ثلاثة من الرحالة وهم : ابن جبير والبغدادي وبنيامين • اشار الى صلاح الدين منهم اثنان اشارات عابرة • اما الثالث وهو بنيامين فقد توفي سنة ٥٦٩هـ قبل ان يصبح صلاح الدين سلطان الشام ومصر •

اما المؤرخون الذين كتبوا عن صلاح الدين وعاصروه ، من الذين اعتمدت عليهم ، فكانوا عشرة وهم : عمارة اليمني وابن ابي طيء واسامة بن منقذ والقاضي الفاضل وابن الجوزي والاصفهاني وابن مماتي وابن شاهنشاه وابن الاثير وابن شداد • خمسة منهم لم يختصوا بالكتابة عن صلاح الدين انما اشاروا اليه عرضا في سياق تاريخهم للحوادث المارين بذكرها وهم : عماره وابن ابي طيء وابن منقذ وابن مماتي • اما الخمسة الباقون فقد اختصوا بالكتابة عن صلاح الدين وكان جل اعتمادي عن ثلاثة منهم ، لغزارة المادة التاريخية التي قدموها ، وقلة ما عثر في المصادر الاخرى من روايات منقولة عن القاضي الفاضل ، واقتصار ابن شاهنشاه ، في كتابه الوحيد على فترة زمنية ضيقة ، مع اختصار في المادة التي يقدمها •

والمؤرخون الثلاثة الذين اعينهم هم (ابن شداد والاصفهاني وابن الاثير) لاسيما وان ابن شداد احتل مركز الصدارة من بينهم لانه بدا لي أكثر صدقا ونزاهة في الكتابة عن علاقة صلاح الدين بالبيت الزنكي ، من كل من ابن الاثير الذي لا يخلو من ميل لأتابكة الموصل والاصفهاني الحاقدا على البيت الزنكي بعد وفاة نورالدين بينما كان ابن شداد صديقا للزنكيين ورفيقا لصلاح الدين ، وقد انضم للعمل مع صلاح الدين في فترة كانت العلاقة بين الاتابكة والايوبيين قد تحسنت ، وأصبح الجميع يدا واحدة ضد عدوهم المشترك الصليبيين • ولذلك فان كتاب النوادر السلطانية لابن شداد

كان من أهم المصادر التي اعتمدتها في رسالتي هذه •

اما فيما يخص علاقة صلاح الدين بالصليبيين ، وموقفه من الحملة الصليبية الثالثة ، فان المصادر الثلاثة المشار إليها آنفا ، كانت من أهم المصادر التي اعتمدتها وكانت في أغلب الاحيان متقاربة في وجهات نظرها وفيما اوردته من مادة تاريخية •

د - المصادر العربية غير المعاصرة لصلاح الدين :

بالاضافة الى المصادر المعاصرة لصلاح الدين ، فهناك الكثير من المصادر التي اعتمدتها ، وكانت تأتي بالدرجة الثانية نسبة لاهميتها التاريخية ، لانها كانت تعتمد بالدرجة الاولى على المصادر الاولى • غير ان قيمتها العلمية الكبيرة ، فقد حفظ بعضها روايات تاريخية كثيرة من مصادر معاصرة لصلاح الدين لم يمكننا الحصول عليها • كما ان بعضها تخصص في الكتابة عن سيرة صلاح الدين أو تاريخ مدينة من المدن أو امانة من الامارات ، ولذلك فان مادتها التاريخية كانت كبيرة ، لضيق الفترة أو لقصر الزمن الذي كانت تبحث فيه تلك المصادر ، وسوف انطرق الى تحليل بعض تلك المصادر حسب مادة بحثها •

١ - التواريخ العامة :

وهي الكتب التي تناولت احداث التاريخ كله ، وربما اقتصرت على دراسة التاريخ الاسلامي ، أو بعض جوانبه • ومن أهمها تاريخ ابن الفرات (ت : ٨٠٧هـ) الذي قدّم في أغلب الاحيان روايات تاريخية منقولة فقط عن مصادرها الاصلية ، وربما اقتصر احيانا على بعض التعليق البسيط •

وابن الفرات من المتحمسين ضد الصليبيين ولهذا يذكر عبارة التنديد بهم عندما يتحدث عنهم كأن يقول مثلاً « الفرنج لعنهم الله » أو « لعن الله

من مضى منهم ، وخذل من بقي فيهم «^(١) . اما المصادر التي اعتمدها فهي :
مؤلفات ابن الاثير وابن الجوزي والاصفهاني وكثيرا ما نقل آراء ابن الاثير
التحزبية ، ضد صلاح الدين من دون نقد وتحليل . وأحيانا نقل من مصادر
لم يمكن الحصول عليها كالكتاب المنصوري لمحمد بن نظيف الفسائي .

وقد وجدت في المادة التي قدمها ابن الفرات ، بخصوص عصر
صلاح الدين بعض النواقص ، وعدم ترتيب زمني كامل لمجريات الاحداث .
وأحيانا يذكر حوادث سنة ٥٦٧هـ في حوادث سنة ٥٦٦هـ . وبعد ان يتكلم عن
حوادث سنة ٥٦٧هـ ينتقل فجأة الى ذكر الحوادث الجارية حول أسوار عكا ،
والحملة الالمانية ، وما كان يجرى من حوادث سنة ٥٨٣هـ . كما وجد
في تاريخ ابن الفرات أيضا بعض الحوادث المتبورة غير الكاملة^(٢) .

اما كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ، فان المقرئ (ت : ٨٤٥هـ)
قد أفرد فيه فصلا كاملا عن صلاح الدين ، غير ان ما جاء به ليس جديدا .
وكان جل اعتماده على الاصفهاني وابن الاثير والرحالة البغدادي ، الذي
نقل بعض رواياته المهمة عن العسكر الايوبي وطرق التموين . وقد اتبع
المقرئ طريقة لحوليات .

١١ ابن الوردي (ت : ٧٤٩هـ) وابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) وابن خلدون
(ت : ٨٠٨هـ) وابن الشحنة (ت : ٩٢١هـ) فلا تكاد تجد في مؤلفاتهم
جديدا . وقد اتبعوا طريقة الحوليات أيضا . غير ان ابن كثير كان ظاهر
الميل الى صلاح الدين لتيقنه ان أهدافه كانت صادقة ، وانه انما قصد الجهاد
في سبيل الله . ولذلك نجده يؤيد صلاح الدين فيما سعى اليه . ويتهم

(١) تاريخ ابن الفرات : م ٤ : ١٩/١ .

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ٦٩/١ - ٧٠ ، وقارن ما بين

صفحة رقم (١٨٤) وصفحة رقم (٢٠٩) من نفس المصدر .

الزركين بعد وفاة نور الدين ، بالفسوق وتعاطي المحرمات^(١) . اما ابن خلدون ، فكما يبدو من سرده ، للاحداث أنه اعتمد روايات ابن الاثير عموما . وكثيرا ما كان يذكر بعد ان يسرد روايته « هكذا قال ابن الاثير »^(٢) .

هذا وقد اعتمدت على كتب التواريخ العامة المختصرة ككتاب تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ت : ٦٨٥هـ) وكتاب مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، لابن الكازروني (ت : ٦٩٧هـ) وكتاب المختصر في أخبار البشر لابي الفدا (ت : ٧٣٢هـ) . غير ان مادة هذه الكتب لا جديد فيها . وهي لا تذكر مصادرها الا قليلا ، والذي ظهر ان ابن العبري ، لما كان لا يعنيه امر انتصارات صلاح الدين ، لذلك لم يهتم بالحديث عنها ، و اشار اليها اشارات عابرة وسريعة جدا ، واكتفى بنقل روايات ابن الاثير فيما يخص العلاقة بين صلاح الدين وatabكة الموصل .

٢ - تواريخ الدول والامارات :

تناولت هذه التواريخ الكلام عن الدولة الايوبية ، والدول ذات العلاقة بها . كالدولة الزنكية أو الخلافة العباسية وموقف كل من تلك الدول من الامارات الصليبية . وكان من أهم تلك المصادر كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لابي شامة (ت : ٦٦٥هـ) ، وكتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » لابن واصل الحموي (ت : ٦٩٧هـ) .

وقد قدم أبو شامة مادة تاريخية قيمة عن سياسة صلاح الدين وعلاقته بالصليبيين والatabكة والخلافة العباسية والحركة الاسماعيلية . وقد استقى معلوماته من مصادر معاصرة ومهمة لم يمكنني الحصول عليها . وكان في

(١) انظر مثلا البداية والنهاية : ٢٩٠/١٢ - ٢٩١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٧٠٧/٥ .

أغلب الاحوال يعتمد الى نقدها وتحليلها • كالرد على مزاعم ابن أبي طيء
القائلة بوجود وحشة بين صلاح الدين ونورالدين • وقد رد أبو شامة على
تلك المزاعم بالقول ان ابن أبي طيء كان رجلا شيعيا وكان والده من
أعيان الشيعة فلا غرابة اذا عمد الى تشويه تاريخ العلاقة بين صلاح الدين
ونورالدين^(١) •

وقد حفظ أبو شامة كثيرا من روايات البرق الشامي للعماد
الاصفهاني ، المفقود أغلب أجزائه • وروايات المؤرخ ابن أبي طيء ،
والكتب والمناشير التي كان يصدرها القاضي الفاضل بتوقيع صلاح الدين^(٢) •
وكان يذكر مصادره دائما فيقول : « قال ابن أبي طيء »^(٣) ، « وذكر
الامير اسامة بن منقذ في الاعتبار »^(٤) ، « وقال الرئيس أبو يعلى »^(٥) ،
« اخبرني أبو الفتوح »^(٦) ، « وذكر ابن الديلمي في تاريخه »^(٧) ، « قرأت
في ديوان ابن منير »^(٨) ، « وقال العماد في البرق الشامي »^(٩) ، « وذكر
محمد بن القادسي في تاريخه »^(١٠) •

اما ابن واصل ، فقد قدم في الجزء الثاني من مفرج الكروب ،
معلومات كثيرة عن حياة صلاح الدين منذ ولادته حتى وفاته • وفي الكتاب

-
- (١) انظر : الروضتين : ١٧٤/١ •
 - (٢) انظر مثلا : الروضتين : ١٧٣/١ - ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٤ •
 - (٣) الروضتين : ١٠٠/١ ، ١٧٣ •
 - (٤) الروضتين : ٩٧/١ •
 - (٥) الروضتين : ١٩٣/١ •
 - (٦) الروضتين : ١٩٤/١ •
 - (٧) الروضتين : ١٩٣/١ •
 - (٨) الروضتين : ١٠١/١ •
 - (٩) الروضتين : ٧٥/١ •
 - (١٠) الروضتين : ١٠٧/١ •

اشارات مهمة عن موقف صلاح الدين من الخلافة العباسية ، وأسباب سوء التفاهم الذي وقع بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله وصلاح الدين ، هذا بالإضافة الى النصوص المهمة التي قدمها عن الاعمال العمرانية التي انجزت في القاهرة ، والضرائب التي الغيب في عهد صلاح الدين •

وقد اعتمد ابن واصل على من سبقه من المؤرخين المعاصرين أيضا •
فقل العديد من روايات القاضي الفاضل وابن شداد وابن الاثير • وكان كثيرا ما يقول : « ذكر عماد الدين الكاتب »^(١) ، « قال ابن الاثير ما ذكره العماد في البرق »^(٢) • « وحكى القاضي بهاء الدين ابن شداد »^(٣) •

ومما يؤخذ على ابن واصل انه لم يميز بين « الفتح » و « الاستيلاء » •
فكان يصف دخول صلاح الدين لبعض المدن الاسلامية التي احتلها الصليبيون ، أو المدن التي كان يوليها لاحد أقاربه بأنه « استيلاء » • وكمثال على ذلك عند تولية صلاح الدين لاختيه سيف الاسلام طغتكين بلاد اليمن يقول : « ذكر استيلاء سيف الاسلام على بلاد اليمن »^(٤) • وعند تولية سيف الدين - اتابك الموصل - أخاه عز الدين صلفا من بعده على ولاية الموصل اثر مرضه يقول ابن واصل « ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود على الموصل »^(٥) •

٣ - تواريخ المدن :

تناولت هذه التواريخ عرضا كاملا لبعض مدن الشام والجزيرة كحلب ودمشق مثلا • وكانت فيما قدمته من معلومات كثيرة عن تلك المدن ،

(١) مفرج الكروب : ٩/٢ ، ٤٣ •

(٢) مفرج الكروب : ٤٠/٢ •

(٣) مفرج الكروب : ٥٩/٢ •

(٤) مفرج الكروب : ١٠٥/٢ •

(٥) مفرج الكروب : ٩٣/٢ •

قد تطرقت في الحديث عن صلاح الدين والفترة الزمنية التي حكم بها تلك المدن وكيف دخلها، ومدى علاقة تلك المدن بالمدن الاخرى في عهد صلاح الدين • ومن بين تلك التواريخ التي اعتمدتها (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلاسي (ت : ٥٥٥) الذي قدم معلومات وافية عن الامارات الصليبية في منطقة الشام ، قبل ظهور صلاح الدين ، وعن الجرائم التي ارتكبوها داخل البيت المقدس بعد احتلاله •

كما قدم ابن العديم (ت : ٦٦٠ هـ) في زبدة الحلب معلومات قيمة وكثيرة عن صلاح الدين • وعلاقته بالاسماعيلية • والاغتيالات التي قاموا بها ضد الامراء المسلمين وأسباب انتقال الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب • وموقف صلاح الدين من كل تلك التحركات •

غير ان ابن العديم كان متحيزا للحليين ضد صلاح الدين ، ومرددا لمزاعم ابن الاثير التحزبية • ففي الحديث عن أسباب انهزام الموصلين والحليين أمام صلاح الدين في الحرب الدائرة بين الجانبين سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م يدعي ابن العديم ان مقدم العسكر الموصلية (عز الدين زلفندار) كان هو السبب في تلك الهزيمة^(١) • وعن حصار صلاح الدين لمدينة حلب سنة ٥٧١ هـ ، يعتمد ابن العديم الى التمجيد بعوامل الحليين ، ويدعي انهم دافعوا عن حلب كثيرا ، حتى ان صلاح الدين كان يرسل رسله اليهم للتفاوض معهم • غير انهم كانوا يرفضون ويلاحقون الرسل ويضربونهم بالحجارة حتى يصلوا الى قرب مخيمات العسكر الايوبي^(٢) • ومثل هذا

(١) زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان (بيروت :

١٩٦٨) ٢٧/٣ •

(٢) زبدة الحليب : ٣٠/٣ - ٣١ وانظر أيضا عن حصار صلاح الدين

لحلب الثاني سنة ٥٧٩ هـ - ٦٣/٣ - ٧٠ •

غير منطقي فأين كانت القوة الايوبية اذن • وهل كانت بمثل ذلك الضعف ، بحيث لا تقدر ان تدافع عن رسلها ؟

وفي المادة التي قدمها ابن العديم ، عن عصر صلاح الدين ، بعض الخلط والخطأ التاريخي الذي فات حتى على المحقق الدكتور سامي الدهان • ومن ذلك القصة المروية عن حصار صلاح الدين لبلد الاسماعيلية (مصيف) وانسحابه منه بعد توسط خاله شهاب الدين سنة ٥٧١ هـ يقول ابن العديم مباشرة « ثم صالحهم ••• وسار بعساكره الى مصر • وكان من شروط الصلح ان يطلق عز الدين جورديك وشمس الدين على ابن الداية وأخوه سابق الدين وبدر الدين »^(١) • وهذا ليس من شروط الصلح مع الاسماعيلية • انما كان من شروط الصلح مع الموصليين والحليين الذين احتجزوا اولئك الرهائن لصداقتهم لصلاح الدين^(٢) •

كذلك يعتمد ابن العديم الى نقل الحوار الذي وقع بين عماد الدين زنكي أمير سنجار مع جنده سنة ٥٧٩ هـ عندما كان صلاح الدين محاصرا لحلب ، وينسبه لصلاح الدين ليوهم القاري ان العسكر الايوبي لم يشأ مقاتلة الحليين أو دخول حلب فيقول : « فجد الملك الناصر على محاصرة حلب ••• واجتمع اليه الاجناد من العساكر والرجال ، وطلبوا منه قرارهم فمطلهم • فقالوا : (ذهبت اخبازنا ونحتاج لغلاء الاسعار الى ما لا بد منه) فقال لهم : (اتم تعلمون حالي وقلة مالي) ••• »^(٣) وهذا الكلام والمحاورة ليس من كلام صلاح الدين كما يظهر من الاسترسال بقراء النص • انما هو قول عماد الدين الذي ماطله جنده حتى اضطر الى تسليم حلب الى

(١) زبدة الحلب : ٣/٣١ •

(٢) انظر : البنداري ، سنا البرق الشامى : ١٦٨/١ •

(٣) زبدة الحلب : ٣/٦٣ - ٦٥ •

صلاح الدين بعد ان كان قد اخذ رهائن من حلب ، خوفا ان يسلموا البلد الى صلاح الدين •

اما تاريخ القدس وما تمتعت به من فضائل ومزايا شريفة في الاسلام ، فان العليمي (ت : ٩٢٧هـ) قدم معلومات كبيرة في كتابه « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » عن تلك النواحي • وقد بحث العليمي في الاسباب التي تفعت صلاح الدين لتحرير القدس ، والعوامل التي مكنته من التحرير • اصف الى ذلك ان برهان الدين قدّم في مخطوطته « منتخب في فضائل بيت المقدس » معلومات وافية عن أهمية القدس الدينية وذكر العديد من الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة التي تدل على تلك الفضائل التي تمتعت بها القدس غير انه من الجدير بالذكر ان العليمي والشيخ برهان الدين جمعا الكثير من الاحاديث النبوية الموضوعة والاسرائيليات وعددا من الآراء التي قيلت في فضائل القدس والمستفادة من تفسير بعض الآيات القرآنية • تفسيرا بعيدا عن مدلولها الظاهر^(١) •

٤ - كتب الجغرافيا والخطط :

قدمت هذه المجموعة من الكتب معلومات قيمة عن الجوانب الحضارية والسياسية والعسكرية ، عند ذكرها للخطط والاقاليم الجغرافية فالروايات الكثيرة التي كانت تتطرق الى ذكر خطط الفاطميين والزنكيين والايوبيين ، كانت من غير شك ، تقدم تحليلا موجزا للنواحي الاخرى في المجتمع • وكثيرا ما كانت تقدم ايضا شرحا موسعا لمعظم المصطلحات الجغرافية والادارية والعمرانية • اصف الى ذلك ما كانت تقدمه من نصوص عن

(١) انظر : العليمي ، الانس الجليل (النجف : ١٩٦٨) : ٢٢٧/١ ؛ منتخب في فضائل بيت المقدس (مخطوط في مكتبة المتحف ، بغداد الرقم ١٠٢٣) ورقة ٥ ، ١١ •

التجارة والصناعة لبعض المدن ، التي كانت ضمن حدود الحكم الايوبي ،
والتي كانت تعكس ، في أغلب الاحيان ، ما كانت عليه المدن الاخرى .
ومن الاطلاع على مجموعة من تلك المدن ، يتبين بوضوح البنى الاجتماعية
والاقتصادية للمجتمع الاسلامي في العصر الايوبي .

ومن كتب الجغرافيا التي اعتمدتها كتاب « معجم البلدان لياقوت
الحموي (ت : ٦٢٦هـ) الذي قدّم تعريفات كاملة لكل ما صادفته من
مصطلحات جغرافية ، اعانتني في تحديد مواقعها ، ومن ثم في تحديد
اهميتها . ولم يكن ما قدمه ابن عبدالحق (ت : ٧٣٩) في كتابه « مراصد
الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع » يزيد على ما جاء به ياقوت . اما ابن
حوقل (ت : ق ٤هـ) فقد قدّم في كتابه « صورة الارض » معلومات كثيرة
عن منطقة الشام وتحديد موقعها ، والدول التي تشتمل عليها .

اما أهم كتب الخطط التي اعتمدتها فكان « كتاب زبدة كشف الممالك
وبيان الطرق والمسالك » للظاهري (ت : ٨٧٣هـ) . وعلى الرغم مما جاء
به الظاهري من روايات قيمة ، الا انه نقل في كتابه العديد من الروايات
غير المنطقية وغير التاريخية . ومنها الروايات الكثيرة التي نقلها عن فضائل
بيت المقدس ، وأسباب فتح صلاح الدين للقدس ، من دون ان يعتمد الى
تحليل تلك الروايات^(١) .

اما ما قدمه المقرئ في الخطط ، فقد كان كبيرا وقيما ، لانه عمد
الى ذكر مفصل الروايات عن النظم الحضارية في عهد صلاح الدين
والضرائب التي افلها ، ودور العلم والخوانق التي انشأها . والى جانبه
يمكن ان نضع كتاب « صبح الاعشى للقلقشندي » (ت : ٨٢١هـ) الذي جاء
فيه عدد كبير من نصوص التولية والناشير والرسائل التي كان يرسلها

(١) انظر : كتاب الزبدة (باريس : ١٨٩٣م) : ١٩ - ٢٠ .

صلاح الدين الى الخلافة العباسية ببغداد ، والى امرائه واخوته • وقد افادت تلك الكتب الرسمية عموما في معرفة الصورة الحقيقية لسياسة صلاح الدين •

٥ - كتب التراجم :

قدمت هذه الكتب ، خلال ترجمتها للاشخاص ، المزيد من المعلومات عن سياسة الشخص والاعمال التي قام بها • اضيف الى ذلك انها تطرقت أحيانا الى ذكر الجوانب الفكرية والحضارية للعصر الذي يعيش فيه ذلك الشخص • ومن دراسة تراجم الاشخاص ذوي الاهمية الذين عاصروا صلاح الدين ، يتبين بوضوح العلاقات السياسية السائدة آنذاك بين الاطراف المعنية •

وأهم كتب التراجم التي اعتمدها كتاب « وفيات الاعيان » (ت : ٦٨١هـ) لابن خلكان « وشذرات الذهب في اخبار من ذهب » لابن العماد (ت : ١٠٨٩هـ) • والحقيقة ان ما قدمه ابن خلكان ، على الاغلب ، لم يكن جديدا ، وقد اعتمد على ابن الاثير وابن شداد كثيرا ، غير ان اهميته تبدو في كونه تتبع أصل صلاح الدين ونسبه الى الاكراد •

٦ - كتب العقائد :

قدمت هذه المجموعة معلومات كثيرة عن العقائد التي انتشرت في عصر صلاح الدين • ومن دراسة الاختلافات الموجودة بين تلك الكتب ، الحاصلة من رد احداها على الاخرى ، نستنتج ما كانت عليه الحياة السياسية والفكرية في الفترة موضوع البحث • وبالنسبة فان المعلومات التي قدمتها المصادر عن الحركة الاسماعيلية ، كانت كبيرة • فقد اعطت الصورة الواضحة عن الاسباب الداعية للنزاع مثلا بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، والحركة الاسماعيلية وصلاح الدين •

وفي مقدمة تلك الكتب كان كتاب « فضائح الباطنية » للغزالي (ت : ٥٥٥هـ) الذي بحث فيه تاريخ الاسماعيلية وخطرها على تاريخ المسلمين ، وتنظيماتها ووسائلها في الدعوة ، ثم يأتي بعده كتاب الملل والنحل للشهرستاني (ت : ٥٤٨هـ) و « الافحام لافقة الباطنية الطغام » للعلوي (ت : ٧٤٥هـ) وقد اعطت هذه المصادر وجهة النظر السنية المناقضة للوجهة الاسماعيلية .

٧ - دواوين الشعر :

رغم ان الشعر لا يعتمد عليه مصدرا أوليا في الكتابة التاريخية ، في أغلب الاحيان ، الا انه قد يفيد في توضيح الجوانب الثقافية والسياسية للعصر الذي كتب فيه . وقد عاصر صلاح الدين عدد من الشعراء ، لازمه كثير منهم ، لآكرامه لهم واهتمامه بالعلم والعلماء ومن بين اولئك الشعراء ابن الدهان الموصللي (ت : ٥٨١هـ) ، وابن الساعاتي (ت : ٦٠٤هـ) ، وابن سناء الملك (ت : ٦٠٨هـ) ولكل من هؤلاء ديوان شعر باسمه ، جمع فيه العديد من القصائد التي قيلت في مدح عمل من أعمال صلاح الدين كتخريبه لحصن بيت الاحزان مثلاً أو لفتح القدس ، أو لالفائه الضرائب والمكوس غير الشرعية . وبذلك أصبحت تلك القصائد سجلاً تاريخياً لتلك الحوادث .

هـ - المراجع العربية والاجنبية الحديثة والنوريات :

نظرا لاهمية صلاح الدين ، والدور الكبير الذي قام به خاصة في تحرير القدس « التي لا تزال تعاني اليوم مما كانت تعانيه من قبل من الصليبيين » ، لذلك عمد الكثير من الكتاب والمؤرخين الى الكتابة عنه . غير ان بعضهم استخدم الاسلوب الادبي العاطفي ، أو القصصي لاثارة الناس ، ودفعهم لتحرير القدس . كما ان بعض المؤرخين اهتمت بالجوانب العسكرية

في حياة صلاح الدين فقط ، ولم يتطرق الى تبيان الجوانب الأخرى أضف الى ذلك ان بعضهم تحدث عن صلاح الدين في سياق حديثه عن الحروب الصليبية عامة ، ولم يعمد الى تحليل موقفه من القوى الإسلامية ، تحليلاً علمياً كاملاً •

ثم ان الذين بحثوا عن صلاح الدين خاصة ، لم يعمدوا الى التفريق بين مختلف القوى ذات العلاقة بصلاح الدين • فكان الباحث فيهم عندما يتحدث عن موقف صلاح الدين من الصليبيين يتطرق بنفس الفصل الى الكلام عن موقف صلاح الدين من الاسماعيلية مثلاً • وكيف ارادت ان تغتاله • من دون ان يوضح ما هي الحركة الاسماعيلية ، ولماذا وقفت من صلاح الدين موقفاً سلبياً ، ومن دون ان يخصص للاسماعيلية وعلاقتها بصلاح الدين فصلاً خاصاً بها • مما يضيّع على القارئ معرفة موقف صلاح الدين من تلك الحركة معرفة كاملة ، حتى يضطر الى قراءة الكتاب كله وتتبع ما له صلة بالموضوع • وفي هذا لا تختلف المراجع الحديثة عن المصادر القديمة في استخدام طريقة الحوليات في الكتابة التاريخية •

هذا وان بعض المراجع الحديثة اتخذت من سياسة صلاح الدين وسيلة لنشر آراء اجتماعية وسياسية لم تكن من مفاهيم عصر صلاح الدين • وكمثال على ذلك ما جاء به الاستاذ قدري قلعجي ، الذي استخدم الاسلوب الأدبي القصصي في الكتابة عن صلاح الدين • كما انه تحدث عن مقاصد صلاح الدين من غير ان يعتمد في ذلك على برهان فعندما يتحدث عن وفاة نورالدين يقول ان صلاح الدين كان ينوي تشكيل امبراطورية كبيرة تضاهي امبراطورية بغداد • وكأن بغداد كان لها شأن في تلك الفترة في القوة الدولية • وكأن أهداف صلاح الدين كانت دنيوية • أضف الى ذلك انه كان يعتمد الى تفسير أقوال صلاح الدين الدالة على توحيد الأمة

الاسلامية ، بمختلف قومياتها التي تسكن أرض الشام ومصر والجزيرة ،
وخدمة أهدافها ، تفسيراً لم يكن معروفاً في عصر صلاح الدين^(١) .

وقد تحامل بعض المؤرخين المحدثين على صلاح الدين ، تحت تأثير
الآراء الحديثة والنزعات الوطنية والاقليمية الضيقة ودون تعمق لظروف
عصر صلاح الدين فوصفوه بأنه كان رجلاً متعصباً قاسياً يستخدم الخديعة
والقوة ضد خصمه ، وكانوا أحياناً يصفون الدولة الفاطمية بأنها الدولة
الوطنية التي كانت تخدم مصالح مصر والمصريين ، وان سقوطها معناه إعادة
مصر ولاية تابعة لامراء وقادة أجانب^(٢) .

ورغم وجود تلك النواقص في بعض المراجع ، غير ان الكثير منها
قدّم معلومات قيمة عن بعض جوانب حياة صلاح الدين ، ومن أهم المراجع
التي تحدثت عن الجوانب العسكرية كانت مؤلفات سعيد عبدالفتاح عاشور
والعريني وسعداوي^(٣) الذين تحدثوا عن الحروب الصليبية . بينما
اقتصرت أهمية مؤلفات طرخان (النظم الاقطاعية) وربع (النظم المالية)
في بحثها للنظم الاقتصادية في عصر صلاح الدين وقد قدما معلومات عن
الضرائب وطرق جمعها ، وعن مصروفات الدولة ، وعن كيفية ادارة المدن
والقلاع ، اما المراجع التي قدمت معلومات عن علاقة صلاح الدين بالدولة
الفاطمية والحركة الاسماعيلية فكان من أهمها : كتاب الفاطميون في مصر
لحسن ابراهيم حسن و « طائفة الاسماعيلية » لمحمد كامل حسين و « دولة

(١) انظر صلاح الدين الايوبي ، دار الكتاب العربي (لم يذكر
السنة) : ٢٢٨ ، ٢٣٢ .

(٢) انظر مثلاً : عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها
في مصر : ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٣) للاطلاع على عناوين بحوث المؤرخين الواردة اسماؤهم أعلاه ،
راجع قائمة المصادر والمراجع .

النزارية « لطفه شرف و « اعلام الاسماعيلية » لمصطفى غالب ومؤلفات الدكتور عبد المنعم ماجد التالية : ظهور خلافة الفاطميين في مصر وسقوطها ، ونظم الفاطميين ورسومهم •

اما أهم المراجع الاجنبية التي اعتمدتها بشكل واسع النطاق ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة صلاح الدين بالصليبيين • فكانت مؤلفات كل من المؤرخين التالية أسماؤهم : شامبدور وكاهين وروزبلت ولين بول وغروسيه • ورغم ما قدمت تلك المراجع من معلومات قيمة ، خاصة في نقلها لوجهة النظر الغربية المعاصرة ، واللاتينية القديمة ، غير ان بعضها كان متعصبا ضد المسلمين ومتحيزا لجانب الصليبيين فقد اتهم مثلا المؤرخ الفرنسي شامبدور صلاح الدين بأنه كان يريد ان يرمي بمسيحي الشرق في البحر^(١)

“Saladin Veut rejeter les chrétiens d’orient alamar”

علما بان شامبدور لم يكن يحلل موقف صلاح الدين من نصارى الشرق ، بل كان يتحدث في فصله السابق ، عن فتح صلاح الدين لشمال الشام وموقفه من الصليبيين ، فاطلق كلمة المسيحيين الشرقيين عموما على الصليبيين وفي هذا خطأ تاريخي ومنطقي يرفضه حتى المستشرقون الغربيون انفسهم امثال برنارد لويس^(٢) • اصف الى ذلك ان شامبدور لا يذكر مصادره مما يضع على الباحث فرصة تتبع رواياته ومن ثم تدقيقها ، وبصورة عامة فان المراجع الاجنبية أفادت من حيث انها اوردت مادة مستقاة من مصادر اوربية معاصرة للحروب الصليبية ، كما ان بعضها قدم تحليلا للمصادر الاولية العربية والغربية ، افاد في استخلاص وجهات نظر قيمة ربما اوضحت بعض أبعاد الموضوع •

(1) Saladin le plus purheros de L’Islam, p. 193.

(٢) انظر الفصل الاول صفحة رقم (٥٧) •

وأخيرا فإن ما قدمته دوائر المعارف كان كبيرا وأخص منها دائرة
المعارف الاسلامية ودائرة معارف الحضارة العربية ، قسم المشرق ، وقد
قدمت هذه الدوريات مادة علمية جيدة عن كل من المواد التالية :
صلاح الدين ، الحشاشين ، الموت ، الحسن ابن الصباح ، راشد الدين
سنان ، الحروب الصليبية • وقد جاء كل منها مادة تاريخية مركزة أفادتني
في معرفة الخطوط العامة للبحث •

الفصل الاول

نشأة الدولة الايوبية

أحوال المسلمين السياسية في القرن السادس الهجري / ١٢م

ثمة حقيقة ظاهرة في القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١-١٢م) هي ان المجتمع الاسلامي ، قليل ظهور صلاح الدين ، كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني .

فقد كانت تحكمه قوى مختلفة ومتناقضة فيما بينها ، وكثيرا ما كان الصراع سمة ذلك التناقض ، من أجل البقاء أو السيطرة على البلاد المجاورة . ففي مصر كانت الخلافة الفاطمية شيعية ، وفي بغداد كانت الخلافة العباسية سنية . وازضافة الى ما كان يدور بين تلك القوتين من منازعات لاختلافات مذهبية وسياسية ، كانت كل قوة تحمل عوامل ضعفها في نفسها ، لما يدور بينها وبين القوى المحلية الاخرى من منازعات ، ففي بغداد مثلا كانت الخلافة العباسية تناضل من اجل الابقاء على كيانها ضد السلاجقة الاتراك وكانت تخوض حتى سنة ٥٥٥هـ صراعا عنيفا حفاظا على سلطانها واحياء لمعالمها المفقودة^(١) .

في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين^(٢) تنهز الفرص الملائمة

(١) لمعرفة المزيد عن دور الخلافة العباسية في هذه الفترة ومحاولاتها المتعددة لاستعادة حقوقها من السلاجقة الاتراك انظر .

القزاز ، محمد صالح ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير (النجف : ١٩٧١) : ٤٠ - ٧٧ .

(٢) اطلقت المصادر التاريخية على القوى الاجنبية التي قدمت من الغرب الاوربي لغزو الشرق الاسلامي تسميات عديدة منها (الصليبيون ، الفرنج ، المسيحيون) . وقد اعتمدت التسمية الاولى ، نظرا لان كلمة (المسيحيون) تطلق على كل من يدين بالنصرانية ، وهي كلمة شاملة لكل لسيحي سواء اشترك في الحروب ضد الشرق الاسلامي أو لم يشترك ، وسواء أكان في الشرق العربي الاسلامي ، أو في الغرب كما ان هذه الكلمة

لتوقع بالخصم ، ومن ثم لتؤسس لها ملكا على انقاض ذلك البنيان •

كان الشام^(١) مسرحا لتلك الصراعات نظرا لاهميته السياسية والدينية

ذات مدلول ديني فقط • بينما لا يخفى على أحد بأن تلك الحروب تمثلت فيها - الى جانب الدين - المصالح الاقتصادية والسياسية ضف الى ذلك ان كلمة « المسيحيون » حديثة الاستعمال في اللغة العربية • وان المصادر الاسلامية تذكر النصارى • وهكذا وردت في القرآن الكريم ، الذي لم يرد فيه « المسيحيون » •

اما كلمة فرنجة ، فاني اعتقد بأنها يمكن ان تطلق على جماعة معينة فقط من الامم النصرانية وربما فقط على اولئك الذين أسسوا الدولة الجرمانية جنوبي فرنسا في القرن الثاني الميلادي والذين اعتنقوا النصرانية الغربية سنة ٤٩٦م على المذهب الكاثوليكي ، وقد اطلقها المؤرخون العرب ، كابن تغري بردى مثلا ، على كل محارب مسيحي غير عربي ، واطلقها Sivan على المسيحيين الغربيين لا على الروم • بينما وجدت بان كلمة (الصليبيون) اقرب التسميات لواقع الحركة السابقة ، لانها ظهرت في العصور الوسطى سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦ في بدء الحرب الصليبية الاولى • وان هذه التسمية ارتبطت فعلا بالحروب التي شنتها اوربا المسيحية على المشرق الاسلامي ، بعد ان وضع المحاربون شارة الصليب المصنوعة من القماش الاحمر على اكتافهم •

انظر التسميات التي اطلقها المؤرخون العرب : أبو شامة ، الروضتين ١ : ٣٢ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ٥ : ١٤٦ ؛ الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين في مصر ، ص ٤٤٨ ؛ رانسيما ، المدينة البيزنطية ، ص ٢١٠ ؛

Emmanuel Sivan, L' Islam et la Croisade (Paris, 1968), P. 25.

(١) اطلق اسم الشام على كل ما يقع وراء نهر الفرات وهو الاقليم الذي يحده البحر المتوسط غربا والبادية من ايلة الى الفرات ، ثم من الفرات الى حدود آسيا الصغرى شرقا ، وبلاد الروم حتى الثغور شمالا وصحراء سيناء حتى رفح جنوبا انظر :

١ - ابن حوقل ، صورة الارض (ليدن ، ١٩٣٨) : ١٥٤ •

والاقتصادية بالنسبة للقوى المتصارعة • فقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها •

وكان الفاطميون في مصر يرون في الشام امتدادا طبيعيا لمصر ، وقاعدة عسكرية يستطيعون بها ان يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد الروم والعباسيين^(١) ، وليجعلوا منها قاعدة لدعوتهم الشيعة^(٢) •

اما الصليبيون ، فقد توجهت انظارهم نحو الشام لكسب مغانم مختلفة ، منها انهم وجدوا في فلسطين مركزا رفيعا لتحقيق مكاسب دينية وسياسية ، لان فلسطين كانت تمثل بالنسبة لهم بلد التوراة ومهد السيد المسيح ومنبت النصرانية^(٣) • كما كانت منطقة الشام - بما فيها انطاكية - تمثل الطريق التجاري المهم الذي يربط الدول المسيحية في اوربا بالعالم الشرقي^(٤) • اضافة الى ان الشام كان بالنسبة للغزاة بلد الغنى والجمال

-
- ٢ - القلقشندي ، ضوء الصباح المسفر (القاهرة ، ١٩٠٦) : ٢٧٩/١ - ٢٨١ •
٣ - فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، الكتاب الاول (القاهرة ، د : ت) ١٦٠ ؛ فيصل السامر ، الدولة الحمدانية (بغداد : ١٩٧٣) ٧/٢ •

(١) المناوي ، محمد حمدي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة ، ١٩٧٠) : ١٨٧ •

(٢) العريني ، السيد الباز ، مصر في عصر الايوبيين ، سلسلة الالف كتاب العدد ٢٦٩ ، القاهرة ، (د : ت) : ٧ ولمعرفة المزيد عن احوال الفاطميون في الشام والاسباب التي دفعتهم لاحتلاله ، والمقاومة المحلية التي جوبهوا بها انظر ، جب ، هاملتون أ. ر ، صلاح الدين (لبيروت ، ١٩٧٣) ٤٦ - ٤٨ •

(٣) بنيامين ، رحلة بنيامين ، انظر مقدمة الكتاب ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ، ١٩٤٥) : ٢٠ •

(٤) عقد هربرت فيشر فصلا كاملا عن أسباب نمو المدن في العصور الوسطى ، موضحا اثر طرق المواصلات في نشاط التجارة وبالتالي نمو

الذي يحقق للكثيرين من الفقراء والاقطاعيين في اوربا - على السواء -
مغانم كثيرة (١) .

ولا يخفى على أحد ما كان لاتصار المسلمين من الافراك في معركة
ملاذكرد (٢) سنة ١٠٧٢م على الدولة البيزنطية وتهديدهم عاصمتها
(القسطنطينية) وأسر الامبراطور البيزنطي (رومانوس ديوجنيس) ، من
أثر في اثارة روح التحدي لدى العالم المسيحي ضد العالم الاسلامي . مما
دفع الكثيرين - خوفاً على ممتلكاتهم - القيام باعداد الحملات العسكرية
وتعبئتها لوقف التحدي السلجوقي .

هكذا دفعت العوامل السابقة حركة الحروب الصليبية للتوجه نحو
المشرق الاسلامي ، لكسب مغانم دينية واقتصادية . فقد ذهب البعض لاعلاء

المدن ، وقد ارفق الفصل بخارطة توضح أهم طرق المواصلات المعتمدة والتي
كان من بينها الطريق الواصل من غرب اوربا والبحر المتوسط الى انطاكيا
في الشام فجنوب شرقي آسيا . انظر تاريخ اوربا في العصور الوسطى :
٢٢٢/١ .

(١) تحدثت شسامبدور عن الدوافع الدنيوية التي دفعت بعض
الصليبيين للتوجه نحو الشام ، وبخاصة دمشق . وذكر بانهم كانوا أثناء
توجههم اليها يحلمون بأرض الجنة التي كانوا يعتقدون بانها تحفة الشرق
Damas Spmbolisont Iorient

انظر :

Champdor, Salodin Le Plus pur heros-de Islam (France,
1956), P. 28.

(٢) ملاذكرد : معركة حدثت في مدخل آسيا الصغرى بين حوالي
٢٠٠.٠٠٠ بيزنطي والسلاجقة الاتراك بقيادة ألب ارسلان ، وانتهت بانهزام
الجيش البيزنطي ، وتعد أكبر نكبة في تاريخ الامبراطورية البيزنطية .
انظر حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد ، ١٩٦٥) :
٢٥٠ ، ٢٥١ .

كلمة الرب ، وذهب آخرون لكسب مغام الدنيا ، بينما تقدم آخرون فرارا من رتابة حياتهم اليومية ، أو جبا بالمغامرة والمخاطرة ، أو لتأسيس امارات جديدة في الشرق^(١) .

ومهما كانت الاسباب الداعية للحروب الصليبية فان الروايات التاريخية - على اختلافها - تشير الى ان اوروبا رفعت راية الصليب ونادت في حربها ضد المسلمين بشعار (هذه ارادة الله)^(٢) ، وان رجال حربهم تجمعوا تحت زعامة رجال الدين الذين كانوا يثيرونهم بالخطب الحماسية ضد المسلمين الكفار على حد قولهم !!

ومن أمثلة تلك الاجتماعات ، ذلك المجتمع الذي عقده تسانت برنارد Saint Bernard^(٣) في كليرفو والذي لخص فيه ، بخطبة حماسية ، شعور المسيحيين بالعودة الى النصر فقال : « ان الله يدعوكم للعودة للحرب ،

(١) رينتز ، جورج ، دراسات اسلامية ، ترجم باشراف نقولا زيادة (بيروت ، ١٩٦٠) ١٠٢ - ١٠٣ ولمعرفة المزيد عن أسباب الحروب الصليبية انظر : ارنست باركر ، الحروب الصليبية (بيروت ، لم يذكر السنة) ، ص ١٤ - ٢٥ .

(٢) Larousse Universel, Vol, 2 (Paris, 1922) Article Croisades P. 570.

(٣) ولد تسانت برنارد في منطقة ديجون Dijon سنة ١٠٩٠ ، ومنذ سنة ١١١٢م دخل حياة الرهبنة واسس دير كليرفو سنة ١١١٥ ، واشتهر بالعلوم اللاهوتية وقد كلفه البابا هوجين الثالث في المجمع الذي عقد في بورج Bourges رئيسا لاعداد الحملة الصليبية الثانية ولمعرفة المزيد عنه انظر الكتاب المحقق عنه والذي استقيناه معلوماتنا منه وهو : Saint Bernard, Et l'esprit Cistericien-Dom Jean le clercq (Paris, 1966) P. 5, 7.

وإعادة الأرض المقدسة من الذين انتهكوا حرماننا ... فماذا تترقبون لتأدبوا هؤلاء - !! مأساة للذي لم يضح بدمه من أجل المعركة »^(١) .

ومن جهة ثانية فإن المسلمين أيضا رفعوا راية « الجهاد في سبيل الله »^(٢) إذ لم تكن هناك قضية تحرك الناس مثل الدين ، خاصة وانهم وجدوا في ذلك الشعار اسلوبا عمليا وجديا يستطيعون به جمع الكلمة ورض الصف ومن ثم ضرب الغزاة والانتصار عليهم .

وقد اوضح شامبدور هذا المفهوم عندما علل أسباب نجاح الحملة الصليبية الاولى ، وفشل الحملة الصليبية الثانية ، فذكر بأنه في الحرب الصليبية الثانية كان المسلمون متحدين تحت قادة نورالدين الذي دفعه ايمانه وحميته الدينية الى انقاذ سوريا ، فقد احيا الجهاد وبذلك حلت لدى المسلمين عقلية جديدة محل العقلية السابقة التي كان معها المسلمون متفرقين^(٣) .

وهكذا اذن ، رفع كلا الطرفين المتنازعين في منطقة الشام شعار (الجهاد في سبيل الله) ما دام ذلك الشعار يحقق لهم الاهداف التي يصبون اليها خاصة وان الدين كان الاطار العام للحياة في جميع مظاهرها

(١)

Champdor, Saladin Le plus pur herose delslam
(Paris, 1956). P. 27.

(٢) للاطلاع على معنى الجهاد عند المسلمين ، وضرورة التمسك به لانقاذ القدس ، ومضار التخلي عنه * انظر النص العربي المنقول عن كتاب الجهاد ، لعلي بن طاهر السلمي في المجلة الفرنسية التالية :
Journal Asiatique, Fascicule n. 2 (Paris, 1966), P. 211-212.

الدهلوي ، الشيخ أحمد ، حجة الله البالغة ، تحقيق السيد سابق ، مطبعة الاستقلال ، لم يذكر السنة) : ٧٨٤/٢ - ٨٠٤ .

Champdor, Saladin, P. 30.

(٣)

في العصور الوسطى^(١) . فقد اكتسب بفضل القادة العسكريين كثيرا من
العون المادي والمعنوي^(٢) .

ونتيجة لما سبق تقدم الصليبيون نحو بلاد الشام بعد ان استخدموا
ضد المسلمين كل ألوان الكذب ، لاشعال شعور الشعوب المسيحية ضدهم
لكي يبذل الصليبيون في حربهم النفس والمال^(٣) . ووصلوا اليها في ١٥
آب ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، وكانت آتشد ، اوصلا مفككة بين قوى الفاطميين
والأتابكة وغيرهما من القوى المحلية الاخرى^(٤) .

(١) كويلرينج ت . ، الشرق الادنى مجتمعه وثقافته ، ترجمة
د . عبدالرحمن محمد أيوب ، (القاهرة دون تاريخ) : ١٦٦ .

(٢) تلقى نورالدين ، ومن بعده صلاح الدين بفضل رفعه لشعار
(الجهاد في سبيل الله) مساعدات كبيرة بالعدة والعدد من اغلب العالم
الاسلامي ، وسوف نوضح ذلك في الفصل القادم . كما توحدت كلمة العالم
المسيحي بفضل نفس الشعار ، رغم الانشقاق الذي كان بينها « ففي أواخر
القرن ١١م وجه امبراطور الدولة الشرقية دعوة الى البابا ليدعو امم الغرب
من فرنجه المان وانكليز الى نصرة الصليب ، وتخليص بيت المقدس من
أعدائه المسلمين ، فوجه البابا دعوته الى اوربا ٠٠٠ فما الذي جعل البابا
يقبل هذه الدعوة رغم الخلافات والانقطاع بين الطرفين ؟ وما الذي جعل
اوربا تستجيب لدعوة البابا بهذه الحماسة ؟ رغم ما كان بين روما
والقسطنطينية من منافسة منذ قرون » انظر : أبو حديد ، صلاح الدين ،
١٠ - ١١ .

(٣) لمعرفة الصورة الواضحة التي كانت تصور فيها اوربا المسيحية
الشرق الاسلامي في العصور الوسطى . وعقيدته التي كانت تراها عقيدة
الكفر والضلال . والعلاقات المسيحية الاسلامية في فترة الحروب الصليبية
انظر :

Norman Daniel, Islam and the West (The Making of
an Image), Edinburgh, 1966, P. 79, 195, 314-315.

(١) كان في منطقة الشام - كما اوضح جب - ست قوى مميزة

وفي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على طرسوس والرها وحاصروا انطاكية ثم ملكوها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، وفي ٢٣ شعبان من نفس السنة استولوا على القدس واعملوا في أهله الذبح والقتل بالجملة^(١) ، حتى ليقال انهم ذبحوا سبعين الفا من المسلمين طبقا لما ورد في المصادر العربية والاوربية على السواء^(٢) .

واضافة الى السياسة العسكرية - سياسة الارهاب والقوة التي استخدمها الصليبيون للاستيلاء على البلاد الاسلامية ، فقد استخدموا سياسة أخرى ، يمكن ان تكون أول تطبيق لسياسة الاستعمار الاستيطاني بأسلوب ديني مرموق .

كان الصليبيون يختارون لهم مواقع ذات سيطرة مهمة في البلاد

ومشتبكة في نزاع الواحدة منها مع الاخرى وهي : الفاطميون ، القبائل العربية المحلية ، الامراء التركمان السلاجقة ، القادة العسكريون الاتراك ، القبائل التركمانية المستقلة غير السلجوقية ثم أخيرا الهيئة العامة من السكان . انظر : جب ، صلاح الدين الايوبي ، تحرير يوسف ايبش (القاهرة : ١٩٧٣) : ٤٥ - ٦٠ .

(٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، منشور على أصوله في مجلة المشرق (بيروت ، ١٩٥١) ٦ - ٧ ، انظر سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب : ٢٨٥ - ٢٨٨ تجد فيه وصفا موجزا للمذبحة البشعة التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين العزل والمستسلمين في الحرب من الذين لا يجوز الغدر بهم لدى كل الشرائع والقوانين .

(٣) انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (بيروت ، ١٩٠٨) : ١٣٦ - ١٣٧ ؛ عبدالعزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ٩١ ؛ نورالدين حاطوم ، العصر الوسيط في اوربا (دمشق ، ١٩٦٧) : ٨٤٧/١ و ٨٤٩ - ٨٥٠ ؛

Champdor, op. cit., P. 176; Runciman, A History of the Crusades, 1, P. 287.

الاسلامية على أطراف الشام ومصر ، ويششؤون لهم عليها كنيسة ، ثم يبدأون بتحصينها ، ومن ثم توسيعها ، حتى تكون قلعة حصينة ويقومون بعدها باستدعاء العساكر من اوربا الى تلك الحصون لحمايتها ، ومن ثم لشن الغارات منها على المواقع الاسلامية المجاورة أو لقطع الطرق على التجار والحجاج المسلمين والاستيلاء على بضائعهم وأمتعتهم ، وبخاصة اولئك القادمين من شمال افريقيا * حتى انه كان من جملة أسباب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م - والتي سأطرق الى شرحها في الفصول القادمة - استيلاء البرنس ارناط صاحب الكرك على احدى القوافل التجارية القادمة من مصر الى الشام * وكان حصن الكرك من الحصون التي أسست بتلك الطريقة اضافة الى حصن عجلون في الاردن والشوبك على اطراف الشام^(١) .

كذلك استخدم الصليبيون وسيلة أخرى للاستيلاء على المواقع المهمة ، وهي انهم كانوا يدخلون الحصون الاسلامية بوعود الامان ، ثم ينكلون بأهلها ويعدبونهم حتى يضطروا الى مغادرة أراضيهم ، كما فعلوا بحصن جيل سنة ٤٩٧هـ * فقد شدد الصليبيون الحصار عليه ، عندما استولوا على حصن طرابلس ، حتى فتحوه بالامان ، ثم غدروا بأهله وابتزروا أموالهم بأنواع العقوبات ، ولم يفوا بما بذلوه لهم من الامان^(٢) .

وقد نتج عن تلك الاعمال العدوانية اثارة الشك ، واساءة العلاقة بين

(١) ابن شداد ، الاعلام الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ف ج ٢ ، ق ٢ : ٦٩ - ٧٠ و ٨٦ - ٨٧ ؛ انظر : ابن الاثير الكامل : ٥٢٨/١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب (تحقيق جمال الدين الشيبان) : ١٨٥/٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٤٣ ؛ ابن شداد المصدر السابق : ١٩٦ .

المسلمين والعرب النصارى ، كما أدى الى اثاره روح التحدي لدى العالم الاسلامي وقد اوضح هذا المفهوم برنارد لويس بقوله : « جاء الصليبيون يحملون معهم تراثا ضخما من الشك والتعصب أثروا به على العرب المسيحيين بجيرانهم المسلمين واضعفوا الوثيق من الصلات التي كانت قائمة قبل قيام الحروب الصليبية » (١) .

ومن الجدير بالملاحظة ان الصليبيين لم يتمكنوا من اقامة امارتهم الرئيسة الاربع في الشام ، الا لضعف المسلمين وتفرقهم ، رغم قلة موارد تلك الامارات من الرجال والمال . الا ان تلك الاحوال لم تدم بفضل يقظة العالم الاسلامي وما تمخضت عنه المنطقة من ظهور قادة مخلصين اكفاء تمكنوا من استغلال الظروف السياسية التي كانت تسود المنطقة في مدة لا تتجاوز نصف قرن ، وكان من اولئك الرجال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، وأخيرا صلاح الدين الذي تمكن من توحيد الشام والجزيرة ومصر ، والذي امتدت سلطته من نهر دجلة الى النيل (٢) .

ويكفي ان أقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعيا ، بل حتميا استجابة للتحدي الذي أصاب المشرق الاسلامي حتى انه « من المعقول جدا ان يتوقع المرء ان ينهض المسلمون ويتحدوا لصدوا الهجوم الموجه الى ديار المسلمين » (٣) .

وكان من المألوف أيضا ان يصل الى أعلى الرتب « رجال من عامة الناس ، بل من الارقاء ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه

-
- (١) برنارد لويس ، الغرب والشرق الاوسط ، ترجمه نبيل صبحي (لاغوس : ١٩٧٥) : ٢٢ و ٣٩ .
- (٢) هربرت فيشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ١٨٨/١ ؛ بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية (بيروت ، ١٩٦٥) : ٣٤٧ - ٣٤٨ .
- (٣) رينتز ، دراسات اسلامية : ١٠٣ .

السائدة ، وأرادوا أن يفيدوا منها « (١) . وما اليت الزنكي والايوبي إلا دليل على صحة ذلك الافتراض .

وقد خلق استيلاء الصليبيين على القدس توترا في العالم الاسلامي ، قاد زعامته الفكرية الشعراء والكتاب والعلماء ، الذين جردوا حملة اعلامية لاثارة الناس ودفعمهم لتحرير الارض المقدسة .

ومن تلك الفترة بدأنا نقرأ تفاسير جديدة للقرآن الكريم ، وأحاديث لم تسمع من قبل تمجد القدس ، وتغالي في فضائله وتسهب في تعدادها . ومن جملة تلك الادبيات ما ألفه الشيخ برهان الدين في « منتخب فضائل بيت المقدس » ، وقد اوضح في تأليفه أهمية بيت المقدس مبالغا فقال : « ان أرض بيت المقدس هي أول أرض بارك الله فيها ، ومن تحت قبة الصخرة تخرج كل المياه العذبة » (٢) .

كما ذكر الظاهري تفسيراً لبعض الآيات القرآنية التي اوضح فيها أهمية القدس وشجع الناس على استعادتها فذكر ان أرض الله هي القدس وفسر قوله تعالى « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » (*) هي الارض المقدسة ، وان الرسول (ص) قال : « من زار بيت المقدس محتسبا أعطاه الله ثواب ألف شهيد » (٣) .

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة ، ١٩٥٢) : ٢٩ .

(٢) الشيخ برهان الدين ، منتخب في فضائل بيت المقدس ، مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد ، رقم ١٠٢٣ ورقة ٥ و ١١ .

(*) انظر : القرآن الكريم : ١٠٥/٢١ .

(٣) الظاهري ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ، ١٨٩٣) ١٧ : انظر العليمي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف ١٩٦٨) ١/٢٢٧ .

وقد نقل المؤرخ عبدالرحمن العليمي أيضا عدة أحاديث يدور عليها
الوضع لتثبيت فضائل القدس انقل منها ما يلي : عن كعيب الاحبار قال :
« قال الله تعالى ليت المقدس انت جنتي و قدسي وصفوتي من بلادي من
يسكنك فبرحمة مني ومن خرج منك فبسخط مني عليه »^(١) وعن عبادة بن
الصامت قال : « قال رسول الله (ص) صخرة بيت المقدس على نخلة والنخلة
على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران
ينظمان سموط أهل الجنة الى يوم القيامة »^(٢) . وقد نقل العليمي كثيرا
من تلك الاحاديث ، والقصد من نشرها اثارة حمية المسلمين ودفع السلاطين
والخلفاء الى العمل من أجل تحرير القدس من أيدي الصليبيين والاقفال
من شأن الخلفاء الذين لا يسعون للجهد ، فقد ذكر العليمي نقلا عن أبي
عمرو الشيباني قوله : « ليس يعد من الخلفاء الا من ملك المسجدين ،
المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس الشريف »^(٣) .

ولما كانت القدس بيد الصليبيين ، فقد دفعت تلك الاحاديث كلها
الكثير من الناس المؤمنين الى العمل على تحرير القدس ليتسنى لهم زيارتها
احتسابها لله تعالى ، وبالتالي ليكون لهم اجر عظيم يعادل اجر الف شهيد !
ومن جهة ثانية أخذ الشعراء يقدون على الخلفاء والامراء يحثونهم
على العمل في سبيل تحرير القدس ، حتى قيل ان من أسباب فتح
صلاح الدين القدس أبياتا من الشعر ارسلت اليه من القدس المحتلة ، بطلب
الاستغاثة^(٤) .

-
- (١) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : ٢٢٨/١ .
 - (٢) نفس المصدر السابق : ٢٣٦/١ .
 - (٣) نفس المصدر السابق : ٣٤١/١ .
 - (٤) سوف نتطرق الى تبيان أسباب تحرير صلاح الدين للقدس ،
ونبين ضعف أثر تلك الابيات الشعرية في دفع صلاح الدين لتحرير القدس
في النقطة الثالثة من الفصل الثالث .

ولو تصفحنا كتب التاريخ والأدب لوجدنا الكثير من تلك الأشعار
تبحث على تحرير القدس^(١) . ومن جملتها ، ما ذكره الشاعر علي بن
هبة الله^(٢) الذي أوضح للسلطان نور الدين محمود زنكي بأن أفضل
الاعمال التي يجب ان يقوم بها هي تحريره لبيت المقدس فقال :

فالجدة والجدة مقرونان في قرن والحزم في العزم والادراك في الطلب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والاشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب^(٣)

ومن الواضح ان حديث فتح القدس وتحريرها من أيدي الصليبيين
كان حديث الساعة وموضع الامثال . وكان الانسان اذا ما أراد ان يخجل
انسانا آخر ذكره باستيلاء الصليبيين على القدس وعدم تمكنهم من
تحريرها . ففي احدى مجالس صلاح الدين كان حاضرا عنده الحكيم
الاديب عبد المنعم مظفر الغساني الجلياني ، فأراد كاتب صلاح الدين الفاضل
اليساني ان يفض من نسب الجلياني فقال له : « يا أبا الفضل ، كم بين
جليانة وغرناطة ؟ فقال : الذي بين بيسان والقدس . فخجل الفاضل وظهر
ذلك في وجهه »^(٤) .

(١) انظر مثلا : الاصفهاني ، خريدة القصر ، ق ٣ ، ج ٤٤/٣ ؛
تاريخ ابن الوردي : ١٦/٢ ؛

Champdor, op. cit., 26.

(٢) هو الشاعر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، المتوفى
سنة ٥٧١ هـ بدمشق وقد صلى عليه صلاح الدين الابوبي صلاة الميت .
وكان حسن الشعر . انظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٣٣٥/١ .

(٣) الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (دمشق ، ١٩٦٨)
القسم الثالث ٢٧٧/١ .

(٤) ابن سعيدي ، ابن الحسن الاندلسي ، الغصون الياصرة ، تحقيق
ابراهيم الابياري (القاهرة ، د : ت) ١٠٧ - ١٠٨ .

وتيجة لذلك تجمهر الناس في المحلات العامة في دمشق وحلب وديار بكر والموصل ودحض الكثير منهم - بقيادة علماء الدين - المساجد واخذوا يدعون للحرب ، وبسرعة ، ضد الصليبيين^(١) .

ففي سنة ٥٠٥ هـ « كثر الضجيج والبكاء وبطلت الجمعة ، وأخذوا الخليفة في الاهبة ونهياً السلطان الى الغزو ، فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق »^(٢) ، وفي سنة ٥٣٢ هـ - العام الذي ولد فيه يوسف صلاح الدين - خرج أهالي حلب وبزاعة من النساء والصبيان والرجال في مظاهرة كبيرة ، دخلوا بها المساجد ومنعوا الناس من اقامة الصلاة ، ودفعوهم لقتال الاعداء ، واضطروا لكسر المنابر^(٣) ! .

وهكذا استفاق الزنكيون ، ومن بعدهم الايوبيون بقيادة صلاح الدين ، وأخذوا العبر بمآسي احتلال القدس ، وكانوا يخرجون بجيوشهم لتحقيق امنية الشعب في تحرير القدس بعد ان كانت خلافة بغداد قد فقدت سلطانها ، وباتت تتخبط في جو من الفوضى والانحلال بعد ان ازدادت السيطرة الدخيلة عليها ، وضعف الخلفاء ، الذين لم يبق لهم سوى الاسم^(٤) .

في هذه الظروف التي اكتنفها التعقيد السياسي الذي « كاد يصل الى شفير الفوضى تقريبا »^(٥) برز صلاح الدين ، ولذلك يشكل عهده أكثر من

(١)

Champdor, op. cit., P. 27.

(٢) الدويهي ، اسطفانوس انظر مجلة المشرق (بيروت ، ١٩٥١) : ٢١ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (حيدر آباد الدكن) ق ١ : ١٦٣/٨ .

(٤) انظر : القزاز ، الحياة السياسية : ١٣ - ٤٠ .

(٥) جب ، صلاح الدين : ٤٥ .

حادثة عابرة في تاريخ العصور الوسطى « فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري »^(١) . وإذا أردت الوصول الى معرفة حقيقة تلك اللحظات المثيرة ، فلا بد لي من دراسة لشخصية صلاح الدين وعصره الذي نشأ فيه ، ليمكنني ان أتلّس الجواب الكامن في معرفة هل ان الظروف السائدة هي التي خلقت صلاح الدين ؟ ام ان طموحه الشخصي وحبه للفتح هو الذي دفعه للجهاد ؟ وهل كانت سياسته نابعة من عقيدته ؟ ام املتها عليه الظروف المواتية ؟ وهل كان صلاح الدين في سياسته مقلدا لنور الدين ، ام مبتكرا ؟ واذا كان مبتكرا ، فما هي الابتكارات التي جاء بها ؟ وللإجابة على تلك الاسئلة نستعرض حياة صلاح الدين الايوبي من مولده حتى اسقاطه الخلافة الفاطمية في مصر وتوجهه نحو الشام سنة ٥٧٠هـ. موضحا الاحوال السياسية العامة في مصر .

المولد والنشأة :

يتنسب صلاح الدين للأسرة الايوبية ، وكما هو ظاهر من تسميتها تعود الى أيوب بن مروان بن شادي من بلد دوين^(٢) . وهي بلدة في آخر عمل اذربيجان^(٣) .

ويختلف المؤرخون في أصل هذه الأسرة ، فمن قائل بانها من الاكراد الروادية(*) كابن الانسير وأبي شامة وابن أبي طي

(١) جب ، صلاح الدين : ١١٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ٣٤١/١١ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان : ٣٩٩/٣ - ٣٤٠ .

(٣) ابن خلكان ، الوفيات : ١٤٠/٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين : ١٢٩/١ .

(*) الروادية : هي بطن من بطون الهذليانية ، انتشرت حول منطقة جنزه الواقعة بين شروان واذربيجان والتي تسميها العامة كنجه . ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ١٥١/٣ .

وغيرهم^(١) . ومنهم من يرى بأن لعائلته أصلاً في الجماعات الإيرانية والقفقاسية وأن جذورهم ترجع إلى عهد الانبعاث الإيراني بين نهاية السيطرة العربية وبداية الغزوات التركية . وقد أوضح هذا الرأي منورسكي Minorska الذي اعتقد بأن صلاح الدين يعتبر - إلى حد ما - من أبناء العوائل التي استعادت فيه القبائل الإيرانية العديد من مراكزها المفقودة^(٢) . كذلك فإن ابن تغري بردى عندما عدد جملة الآراء التي قيلت في أصل صلاح الدين ذكر من أجملتها بأن أصله يعود إلى بلدة صغيرة في العجم^(٣) ، وهي منطقة فارسية . وقد أوضح المقرئزي الشيء نفسه فذكر أن نسب أحد أجداده كان (علي بن أحمد الخراساني)^(٤) ، بينما اعتقد فريق ثالث بنسبتهم إلى بني أمية . وقد أورد ابن تغري بردى رأياً لم يرجحه فقال : « صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى بن مروان ويقال أن مروان من خلفاء بني أمية »^(٥) . ويرى العصامي أن الذي اتسبب هذه النسبة ادعاء هو سيف الإسلام بن طغتكين - أخو صلاح الدين - لما ادعى لنفسه الخلافة

(١) ابن الأثير ، الكامل : ٣٤١/١١ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٩٨/٤ ، ابن أبياس ، محمد بن أحمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة ١٣١١) : ٦٩/١ .

(٢)

Minorsky, Studies in Caucasian History (London, 1953), P. 109.

(٣) انظر : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٥) : ٤/٦ ؛ انظر الزركلي ، خيرالدين الاعلام (مطبعة كوستانتسوماس ١٩٥٦) : ٢٩١/٩ .

(٤) المقرئزي ، تقي الدين ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة : ١٩٣٤) ق ١ : ٤١/١ .

(٥) النجوم الزاهرة : ٣/٦ .

باليمن • وهو نسب ليس بصحيح ، ولا يستند اليه^(١) • بينما اعتقد المقرئزي ان الذين اظهروا هذا النسب هم أهل المصالح ، ومن يريد التقرب لدى السلطان ونيل « الحظوة لديهم ، لما صار الملك اليهم »^(٢) •

والارجح ان نسبهم يعود الى الاكراد ، وانه لم يعرف بالضبط أحد بعد شادى^(٣) • ومما يؤيد ذلك النسب ما ذكره ابن أبي طي • وابن خلكان من انهما تتبعنا نسب صلاح الدين فلم يجدا احدا ذكر بعد شادى أبا آخر^(٤) • وان شادى هذا ينتسب الى الروادية التي ينحدر منها الايوبيون ، وهي من اشرف القبائل الكردية • رغم ما حاوله البعض من ارجاع أصلهم الى بني امية • لان امثال تلك المحاولة « لا ترضي الا العقول التي تأبى الا ان تربط بين المجد الباذخ والاصول الملكية السامقة »^(٥) •

ومهما يكن من امر اصل الايوبيين فالهم هو ان اسرتهم دخلت كنف الحياة الاسلامية في بغداد وتكريت وبلبك ودمشق وترعرعت بينها ، وثقفت بالثقافة العربية الاسلامية في وقت ، كان شعار الحياة العامة (الدين الاسلامي) الذي يجمع بين القوميات المختلفة برباط أخوي « ان اكرمكم

(١) العصامي المكي ، سمط النجوم العوالي في أبناء الاوائل والتوالي (القاهرة ، د : ت) : ٨/٤ •

(٢) المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (القاهرة : ١٣٢٤هـ) : ٣٧٨/٣ (وسوف نرمز له : المقرئزي ، الخطط) •

(٣) ذكر ابن كثير بدلا من شادى (شاذى) بينما اوردها ابن الاثير (شاذى) والارجح بانها شادى لتواردها في أغلب المصادر • انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢١٣/١٢ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ٣٤١/١١ •

(٤) أبو شامة ، الروضتين : ٢٦/١ ، ١٢٩ ؛ ابن خلكان ، الوفيات : ١٤٠/٦ •

(٥) بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر : ٥٦ ؛ انظر العصامي ، سمط النجوم العوالي : ٨/٤ •

عند الله اتقاكم»^(١) ولا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، وان تلك الاسرة كانت قد نالت ثقة السلطات العليا التي لم تضع امامها العقبات في سبيل الوصول الى القيادة كتلك المجتمعات التي توجد فيها فوارق اجتماعية^(٢) .

اما نقطة البداية في مساهمة هذه الاسرة في حوادث التاريخ الاسلامي بعد مفارقتهم بلدة دوين ، الموطن الاصلي ، فهي أيضا موضع خلاف بين المؤرخين قيل ان شادى جدّ الاسرة كان صديقا لمجاهد الدين بهروز شحنة بغداد ، الذي استدعاه اليه ومنحه قلعة تكرت اكراما مصداقتهما^(٣) . وقيل ان أسد الدين ونجم الدين أيوب ابني شادى قدما الى العراق وخدموا بهروز ، فولى نجم الدين - والد صلاح الدين - مستحفظا لقلعة تكرت لانه الاكبر سنا والارجح عقلا^(٤) .

بينما أدلى ابن أبي طيء برأي ثالث خلاصته ان أيوب خديم السلطان محمد ابن ملكشاه الذي اقطعه قلعة تكرت اكراما له لاماته . ولما ولي السلطان مسعود السلجوقي السلطنة في بغداد ، منح تكرت لبهروز شحنة بغداد . وقد ابقى بهروز هذا نجم الدين أيوب مستحفظا لتكرت ، وازاف

(١) القرآن الكريم : ١٤/٤٩ .

(٢) كنت قد اوضحت بأنه نتيجة لسوء الاحوال السياسية واضطرابها ، فانه كان يصل الى القيادة كل من يستشرف طريق النصر ، ويعرف أسبابه ، ويفهم معنى القيادة ولو كان من عامة الناس ، انظر صفحة رقم (٤٩) .

(٣) بيومي ، المصدر السابق : ٥٩ - ٦٠ ؛ وجدي ، دائرة المعارف القرن العشرين ، ٥/٥٤٢ .

(٤) ابن الاثير ، المصدر السابق : ١١/٣٤١ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٤ : ١/٥١ .

إليه جميع الولاية المتاخمة لها^(١) .

ومهما كانت الاسباب الداعية لقدم الايوبيين الى بغداد ، فالذي يهمنا في هذا المجال هو ان نجم الدين أصبح حاكما لقلعة تكريت قيل سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، وانه أحسن التصرف فيها . الا ان أموره اضطربت بعد حوالي سنتين من توليته قلعة تكريت ، ذلك لان زنكي اتابك الموصل ظاهر السلطان مسعود السلجوقي ضد الخليفة العباسي المسترشد سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م^(٢) بجيش قدم به الى بغداد ، ولكنه هزم وفر عائدا الى بلاده ، وأثناء عودته من تكريت ساعده نجم الدين وأسد الدين شيركوه في عبور نهر دجلة وقدم له بعض المساعدات التي كان لها اثار خطيرة^(٣) ، لانها اغضبت عليهما بهروز الذي اعتبر مساعدتهما لزنكي عصيانا للسلطة في بغداد .

كما حصل بنفس الوقت ان قتل أسد الدين شيركوه أحد مماليك بهروز فخاف هو وأخوه نجم الدين وخرجا مولين شطري.

(١) الروضتين : ٢١٠/١ - ٢١١ .

(٢) وكان السبب في ذلك الهجوم على بغداد هو ان زنكي عاضد السلطان السلجوقي مسعود ضد السلطان داود الذي خلف والده السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م وطلب مسعود من الخليفة المسترشد ان يخطب له ببغداد ، فلما رفض الخليفة هجم مسعود على بغداد بمساعدة عماد الدين زنكي لنيل السلطنة بالقوة . انظر بخصوص ذلك الهجوم وفشله : ابن الفرات ، التاريخ ، م ٤ ، ج ١ : ٥١ - ٢٥ ؛ الروضتين ، ٢١٠/١ ؛ المقريري السلوك ٣٥/١ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، الناصر صلاح الدين : ٦٥ - ٦٨ ؛ عبدالمنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين : ٤٥ - ٤٦ .

(٣) الشيال : تاريخ مصر الاسلامية : ١١ ؛

Lanepool, Saladin, P. 5.

الموصل^(١) ، حيث يقيم زنكي الذي أكرم متواهما عرفانا بالجميل الذي
اسدياه له كما جاء آنفا •

وفي الليلة التي غادر فيها نجم الدين أيوب تكريت ولد له يوسف
صلاح الدين^(٢) • وقد حمله معه الى الموصل سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م^(٣) •

ولما فتح اتابك زنكي بعلبك سنة ٥٣٤هـ ولي عليها نجم الدين أيوب •
وفي بعلبك قضى يوسف صلاح الدين طفولته الاولى • وكان يشاهد ، أو
يسمع - بين الفترة والاخرى - اعتداءات الصليبيين على البلاد العربية
الاسلامية • ففي سنة ٥٤٦هـ مثلاً أغار الصليبيون على سهل البقاع المجاور
لبعلبك فتصدى لهم نجم الدين أيوب^(٤) ، وكان يوسف صلاح الدين آنثد
في الرابعة عشرة من عمره ومن المحتمل جدا ان يوسف كان قد شارك
مع والده في تنفيذ الخطط الدفاعية ، أو شاهد عن كثب المعارك الدائرة ،
وعلى أقل احتمال فإن يوسف صلاح الدين كان قد شاهد نتائج التخريب
الذي قام به الغزاة على أطراف بعلبك ، وانها - دون شك - قد اثرت
في نفسه •

-
- (١) ابن الاثير : ٣٤١/١١ ، أبو شامة : ٢١٠/١ - ٢١١ ؛ ابن
العماد ، شذرات الذهب : ٢٢٦/٤ ؛ السلوك : ٤٢/١ •
(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ٥٥/١ •
(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين : ٦ ؛ الدواداري ، كنز الدرر :
٥١٤/٦ ؛

Lanepool, A History of Egypt, P. 191.

(٤) وكذلك ارسل ريموند امير انطاكية قواته العسكرية ، الى
القلع الاسلامية ، فاغارت على حماة وحلب • وتصدى لها أسد الدين شيركوه
بالعسكر الحلبي وهزمها واستنقذ أسارى منهم • انظر : أبو شامة ،
الروضتين : ٤٨/١ •

وفي نفس العام فارق صلاح الدين والده وعمل في خدمة عمه أسد الدين شيركوه في حلب . وقد كان أسد الدين هذا مرافقا لنور الدين ، الذي تولى قيادة الزنكيين بعد مقتل والده زنكي « فقدمه بين يدي نور الدين قبله واقطعه اقطاعا حسنا »^(١) . ومن تلك اللحظة أصبحت ليوسف صلاح الدين مكانة خاصة ومرموقة لدى المؤرخين والشعراء والادباء العامة وبدأنا نسمع عنه الحديث في كتب التاريخ من انه كان عزيز الجانب لدى السلطان نور الدين ، في الوقت الذي تقلد فيه أبوه نجم الدين حاكمية دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(٢) . وانه كثيرا ما كان صلاح الدين حلقة الوصل بين السلطان نور الدين وعمه شيركوه . فقد كان نور الدين يرسله الى عمه شيركوه لاستشارته في أمور الدولة وابطال المكوس والضمانات لان نور الدين « كان لا يفعل شيئا الا بمشورته »^(٣) ومن جملة من اوضح لنا هذا الدور ابن مخزوم الذي ذكر بأن صلاح الدين كان يتردد على بلاط نور الدين في دمشق^(٤) .

وفي هذه الفترة وبعد تولي والده أيوب ولاية بعلبك ، تلقى صلاح الدين العلوم الاسلامية ، وفنون القتال « وانه لقي من الرعاية والاهتمام ، باعتباره ابن والي المدينة ما لا يلقاه أبناء أواسط الناس ، فدرس القرآن والحديث والفقه ... فضلا عن فنون لعب الكرة والفروسية وغيرها من فنون أبناء الطبقات الحاكمة »^(٥) . ومن الأدلة على ذلك مرافقته

(١) نفس المصدر السابق : ٨٤/١ .

(٢) Lanepool, Saladin, P. 67-68.

(٣) ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية : ٤٢ - ٤٣ .

(٤) ابن مخزوم ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، م ٢ :

٧٧٢/٢ ؛ سعداوي التاريخ الحربي المصري : ٦ .

(٥) العريني ، مصر في عصر الايوبيين : ٢٤ .

لنورالدين^(١) ، ودراسته على أيدي العلماء كالأشيخ الامام قطب الدين النيسابوري^(٢) ، الذي قال عنه المقرئزي بأنه جمع لصلاح الدين عقيدة تحوى جميع ما يحتاج اليه ، وانه من شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده^(٣) . واطافة الى تعلقه بلعبة الجوكان^(٤) . المفضلة لدى نورالدين .

وبذلك يمكن ان يقال بأن صلاح الدين تربى على أيدي كبار اساتذة منطقة الشام والجزيرة في القرن السادس الهجري . فهو اضافة الى تروده على دور العلم والشيوخ ، فقد تلقى الدروس العلمية على أيدي والده نجم الدين أيوب وعمه أسدالدين شيركوه ، والسلطان نورالدين محمود بن زنكي ، الذين كانوا ممن تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز^(٥) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره ابن الفرات بقوله :

« ولم يزل صلاح الدين في كنف أبيه حتى ترعرع . فلما ملك الملك

(١) الروضتين : ١٠٠/١ ؛ جب صلاح الدين : ١١٨ ؛

Ency of Arabic Civilization, the Arab East (London, 1966), P. 459.

(٢) هو أبو المعالي مسعود بن محمد الفقيه الشافعي . قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ بعد ان كان قد درس القرآن في المدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن الجويني ، كما درس بالمدرسة المجاهدية ببغداد . وكان عالماً صالحاً ، جمع لصلاح الدين عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه في أمور دينه . وتوفي سنة ٥٧٨هـ بدمشق . ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ١٩٦/٥ - ١٩٧ .

(٣) المقرئزي ، السلوك : ٤٢/١ - ٤٣ .

(٤) الجوكان : وهي لعبة البولوا الرياضية الشرقية الاصل . كان يمارسها اللاعبون على ظهور الخيل ، فيتقاذفون كرة من الخشب بمضارب طويلة . انظر : جب ، صلاح الدين : ١١٨ .

(٥) أبو بكر جلال طه ، صلاح الدين أسد القارتين (بغداد ١٩٦٧) :

٢١ - ٢٢ .

العدل نور الدين دمشق لازم الأمير نجم الدين أيوب وولده يوسف خدمته • وكانت مخايل السعادة على صلاح الدين يوسف لائحة ، واستجابة تقدمه من حال الى حال ، والملك العدل يرى له ويأمره ، ومنه تعلم صلاح الدين طريق الخير ، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد • حتى ظهر للمسير مع عمه أسد الدين شيركوه الى الديار المصرية ••• ولم يزل أسد الدين آمرا وناهيا بالديار المصرية ، وابن أخيه صلاح الدين يباشر الامور بنفسه مقررًا لها لمكان كفايته وحسن رأيه ، وسياسته «^(١)» •

ورغم ان صلاح الدين قد أخذ الكثير مما تعلمه في سياسته من الرجال السابقين ، الا انه لم يكن مقلدا لهم تقليدا كاملا ، كما انه لم يكن مبدا كل الابداع • بل جمع بين الاصاله والتقليد ، بأسلوب فذ جديد يتلائم وعصره الجديد وأهدافه • ولو لم يكن تعبيره صادقا ، ومتماشيا مع روح عصره ، لما تمكن من الوصول للقيادة واكتساب النصر على الاعداء • ولهذا فلا ريب اذا امتدح صلاح الدين الشعراء ، وعدوه حلفا لواحد من اولئك الرجال ، وعلى الاخص نور الدين •

في سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م كان صلاح الدين متوليا لرئاسة شرطة دمشق ، نائبا لواليه ، تبعًا لذلك ، وكانت مهمة النائب فيها قيادة العساكر والمحافظة على النظام والسهر على جباية الخراج^(٢) • فظهر السياسة واحكم الامور فيها • فامتدحه الشعراء ثناء على استقامته ومنهم الشاعر عرقلة الكلبى المتوفى سنة ٥٦٧هـ بقوله :

رويدكم يا لصوص الشام فانسي لكم ناصح في مقالي
واياكم من سمي النبي يوسف ربّ الجحا والجمال

(١) تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١ / ٥٥ •

(٢)

فذاك مقطّع أيدي النساء وهذا مقطّع أيدي الرجال^(١)

وهذا يدلنا على شهرة صلاح الدين بقوته وعدله قبل توليته رئاسة الشرطة بدمشق بحيث ان الشاعر كان يحذر منه للصّوص ، وينبهم الى قطع الايدي الذي كان حكما شرعيا للصّوص كقاعدة اسلامية •

وفي دمشق كان رفيق صلاح الدين ومساعدته في ادارة شؤون الشرطة « الصفي ابن القابض » الذي كان يمدّه بالاموال ، ويقدم له المشورة والمساعدات^(٢) • كما كان صلاح الدين ، في دمشق أيضا ، يتردد على الفقيه العالم ابن عساكر الدمشقي^(٣) • وبذلك جمع صلاح الدين بين أساتذة الفقه والتاريخ ، والحديث والسياسة وقادة العساكر • فتخرج على أيدي اولئك الاساتذة والقادة سلطانا للمسلمين ، بعد ان ساعدته ظروف البلاد السيئة ، وبعد ان عرف كيف يستغل تلك الظروف فلم ينازعه أحد القيادة البتة مدة عشرين عاما تقريبا •

وعلى الرغم من الأدلة التي اثبتت استقامة صلاح الدين في شبابه ، فقد وردت بعض النصوص القليلة التي قالت بعدم تقيده ببعض الأحكام النهج الاسلامي واتهمته بشرب الخمر وتعاطي المحرمات حتى توليه الوزارة في مصر لدى الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٤هـ • يقول ابن ابي طي : « ولما استقر صلاح الدين أمره بالوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام

-
- (١) الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣ / ١ : ٢٢٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ق ١ : ٢٥٢ / ٨ •
(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٤١٣ / ٨ •
(٣) هو الحافظ أبو القاسم علي بن محمد ، كان محدثا وفقهيا • ولد سنة ٤٩٩هـ وتوفي سنة ٥٧١هـ • حضر صلاح الدين حفل تأبينه مع شيخه قطب الدين النيسابوري وصلى عليه صلاة الميت • انظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٣ / ٣٠٩ - ٣١١ •

بالشريعة والسياسة ، وقرب اليه أهل الفضل والاحباب وتاب عن شرب الخمر وعدل عن اللهو وتقص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع المبين «^(١) . ونظرا لانفراد هذه الرواية تقريبا وانحصارها في مصادر غير موثوقة بالنسبة لصالح الدين للاختلاف المذهبي بين الراوي وصالح الدين أولا . وسكوت المصادر الاصلية المعاصرة كآبن شداد مثلا عن هذه الرواية ثانيا فأنني ارجح ضعفها ، آزاء ثثرة الروايات القائلة باستقامته . اذ يستبعد ان يتولى منصب رئاسة الشرطة - وهو المنصب الذي يكون من اختصاص صاحبه محاربة المحرمات - رجل يعاقر الخمرة ويحب اللهو ، كما يستبعد أيضا ان يقع هذا في حكومة نورالدين الذي عرف عنه الخير والصلاح ، والامر بالمعروف واختيار اصالح الناس لتولي ادارة شؤون بلاده^(٢) . علما بأنه عرف عن صالح الدين انه كان ناسكا وفقهيا أكثر منه محاربا في شبابه^(٣) . حتى انه امتنع من الذهاب الى مصر^(٤) وفضل السلامة في الشام لمجالسته أهل العلم والدين كالشيخ قطب الدين النيسابوري سابق الذكر .

(١) ابو شامة ، الروضتين : ١٧٣/١ ، انظر أيضا أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر : ٦٥/٥ تجد فيه نفس الرأي ، بنفس الاسلوب تقريبا وهذا يدلنا على انه ربما اقتبس الرواية من ابن ابي طي .

(٢) ذكر العماد الاصفهاني - كاتب نورالدين - في معرض كلامه عند تفويض اشراف الديوان اليه من قبل نورالدين بأنه « كان ذكيا المعيا لا تخفى عليه الاحوال ، ولا تتبهرج لديه الرجال » انظر : البنداري سنا البرق الشامي : ١٢١/١ . ولمعرفة المزيد عن خلق نورالدين وعدله انظر : ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم : ٢٤٩/١٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ٤٠٢/١١ ؛ مؤنس ، حسين ، نورالدين (القاهرة ، ١٩٥٩) ، ٢٦١ - ٢٦٢ و ٣٩٣ و ٣٩٦ - ٣٩٧ .

(٣) هارولد لامب ، شعلة الاسلام : ٥٧ .

(٤) وبالرغم من الحياة الهادئة التي عاشها صالح الدين في الشام والتي فضل معها حياة العلم والدين . فقد تطلع الى حياة السلطنة والسيطرة

دخول صلاح الدين مصر وتقلده الوزارة الفاطمية سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م :

قبل ان يتولى صلاح الدين مسؤولياته الجسام ، كان يعيش في الشام ، وينظر عن كثب الى التطورات العسكرية التي كانت تحدث في المنطقة ، كالهجوم الصليبي على دمشق وبعليك آنف الذكر ، وتصدى نورالدين لها بمساعدة كل من والده أيوب وعمه شيركوه^(١) . وكان صلاح الدين يتأثر بتلك الاجواء ، ويشارك في الاحداث ، ويعد نفسه للمستقبل .

وفي تلك الاثناء حدث في مصر من الظروف ما حدد مستقبل صلاح الدين ودفعه للمسير اليها طوعا وكرها^(٢) . ففي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م اتخذ أموري الاول حاكم بيت المقدس الصليبي مسألة عدم دفع الجزية التي كان مقدارها ١٦ر٠٠٠ دينار والمقرر استلامها من الفاطميين ، ذريعة لغزو مصر مستغلا ظروفها القلقة ، حيث المشكلات الداخلية ، والصراع بين الوزراء ، وضعف الخليفة الفاطمي^(٣) . فقد سيطر الحاجب ضرغام

على مصر . لان توتر الحياة السياسية والعسكرية في المنطقة كان يحدو بكل انسان التفكير بالقوة والقيادة لانقاذ الاوضاع . وكان صلاح الدين أيضا من اولئك الشباب الذين فكروا بانقاذ الامة وكان انقاذ الامة مرتبطا بوحدها . ومعنى وحدتها ان تكون مصر - في كل اجحوال - تابعة للشام ، أو للقيادة العليا .

(١)

Look: Lanepool, A History of Egypt, P. 191.

(٢) ذهب صلاح الدين طوعا الى مصر في المرة الاولى سنة ٥٥٩هـ والثانية سنة ٥٦٢هـ وكرها في المرة الثالثة سنة ٥٦٤هـ بامر من نورالدين . انظر : ابن الاثير ، الكامل ٣٣٦/١١ ، أبو شامة ، الروضتين : ١٥٤/١ . (٣) كان وزير الخلافة الفاطمية آنئذ هو شاور ، وكانت أخلاقه في وزارته الاولى هذه مستورة باستمرار السلامة والطاعة ، الا انه قتل الناصر ابن الصالح بن رزيك الوزير السابق . وعمد الى الاستيلاء على كل أموال الوزير ابن رزيك . ورغم ما تمتع به شاور من كرم وشجاعة ، فان صراعه مع الامراء الآخرين من اجل الوصول الى الوزارة اضعف قواه وابعده عن

على الوزارة وابعدها عنها شاور ، مما دفع الاخير للمسير الى دمشق لطلب
العون من نورالدين^(١) ، لاعادته للوزارة في مصر .

رحب نورالدين بالعرض ، الذي يتفق وطموحاته في مصر ويخدم
أهدافه في توحيد الجبهة الاسلامية ضد الخطر الصليبي الذي ما فنى فادته
يتدخلون في شؤون مصر ، ويستحصلون منها أموالاً سنوية^(٢) . بالإضافة
الى كل ذلك وجد نورالدين في مصر مصدراً مهماً من المصادر التي يمكن
ان تزوده بالطاقة البشرية والموارد الاقتصادية^(٣) . وكان عرض الفاطميين
يحمل وعداً بالحصول على ثلث الايرادات المصرية وربما قصد أيضاً
اكتشاف أحوال مصر وسبر غورها^(٤) ، لانه كان يعتقد باهميتها في الجهاد

منصبه ، نتيجة سيطرة ضرغام - الملك المنصور - عليها ، والذي تولى منصب
الوزارة تسعة أشهر حتى ابعده عنها بفضل سياسة شاور الذي استدعى
الأتراك من دمشق ، مما دفع بضرغام للاستنجاد بالصليبيين ، وهكذا ازدادت
قوة الصراع في مصر بين الوزراء ، فبعد ان كانت بين شاور وضرغام أصبحت
الآن بين قوتين كبيرتين هما الأتراك من جهة والصليبيون وضرغام من جهة
أخرى ، وكانت النتيجة النهائية لذلك الصراع مقتل ضرغام وشاور وسيطرة
الايوبيين على الوزارة الفاطمية ثم على كل مصر بعد اسقاط الخلافة
الفاطمية . انظر : عمارة اليميني ، كتاب النكت العصرية في أخبار الوزارة
المصرية (شالون ١٨٩٧م) ٦٧ - ٦٨ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٧ ؛ محمد جمال الدين
سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٠) : ٩٣ - ١٠٥ .
(١) ابن الفرات ، التاريخ م ٤ : ٥٣/١ ؛ زيادة ، حملة لويس
التاسع على مصر : ١٢ الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية : ١٣/٢ ؛ العريني ،
مصر في عصر الايوبيين ٢٥ - ٢٦ .

(٢)

Stevenson (W.B.), The Crusaders in the East
(Cambridge, 1907), P. 286.

(٣)

Champdor, Saladin, P. 30.

(٤) وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين : ٥٤٣/٥ .

ضد الصليبيين^(١) وهكذا دفع اليها جيشا كبيرا بقيادة أبجد أصحابه
المصريين ، وهو شيركوه ، وبرفقته ابن أخيه صلاح الدين^(٢) . الذي كان
شابا يناهز السابعة والعشرين من عمره .

ولما خرجت الحملة النورية من الشام سمع بقدمها الوزير الفاطمي
ضرغام فأرسل على الفور يطلب العون من أموري حاكم بيت المقدس ،
ليدفع به شيركوه عن مصر . الا ان شيركوه سبق قدوم الصليبيين اليها ،
وتقدم نحو القاهرة ، والتقى بقوات ضرغام عند أسوار القاهرة . وانتهت
المعركة بهزيمة ضرغام واعادة شاور للوزارة الفاطمية^(٣) . ولم يتمكن
الصليبيون من انقاذ ضرغام ، بسبب اغارة نورالدين على ممتلكاتهم في
الشام^(٤) .

وقد كان صلاح الدين في هذه الحملة قائدا لمقدمة العسكر^(٥) .
فاظهر من المقدرة ما لفت الانظار اليه ، وما جعل الناس يتوقعون منه خيرا
ويؤمنون له مستقبلا . وقد ذكر السيوطي قوله : « وقد وقع في النفس ان
صلاح الدين سيملك الديار المصرية »^(٦) ، وترجى الشاعر عرقلة من الله
ان يملك مصر ليوسف صلاح الدين ، كما ملكها ليوسف النبي عليه
السلام^(٧) .

Stevenson, op. cit., P. 187.

(١)

(٢) ابن خلدون ، التاريخ : ٤٤٦/٥ - ٤٤٨ .

(٣)

Oumara du Yemen, op. cit., 11, P, 298, 299.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٠٣/١ .

(٥) ابن خلكان ، الوفيات : ٣٧٨/٢ .

(٦) السيوطي ، حسن المحاضرة في اخبار مصر (القاهرة ١٣٢١هـ) :

١٨/٢ : ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٥٢/١٢ .

(٧) بيومي ، قيام الدولة الايوبية : ١٠٦ .

اما نتائج الحملة فقد كانت ايجابية بصورة عامة ، الا ان شاور خان العهد ، وطلب من شيركوه العودة الى الشام دون ان يعطيه ما وعد ببذله لنورالدين^(١) . ولم يكن يتوقع من شيركوه الاستسلام لاوامر شاور ، بل تقدم الى بليس واحتلها ، بناء على نصيحة تقدم بها اليه صلاح الدين ، وجعلها مقرا لعمله وكان يغير منها على القاهرة بين الفترة والاخرى^(٢) . وقد اظهر صلاح الدين في هذه الفترة من الحزم العسكري ما جعل عمه أسدالدين شيركوه يعتمد عليه ، فعندما وصلت بعض القوات الصليبية الى القاهرة بطلب من شاور^(٣) ، انضمت اليها العساكر الفاطمية ، وتقدما الى بليس وحاصراها مدة ثلاثة أشهر . وكانت نتيجة الحصار الفشل نظرا للمجهود الذي بذله صلاح الدين وعمه ، في الوقت الذي هجمت فيه قوات نورالدين على الصليبيين في الشام ، واعادت حارم وبانياس الى أيدي المسلمين^(٤) . ولما علم الصليبيون في مصر بما جرى في الشام ، عرضوا الصلح على شيركوه ، وعادوا ادراجهم الى الشام .

وخلال هذه الحملة تطلع صلاح الدين وعمه شيركوه الى السيطرة على مصر ، بعد ان تعرفا على أحوالها ، وبعد ان تميزت وتجلت قابلية صلاح الدين العسكرية ، عندما دافع عن بليس . ولذلك ما ان عادا الى الشام حتى أخذوا يحرضان نورالدين للسيطرة على مصر ، وتطلع شيركوه

(١) كتاب النكت العصرية ، المصدر السابق : ٧٨ - ٧٩ ، زيادة ؛ حملة لويس ١٣ - ١٤ ؛ وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين : ٥٤٣/٥ ، العريني ، مصر في عصر الايوبيين : ٢٧ ، عمارة اليمني ، المصدر السابق : ٧٩ .

Lanepool: Saladin, P. 42. (٣)

Look: Oumara de Yémen, op. cit., PP. 312-313. (٣)

(٤) أبو شامة الروضتين : ١٦٧/١ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ١٣٤/١١ .

للقيام بحملة جديدة عليها^(١) ، بل كان من غير شك يتجهز للقيام بتلك الحملة^(٢) .

وقد اوضح المؤرخ أبو شامة ذلك الهدف بقوله : « وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ... يتحدث به مع كل من يثق اليه ، وكان مما يهيج على العودة زيادة حقه على شاور »^(٣) .

وهكذا خرجت الحملة الثانية الى مصر سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م ومعها صلاح الدين أيضا . وقد اضطربت الاحوال في مصر سياسيا وحقد شيركوه على شاور ووصلت جحافل الصليبيين الى مصر ، وقد ساعدتهم الفاطميون ، فتصرفوا في بعض البلاد ، فخاف شيركوه ان تقع بأيديهم^(٤) . ويضيف سبط ابن الجوزي سببا آخر وهو ان العاضد ، الخليفة الفاطمي ، هو الذي أرسل الى نورالدين يطلب مساعدته للحد من نفوذ شاور فقال : « ان العاضد كتب الى نورالدين محمود يستجده على شاور وانه قد اشتد الامر وظلم وسفك الدماء ... وان شاور قد أعطى الفرنج الاموال واقطعهم الاقطاعات »^(٥) .

تقدم شيركوه بألفي فارس الى مصر واستولى على القسطاط (الجيزة) فتعاقد شاور مع الصليبيين ، والتقى الطرفان عند منطقة البابين جنوب المينا

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٩٠/١ - ٩٤ ، ابن خلكان ، الوفيات : ٣٧٩/٢ .

(٢) حسن ابراهيم حسن ، الفاطميون في مصر : ٣٠٣ .

(٣) الروضتين : ١٤٣/١ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٥٢/١٢ ولمعرفة المزيد عن مسير هذه الحملة انظر : ابن الوردي ، التاريخ : ١٠٢/٢ - ١٠٣ ، الروضتين : ١١ : ١٤٣ ، الاصفهاني خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣ : ٦٢-٦٣ .

(٥) مرآة الزمان ، ق ١ : ٢٦٨/٨ : انظر : باشا ، تقويم النيل :

١٢٥/١ - ١٢٧ .

الحالية ، وكانت النتيجة انتصار شيركوه . وكان لمهارة صلاح الدين أثر في ذلك النصر الذي نجا فيه أموري الصليبي باعجوبة من المعركة^(١) . إذ كان صلاح الدين يقود قلب الجيش . ومن الطبيعي عادة ان يكون تركيز العدو في المعركة على القلب ، لانه يحمل - عادة - القائد والامراء . ومع ذلك تمكن صلاح الدين من احراز الانتصار على العدو حتى ان أبا شامة صرح تعظيما لذلك الانتصار بقوله : « وكان هذا من اعجب ما يؤرخ ان الفتي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »^(٢) .

وبعد هذا الانتصار تقدم صلاح الدين الى الاسكندرية ، التي كان عمه أسد الدين شيركوه قد ملكها بالامان وسلمه امر ولايتها^(٣) . وسار هو الى الصعيد واستولى عليه . وبعد ان استحصل أموال كبيرة منها لينفقها في مهمة الدفاع عن الاسكندرية والصعيد ضد الصليبيين والقوى المضادة

(١) الكامل : ١٤٦/١١ - ١٤٧ : ابن الوردي ، التاريخ : ١٠٢/٢ ؛
ماجد ، نظم الفاطميين في مصر : ١٢٤/٢ ؛ ماجد ، الناصر لصلاح الدين ،
٥٣ - ٥٤ ؛

Lanepool: A history of Egypt, 177-179.

(٢) الروضتين : ١٤٣/١ .

(٣) قيل ان أهالي الاسكندرية سلموه المدينة خوفا عليها من ان تقع بيد الصليبيين . انظر : أبو شامة ، الروضتين ١ : ١٤٣ وقيل ان أهالي الاسكندرية كانوا يدينون بمذهب السنة ، ويكرهون التشيع وانها كانت ملجأ لكل نائر مصري على الخلافة الفاطمية . وفي السجلات المستنصرية ما يدل على ذلك . انظر : زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر : ١٧ ، ماجد ، الناصر صلاح الدين : ٥٤ . واقرب الراء ان المذهب الشافعي كان منتشرا في الاسكندرية ، وكان أبي الحجاج يوسف بن عبدالعزيز الميوقري (ت ٥٢٣هـ) يدرس الشافعية فيها (محمد كامل حسين ، في أدب مصر الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٣) : ١٢٧ ولما كان صلاح الدين شافعيًا ، لذلك حدث ذلك التعاون بين الطرفين .

الآخري^(١) . في الوقت الذي أعاد فيه شاور والصليبيون تنظيم قواتهم العسكرية وهجموا على صلاح الدين الذي تحصن بقلع الاسكندرية ، وضربوا عليه حصارا دام تسعين يوما ، وقيل خمسة وسبعين يوما^(٢) .

وبالرغم من شدة الحصار ، فقد اثبت صلاح الدين خبرة ومقدرة في الدفاع عن المدينة خسر معها راحته وصحته ، حتى ان ذلك الحصار ولد صدمة في نفسه عبّر عنها بامتناعه عن الذهاب الى مصر في الحملة الثالثة معلنا : « والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليه ، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه »^(٣) .

ولما فشل شاور والصليبيون في القضاء على صلاح الدين بالاسكندرية - نتيجة لمقدرته وتعاون أهالي الاسكندرية معه ، والدور الايجابي الذي قام به شريكوه في جمع الرجال والاموال ، والتقدم صوب الاسكندرية لضرب المحاصرين^(٤) - فقد جنحوا لطلب الصلح^(٥) ، فوافق عليه

(١) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٢٦٩/٨ .

(٢) انظر الروضتين : ١٤٣/١ ؛

Stevenson, op. cit., P. 191.

(٣) الكامل : ٢٣٠/١١ ؛ الوفيات : ١٤٨/٦ - ١٤٩ .

(٤) حسن ابراهيم ، الفاطميون في مصر : ٣٠٥ .

(٥) قيل ان الصليبيين راسلوا أهالي الاسكندرية ووعدوهم برفع الضرائب عن رؤوسهم وأسواقهم شريطة تسليم صلاح الدين اليهم ، الا انهم رفضوا التعاون معهم ، وهذا يدل على صدق أهالي الاسكندرية وعدل صلاح الدين واستقامته في ادارة الاسكندرية كما يدل على ان الصليبيين استخدموا مختلف الطرق للقضاء على صلاح الدين ولم يفلحوا وان طلبهم للصلح كان اضطرارا وللإطلاع على مراسلة الصليبيين أهالي الاسكندرية انظر : نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ١٢ ؛ ماجد الناصر صلاح الدين : ٥٤ - ٥٥ .

صلاح الدين ، بعد ان لاحظ على أهالي الاسكندرية شيئا من الضعف ، نتيجة للحصار الشديد المضروب عليهم ، وقلة الارزاق والمؤن^(١) .

وتقضي الاتفاقية « ان الفرنج لا يقيمون بمصر ، ولا يستلمون منها أية قرية واحدة ، وان الاسكندرية تعاد الى المصريين »^(٢) . وعاد صلاح الدين الى الشام الا ان الصليبيين لم ينسحبوا من مصر الا بعد ان اتفقوا مع شاور بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون للفرنج من وارد مصر كل سنة مائة ألف دينار^(٣) .

والملاحظ ان الاتفاق الاخير كان فيه مخاطر كبيرة على مستقبل مصر وأمنها الداخلي ، قاست نتائجه السلبية في الحملة الصليبية الثالثة عليها سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م فقد كان من جملة تلك النتائج احراق مدينة الفسطاط . والسؤال الذي يمكن ان يطرح : هل علم الخليفة الفاطمي بتلك الاتفاقية التي وقعت بين شاور والصليبيين ؟ وهل رضي بنودها ام لا ؟ .

في الواقع ان سلطة العاضد كانت ضعيفة ، الا انها مع ضعفها كانت ذات تأثير مهم في السياسة العامة ، لانه كان «مصدر السلطات والاحكام ، وكانت قضايا الدولة لا تصدر الا باسمه وكان لابد ان يوقعها قبل اصدارها ، ومعنى هذا اطلاعه على بنودها . وفيما يخص الاتفاقية السابقة ، فقد قيل بأن رسولين من الملك اموري دخلا على العاضد لتوثيق الاتفاقية وهما : هيو حاكم قيسرية ، وجود فرى رئيس طائفة الدواية^(٤) ، وقابلا العاضد

(١) العريني ، المرجع السابق : ٣٠ .

(٢) الروضتين : ١٤٣/١ ؛ سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٢٨٦/٨ - ٢٦٩ .

(٣) الروضتين : ١٤٤/١ ؛ البداية والنهاية : ٢٥٢/١٢ - ٢٥٣ .

(٤) الدواية : Templers منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة فرسان المعبد . وقد اسس هذه الجمعية (Hugh de Payns) سنة

الذي وافق على المعاهدة مصافحة بالأيدي^(١) . وبمعنى آخر لقد وافق العاضد على ابقاء القوات الصليبية وتحكمها في مصر ، وتعاون مع شاور ضد شيركوه .

والظاهر ان العاضد وقع تحت تأثير شاور ، لصغر سنه ، وربما لضعفه ولم يكفر عن عمله هذا ، الا بما قام به سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م حيث استجد بنور الدين ليخلصه من الفرنج وظلم شاور . وموافقته صلاح الدين في القبض على شاور والامر بقتله .

ورغم انسحاب صلاح الدين وأموري حاكم بيت المقدس من مصر الا ان كلا منهما خلف له اثرا فيها . فصلاح الدين كان قد كسب شعبية أهالي الاسكندرية ومحبتهم ، اما أموري فقد ترك له حامية عسكرية في القاهرة . وهي التي أخذت تتحكم وتظلم ، وتراسل أموري بطلب العودة الى مصر والاستيلاء عليها . يقول ابن الاثير « تمكن الفرنج من البلاد المصرية . . . وحكموا على المسلمين حكما جائرا . . . وأرسلوا الى ملك الفرنج بالشام . . . يستدعونه ليملكها ، واعلموه خلوها من ممانع »^(٢) .

١١١٩م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ثم تحولت بعد ذلك الى هيئة حربية ، كان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية في منطقة الشام . اما اعداد هذه الطائفة فغير معروف وقد اشترك من هذه الطائفة حوالي ٣٠٠ فارس في معركة حطين ضد صلاح الدين . ولمعرفة المزيد عن هذه الطائفة انظر :

King, The knight Hospitallars in the Holy land (London, 1931), P. 1-5, 7-33.

رينتزر ، دراسات اسلامية : ١٠٨ - ١٠٩ ؛ يوسف ، العرب والروم : ٩٠ .
(١) زيادة ، المرجع السابق : ١٦ ؛ زكي محمد حسن ، كنوز

الفاطميين في مصر : ١٧ .

(٢) الكامل : ٣٣٦/١١ .

وقد اشار ابن كثير أيضا الى ضعف المسلمين في مصر وتواطؤ شاور معهم فقال : « وفيها طغت الفرنج بالديار المصرية ، وذلك انهم جعلوا شاور شحنة لهم فيها ، وتحكموا في أموالها ومساكنها أفواجا أفواجا ، ولم يبق شيء من ان يستحوذوا عليها ويخرجوا منها اهلها من المسلمين »^(١) .

وتنتيجة لكل ذلك تقدم الصليبيون الى مصر للمرة الثالثة في سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م بعد ان طلبوا مساعدة الامبراطور البيزنطي . اذ ارسل امور حاكم بيت المقدس وليم الصوري على رأس وفد لتبرير رغبتهم في فتح مصر ، وتشجيع الامبراطور مانويل على تقديم بعض المساعدات . وقد نجح الوفد في تحقيق مسعاه . الا ان الحملة الصليبية الثالثة الى مصر لم تنتظر وصول امدادات القسطنطينية بل تقدمت بسرعة نتيجة لضغط الصليبيين على اموري وحته على فتح مصر قبل ان يحتلها نورالدين^(٢) . ووصلوا الى بليس ونهشوها واحرقوها وسبوا اهلها^(٣) .

وقد صور وليم الصوري المؤرخ الصليبي - ما قام به الصليبيون من أعمال تخريبية واجرامية في بليس فقال : « ان الصليبيين خرجوا وسلاحهم بايديهم وأخذوا يقتلون كل من وجدوه من الرجال والنساء والشيوخ . ثم انهم اقتحموا البيوت فأجهزوا على من احتسى فيها ، وسلبوا كل ما عثرت به ايديهم »^(٤) . وقد خاف المصريون على انفسهم ، نتيجة تلك الاعمال القاسية « وتداخلهم منهم الرعب والخوف »^(٥) .

-
- (١) البداية والنهاية : ٢٥٥/١٢ ، ابن خلدون ، البر : ٢٤٧/٥ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٥٥/١ - ١٥٦ ، ١٥٩ .
(٣) ابن الاثير : ٣٣٦/١١ ، انظر : سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٢٧٥/٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١٩/١ - ٢٠ .
(٤) بيومي ، المصدر السابق : ١٣١ .
(٥) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ٢٤/١ .

ولما تيقن شاور قصد الصليبيين له بالقاهرة بعد احتلال بليس امر
باحرق الفسطاط لسوء تدبير منه^(١) . حيث فرق على المدينة عشرين الف
قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار واحرقها في تاسع صفر قبل نزول
الصليبيين عليها بيوم واحد^(٢) . وكان لحرقتها صدى بالغ الاهمية في نفوس
المصريين عامة ، واهالي الفسطاط خاصة . فقد اعلنوا حزنهم عليها كثيرا
وخرجوا منها مهاجرين الى القاهرة - كما يقول المقريري - كأنهم
خارجون من قبورهم يوم الحشر لا يلتفت احد الى احد^(٣) .

ولما وصل أموري الفسطاط هاله منظرها المخيف ، حيث وجد النار
فيها مشتعلة فتقدم صوب القاهرة بعسكره ونزلوا مما يلي باب البرقية ،
نزولا قارب القاهرة على بعد فرسخين منها^(٤) . وضاق الامر على شاور ،
وقرر استخدام الحيلة في ارجاعهم عن القاهرة فشرع بمراسلتهم ، وذكرهم
بما كان بينهم من مودة ، وطلب منهم عقد صلح يضمن مصالح الطرفين ،
وتكفل ببذل مال لهم قدره مليون دينار مصري يعجل بعضه ، ويؤخر
البعض . فوافق الصليبيون على العرض بعد ان عجل لهم شاور بمبلغ مائة
ألف دينار ، وسألهم الرحيل كي يتمكن من جمع باقي الاموال^(٥) .
فانسحبوا فرسخا عن القاهرة . ويقال انهم انسحبوا بعد ان علموا بتقدم

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس بذهاب دولة الافرنسيس : ١٨ .

(٢) انظر : الروضتين : ١٥٤/١ ؛ مفرج الكروب : ١٥٨/١ ،
الخطط : ١٤٣/٢ .

(٣) الخطط : ١٤٣/٢ ؛ انظر : السيوطي ، حسن المحاضرة :
١٨ - ١٩ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ٢٤/١ .

(٥) أبو شامة ، الروضتين : ١٥٤/١ ؛ ابن خلكان ، الوفيات :

١٤٨/٦ ؛ ابن أيوب ، منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة : ٢٦ .

الحملة النورية الثالثة الى مصر وخافوا على انفسهم الحصار^(١) .

وفعلا شرع شاور بجمع الاموال التي قرر ان يدفع بها عن القاهرة الدمار وظن بأن هذه الحملة سوف تنتهي بمبلغ من المال كما انتهت اليه سابقاها ، الا انه لم يتمكن من جمع أكثر من خمسة آلاف دينار ، وهي لا تفي بالقدر المطلوب وقد علل ابن الفرات أسباب قلة الاموال فقال . « ان أهل مصر [الفسطاط] كانوا قد احترقت دورهم وما فيها ، وما سلم نهب ، وهم لا يقدرّون على الاقوات فضلا عن الانبساط ، واما أهل القاهرة ، فالأغلب على اهلها الجند وغلماهم ، ولهذا تعذرت عليهم الاموال »^(٢) . وهكذا كان مع تعذرها تقدم الصليبيين لاحتلال القاهرة . مما دفع بالخليفة الفاطمي العاضد ان يكتب نورالدين ويطلب منه العون لدفع خطر الصليبيين عن مصر ، بعد ان ارسل في كتاب الاستغاثة شعور نسائه وقال له : « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتقذهن »^(٣) .

وبذلك كان للحملة الصليبية الثالثة على مصر اثر في استدعاء الحملة النورية الثالثة وبالتالي قيام الدولة الايوبية في مصر ، كما كان للقسوة الصليبية في بليس أيضا اثر ايجابي في تمكين الحكم الايوبي منها ، اذ دفع بالمصريين الى الالتفاف حول شيركوه وصلاح الدين باعتبارهما المنقذين للذين قدما من الشام لانقاذ القاهرة من الدمار الذي يمكن ان يصيبها لو دخلها الصليبيون كما دخلوا بليس^(٤) .

(١) انظر سعداوي ، المصدر السابق : ١٤ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ٢٥/١ .

(٣) الكامل : ٣٣٦/١١ - ٣٣٧ ؛ راجع أيضا : الروضتين : ١٥٤/١ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٦٢/٥ - ٦٤ .

(٤) كان شاهد عيان للحملة النورية الثالثة الى مصر الشاعر عمارة اليمني الذي ذكر بان قدوم الصليبيين الى بليس وقتلهم واسرهم من كان

وهكذا اذن اضطر الخليفة الفاطمي الى الاستغاثة بنورالدين رغم
الاختلاف العقائدي بين الجانبين بدافع المصلحة • فلبى نورالدين النداء ،
لانه كان يترقب الفرص منذ أيام الحملة النورية الاولى سنة ٥٥٨ هـ لضم
مصر الى الشام • اذ جاءت الدعوة بعد مضي ست سنوات تشده اليها شدا
وبرضاء تام من قبل العاضد الذي طلب بكتاب الاستغاثة « ان يكون اسدالدين
شيركوه مقيما بها [أي مصر] عندهم والتزم له باقطاعات زائدة على
الثلاث » (١) •

ولم يكن استيلاء الصليبيين على بليس ومحاصرتهم القاهرة ، وطلب
العاضد الاستغاثة من نورالدين الدافع الوحيد للحملة النورية الثالثة للقدوم
الى مصر بل كان الى جانب ذلك أسباب أخرى تتعلق بشؤون مصر الداخلية
ونظم الحكم الفاطمي ، والتي كانت غير مستحبة عند المسلمين السنيين عامة
ونورالدين خاصة • وقد اجمل صلاح الدين تلك الاسباب بكتاب أرسله
للخليفة العباسي الناصر لدين الله بعد سقوط الخلافة الفاطمية فقال :
« وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما عليه الاحوال من سوء التدبير ••• وان
النظام قد فسد • والاسلام بها قد ضعف ••• والفرنجة قد احتاج من
يدبرها الى ان يقطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وان كلمة
السنة وان كانت مجموعة فانها كانت مجموعة ••• وكاتبنا المسلمون من

فيها ، ثم احراق الفسطاط هو الذي دفع الى مكاتبة نورالدين « وانجاده
كلمة الاسلام بأسدالدين ومن معه من المسلمين الذين قلت فيهم وقد ربط
الافرنج الطريق عليهم :

اخذتم على الافرنج كل ثنية وقلتم لا يدي الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

انظر كتاب النكت العصرية ، المصدر السابق : ٨٠ •
(١) ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٥٥/١٢ •

مصر ولقد كان قصر الخلافة مملوء بالمنكرات والبدع وبها [القاهرة]
عسكر من الارمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية كانت لهم
شوكة « (١) » .

اضف الى ذلك ان نورالدين كان يعلم بأن الخلافة الفاطمية قد
ضعفت ، وان ضعفها هذا لا بد ان يشكل اغراء يدفع الصليبيين لغزو مصر .
لذلك ارسل اليها حملته الثالثة في الوقت المناسب لتحقيق ثلاثة أهداف
رئيسة هي قلب الخلافة الفاطمية الشيعية ، وتوحيد سوريا ومصر ومتابعة
الحرب ضد الصليبيين حتى النهاية (٢) .

ونتيجة للعوامل السابقة مجتمعة استدعى نورالدين قائده العسكري
المعتمد من حمص لارساله الى مصر « فساق في ليلة واحدة من حمص الى
حلب واجتمع بنورالدين » (٣) . ولقد كان لهذه الخطة التعبئة الجيدة
التي اتبعها شيركوه أثرها في تكوين سياسة صلاح الدين . لانه اتبع نفس
الاسلوب كما سيتبين في الفصول القادمة . وبعد ذلك الاجتماع امر
نورالدين شيركوه بالتوجه الى مصر وجهازه بما يحتاج اليه من العدد
والعدة ويقال انه اعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة .
وجعله قائدا عاما لتلك الحملة . كما جهازه ستة آلاف فارس ، اختار منهم
الفين بنفسه وأعطى نورالدين لكل واحد منهم عشرين دينارا معونة غير
محسوبة ، واطاف اليه جماعة من الامراء والمماليك منهم عزالدين جورديك
وغرس الدين قليج وشرف الدين بزغش وعين الدولة الياروقي وصلاح الدين

(١) القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى في صناعة
الانشا : ٨٣/١٣ - ٨٤ .

(٢) حتي ؛ فيليب ، لبنان في التاريخ : ٣٦٤ .

(٣) أبو شامة ، الروضتين : ١٥٥/١ .

الإيوبي الذي ذهب على كره منه^(١) . فقد الزمه نور الدين بالذهاب الى مصر صحبة عمه بعد ان ازاح علله واعطاء ما يحتاج اليه وربما كان بعض اولئك الامراء الذين صحبوا الحملة النورية الثالثة الى مصر عيوناً على شيركوه واتباعه في الباطن ، لرصد تحركاتهم ، وفي الظاهر عوناً لهم^(٢) ، كما سيبدو - فيما بعد من تصرفات الامير الياروقي وجرديك وشرف الدين بزغش .

وفي منتصف ربيع الاول سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وصلت الحملة حدود مصر . ولما علم الصليبيون بقدمها رحلوا عن مصر خائنين دون ان يحققوا شيئاً من أهدافهم ، ودون ان يستلموا من شاور الاموال التي وعدهم بها . وبذلك صفا الجو لشيركوه وتقدم بأمان الى القاهرة ودخلها في ١٧ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م^(٣) ونظراً لما تمخض عنه ذلك الدخول من النتائج الايجابية على مستقبل مصر خاصة والعالم الاسلامي عامة ، فقد عدّه المؤرخون « فتحة جديدة لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها »^(٤) . وقد استقبل المصريون الحملة النورية بالترحاب وخرج العاضد للقاء شيركوه

(١) الكامل : ٣٣٨/١١ ؛ الروضتين : ١٥٥/١ ؛ ابن شداد ، النوادر : ٣١ - ٣٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٦٠/١ - ١٦٥ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامى ٧٧/١ ؛ ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٥٥/١٢ ؛ ابن خلكان ، الوفيات ١٤٨/٦ - ١٤٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر : ٦٢/٥ - ٦٣ ؛ جب صلاح الدين : ١٥٤ ؛ عاشور الناصر صلاح الدين : ٦٩ - ٧٠ .

(٢) بيومي ، المصدر السابق : ١٣٤ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر : ١٤٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣٢٧/٢ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ٥ : ٣٥١ - ٣٥٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ق ١ : ٢٧٧/٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ٣٣٩/١١ .

ويقال انه اجتمع به « متكرا واسر اليه امورا مهمة منها قتل الوزير شاور » (١) .

ولا عجب ان يطلب العاضد قتل شاور لسوء تدبيره . الا ان هذا الطلب (مقتل شاور) لم يكن السبب الوحيد الذي يدعو شيركوه لقتله بل لمأطلته اياه في دفع ما كان قد وعد من أموال وإقطاعات للعساكر . وأخيرا لم يكن بد من الموافقة على قتله بعد ان كشفه صلاح الدين وهو يدبر مؤامرة لقتل شيركوه (٢) . وهذا ما عجل بالقضاء عليه ، حيث قبض عليه صلاح الدين عند ذهابه الى قبر الامام الشافعي (٣) في القاهرة وقتله بعد موافقة العاضد وشيركوه (٤) .

وبمقتل شاور بدأ فصل جديد في العلاقات الايوبية الفاطمية ، لان العاضد اتخذ شيركوه وزيرا له ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش وقلده أمور الدولة وجاء في أمر تعيينه « وقلدك أمير المؤمنين امر وزارته وتدير

(١) ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٥٦/١٢ .

(٢) انظر الروضتين : ١٥٧/١ .

(٣) الشافعي : أبو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس ، كان كثير المناقب ، جم المفاخر ، اجتمعت فيه العلوم بكتاب الله وسنة رسوله (ص) وكلام الصحابة وآثارهم ، كما اشتهر بمعرفته باللغة العربية والشعر . (القنوجي ، أبي الطيب ، التاج المكلل (القاهرة ١٩٦٣) : ١٠٢ - ١٠٥) وكان مولده بغزة سنة ١٥٠ هـ وتلقى العلوم على يد شيوخ من المدينة ومكة والعراق منهم انس بن مالك والاوزاعي والقداح والطار وسفيان بن عيينه ، واشهر مؤلفاته الام والرسالة . (ابو زهرة ، الشافعي (القاهرة ، ١٩٤٨) : ١٤ و ٤٥) وقد انتشر مذهب الشافعي في مصر كثيرا وكذلك في العراق وخراسان وقاسم الحنفية في الفتوى والتدريس . وبعد ملك صلاح الدين لمصر عمل على نشره هناك بشكل منظم وواسع . (ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة ، مطبعة مصطفى محمد) : ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٤) ابن ايوب ، منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حمة : ٢٥٧ .

مملكته ... وكفالة قضاء المسلمين»^(١) . وقد أظهر السياسة وكسب محبة المصريين والتف الناس حوله لان سياسة الارهاب التي اتبعها الوزراء الفاطميون في مصر ، والمطالب المالية الكثيرة التي ارهقوا بها الشعب ، كانت هي النتيجة في ترحيب الشعب باخلاص من الظلم^(٢) . وقد مدحه العماد الكاتب بقصيدة جاء في مطلعها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جنيت من دوحة التعب^(٣)

ولم يمكث شيركوه في الوزارة الفاطمية سوى شهرين وخمسة أيام ، فقد توفي يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ (٢٣ آذار ١١٦٩ م) وحل محله في منصب الوزارة صلاح الدين^(٤) ، ويمكن ان نجمل الاسباب التي

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ، جمعها وحققها جمال الدين الشيال (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ١٧٢ .

(٢) انظر : أبو الفدا ، التاريخ المختصر : ٦٣/٥ : الكامل : ٣٤١/١١ ؛ ابن الوردي : التاريخ : ١٠٦/٢ .

(٣) اوضح العماد في قصيدته السابقة لشيركوه بان فتحه لمصر سيكون ميسرا لفتح بيت المقدس ، ودفعه لفتح بقية البلاد وازالة الشرك الموجود فيها . ودعا له بالخير واعتبره ابا للمصريين لانه انقذهم من الوزير الفاطمي شاور الذي اطمع الصليبيين في بلاد الاسلام وحثهم على المسير الى مصر وتخريبها . ثم اعتبر دخوله لمصر بداية لعصر جديد فيه حلت النعمة في مصر بدل النقمة والنور عوض الظلام وقد ختم القصيدة بالبيت التالي تشجيعا له للقضاء على الفاطميين والصليبيين قضاء تاما فقال :

لا تقطعن ذنب الاعمى وترسلها فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب
انظر : أبو شامة ، الروضتين : ١٥٩/١ - ١٦٠ .

(٤) خيل ان اسدالدين شيركوه توفي بمرض الخوانيق لشدة مواظبته على تناول اللحوم الغليظة ، فتوافر عليه التخم حتى ارداه قتيلا انظر : (النوادر السلطانية : ص ٤٠ الروضتين : ١٦٠/١) بعد مضي تسعة أسابيع من توليته منصب الوزارة ، وكان صلاح الدين خليفته الطبيعي

دفعت الخليفة الفاطمي لاختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة بما يلي :

عندما توفي شيركوه لم يكن صلاح الدين يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، وقد ثار النزاع بين جماعة الامراء النورية الذين كانوا بمصر وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية كالياروقي وبرزغن وعزالدين جورديك المنوه عنهم سابقا . وقد جمع كل منهم أصحابه ليغالب عليها الآخرين . وكانت النتيجة النهائية ميلهم جميعا الى صلاح الدين بفضل ما قام به الفقيه الهكاري من تمهيد الامور لصالح صلاح الدين فقد ذكر الحارمي بعامل القربى وقال له : « هذا صلاح الدين ابن اختك وعزه وملكه لك »^(١) . ثم اجتمع الهكاري مع كل واحد من الامراء على جهة واقفهم جميعا ما عدا الياروقي « فانه قال : انا لا اخدم يوسف وعاد الى نورالدين بالشام »^(٢) غير ان نورالدين لم يعجبه مخالفة الياروقي لصلاح الدين ولا مه على فعله^(٣) . وهذا يدلنا على حسن العلاقة بين الطرفين خلال هذه الفترة ورغبة نورالدين في ان يكون صلاح الدين خلفا لعمه شيركوه في الوزارة .

ولما رأى العاضد اجماع الكلمة على صلاح الدين بعث اليه بخلع الوزارة خاصة « وان شيركوه كان قد خلف خمسمائة مملوك ، وهم الاسدية (نسبة الى اسمه أسد الدين) فمالوا كلهم الى صلاح الدين يوسف »^(٤) . وربما كان السبب في هذا الميكل اختلاط صلاح الدين بهم

(ج ب ، صلاح الدين ص ١١٩) وقد دفن في مصر ثم نقل جثمانه الى المدينة المنورة لتشيده (السخاوي ، التحف اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (القاهرة : ١٩٥٧) : ٢ / ٢٨٥) .

(١) الكامل ٣٤٤/١١ .

(٢) نفس المصدر السابق : ٣٤٤ .

(٣) ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٥٧/١٢ .

(٤) ابن الفرات ، التاريخ ، م ٤ : ٥٦/١ .

ومشاركته اياهم الحروب العديدة التي خاضوها ضد الصليبيين وعسكر
شاور وضرغام من قبل على حدود القاهرة والاسكندرية وبليس ... الخ
وربما كان صلاح الدين يخطط لمثل هذا اليوم فكان يستميلهم اليه • اضعف
الى ذلك ان صلاح الدين كان قد كسب محبة العاضد ووقع منه ، كما يقول
ابن أبي طيء « بموقع اعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على شاور
في موكبته وانه قتله حين جاء امره ولم يترصص ولا توقف » (١) •

تلك هي الاسباب المعقولة التي كانت وراء تولية صلاح الدين منصب
الوزارة الجديد ، رغم ما اثير حولها من بعض الشكوك كالتى ذكرها العماد
الكاتب في البرق الشامي من ان الامراء النوريين اجتمعت كلمتهم على
صلاح الدين ، وانهم الزموا العاضد بتوليته الوزارة (٢) • وهو امر بعيد
الاحتمال لان العاضد هو الذي اختار صلاح الدين ، وقد تبين الدليل من
قبل ، كما ذكر ابن الاثير رأيا آخر ، اقتبسه منه المؤرخون من بعده ، مفاده
ان العاضد اختار صلاح الدين للوزارة لضعفه وصغر سنه وانه قد اجتمع
باصحابه فقالوا : « ليس في الجماعة اضعف ولا أصغر سنا من يوسف ،
والرأي ان يولي ، فانه لا يخرج من تحت حكمنا ، ثم نضع على العساكر
من يستميلهم لنا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد » (٣) ثم نطرد
بعد ذلك كل من يخالفنا • وقد ورد في الصفحات السابقة ما يدل على

(١) الروضتين : ١٧٣/١ •

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ٦٢/١ - ٦٣ •

(٣) الكامل ١١ : ٣٤٣ ، اخذ عنه الرأي ابن الفرات ، المصدر
السابق م ٤ : ٥٦/١ وكثير من المراجع منها : البيومي ، قيسام الدولة
الايوبية : ١٥٢ - ١٥٣ ؛ أبو حديد صلاح الدين : ٦٧ ؛ محمد جمال الدين
سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ١١٠ ؛ تاريخ مصر الاسلامية
٢١/٢ : المناوي ، الوزارة : ١٦٦ •

شجاعة صلاح الدين •

ثم من قال ان رجلا يناهز عمره الثانية والثلاثين صغير !! اضافة الى ان اليسيف الفرنسي اورد رأيا ثالثا يناقض الرأي الثاني جاء فيه ان صلاح الدين هو الذي سيطر على الوزارة بعد ان كسب الامراء الى جانبه^(١) •

مما سبق يبدو ان وصول صلاح الدين للوزارة كان لاسباب عديدة يمكن اجمالها في اجماع الكلمة عليه وميل الاسدية اليه ومساندتهم له ، وهذا من أهم العوامل ، اضافة الى رغبة العاضد في ان يكون صلاح الدين وزيره • وان عامل الضعف ، أو الفرض بالقوة أو السيطرة التي جاء بها ابن الاثير والعماد الاصفهاني والكاتب الفرنسي اليسيف ، هي عوامل متناقضة اضافة الى انها تؤدي الى نتائج عكسية • اذ لو فرض صلاح الدين ، أو سيطر بالقوة على الوزارة الفاطمية لاثار غضب العاضد والامراء النوريين ، ولدفعهم ذلك الى محاربته والايقاع به •

كما ان الامراء النوريين هم الذين اختاروا صلاح الدين واجمعوا عليه ثم انه لو كان صلاح الدين ضعيفا لخرجت الوزارة من يده لابسطة مشكلة حدثت في مصر ، وهذا ما لم يحصل علما بان منشور تولية صلاح الدين الوزارة ليدل دلالة واضحة على ان العاضد اختار صلاح الدين لشجاعته وانه ينوي الاعتماد عليه •

وقد اورد ابن خلكان وابن الفرات وغيرهما نص منشور الوزارة الصادر باسم الخليفة الفاطمي ، وبرفته خلعة الوزارة التي كانت ثمينة للغاية

(١) Elisseeff, Nur Ad-Din 1118-1174 (Damas, 1967), 11, P. 724.

الى صلاح الدين^(١) . بعد ان اسماه بالملك الناصر وكان ذلك يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤ (٢٦ آذار ١١٦٩ م) وخلاصة المنشور ما يلي :-

أولا - اعتبر العاضد نفسه أمير المؤمنين ، وان الله آثره بالمقام في عصره لوحده ، بعد ان رفع قدره وجعل الامامة محفوظة في عقبه . وان صلاح الدين ، انما بعثه الله للعاضد ليعضد به الحق ، وينجد به الامة ووصفه بقوله : « صلاح الدين كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، ابي المظفر يوسف بن أيوب العاضدي عضد به الدولة . . . » .

ثانيا - ان اختيار صلاح الدين كان اختيارا من العاضد بنور الله ، ليقوم بخدمة الدولة وتقدمه الجيوش ، وان ذلك الاختيار كان موقفا بحيث غدا صلاح الدين كما ذكر المنشور : « ورمى بك فأصاب ، وسقى بك فصاب . . . وسددك سهما وجردك شهما . . . وآثرك على آثر ولده امانة في التدبير وحربا وكنت في السلم لسانه . . . وفي الحرب سنانة . . . »^(٢) . ومن ذلك نرى بأن العاضد كان قد أحب

(١) يقول ابن ابي طي : « وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء نيسي بطراز ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطراز ذهب وطيلسان ديبقي بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلي مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية اسبق منها وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر . . . ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء اخر ومنشور الوزارة ملفوف بثوب اطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة » الروضتين : ١/١٧٣ : البداية والنهاية : ٢٢٧/١٢ .

(٢) انظر نص منشور تولية صلاح الدين الوزارة في : تاريخ ابن الفرات : ج ٤ م ١ : ٥٧ - ٦٥ ، وقد اقتبست منه النصوص الواردة أعلاه .

صلاح الدين وقرّبه اليه لانه وجد فيه الخير ، وانه سوف يقوم
الباطل ويعضد العاضد .

وذكر في المنشور بخصوص الاختيار على لسان العاضد قوله :

« ولقد سبقا (أمير المؤمنين) الى اختيارك قبل قول لسانه بضمير
قلبه ، وذكر فيك قول ربه (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه) وقلدك
لانك سيف من سيوف الله تعالى يحق به التقليد ، وله التقليد ، واصطفاك
على علم بأنك واحد منتظم في معنى العديد . . . » .

ثالثا - ان الخليفة العاضد كان قد فوض لصلاح الدين امر القضاة والدعاة
وجعلهم بين « كفالتك وهديك » ، والتصريف على امرك ونهيك » ،
كما فوض اليه امر الجهاد والتصرف بالاموال ، وحثه للاستيلاء على
البلاد المجاورة لزيادة الاستثمار فقال له : « فقدم للبلاد الاستعمار ،
تقدم لك الاستثمار » وربما كان مقصده الاستيلاء على البلاد الشرقية
بما فيها الحجاز والشام ، لانها كانت تحت سيطرة بغداد ، أو خاضعة
لنفوذ الصليبيين^(١) .

وقد تقبل صلاح الدين المنشور بقبول حسن وزرع له في القلوب
الفضل والاحسان مما دفع بالمصريين الى محبته ، اذ أصبح صلاح الدين بعد
ذلك المنشور وزيرا لخليفة شيعي ، ونائبا لملك سني ، وأصبح يدعى له في
المساجد كل يوم جمعة باسمه المزدوج المثالي « الملك الناصر صلاح الدين »^(٢)
وكون صلاح الدين ، السني المذهب ، وزيرا لخليفة شيعي لم يكن فيه شيء
من الغرابة « لانه طيلة قرن تقريبا كان هناك وزراء سنيون على فترات

(١) انظر النصوص الواردة أعلاه في تاريخ ابن الفرات ، م ٤ ، ج ١
(٥٧ - ٦٢) .

(٢) Lanepool, A. History of Egypt, P. 191.

متعطعة في مصر» (١) . اضيف الى ذلك العدد الكبير من علماء مذاهب السنة الذين كانوا يعيشون في أنحاء مختلفة من مصر ، ويلقبون تعاليمهم على جمهور المستمعين . منهم القاضي الشافعي أبو الفضل محمد بن أحمد البغدادي ، نزيل مصر والمتوفى فيها سنة ٤٤٧هـ ، وأبو الفتح سلطان بن ابراهيم القدسي المتوفى سنة ٥١٨هـ وغيرهم (٢) .

ورغم ذلك التقارب بين الوزير والخليفة لم يكن صلاح الدين ليرضى بتلك النتائج الاولى التي حصل عليها . لان هدفه كان يكمن في القضاء على الخلافة الفاطمية . لانه « كان ملزما بمبادئه في ارجاع مصر الى الولاة العباسي . لكن الضرورة دعت الى تمهيد السيل امام التغيير » (٣) .

رابعا - سياسة صلاح الدين العامة منذ توليته الوزارة حتى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م :

لما استقر صلاح الدين بمنصب الوزارة في مصر قام بتنفيذ أعمال عديدة يمكن من خلالها ان نقول : لقد كان صلاح الدين يعد نفسه للقيام بانقلاب شامل وعاجل داخل مصر في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وكان اولى تلك الاعمال تثبيت مركزه في مصر بعد ان « رأى النظر في حق أعوانه ، وأوليائه اولى وسد خللهم واغناهم احرى ، فاقطع الاجناد البلاد واعطى الامراء والاصحاب من القرى نفائسها » (٤) . كما أرسل الى أبيه واخوته يستدعيهم الى مصر للتعويض عن مكان الضباط المشكوك في ولائهم للدولة (٥) . وقد استجاب نورالدين لطلب صلاح الدين وجهاز والده

(١) جب ، صلاح الدين : ١٢٠ .

(٢) حسين ، في أدب مصر الفاطمية : ١٢٧ .

(٣) جب ، نفس المصدر والمكان السابق .

(٤) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ٦٧/١ .

(٥) Lonepool, A History of Egypt, P. 192.

(٥)

واخوته ، وسير معهم عسكريا لحمايتهم^(١) . وقد خرج معهم خلق كثير من التجار ، ليأمنوا على انفسهم ومتاعهم . وقد خاف نورالدين عليهم فخرج معهم يوصلهم حتى وصل الكرك^(*) فحاصره ليشاغل به الصليبيين ، كي تصل القافلة مصر بسلام ، وكان قد اوصاهم بالسمع والطاعة لصلاح الدين^(٢) وهذا يدلنا على ثقة نورالدين بصلاح الدين واطمئنانه الى ولاء أيوب .

وقد مدح الشاعر عمارة اليميني^(**) صلاح الدين بقصيدة بمناسبة قدوم والده واخوته الى مصر جاء فيها :

(١) يذكر الاصفهاني بأن أيوب هو الذي استأذن من نورالدين بالذهاب الى مصر (انظر : سنا البرق الشامى : ٨٩/١ - ٩٠) بينما ذكر ابن أبي طيء بان نورالدين هو الذي ارسل أيوب الى مصر ، بعد الحاح الخليفة العباسي عليه بقطع الخطبة الفاطمية وعدم تأخيرها فاضطر الى تكليف أيوب مهمة ابلاغ ولده صلاح الدين بامر الخليفة وارسله الى مصر . (الروضتين : ١٨٣/١ - ١٨٤) .

(*) حصن الكرك : حصن منيع ، له ربض وعليه سور ، وبين الربض والقلعة خندق عميق استولى عليه الرهبان ووسعوه على حساب المناطق المجاورة . واستدعوا اليه طائفة من الصليبيين المجاورين لهم . وجعلوا يشنون منه الغارات على القرى الاسلامية المجاورة ، الى ان أجلوا عنها أهاليها وصيروها عملا لهم تحميها سيوفهم . وقد حاصر صلاح الدين هذا الحصن عدة مرات ، ولم يتمكن من فتحه حتى سنة ٥٨٤ هـ . (ابن شداد ، الاعلاق الخيرية بذكر امراء الشام والجزيرة ، ق ٢ : ٦٩-٧٣) .

(٢) الكامل : ٣٥٢/١١ : الروضتين : ١٨٣/١ : النوادر السلطانية : ٤٤ ؛ ابن العديم ، الزبدة : ٣٢٩/٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، النجوم الزاهرة : ٦/٦ - ٧ ؛ ابن كثير ، البداية : ٢١٦/١٢ ؛ باشا ، تقويم النيل : ١٢٧/١ .

(**) عمارة اليميني : هو عمارة بن زيدان أبو محمد اليميني . ولد في تهامة اليمن ، كان شافعي المذهب ، الى انه تحول الى المذهب الشيعي بعد استقراره في مصر حيث كانت الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي . وقد عمل لدى كل من الوزير الفاطمي طلائع بك زريك وضرغام وشاور . (ذو

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبا لمعجزة أتت في عصره والده ولاد لكل عجيب
رد الاله به قضية يوسف نسقا على ضرب من التقريب
جاءته اخوته ووالده الى مصر على التدريج والترتيب
فاسعد باكرم قادم وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب^(١)

وبالاضافة الى ما سبق قام صلاح الدين بتفقد عام للقوات العسكرية
الموجودة في مصر ، وعكف على التخلص من الامراء المصريين والعربان
والارمن والسودان لانه اعتقد بأن بقاءهم في القوات العسكرية يشكل خطرا
على سياسته الهادفة الى اقامة الدولة الجديدة^(٢) . علما بان الفرقة الاسدية
التي انشأها أسدالدين شيركوه والامراء الاكراد الذين كانوا بمصر انضموا
جميعا الى صلاح الدين ، ولم تنقض سنة على توليته الوزارة الا وكان « قد
شكل فرقة خاصة من الحرس تدعى الصلاحية »^(٣) . كما استعان
صلاح الدين بالمماليك الاتراك لانه وجد ميسر الحاجة الى من يشدّ ازره
وينصره على أعدائه عند الازمات^(٤) . وبذلك سيطر صلاح الدين على أهم

النون المصري ، عمارة اليمني (القاهرة ١٩٦٦) : انظر صفحة ٢٦ ، ٢٩ ،
٤٩ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ١٠٠) وبعد ان اسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية ،
تعاون عمارة مع اتباع الدولة الفاطمية للقضاء على الدولة الايوبية ، والف
عدة قصائد في ذم صلاح الدين ، وقيل في الزندقة لذلك امر صلاح الدين
بقتله ، فقتل انظر : أبو شامة ، الروضتين : ٢١٩/١ - ٢٢٤ : المصري ،
المصدر السابق : ٦٠ - ٦٣ : حسين ، في أدب مصر الفاطمية ٢٥٤ - ٢٥٨ .
(١) الروضتين : ١٨٣/١ .

Elisseeff, ou. cit., 11, P. 724.

(٢)

(٣) جب ، المصدر السابق : ١٥٥ .

(٤) المصري ، حسين مجيد ، صلات بين العرب والفرس والفرس

والترك (القاهرة ، ١٩٧١) : ٣٠٤ .

جزء من القطاع العسكري ، ومن ثم توجه الى القطاع المدني ، الى عامة الشعب المصري ، ووجد في حل مشاكلهم الاقتصادية خير وسيلة لكسبهم فابطل المكوس والمظالم التي كانت الدولة تجبي منها سنويا مائتي الف دينار^(١) .

وكان من الطبيعي ان يشور على هذه السياسة كل المتضررين أو الذين خشوا على مناصبهم ان تزول كرجال القصر الفاطمي والجند السودانيين . لذلك كله دبّر جوهر بن عبدالله مؤتمن الخلافة^(*) والجند من السودان بالاشتراك مع كبار رجال القصر الفاطمي مؤامرة ضد صلاح الدين مستندين الى الجند السودان ، وبالتعاون مع الصليبيين^(٢) . مؤامرة خطيرة قضت بهجوم الصليبيين على مصر ، وعندما يخرج صلاح الدين لصدهم ، يكون الفاطميون في مصر قد ثاروا على صلاح الدين في الداخل وقبضوا على اعوانه واستلموا الحكم منه^(٣) .

وقد رحب الصليبيون بالعرض لانه يخدم أهدافهم القاضية بتحطيم الوحدة القائمة بين مصر والشام والتي تعرض دولتهم في فلسطين الى المخاطر^(٤) .

(١) الروضتين ، المصدر السابق : ١٧٤/١ .

(*) كان جوهر مؤتمن الخلافة استاذ الدار عند الفاطميين بمصر وكان خصميا . وكان الفاطميون يطلقون لقائده القواد العسكرية لقب (استاذ الدار) انظر : البنداري سنا البرق الشامي : ٨٢/١ ؛ أبو شامة : ١٧٨/١ ؛ القلقشندي ٤٧٧/٣ .

(٢) البنداري ، سنا البرق : ٨٢/١ - ٨٥ ؛ الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية : ٢١/٢ - ٢٢ ؛ بيومي ، المصدر السابق : ١٦٣ .

(٣) الروضتين ، المصدر السابق : ١٧٨/١ ؛ المقرئزي ، السلوك : ٤/٢ .

(٤) Grousset, Histoire des Croisades, 11, P. 539. (٤)

وقد اوضح ابن شداد هذا المفهوم بقوله : « لما علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم ، وما تم للسلطان من استقامة الامر في الديار المصرية ، علموا بأنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم »^(١) .

وكانت نقطة البداية بين المتآمرين ، مراسلة الطواشي مؤتمن الخلافة الفاطمية للصليبيين يدعوهم الى القدوم الى مصر • الا ان المؤامرة اكتشفت والقي القبض على المشتركين فيها واعدم قائدهم جوهر بأمر من صلاح الدين^(٢) .

وبمقتل جوهر ثار الجند السودان واجتمعوا لحرب الايوبيين وكانوا زهاء خمسين الفا • ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار صلاح الدين وهزيمة السودان الذين أحرق حيّتهم المعروف بالمنصورة قرب باب زويلة واخرجهم تورايشاء أخو صلاح الدين من القاهرة واسكنهم الجيزة بعد ان وضع فيهم السيف وقتل معظمهم^(٣) .

وفي الوقت الذي كانت فيه مؤامرة السودان تحاك ضد صلاح الدين

(١) النوادر السلطانية : ٤١ •

(٢) يقال ان كاتب الرسالة كان يهوديا من الرهط ، ولما قبض عليه صلاح الدين ليعاقبه قدم التلفظ بالشهاتين ، واعترف بما جناه لذلك ارسل صلاح الدين الى مؤتمن الخلافة من قتله وكان بقصره المعروف بالحرقانية لا يبعد عنه مسافة لانه استشعر ان أمره قد كشف • وكان مقتله يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٦٤ هـ البنداري سنا البرق الشامي : ٨٢/١ ، ٨٣ ، وقد اكتشف المؤامرة رجل تركماني وجد بيد رجل بالي الثياب نعلين جديدين ثمينين ، انكرهما عليه ونظر في احدهما فاذا كتاب المؤامرة فقبض عليه وقدمه الى صلاح الدين • الروضتين : ١٧٨/١ ؛ البداية والنهاية : ٢٥٨/١٢ •

(٣) البداية والنهاية : ٢٥٨/١٢ وسوف نتطرق الى هجوم الصليبيين على الاسكندرية في الفصل الثالث •

في مصر ، كان الصليبيون في الشام يخططون مؤامرة أخرى تقضي باحتلال دمياط والتوجه منها الى القاهرة والاستيلاء عليها . بعد ان أخذوا موافقة الدولة البيزنطية ، وتلقوا منها مساعدات حربية كبيرة^(١) .

ففي صفر سنة ٥٦٥هـ تقدموا نحو دمياط بقوات كبيرة قدرت بألف ومائة مركب ما بين شيني^(٢) وطريدة^(٣) . مما اوقع على من بداخل دمياط من المسلمين اليأس وقطعت النفوس ، فأرسل اليها صلاح الدين على السرعة بعض العون العسكري والمادي وسمح للامراء الايوبيين بالذهاب اليها ، كالامير تقي الدين ابن اخي صلاح الدين وشهاب الدين خاله . كما ارسل الى نور الدين يعرفه ما جرت عليه الاحوال على دمياط . فأرسل اليه

(١) البنداري ، المصدر السابق ١ : ٨٧ - ٨٨ : ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٧٩/١ - ١٨٢ : ابن كثير : ٢٦٠/١٢ : عاشور ، الحركة الصليبية : ٧١٨/٢ - ٧٢٠ : ابن الوردي : ١١١/٢ .

(٢) الشيني أو الشاني أو الشونة ، والجمع شواني : وهي السفينة الحربية الكبيرة ، وتعتبر أهم القطع العسكرية البحرية التي يتكون منها الاسطول في الدولة الاسلامية وهذه السفينة من أصل مصري ، وكانت تسير بمائة وأربعين مجدافا ، وتقدر حمولتها بمائة وخمسين جنديا . ابن شداد في النوادر السلطانية ، (تحقيق الشيال) : ٤٨ هامش رقم (٢) ، ابن الفرات ، التاريخ (تحقيق حسن محمد الشماص) ١ : ٨٣ هامش ٢٥١ ويشدو ان هذا النوع من السفن كانت تقام فيه الابراج والقلاع للدفاع عنه ، كما كانت ترمي منه النار والنفط على العدو . ابن واصل ، مفرج الكروب (تحقيق الشيال) ٢ : ١٣ هامش رقم (١) .

(٣) الطريدة أو الطراة والجمع طرايد : وهي سفينة حربية تستخدم لنقل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا . وكانت هذه السفن أكثر شبها بالبراميل ، وربما استخدمت هذه السفن لركوب الناس أيضا . ابن شداد ، المصدر السابق : ٤٨ ، هامش رقم (٣) : ابن واصل ، السابق : ١٢/٢ هامش رقم (٣) : ابن الفرات ، السابق : ٨٣/١ هامش رقم (٢٥٢) .

نورالدين العساكر يتلو بعضها بعضا • كما تقدم هو بنفسه الى بعض قلاع الصليبيين في الشام واستولى عليها • مما دفع بالصليبيين الى الانسحاب عن دمياط ، خاصة وانهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على الاستيلاء عليها - رغم الحصار الشديد الذي دام خمسين يوما - والذي كانت فيه الحامية الصلاحية قد برهنت على شجاعة في تصديها للعدو رغم قلة المتجنقات ولعدة والعدد^(١) •

ويبدو ان صلاح الدين ظهر للمصريين على انه المنقذ بعد ذلك الانتصار الذي حققه على دمياط مما ساعد على التفاف المصريين حوله ، وعدم قيامهم بشورات ضد حكمه في فترة كان بالامكان استغلالها للوثوب عليه ، بل أخذوا يساندونه في حربه ضد الصليبيين ويسيطرون معه لمحاصرة قلاعهم في الشام ، بعد ان لاحقهم هناك • ففي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م هاجم غزة وتقدم لحصار الداروم ، فاستجد صاحبه بالملك اموري حاكم بيت المقدس ؛ فاضطر صلاح الدين الى الانسحاب من الداروم^(٢) ، على أمل العودة الى ديارهم مرة أخرى • وقد هاجم فعلا ايلة وفتحها في ربيع الآخر من نفس السنة^(٣) ، بعد ان كان قد اغار على الرملة وعسقلان^(٤) •

وكان لاستخدام صلاح الدين الخيول في تلك الغزوة ، اثره المهم في النتائج الايجابية التي حققها • لان استخدام الخيل معناه السرعة في المعركة

(١) الروضتين : ١٨٠/١ - ١٨١ : النجوم الزاهرة : ٧/٥ :

مؤنس ، نورالدين ٣٢٦ - ٣٢٧ •

Lanepool, Saladin, P. 106.

(٢)

(٣) تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١٢٥/١ - ١٢٦ : تاريخ

الازمنة : ٧٠ •

(٤) عسقلان : مدينة في فلسطين على ساحل البحر وتقع شمال

غزة - معجم البلدان ٢٠٢/٤ •

ضد الأعداء • وكان صلاح الدين ينوي نفس الهدف ، لأنه أراد ، أيضا ،
تطهير المنطقة الواقعة بين مصر والشام من التجمعات الصليبية التي كانت
تتنهز الفرص لتوقع بكل القوافل المارة من مصر الى الشام أو بالعكس ،
سواء كانت تلك القوافل تحمل الحجاج ، أو قوافل تجارية (١) •

وربما قصد صلاح الدين من تلك السياسة تسهيل اتصاله بالشام
ليتسنى له في المستقبل التوجه اليها بكل يسر • ومما يدل على صدق
صلاح الدين في تنفيذ تلك السياسة ، هجومه المتكرر على تجمعات
الاعراب (٢) ، في نفس المنطقة ، حتى لا يكونوا وسيلة من وسائل الهدم
يستخدمها أعداؤه ضده في وقت الازمات •

ففي سنة ٥٦٨ هـ مثلاً خرج الى تجمعاتهم القريبة من الكرك والشوبك
ودمرها • وقد اوضح سبط ابن الجوزي دوافع الغزوة فقال : « وكان
جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا
اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين » (٣) •

ولم يكتف صلاح الدين بتخريب تجمعات العربان فحسب ، بل
سيرهم الى الشام أملاً منه بالوصول الى حل للمشكلة حلاً جذرياً ، يمكن

(١) ابن شداد ، النوادر : ٤٥

(٢) Lanepool, A History of Egypt, P. 192.

(٣) كان اولئك الاعراب مسلمين ، غير انه لم يكن يوجد فيهم من
يعرف قواعد الاسلام وأصوله ، بل لم يكن احدهم يعرف حتى الصلاة ،
واذا صلى احدهم ، فانه لا يصلي الاوقات الخمسة على الترتيب ، بل كلما
خطر بباله الصلاة (نعوم بك شقير ، تاريخ سينا القديم والحديث (القاهرة
١٩١٦) : ٦٥٢ وهذا يدل على ان هؤلاء الاعراب كانوا مستعدين للتعاون
مع الصليبيين ، ولم يكن عندهم الوازع الديني الذي يمنعهم من الخيانة ،
كما سيتبين ذلك فيما بعد •

(٣) مرآة الزمان ، المصدر السابق ، ق ١ : ٢٩٣/٨ •

معه القضاء على عودتهم مرة أخرى • فقد كتب الى نورالدين يرّغبه بمنحهم الاراضي ليستقروا عليها • وقد حفظ لنا العماد الاصفهاني في البرق الشامى نص الكتاب الذي أرسله صلاح الدين الى نورالدين بخصوص حل المشكلة وهو بالانشاء الفاضلي جاء فيه : « واكبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة [وهي محاربة الصليبيين] ان لا يبقى في بلادهم من العربان ، وان ينتقلوا من ذل الكفار الى عز الايمان • ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ••• ترحيل كثير من انفارهم ، والحرص في تبديل ديارهم ••• ولو كان هؤلاء العربان يرغبون في الديار المصرية لكان يجعل كلهم ويسوق كلهم • ولكن هواهم في الشام ••• ولو ان المولى خلى لهم اقليما واقطعهم اقطاعا عظيما ليقطعهم عن الكفر وبلاده ، ويبعدهم عن تكثير سواده ، لكان في ذلك قد أحسن فعلا وحمل عن المسلمين ثقلا ••• » (١) •

وبعد ان نجح صلاح الدين في تنفيذ سياسته السابقة ، وكسب فحبة المصريين وميلهم اليه ، تقدم بتنفيذ الاوامر التي كانت تصدر اليه من نورالدين باسقاط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وقد مهد لها صلاح الدين ببعض الاعمال فعزل قضاة مصر من الشيعة وقطع أرزاقهم • واستتاب على سائر البلاد قضاة شافعية ، كما عين العالم الشافعي صدرالدين ابن عبدالملك بن درباس قاضيا للقضاة الشافعية ووزيرا للديار المصرية • وبنى دار العدل مدرسة للشافعية (٢) • وازال أصول المذهب الشيعي ، مثل الاذان بحمي على خير العمل واثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين ، وانهم من نسل المجوس ، وان زعموا انهم علويون (٣) • وكان صلاح الدين قبل

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١٢٥/١ - ١٢٦ •

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ٣٦٦/١١ ؛ ابن الاثير ، البداية : ١٢ / ٣٦٣ ؛ ابن الفرات ، التاريخ م ٤ : ١٢٥/١ •

(٣) من جملة التشكيك الذي اثير ضد النسب الفاطمي ما ذكره

ذلك قد أجهز على قوة الخلافة الفاطمية العسكرية وقضى على امراء القصر والجند السودانيين كما تبين من قبل • حتى « اندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية وانمحي أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » (١) •

كانت سياسة صلاح الدين ، في تنفيذ مخططة السابق ، حكيمة لدرجة كبيرة فقد أراد الاجهاز على الخلافة الفاطمية دون تقديم أية ضحايا ، ومن غير اثاره المصريين عليه • حيث وضع على كل امير فاطمي جماعة من امراء الشام واجنادهم • وتجهز الامراء تحت جناح الليل ، ولبسوا سلاحهم ، واحاط كل واحد منهم بيت امير من امراء مصر الفاطميين المشكوك في امرهم • فلما أصبح الصباح وخرجوا على عاداتهم • أحاط بهم الامراء والجند الايوبيين من كل جانب وقبضوا عليهم واستولوا على دورهم وذخائرهم • ولما علم الخليفة العاضد بما جرت عليه الحال اوضح له صلاح الدين بأنهم امراء عاصون ، وانه انما قصد تعويضه بأحسن منهم (٢) •

ومن جهة ثانية فقد كان صلاح الدين يتمهل في القضاء على الخلافة الفاطمية حتى يمهّد لذلك الانقلاب ويعدّ له لثلا يعصف ذلك العمل

أبو شامة بقوله : « ذكر جماعة من أكابر العلماء ان الفاطميين ليس نسبهم صحيحا ، بل المعروف عنهم أنهم بنو عبيد وكان والد عبيد من نسل القداح الملحد المجوسي ، وقيل يهوديا من سليلة بالشام ... وقد كشف حالهم الامام أبو القسم عبدالرحمن بن نصر الشاسي في كتاب الرد على الباطنية وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات ... ومن ذلك قصيدة سماها الايضاح أولها :

حي على مصر الى خلع الرسن فثم تعطيل فروض وسنن)

انظر : الروضتين ، المصدر السابق : ٢٠٢/١ •

(١) ابن الفرات ، المصدر السابق م ٤ : ١٢٥/١ •

(٢) نفس المصدر السابق م ٤ : ١٣٠/١ •

بمصالحه ومصالح أسرته وقد نجح في مسعاه بحيث ان الانقلاب تم « دون ان يتطع فيها عنزان »^(١) . ومع ذلك فان ابن الاثير يتهم صلاح الدين بأنه كان يريد بقاء الخلافة الفاطمية خوفا من نورالدين « فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد ان يكون العاضد معه ، حتى اذا قصده نورالدين امتنع به وبأهل مصر عليه »^(٢) .

ان ملاحظة الاعمال التي قام بها صلاح الدين من عزل القضاة الفاطمية ، وازالة الاذان بحج على خير العمل ، والقبض على امراء القصر الفاطمي لدليل على ضعف اتهام ابن الاثير ، ذلك الاتهام الذي اضعفه أيضا ما ذكره في تاريخ الدولة الاتابكية بقوله : « لما ثبت قدمه في مصر [أي صلاح الدين] ... كتب اليه الملك العادل نورالدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية ... فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ... »^(٣) . ومعنى الخوف (الحذر) ومن ثم التخطيط بحزم وهو ما كان يقوم بتنفيذه صلاح الدين ، فتأخر عن قطع الخطبة الفاطمية حتى لم يبق له معارض في مصر . علما بان ابن الاثير يمثل وجهة النظر النورية ، وكتاباته لا تخل من تحيز ضد صلاح الدين . وقد ذكر نفس الاتهام عندما اوضح الدوافع التي كانت وراء فتح اليمن^(٤) .

ومن جهة ثانية فان صلاح الدين - سواء بحكم عقيدته السنية التي كان يحملها أو بدافع حبه في السيطرة والاستقلال - كان يرغب في ازالة الخلافة الفاطمية ليكون لنفسه ولاسرتة دولة فيها ، وهذا لا يتأتى ، الا اذا سقطت الدولة القائمة ولذلك فان هدف نورالدين وصلاح الدين كان

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٣٦٩/١١

(٢) نفس المصدر السابق : ٣٦٨/١١

(٣) الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية : ١٥٦

(٤) الكامل : ٣٩٦/١١

واحدًا ، غير ان اسلوبيهما في ازالة الدولة الفاطمية كانا مختلفين •

وما ان وجد صلاح الدين ان اهنته قد تمت ، وانه قادر على القيام بانقلابه قطع الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي واقامها للمستضيء العباسي في محرم سنة ٦٧هـ - ايلول ١١٧١م^(١) ، وبذلك أعيدت الوحدة بين مصر والشام من جديد مذهيا واقليميا وأصبحت الخلافة العباسية هي الوحدة التي يدين لها جميع المسلمين في الولاء فنشأت طاقة مادية وبشرية سنرى ظهور اثارها فيما بعد^(٢) • بعد ان كانت الوحدة قد قطعت مدة حكم الفاطميين مصر لحوالي مائتين وثمانين سنة • وقد امتدح الشعراء ذلك الانقلاب واعلن احدهم بقوله :

اصبح الملك بعد آل علي مشرقا بالملوك من آل شادي
وغدا الشرق يحسد الغر ب للقوم فمصر تزهو على بغداد^(٣)

وتجهم المصريون من أهل السنة تعيرا عن فرحتهم بالانقلاب ، واستطالوا على الفاطميين « وتتبعوهم واذلوهم وصاروا لا يقدرّون على الظهور من دورهم »^(٤) وبذلك يمكن القول بأنه رغم المدة الطويلة التي حكم فيها الفاطميون مصر ، الا ان حكمهم كان شكليا ، وانهم لم يؤثروا على نفوس المصريين ، ولم يتمكنوا من كسب ولائهم الحقيقي •

(١) ابن شداد ، النوادر : ٤٥ ؛ الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية : ١٥٧ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي : ١١١١/١ - ١١١٤ ؛ ابن الوردي ، التاريخ : ١١٣/٢ ؛ الياضي ، مرآة الجنان : ٣٧٩/٣ ؛ القلقشندي ، مآثر الاناقة : ٥١/٢ •

(٢) القزاز ، الحياة السياسية ، المصدر السابق : ٢٥٠ •

(٣) ابن كثير ، البداية ١٢ : ٢٦٧ •

(٤) الروضتين : ١٩٧/١ ؛ الاصفهاني ، خريدة القصر : ٣ : ٢٠٣/١ •

وتسلم صلاح الدين بعد ذلك القصر الفاطمي وما حواه من دوائر وقبض على أولاد العاضد وحبسهم في مكان واحد من القصر ، بعد ان اجري عليهم ما يمونهم^(١) . وكان العاضد أثناء ذلك مريضاً ، فلم يعلمه احد من اصحابه بما جرت عليه الاحوال ، ثم توفي في العاشر من محرم سنة ٥٦٧ هـ وكان عمره اذ ذاك ثلاثاً وعشرين سنة^(٢) .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية صدى بالغ الاثر في نفوس المصريين خاصة والعالم الاسلامي عامة . صحبتها هزة فرح عمت أوساط المذهب السني ، وكانت البشائر التي كتبها العماد الاصفهاني تقرأ في كل مدينة وقرية حتى وصل حاملها الى بغداد . ولما انتهى الخبر الى نورالدين ارسل الى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن ابي عسرون « فزيت بغداد وغلقت الاسواق ، وعمت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً »^(٣) . وارسل الخليفة العباسي الخلع الثمينة الى كل من نورالدين وصلاح الدين ، كان من بينها سيفان احدهما قلند المستضيء به الشام لنورالدين والثاني مصر لصلاح الدين على ان يكون صلاح الدين نائبه فيها^(٤) .

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٣٤١/٥ ؛ ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية : ٢٠٠ .

(٢) وكان مولده سنة ٥٤٤ هـ وبويع الخلافة سنة ٥٥٥ هـ ، وقيل في سبب موته انه تفكر في أموره فرآها في ادبار فأصابه ذرب مات عنه ، وقيل لما خطب لبني العباس بلغه ذلك فاغتم ومات . وقيل كان في يده خاتم له فص مسموم فمصه فمات على اثر علمه بزوال ملكه . انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق ١ ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن كثير : ٢٦٤/١٢ - ٢٦٥ ؛ ابن خلكان ، الوفيات ٦ : ١٥٦ - ١٥٧ الدويهي ، تاريخ الازمنة : ٧١ .

(٣) ابن كثير ، البداية : ٢٦٤/١٢ ؛ المقرئ ، السلوك : ٤٤/١ .

(٤) النجوم الزاهرة : ٦٤/٦ .

ومن جهة ثانية فقد نصب صلاح الدين الأعلام السود على منابر الجوامع المصرية وقرأ من عليها نسخة سجل باسقاط المكوس وبشارات أخرى • أعلن فيها صلاح الدين بان عهد الظلم انتهى وان عهد دولته هو عهد البشارات التي سوف يتبع بعضها بعضا وانه تقرر ما يلي :

أولا - رفع المكوس الديوانية بمصر والقاهرة • وعدم استلام أية ضريبة من الشعب المصري ، أو التجار الاجانب ، ثوبا للانتصار واحتساب اجرها من الله •

ثانيا - تكون التجارة حرة ، وسوف لن يتعرض لاي تاجر يتردد الى مصر أو الى ساحل المقسم المنيا • سواء كانت التجارة من الصادرات أو الواردات ، وسواء كانت التجارة بحرية أو برية •

ثالثا - جعل صلاح الدين عقوبة المخالفين للاحكام الصادرة أعلاه الاعدام • رابعا - على كافة القواد العسكريين ورؤساء الدواوين والكتاب ، ومن قرأ المنشور أو قرىء عليه تطبيق ما جاء فيه •

وفي نص المنشور الذي أصدره صلاح الدين للشعب المصري من على المنابر في ٣ صفر سنة ٥٦٧هـ ما يدل على ذلك : « فانا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الارض وحسنه عندنا من اداء كل نافلة وفرض ونصبنا له من ازالة النصب عن عبادته ... فالبشائر في أيامنا تترى شفعا ووترا والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الاخرى والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع ... ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة اولى ما نقلناها من ان تكون لنا في الدنيا الى ان تكون لنا في الآخرة وان تجرد منها ... ونظهر منها مكاسبنا ... ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب ... وخرج امرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار

المرتدين اليهما والى ساحل المقسم المينا بأبواب المكوس صادرها وواردها
 فيرد التاجر ويسفر ... ويقارض ويتجر براً أو بحراً مركباً وظهراً سرا
 أو جهراً لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ...
 ولا يستوقف في طريقه ... ولا يستباح له حرمة ... والذي اشتملت
 عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل
 ... من عارضها ردت احكامه ومن ناقضها نقض ذمامه ومن ازالها زلت
 قدمه ومن احوالها حل دمه ... فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاية
 الامر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمثل ما مثل من
 الامر ... » (١) .

اما علاقة صلاح الدين مع نورالدين بعد اسقاط الخلافة الفاطمية
 سنة ٥٦٧هـ فالظاهر انها كانت حسنة ، خاصة وان صلاح الدين قام بتنفيذ
 الاوامر الصادرة اليه من نورالدين بوجوب الدعوة للخلافة العباسية . ومع
 ذلك فقد أشارت بعض المصادر الى وجود وحشة بين الطرفين . وقد تتبع
 مصدرها ، فوجدت ان أول من قال بهذا الرأي هو ابن الاثير ، وابن أبي
 طيء . وعنهما نقل كثير من المؤرخين قصة الوحشة . والذي يدل على ذلك
 ان تلك المصادر متأخرة عن المصدرين الاولين ، ثم اتفاقها في كثير من
 الاحيان في اللفظ مع اختلاف في الایجاز والاطناب .

وفيما يلي قصة الوحشة بين صلاح الدين ونورالدين منذ بدايتها كما
 اوردها المؤرخون : يعتقد ابن أبي طيء بأن نورالدين اقلق وظهرت منه
 الكراهية عندما علم بوزارة اسدالدين شيركوه ومن بعده صلاح الدين لدى
 الخلافة الفاطمية لاسباب كان منها استبدادهم بمصر وحصول صلاح الدين

(١) أبو شامة ، الروضتين : ٢٠٥/١ ؛ انظر : ابن كثير ، البداية :
 ٢٦٨/١٢ .

على خزانة الفاطميين • واستتج ابن أبي طيء تلك الوحشة بين الطرفين من كتاب ارسله نورالدين الى العاضد يطلب فيه اعادة شيركوه وجنده الى الشام ليضرب بهم اعداؤه وجاء في الكتاب « ولقد افتر العبد [أي نورالدين] الى بعثته واعوز عسكره ... واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيته لانه ما يزال يرمي به شياطين الضلال بشهابه الثاقب » (١) •

ونظرة عميقة لكتاب نورالدين لتدل بوضوح على محبة نورالدين لصالح الدين وعمه ، وانه كان مفتقرا اليهم ، ويطلب عونهم ليضرب الصليبيين وقد علق أبو شامة على تفسير ابن أبي طيء للنص السابق ورفضه وقال : « ربما الذي اقلق نورالدين كون اسدالدين وزر للعاضد فخاف من ميله للقوم والى مذهبهم ... هذا ان صح ما نقله ابن ابي طيء والله علم » (٢) • علما بان كل ما أورده أبو شامة وابن أبي طيء انما كان ظنا واعتقادا ، وهو ليس مما صرح به نورالدين •

وربما كان تفسير أبو شامة أقرب للصواب ، ومع هذا فهو لا يعدو ان يكون رأيا وهو ليس التاريخ ، حتى ان أبا شامة نفسه لم يثبت رأيه فقد بدأ قوله بـ « ربما » وانهاه بكلمة « والله اعلم » •

ومما يرفض ادعاء ابن أبي طيء القائل بأن صلاح الدين استولى على أموال مصر ما ذكره الاصفهاني ، كاتب نورالدين ، بأن صلاح الدين لم يستلم شيئا من تلك الاموال وانه وزعها جميعا على العساكر ، بعد ان ارسل الثمين منها الى نورالدين (٣) • ثم ان صلاح الدين لم ينتقل من بيته ، بيت الوزارة ، وأعطى قصور الخلافة الفاطمية لضباط الجيش (٤) •

(١) الروضتين : ١٧٢/١ •

(٢) الروضتين : ١٧٢/١ •

(٣) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٢٣/١ •

(٤) Lanepool, A History of Egypt, P. 193. (٤)

ثم لا ننسى ما كان لطبيعة ابن أبي طيء وعلاقته بالشيعة من أثر في إثارة الشكوك بين نورالدين وصلاح الدين . فقد ذكر أبو شامة قوله : « ان ابن أبي طيء متهم فيما ينسبه الى نورالدين مما لا يلقق به ، فان نورالدين رحمه الله كان قد اذل الشيعة بجلب وابطل مشاعرهم وكان والد ابن أبي طيء من رؤوس الشيعة فتفاه من جلب »^(١) ثم ان نورالدين لم يكن بحاجة الى أموال مصر ليسيء علاقته بسببها مع صلاح الدين . لانه لما وصلته بعض الهدايا من صلاح الدين قال بعد ان شكر هيمته : « ما كانت بنا حاجة الى هذا المال . ولا نسد بها خلة الاقلال . فهم يعلم انا ما انفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر الى الذهب ؟ . . . فاستنزره وما استغزره »^(٢) . ولو تفحصنا قول نورالدين على ضوء الكمية الكبيرة والتحف الجلييلة التي وردت اليه من صلاح الدين^(٣) لتبين لنا زهده ، بحيث انه استنزر الاموال ولم يستغزرها ، ومع ذلك فان بعض المحدثين من الكتاب يتخذ من الرواية السابقة ومن شكر نورالدين لصلاح الدين سببا من أسباب الوحشة بين الطرفين بعد ان يعكس مفهوم الرواية امثال الاستاذ بيومي^(٤) .

(١) الروضتين ، المصدر السابق : ١٧٤/١ .

(٢) البنداري ، سنا البرق : ١٢٣/١ - ١٢٤ .

(٣) انظر عن مقدار الكمية الكبيرة من التحف والهدايا المرسلة الى نورالدين : المصدر السابق : ١٢٣/١ .

(٤) يرى الاستاذ بيومي ، ان مما يدل على الوحشة بين نورالدين وصلاح الدين ، هو قول نورالدين لرسول صلاح الدين عندما قدم اليه بعض الهدايا التي جلبها اليه من مصر « ما كانت بنا حاجة الى هذا المال . . . النص المذكور أعلاه » حيث فسر النص بغير ما قصده نورالدين . واعتبر المقولة صدرت من نورالدين احتقارا لصلاح الدين . بينما هي تدل على زهده وعدم اهتمامه بالاموال لانها كانت كثيرة ، وان نورالدين كان رجلا زاهدا . انظر : قيام الدولة الايوبية : ١٨٢ .

اما تكملة قصة الوحشة فقد ذكرها ابن الاثير وملخصها ان صلاح الدين خرج من مصر في صفر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ونازل حصن الشوبك وكاد ان يفتحه ، ولما سمع بقدوم نورالدين لنجدته انسحب عن الشوبك عائدا الى مصر خوفا من استلام نورالدين السلطة من يديه . وكتب اليه يعتذر باختلال الاحوال في مصر وعزم بعض الشيعة القيام بثورة ضد حكمه ، ثم تستطرد رواية ابن الاثير فتقول بأن نورالدين لم يقبل العذر ، وعزم على التقدم الى مصر لاختها من صلاح الدين . الا ان الاخير اخبر بالامر وجمع امراء وأصحابه وقرروا مقاومة نورالدين وعدم السماح له بدخول مصر . ثم انهم فكروا بفتح اليمن لتكون لهم ملجأ اذا ما دخل نورالدين مصر . الا ان نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، رفض مقاومة نورالدين واعلن امام المجتمعين بأنه والايوبيين انما هم ممالك نورالدين . ثم احتلى صلاح الدين وقال له « والله لو أراد نورالدين قسبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليه حتى امنعه أو اقتل »^(١) . واعلن نجم الدين كما ذكر ابن الاثير بأن الذي ادعاه امام الامراء انما كان سياسة نستطيع بها اشغال نورالدين عن مقصدنا فيشتغل بغيرنا^(٢) . وقد نقلت هذه الرواية عن ابن الاثير في مصادر كثيرة متأخرة عنه ، وعدت من أسباب الوحشة بين الطرفين^(٣) .

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٣٧٢/١١ - ٣٧٣ .

(٢) نفس المصدر السابق : ٣٧٣/١١ .

(٣) ابن الفرات ، التاريخ ج ٤ : ١٨٤/١ - ١٨٦ ؛ ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية : ٢١٢ - ٢١٤ .

ابن تغري بردى ، النجوم : ٢١/٦ - ٢٢ ؛ ابن خلدون : ٥٥٨/٥ - ٥٥٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر : ٧٠/٥ - ٧١ ؛ ابن الوردي ، التاريخ : ١١٤/٣ - ١١٥ ؛ ابن خلكان ، الوفيات : ١٦٢/٦ - ١٦٣ ؛ ابن كثير ، البداية : ٢٦٨/١٢ - ٢٦٩ ؛ الدويهي ، تاريخ الازمنة : ٧٢ .

وفي سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م يكمل ابن الاثير قصة الوحشة ويدعي بأن صلاح الدين قام بنفس الدور وانسحب من الاستمرار بحصار الكرك خوفا من الاجتماع بنورالدين بحجة ان والده نجم الدين كان مريضا وانه خاف على مصر من ان تضع من ايديهم وهو بعيد عنها • ولم يقبل نورالدين عذره في الباطن وعزم على اخذ مصر منه الا انه صرح بقوله : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » (١) •

في الحقيقة ان رواية ابن الاثير فيها كثير من المبالغة وسوء الظن بصلاح الدين لانه فعلا في سنة ٥٦٧هـ حدثت في مصر ثورة السودان وخاف صلاح الدين العاقبة وضياع الامور من يديه فقرّر تركيز حكمه داخل مصر فقط وترك الشوبك وكانت سياسته حكيمة • ثم اذا كانت مصر مهمة أكثر من غيرها لدى نورالدين فمن اين جاء بالوحشة اذن !! واذا كان نجم الدين أيوب قد احتلى بابنه صلاح الدين واسرّ اليه أمرا فكيف علم ابن الاثير بما دار بين الابن ووالده ؟ وهل كان صلاح الدين من السذاجة بمكان بحيث يذيع أسرار أبيه ؟ واذا كانت تلك الاسرار قد وصلت فعلا لمسامع نورالدين ، التي تتهم نجم الدين أيوب بالنفاق والخيانة ، فلماذا لم يعلنها نورالدين حربا ظاهرة على الايوبيين ؟ واذا كانت الوحشة باطنا كما زعم ابن الاثير (٢) فكيف اذن اكتشفها ؟ هذا بالاضافة الى ما قيل حول ابن الاثير من انه متهم في بعض ما كتبه عن صلاح الدين لانه يتلمس المناسبات أحيانا لغمز صلاح الدين ونقده • وقد يعود سبب ذلك لنشأته في

(١) يعطي العماد الاصفهاني سببا جديدا لانسحاب صلاح الدين عن حصار الكرك فيقول : « لقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهر وعده وآب الى القاهرة » انظر : البنداري - سنا البرق : ١١٨ / ١ •

(٢) الكامل : ٣٧١ / ١١ •

الموصل موطن نورالدين^(١) .

اما ما قيل من اعتذار صلاح الدين في المرة الثانية سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م بحجة ان والده كان مريضا . فان تلك الحجة كانت صحيحة ، ولم تكن كاذبة ليجعلها ابن الاثير دليلا للوحشة بين الطرفين . فقد عاد صلاح الدين الى مصر بنفس الاسبوع « فوجد أباه قد قضى نحبه »^(٢) .

وقد دل على حسن العلاقة بين الجانبين أيضا الكتاب المرسل الى صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م بخط الاصفهاني وتوقيع الملك الصالح حيث خوطب فيه صلاح الدين بالسيد الاجل ولقت انظاره الى مخاطر الصليبيين ، ودعي الى مقاومتهم باعتباره المكلف بهذا الامر من قبل نورالدين . وقد جاء بنص الكتاب ما يلي : « فما كان اعتماد مولانا السعيد الملك العادل [أي نورالدين] الا عليه وسكونه اليه الامل لهذا الحادث الكارث فقد أدخره كلف أنياب النوائب . . . وآمله ليومه وغده ورجاه لنفسه وولده »^(٣) . ولو لم يعلم الاصفهاني والملك الصالح بان علاقة نورالدين كانت حسنة بصلاح الدين ، لما كوتبتلك الكلمات ، ولما كلف بمقاومة الصليبيين باعتباره الخلف الاول لنورالدين .

ومما سبق تبين بأن وجود وحشة بين نورالدين وصلاح الدين وصلت لاستعداد الاول بالمسير الى مصر واستلامها من الثاني ، انما كانت روايات مبالغاً في تفسيرها وذكرت لخدمة أغراض شخصية تنسبها كل من ابن الاثير الموصلّي وابن أبي طي الشيعي المذهب ، وأخذها عنهما الكثير من المؤرخين والكتاب دون تمحيص حتى ان بعض الكتاب المحدثين غالى كثيرا في

(١) الشيبال ، تاريخ مصر الاسلامية : ٣١/٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ٣٩٣/١١ .

(٣) البنداري ، المصدر السابق : ١٥٥/١ .

تعليلاته لقصة الوحشة وتناجها • منها : ان صلاح الدين كان عازما على القضاء على نورالدين^(١) • ومنها انه لو كان صلاح الدين مخلصا لسيده نورالدين لكانت الامارات الصليبية قد اسقطت بيد نورالدين في حياته^(٢) •

وصفوة القول اذا كان بين صلاح الدين ونورالدين ما يلفت النظر ، فثمة تفسير واحد يمكن قوله وهو ان نورالدين فتح البلاد المصرية ليميد من مواردها الطبيعية والبشرية في أوقات الازمات • ولما سقطت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م كان نورالدين يلح على صلاح الدين باستخدام كل قوى مصر لمساندة الشام في الحرب ضد الصليبيين • ولم يكن يعلم أغوار مصر وأحوالها كصلاح الدين الذي اعتقد بأن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر اولى من الانشغال بمسائل الشام • ولذلك كان يتساهل قليلا مع سيده حتى لا تضيق مصر من أيديهم بثورة مضادة • وانه كان أكثر وعيا من نورالدين للاخطار الناجمة عن عداء القوات الفاطمية السابقة ، واستعدادها للانضمام الى جانب الفرنجة • لذا فان واجبه الاول ، بنظره ، كان في بناء جيش جديد ذي قوة تكفي للاحتفاظ بمصر في جميع الظروف الطارئة^(٣) •

ومهما يكن من امر العلاقة بين الطرفين فان وفاة نورالدين^(٤) يوم

Champdor, Saladin, P. 60.

(١)

(٢) رينتز ، دراسات اسلامية : ١١٨ •

(٣) جب ، صلاح الدين : ١٢١ •

(٤) نشأ نورالدين في كنف والده عمادالدين صاحب الموصل ، وتقدم الى دمشق فافتتحها سنة ٥٤٩هـ • وكان فقيها على مذهب أبي حنيفة • وقد جاهد الصليبيين كثيرا • وكان يتدين بطاعة الخلافة العباسية • مرض في أعياد ظهور ابنه الملك الصالح ثم توفي سنة ٥٦٩هـ • انظر : البنداري ، سنا البرق : ١/١٥٠ - ١٥٤ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم : ٢٤٨/١

الاربعاء ١١ شوال ٥٦٩هـ (١٥ مايو ١١٧٤م) خلقت لصالح الدين ظروفًا جديدة أصبح معها سلطانا للمسلمين على مصر والشام وأعالي العراق حتى الموصل بعد ان خاض حربا شديدة ضد النوريين مدة عشر سنوات + بعد ان ركز حكمه في مصر وفتح كل من برقة وبلاد النوبة^(١) سنة ٥٦٨هـ + كما تمكن لصالح الدين من فتح اليمن^(٢) سنة ٥٦٩هـ ، وبذلك جهز نفسه

٢٤٩ : ابن كثير ، البداية ١٢/٢٧٧ - ٢٧٩ : المقرئزي ، السلوك : ٥٥/١ - ٥٦ ،
Ency of Arabic Civilization, The Arab East, P. 460.

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١٣٧/١ .

(٢) اوضح لصالح الدين سبب فتح اليمن بكتاب الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله جاء فيه : « وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال ، وله آثار في الاسلام ٠٠٠ وكان ببعدة دعا الى قبر ابيه وسماه الكعبة ، واخذ أموال الرعايا ٠٠٠ واحل الفروج المحرمة واباحها ، فانهضنا اليه اخانا بعسكرنا بعد ان تكلفنا له بنفقات واسعة واسلحة رائعة ٠٠٠ والكلمة هناك بمشيئة الله الى الهند سارية » القلقشندي ، صبح الاعشى ١٣ : ٨٦ وقيل بان اليمن فتحت لان اهلها على دين الباطنية وان ملك اليمن علي بن المهدي كان قد اباح المحرمات وشرب الخمر + انظر : أبو شامة ، الروضتين ١ : ١٢٦ ؛ الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣ ، ج ٣ : ٢٧٦ هامش ٢ .

وقيل ان لصالح الدين فتح اليمن ليتخذها له ملجأ اذا ما فتح نورالدين مصر . وهو رأي اورده ابن الاثير . انظر : الكامل : ١١/٣٩٦ . وقد ناقشنا من قبل الدوافع لمثل هذه الآراء . ومما يدل على ضعف هذا الرأي ان لصالح الدين استأذن نورالدين بفتح اليمن . وقد أذن له نورالدين بعد ان اخذ موافقة بغداد . انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٤٢/١ ولمعرفة المزيد عن تاريخ اليمن في العصر الايوبي وأسباب فتحها انظر : اليماني ، تاج الدين عبد الباقي ، تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي (اليمن ، ١٩٦٥) : ٧٥ - ٧٨ ، ٨٢ - ٨٥ ؛ محمود ، حسن

للدخول بالمرحلة الثانية التي يمكن ان نطلق عليها بالفترة السورية بعد ان
انهى الفترة المصرية تبعا لدوره الرئيس في العمل والدفاع^(١) .

سليمان ، تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي (بغداد ، ١٩٦٩) :
٢٤٦ - ٢٤٧ ، ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(1) Lanepool, A History of Egypt, P. 194.

الفصل الثاني

سياسة صلاح الدين الايوبي في إعادة الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة

من صلاح الدين الى الخليفة العباسي المستضيء بامر الله :

« الخادم ينهي ان الذي يفتحه من البلاد ويتسلمه انما يعدّ طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار ولا نختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاشدة بعثوها ، وانما امور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة » •

أبو شامة ، الروضتين : ٤٨/٢

١١٧٥هـ / ١١٧٥م

أولا : اضطراب الاحوال السياسية بعد وفاة نورالدين والاسباب الموجبة

لتقدم صلاح الدين نحو الشام سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م

كان لوفاة نورالدين في ١١ شوال سنة ٥٦٩ (١٥ أيار (مايو) سنة ١١٧٤م) أثر كبير في ابراز شخصية صلاح الدين ، وتحديد العلاقة الحقيقية بينه وبين القوى الاسلامية في منطقة الشام والجزيرة . ففي حياة نورالدين كان صلاح الدين يركز دعائم حكمه في مصر ويقضي على الثورات الداخلية ، ويموت نورالدين يبدأ الاستعداد للدخول في الفترة السورية الثانية التي امتدت من سنة ٥٧٠ هـ حتى سنة ٥٨٢ هـ (١١٧٤ - ١١٨٦م)^(١) .

ولم يكن بين رجال البيت الزنكي من يشار اليه بأنه يصلح أن يكون خلفا لنور الدين الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه اسماعيل ، وابنة صغيرة وزوجة هي عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر^(٢) .

ولم يكن بين الاخوين الزنكيين : سيف الدين غازي ، أمير الموصل ،

(١) قسم لين بول فترات حكم صلاح الدين الى ثلاثة أقسام اطلق عليها الفترة المصرية التي تبدأ من دخوله مصر حتى سنة ١١٧٤/٥٧٠ هـ . والفترة السورية وتبدأ من تحرّكه بالمسير نحو الشام سنة ٥٧٠ هـ حتى سنة ١١٨٦/٥٨٢ هـ حيث تمت سيطرته على كافة الامراء المسلمين . ثم الفترة الفلسطينية التي اوقفت تماما للحرب ضد الصليبيين وانتهت بعقد الصلح مع ريتشارد قلب الاسد سنة ١١٩٣/٥٨٩ هـ .

Ency. Britanica, Vol, 19 (Art. Saladin) P. 194;
Lanepool, A History of Egypt, P. 194;

(٢) المنتظم : ٢٤٨/١٠ - ٢٤٩ ؛ سنا البرق الشامي : ١٥٢/١ - ١٥٤ ؛ السلوك : ٥٥/١ - ٥٦ ؛ البداية والنهاية : ٢٢٣/١٢ - ٢٢٥ ، وفيات الاعيان : ٢٩/٢ .

وعماد الدين امير سنجار^(١) ، وفاق . فقد كان كل واحد منهما لا يرى في طاعة الثاني مصلحة له . اضافة الى ان سيف الدين كان لا يغض الطرف عن اخطاء عماد الدين فكان يحصل الخلاف ويطمع الاعداء^(٢) .

لذلك لم يكن من المتوقع ان يحتل احد هذين الاخوين مكانة عمه نورالدين في قيادة المسلمين ، كما لم يكن من المنتظر ان تبقى منطقة الشام والجزيرة - التي كانت تحت حكم نورالدين - محافظة على وحدتها وقوتها في مثل تلك الظروف خاصة وان الامراء الزنكيين ، والضباط الكبار في جيش نورالدين دخلوا فوراً ، بعد وفاة سيدهم ، في تنافس على وصاية ابنه الصغير الملك الصالح اسماعيل^(٣) .

علماً بأن الخطر الصليبي غداً ، من غير شك ، ذا تأثير كبير في تطور الحياة السياسية في منطقة الشام . ولم يكن بمقدرة الملك الصالح اسماعيل ، ولا سيف الدين غازي ، ولا السلطان السلجوقي في آسيا الصغرى - وهي انذاك القوى السياسية الاسلامية الثلاث في منطقة الشام والجزيرة - ان تجابه الخطر الصليبي على انفراد^(٤) . خاصة وان الامدادات الاوربية لم تنقطع عن قوى الصليبيين في المنطقة . لذلك اصبح واضحاً ان يتقدم احد أمراء نورالدين الاقوياء ليملاً الفراغ ويوحد الكلمة ويجمع الصف .

(١) سيف الدين غازي وعماد الدين ، هما ابنا قطب الدين مودود بن زنكي . ابني أخي نورالدين محمود بن زنكي . توفي الاول سنة ٥٧٦هـ . وتوفي الثاني سنة ٥٩٤هـ . ولمعرفة المزيد عنهم انظر : ابن الاثير ، الكامل : ٣٥٥/١١ ، ٣٦٢ - ٤٠٦ ، ٤٦٢ و ١٣٢/١٢ .

(٢) الكامل (ط . القاهرة : ١٣٠١هـ) : ١١ : ١٦٣ .

(٣) جب ، صلاح الدين : ١٢٢ ؛

Sivan, E., P'Islam et la Croisad (Paris, 1969) P. 193.

Lanepool, A History of Egypt, P. 199. (٤)

وكان صلاح الدين غداة وفاة نورالدين يملك قوة كبيرة من العدد والعدة • فهو أمير لمصر الغنية القوية الواسعة ، وفائد لعدة فرق عسكرية متكونة من الاكراد والأتراك الذين قدموا معه الى مصر ، اضافة الى القوات المصرية التي انضمت اليه بدافع المحبة ، أو كرها بالحكم الفاطمي^(١) •

لذلك كله احسن صلاح الدين بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية وان من واجبه اعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ، ومواصلة السياسة التي بداها نورالدين محمود زنكي^(٢) •

وقد بدأ صلاح الدين بحسم الامور ، غير انه اعترضه أمران تسببا في تأخير بعض الوقت : الاول المشكلات التي اثارها ضده الكنز باسوان ، بمساعدة السودان وبقايا الفاطميين في مصر لاعادة الخلافة الفاطمية^(٣) •

(١) ذهب الى مصر في الحملة النورية الثالثة ثمانية آلاف فارس : من التركمان الفان منذ انتقامهم شيركوه عم صلاح الدين ، وستة آلاف استؤجروا ، اضافة الى العساكر التي كانت تابعة لصلاح الدين وعمه شيركوه • انظر : جب ، صلاح الدين ١٥٤ - ١٥٥ •

(٢) العربي ، مصر في عصر الايوبيين ، ص ٤٢ - ٤٣ ، انظر :
Ency of Arabic Civilization (The Arab East) P. 460.

(٣) كان الكنز من مقدمي الدولة الفاطمية ، ذهب الى منطقة اسوان بعد سقوط الدولة الفاطمية وأخذ يجمع حوله السودان والناقمين على صلاح الدين من الشيعة • ولما أصبح له عدد لا بأس به من الاتباع ، ثار ضد صلاح الدين وقصد قومص واعمالها وقتل كل من وجده من أهالي السنة منهم أخو الأمير حسام الدين أبو الهيجا • فجهز صلاح الدين حملة عسكرية لحربه بقيادة أخيه الملك العادل ، وقد تمكن العادل من قتله في ٧ صفر سنة ٥٧٠هـ وبذلك فشلت حركتهم وتوطد مركز صلاح الدين في مصر • انظر : ابن أيوب ، المنتخبات : ٢٦٩ ، مفرج الكروب : ١٧/٢ ؛ سنا البرق الشامي : ١٧٦/١ ؛ السلوك : ٥٧/١ - ٥٨ ؛ البداية والنهاية : ٢٨٧/١٢ - ٢٨٨ ؛ كنز الدرر : ٥٨/٧ ؛ النجوم الزاهرة : ٢٤/٦ ؛ تاريخ ابن الوردي : ١١٩/٢ ؛ سعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى : ١٣٥ و ١٣٦ •

والثاني : هجوم اسطول صقلية على مدينة الاسكندرية ومحاولته احتلال المدينة بالقوة • غير ان صلاح الدين تصدى للهجوم بحزم - كما سيتبين ذلك في الفصل الثالث - واضطر ان يمكث في مصر لتثبيت مركزه فيها • وليرقب عن كتب ما يحصل في منطقة الشام من تطورات سياسية وعسكرية • وفي تلك الاثناء حدثت في كل من منطقة الجزيرة ومدينتي دمشق وحلب من الحوادث ما كان فرصة مناسبة دعت الى مسير صلاح الدين الى الشام وحددت موقفه من الملك الصالح بن نورالدين •

فقد بدأ بعد وفاة نورالدين مباشرة صراع بين الامراء على السلطان، وقد وصف العماد الاصفهاني ، كاتب نورالدين ومراقبه ، هذا الصراع وأوضح اضطراب الاحوال السياسية والتناحر بين الامراء بقوله : « كانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما أبرموه أمس في يومهم بنقض • ولهم كل يوم قسم جديد على قسم حددوه ، ويمين يمين الحالف بها لا محالة بما شرطوه فيها من المحال واكدوه ، وكهم وعقدوا ما حلوه وحلوا ما عقدوه » (١) •

وقد اجمع الامراء بدمشق ، بعد اخذ وعطاء وحجاج وصراع على ولد نورالدين الطفل الملك الصالح اسماعيل الذي لم يكن قد بلغ بعد الثانية عشرة من عمره واجلسوه مكان ابيه بالقلعة في دمشق وحلفوا له باجتماع كل من الامير شمس الدين محمد ابن المقدم والطوائفي (*) جمال الدين ربحان ، وهو اكبر الخدم ، والعدل شهاب الدين ابو صالح بن العجمي والشيخ اسماعيل خازن بيت المال بحضور القاضي كمال الدين

(١) سنا البرق الشامي : ١٥٩/١ - ١٦٠ •

(*) الطواشي كلمة تركية مرادفة لكلمة (المخصي) •

الشهرزور^(١) . على ان تكون ايديهم واحدة ، فإنهم لا يختلفون ، بعد ان وضعوا قيادة العساكر وatabكية^(٢) الملك الصالح يد ابن المقدم^(٣) .

ثم تقدموا بانشاء كتب التعزية ب وفاة نورالدين والتهنئة بتولية الملك الصالح ، لاعلام الامراء ذوي العلاقة بخارج منطقة دمشق باقامة الخطبة باسم الملك الصالح ومن تلك الكتب ما أرسل الى صلاح الدين بمصر بتوقيع الملك الصالح ومما جاء فيه : « اطال الله بقاء مجلس سيدنا الملك الناصر السيد الاجل ... وعظم أجرنا واجره في والدنا السعيد الملك العادل ... » ونظرا لرغبة الملك الصالح بأخذ العهد من صلاح الدين فقد قال له : [واجتمع امراء الحضرة .. على البيعة المؤكدة والايمان

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبي عبدالله الشهرزوري ، ينتسب الى بيت من بيوت العلم والدين ، وقد عمل لدى سيف الدين غازي الاول منذ نشأته ، ثم انتقل الى خدمة أخيه قطب الدين مودود . وبعدها اشتغل لدى نورالدين ونال لديه حظوظا ، وأصبحت له مكانة كبيرة في بلاطه . وقد ظل مخلصا لولده الملك الصالح بعد وفاته وقد كانت له علاقات حسنة مع صلاح الدين . انظر : وفيات الاعيان : ١/٤٧٢ - ٤٧٣ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٩٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٧٩ - ٨٠ ، شذرات الذهب : ٤/٢٤٣ .

(٢) تعني كلمة « اتابك » في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار والكلمة تتألف من لفظين هما : (اتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير أو سيد ، وأول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل الملك السلجوقي ملكشاه حين فوض اليه امر تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ ولقبه باللقاب منها (اتابك) . انظر : ابن خلكان ، الوفيات : ٦/٣١٦ ، القلقشندي ، صبح الاعشى : ٤/١٨ ، البستاني ، دائرة المعارف (بيروت د : ت) ٢/٤٢٩ ؛

Ency of Islam, vol, 1 (Art. Atabak), PP. 731-732.

(٣) الكامل : ١١/٤٠٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٥٤ ؛ مرآة الزمان ، القسم الاول : ٨/٣٢٤ .

المغلظة ... [ثم اوضح له هدف الجميع في دمشق] وما هاهنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله «^(١) . وجاء في نص الكتاب ايضا - كما قال العماد الاصفهاني - « فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل رضى عنه [أى نورالدين] الا عليه [اى على صلاح الدين] وسكونه اليه الالمثل هذا الحادث الكارث ... »^(٢) .

وربما دل النص السابق على الاختلاف الذى كان بين الامراء . اذ لما سيطر ابن المقدم على وصاية الملك الصالح ، علم - هو واتباعه - بأن ذلك الامر لن يرضى صلاح الدين ، فارسلوا اليه الكتاب السابق ، موضحين له بأن مهمته انما هي قيادة العساكر ضد الصليبيين ، وان تلك المهمة انما كانت من تكليف سيده نورالدين الذى كان يعده لمثل تلك الملمات . ومما يدل على ذلك ما أشار به القاضي الشهرزوري - آنف الذكر - الى الامراء المحيطين بالملك الصالح ، موضحا لهم ضرورة الانقياد لصلاح الدين او التعاون معه فقال : « قد علمتم ان صلاح الدين صاحب مصر هو من ممالك نورالدين^(٣) والمصلحة ان يشاور في الذى نفعه ، ولا نخرجه من بينا ، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو اقوى منا لانفراده بملك مصر »^(٤) . الا ان مشورة الشهرزوري لم تجد نفعا ، فقد خاف الامراء على مصالحهم ، وظنوا ان صلاح الدين اذا دخل البلاد اخرجهم منها^(٥) .

(١) البنداري ، سنا البرق الشامى : ١٥٥/١ .

(٢) نفس المصدر والمكان السابق ؛ مفرج الكروب : ٢/٢ .

(٣) أشار الى النص الوارد أعلاه ابن واصل أيضا ، غير انه اختلف

مع ابن الاثير بقوله : « ان صلاح الدين هو من أصحاب نورالدين » بدلا من ممالك نورالدين انظر : مفرج الكروب : ٣/٢ وهذا يدل على اعتقاد ابن الاثير بان صلاح الدين ليس الا مملوكا نوريا لا غير !

(٤) الكامل : ٤٠٥/١١ .

(٥) نفس المصدر والمكان السابق .

ولما وصل كتاب الملك الصالح الى صلاح الدين معزيا اياه بوالده نورالدين جلس للعزاء ثلاثة ايام • وفي اليوم الثالث امر فاقيمت الخطبة بالديار المصرية للملك الصالح ، وضربت السمكة باسمه • كما ارسل صلاح الدين للملك الصالح كتابا جوابا على كتابه السابق ، بالانشاء الفاضلي ، تضمن اسلوب التعزية بوفاة نورالدين والتهنئة لاستلامه مهام الامور بعد والده • كان الكتاب بحوالي اربعمئة كلمة اظهر فيها صلاح الدين حزنه وتأسفه على نورالدين ، واعلن استمرار وفائه واخلاصه للملك الصالح من بعد أبيه^(١) • وارسل له مع الكتاب دنانير مصرية عليها اسمه ليعرفه بأن الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه^(٢) •

ولما سمع سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي نائب نورالدين على الموصل بوفاة عمه نورالدين ، تقدم لاحتلال منطقة الجزيرة ، وكان قد خرج من الموصل لمساعدة عمه في غزواته ضد الصليبيين^(٣) • وكان على مقدمة جيوشه سعدالدين كمشتكين الذي هرب ، من مقدمة العسكر ، حال سماعه بنعي نورالدين ، الى حلب والتقى بالامير شمس الدين بن الدايدة

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٥٦/١ - ١٥٩ •

(٢) الكامل : ٤٠٥/١١ ؛ الباهر : ١٦٢ - ١٦٣ ؛ ابن العديم ،

زبدة الحلب : ٩/٣ •

(٣) وقيل كان قد خرج لمساعدة عمه نورالدين لقصد مصر واستلامها من صلاح الدين • وقد اوضحت فيما سبق مبالغة المصادر في تشويه العلاقة الحقيقية بين نورالدين وصلاح الدين وربما كان هروب كمشتكين الى ابن الدايدة - صديق صلاح الدين - دليلا على ان عسكر الموصل لم يكن يقصد بخروجه الذهاب لاستلام مصر من صلاح الدين • ولو كان كذلك لهرب كمشتكين منذ البداية ، الا انه بقي مع العسكر حتى علم بوفاة نورالدين وسوء نية سيف الدين الذي برهن عليها باحتلاله لبلاد الجزيرة •

صديق صلاح الدين^(١) .

وسار سيف الدين غازي بعد ذلك الحادث الى نصيبين وملكها ، وأرسل الشجن الى الخابور فملكه واقطعه ، ثم سار الى حران فحصرها عدة ايام الى ان ملكها بعد ان استسلم له حاكمها قايماز الحراني مملوك نورالدين . كما حاصر الرها وملكها ايضا وكان بها خادم خصي لنورالدين . ثم بعث سيف الدين غازي الى الرقة من تسلمها وكذلك الى سروج والى جميع بلاد الجزيرة ، ما عدا قلعة جعبر التي كانت شديدة الحصانة ، ورأس العين التي كانت لقطب الدين صاحب ماردين ابن خاله ، فلم يتعرض لهما^(٢) .

ولم يكتف سيف الدين غازي بما احتله من البلاد ، بل أمر باعادة المكوس^(٣) والسماح بشرب الخمر وازالة المحظور . وذكر العماد الاصفهاني بأن سيف الدين ما ان وصله نبأ وفاة عمه نورالدين حتى نودي « في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهارا ، وزال العرف

(١) مرآة الزمان ، ق ١ : ٣٢٥/٨ ؛ مفرج الكروب : ٥٠٤/٢ ؛ البنداري : ١٦١/١ - ١٦٢ .

(٢) الكامل : ٤٠٧/١١ ؛ البنداري : ١٦٧/١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٥٠٤/٢ ؛ ابن العديم : ١١/٣ - ١٢ ؛ ابن العبري ، التاريخ المختصر : ٢١٦ ؛ مرآة الزمان ، ق ١ : ٣٢٥/٨ .

(٣) المكوس : واحدها مكس وهي كل ما يستحصل من الاموال لصالح دوان السلطان أو لاصحاب الاقطاعات من غير الضرائب الشرعية . انظر القلقشندي ، صبح الاعشى ٤٦٨/٣ - ٤٧٠ ، سنا البرق الشامي : ١٦٢/١ هامش رقم (١) . واعتقد بان المكوس هو كل رسم يؤخذ على المنتوج الوطني لصالح الدولة . انظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ٣ : ٤٦٨ - ٤٧٠ ؛ سنا البرق الشامي ١ : ١٦٢ .

وعناد المنكر واتشد قول ابن هاني (أبو نواس)^(١) « فلا تسقني سرا
فقد امكن الجهر »^(٢) .

وصحيح ان سيف الدين غازي وصف في المصادر التاريخية بعدم
استقامته^(٣) الا انني ارى ان ازالة العرف والمناداة جهارا بشرب الخمر
امور مبالغ فيها اريد الصاقها به لتبرير تقدم صلاح الدين نحو الموصل .

ولما ورد الخبر الى صلاح الدين بملك سيف الدين غازي بلاد
الجزيرة ارسل الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين
بلاده واخذها ليحضر في خدمته سيف الدين عن مقصده . وكتب الى
الامير كمال الدين والامراء يقول : « لو ان نور الدين يعلم ان فيكم من
يقوم مقامي ، او يثق به مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي اعظم ممالكه
وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى احد بتريه ولده والقيام
بخدمته غيري ، واراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف
اصل الى خدمته واجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، واجازي كلا
منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده »^(٤) .

(١) لمعرفة المزيد عن الشاعر ابن هاني المتوفى سنة ١٩٦ هـ انظر :
وفيات الاعيان : ١ : ٣٧٣ - ٣٧٦ .

(٢) سنا البرق الشامي ١ : ١٦١ - ١٦٢ ، عاشور ، الحركة
الصليبية ٢ : ٧٣٨ ، وقيل بأن سيف الدين امر مناديه بدعوة الناس الى
اللعب واللهو وشرب الخمر وكان النادي يسير في الشوارع وبيد باطيه
خمر وقدح وهو يشرب وتحقق قوال الشاعر :

الا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا فقد امكن الجهر
ابن كثير : ٢٨٥/١٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٣٢٥ .
(٣) انظر مثلا : سنا البرق الشامي ١ : ١٦١ - ١٦٢ ؛ مرآة
الزمان ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ البداية والنهاية ٢ : ٢٨٥ ؛ الحركة
الصليبية : ٧٣٨/٢ .

(٤) الكامل : ٤٠٥/١١ - ٤٠٦ .

وكان الصليبيون قد انتهزوا - في تلك الفترة - فرصة وفاة نورالدين واضطراب الاحوال السياسية في منطقة الشام ، فهجموا على بانياس وحاصروها في آخر شوال سنة ٥٦٩هـ/ مايو ١١٧٤م فخرج اليهم ابن المقدم وهادنهم على ان يؤدى اليهم مبلغا ضخما وان يطلق سراح اسراهم^(١) . ويرى رانسيمن بأن ابن المقدم هو الذى راسل الصليبيين واستنجد بهم بهم لدفع خطر صلاح الدين عنه وطلب مساعدتهم فأجابوه^(٢) . ويؤكد ذلك المؤرخ الصليبي وليم الصورى الذى اوضح بأن الصليبيين اتفقوا مع ابن المقدم على « ان يعقد الطرفان في المستقبل محالفة لناهضة صلاح الدين »^(٣) .

وقد استنكر صلاح الدين المعاهدة التي أبرمها ابن المقدم مع الصليبيين، وكتب في الحال الى القاضي شرف الدين ابن ابي عصرون يقول : « لما بلغني وفاة المرحوم خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من اهل الكفر والعناد فبلغني حديث الهدنة المؤذنة بذل الاسلام وشين شريعة المصطفى (ص) » . وسيدنا الشيخ اولى من جرد لسانه في انكار هذا الامر فان بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق^(٤) . وهكذا يمكن ان نتبين بأن صلاح الدين - في كتابه السابق - يدين الامراء النوريين بدمشق بدمشق لمبادرتهم بعقد الهدنة مع الصليبيين ، لانه قد خرج منذ ان علم

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب : ١٢/٣ ، انظر : Stevenson, The Crusaders, P. 213.

(٢) Runciman, A History of the Crusads, 11, PP. 398-399.

(٣) Runicman, op. cit., P. 399.

(٤) مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٣٢٤ ؛ الروضتين : ١/٢٣٣ .

بوفاة نورالدين للجهاد ، الذى يعنى مساندة الامراء النوريين ضد العدو الخارجي ، والقضاء على اولئك الامراء الذين خانوا الامانة واذلوا الاسلام بتهادنهم مع الاعداء . والظاهر ان الامراء بدمشق لم يطمئنوا لمساعدة صلاح الدين لهم ، لذلك لم ينقضوا المعاهدة التي عقدها مع الصليبيين فعمد صلاح الدين الى تحريك الرأي العام ضد اولئك الامراء واستخدم علماء الدين لذلك الغرض فارسل الى الشيخ ابن ابي عصرون يطلب منه القيام بتبنيه المسلمين لاستنكار عمل الامراء النوريين . وربما قصد صلاح الدين بتلك الحملة الاعلامية تبريرا لتوجهه صوب الشام . ولما كان لرجال الدين اثر كبير في اثارة الناس ، لذلك اعتمد صلاح الدين على احد الشيوخ المؤثرين دفعا للحرب التي لم يكن ينوى القيام بها ضد النوريين كما اوضح قوله السابق « فان بلسانه تغمد السيوف » .

وفي حلب تمكن حاكم قلعتها شادبخت ، وشمس الدين ابن المقدم بالتعاون مع الامراء الذين نقلوا الملك الصالح من دمشق الى حلب ، بتدبير مؤامرة سيطروا فيها على وصاية الملك الصالح ، والقوا القبض على شمس الدين ابن الداية واخيه مجدالدين - اصدقاء صلاح الدين - وادعوهما السجن^(١) .

وقد ذكر العماد الاصفهاني ، في البرق الشامي ، ان اخوة مجدالدين كانوا من اعيان الدولة ، وانه لما توفي نورالدين ، لم يشكوا في انهم

(١) ذكر العماد الاصفهاني ان مجدالدين ابا بكر كان صديقا لصلاح الدين ورضيعا لنورالدين وقد تربى معه ، وانه كان يسكن حلب مع اخيه ابن الداية . اما القلاع والحصون التي كانت تابعة لحلب فقد كانت شيزر بيد شمس الدين علي ، وجعبر وقل بشار بيد الاخ الثالث سابق الدين عثمان . اما بقية الحصون كعين تاب وعزاز . . . فييد نواب ابن الداية ، انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي ١٦٣/١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب : ٩/٣ .

سيكلفون ولده الملك الصالح اسماعيل^(١) . ولما علم علي بن الداية ماجرى بدمشق من اتفاق ذوي الاطماع أرسل أخاه (سابق الدين عثمان) رسولا ونائبا الى دمشق لاستدعاء الملك الصالح الى حلب ، وكان هذا الاخير رجلا بعيدا عن الدهاء « يحمل كل قول على الصدق ، ولا يتصور في ذهنه أمرا سوى الحق ، وهو كما يقال (ساذج سليم القلب) »^(٢) . ولما وصل الى دمشق تلقوه بالترحاب ويتوا له ولاخوته أمرا ، واجابوه الى طلبه^(٣) .

وقد اكتشف العماد الاصفهاني مؤامرة الامراء بدمشق للسيطرة على حلب وتدير امور الملك الصالح ، وابعاد بني ابن الداية عن وصاية الملك الصالح بعد القبض عليهم . فخرج مع سابق الدين عثمان - رسول حلب - الى خارج دمشق بحجة انه يريد توديعه ، وهو ينوى اخباره بالمؤامرة الا ان الرسول لم يلتفت الى كلام الاصفهاني فوصفه بقوله : « خلوت به وقلت : (احترزوا من الكيد قبل ان تقعوا في القيد كالصيد) وصرحت له بالامر وخوفته من الغدر ... وحسبته لا تخفى عليه الاشارة فاذا هو هو اعجمي لا توقظه الصبارة »^(٤) .

(١) سنا البرق الشامي : ١٦٣/١ ؛ زبدة الحلب : ١١/٣ ؛ مفرج الكروب : ٦/٢ .

(٢) سنا البرق الشامي : ١٦٣/١ .

(٣) يرى ابن واصل بان امراء دمشق امتنعوا عن ارسال الملك الصالح الى حلب . خوفا من ان يغلبهم ابن الداية لانه كان من أكبر الامراء النورية ، وبيده حلب وعساكرها . (مفرج الكروب ٢ : ٦) بينما يرى ابن الشحنة بان ابن الداية استدعى الملك الصالح من دمشق الى حلب مع سعدالدين كمشتكين فاجابه الامراء الى طلبه . ولما استقر كمشتكين بحلب قبض على ابن الداية واخوته وسجنهم . (روض المناظر : ٢٣٦) .

(٤) انظر : سنا البرق الشامي : ١٦٣/١ .

فقد مال سابق الدين عثمان الى العدل ابي صالح بن العجمي - رسول دمشق وانخدع بكلامه لانه تظاهر له بالميل شمس الدين بن الداية والمثول في خدمته • واستقر الامر بين الطرفين على ان يحمل الملك الصالح الى قلعة حلب • ويكون شمس الدين بن الداية أتابكه لان حلب ام البلاد^(١) • وكان الامراء طوال الطريق بين دمشق وحلب يستعطفون سابق الدين عثمان حتى وصلوا قريبا من تل السلطان^(٢) وكان ابن الداية راقدا بالقلعة لا علم له بقدمهم ، فخرج اخوه بدر الدين الحسن ليتلقاهم فبغتهو وقبضوا عليه ، واتهموا سابق الدين بنقض العقد وقبضوا عليه ايضا واستصحبوهما مسجونين حتى دخلوا قلعة حلب ، وكان واليها شاذيخت^(٣) متفقا مع امراء دمشق في الباطن ومطلعا على سر المؤامرة ، فدخلوا جميعا على شمس الدين ابن الداية وقبضوا عليه ، بعد ان ضربوه بالايدي والارجل^(٤) • وبذلك اعتقل الاخوة الثلاثة وادعوا السجن ، مما اثار غضب صلاح الدين • وقد وصف العماد الاصفهاني - في البرق الشامي - تأخير ذلك الاعتقال فقال : « وشعشوا » القلوب بما جنوه ، فعادت غير معمورة ••• وتطايير من

(١) كان من جملة ما اتفق عليه ان يصبح الملك الصالح الى حلب سعد الدين كمشتكين والعدل أبو صالح ابن العجمي وولي الدين اسماعيل الخازن برفقة سابق الدين عثمان ، الذي بيت له الامراء خفية المكروه • انظر ابن العديم ، الزبدة : ١٤/٣ •

(٢) منزل يقع جنوب حلب على طريق حماة • انظر معجم البلدان ٢ : ٤٢ ؛ النجوم الزاهرة ٢٦/٦ •

(٣) جمال الدين شاذيخت ، الخادم الهندي عتيق نور الدين ، كان متولي قلعة حلب بأمر من نور الدين • ولما بلغه وفاة سيده اعلن حالة الطوارئ بحلب وامر بضرب الابواق والصنوج واخذ البيعة للملك الصالح وهو الذي بنى المدرسة الشاذيختية الحنيفية • انظر : ابن العديم ، الزبدة :

٩/٣ ، سنا البرق الشامي (تحقيق رمضان ششن) ١٦٥/١ هامش (٣) •

(٤) انظر : البنداري ، المصدر السابق : ١٦٥/١ - ١٦٦ ، ابن العديم ، المصدر السابق : ١٤/٣ - ١٥ •

حلب الى مصر من نارهم الشرر»^(١) .

وربما كان سبب المؤامرة سياسيا بحثا لاختلاف وجهة النظر في كيفية قيادة النوريين عن طريق كفالة الملك الصالح . فقد اراد ابن المقدم العمل السياسي ضمن دائرة الشام ، وتحت امرة الاتراك من الاتابكة الزنكيين . بينما اراد ابن الداية العمل تحت امرة صلاح الدين بعد ضم مصر الى الشام والتعاون بين الاكراد - الذي ينتمي اليهم صلاح الدين - وبين الاتراك الذين ينتمي اليهم الامراء النوريون . والدليل على تقارب وجهة النظر بين صلاح الدين وابن الداية ما ذكره العماد الاصفهاني من ان صلاح الدين غضب لما علم بحادثة القبض على ابن الداية الذي توقع بان « ولد نورالدين يتولاه بعده اخوة مجدالدين وهم اصدقاؤه وخلصاؤه »^(٢) . ولما لم يتم ذلك قال : « انا احق برعي العهود والسعي المحمود فانه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة... » وانفردت مصر عن الشام وطمع اهل الكفر في بلاد الاسلام»^(٣) .

وهذا يدلنا على رغبة صلاح الدين بالحفاظ على وحدة مصر والشام . فقد رضي بولاية ابن الداية واخوته ، اذ بقائهم تستمر الوحدة لانهم اصدقاؤه وخلصاؤه وبإبعادهم عن الولاية تنقطع الوحدة ولذلك قرر المسير الى الشام لاعادة الحكم اليهم فكان من جملة الاسباب الموجبة لتقدمه نحو الشام .

اما نتائج المؤامرة التي حيك في حلب فكانت بالاضافة الى سيطرة المعادين لصلاح الدين على الملك الصالح وقيادة شؤون النوريين بما يوافق

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١٦٥/١ - ١٦٦ .

(٢) البنداري ، المصدر السابق : ١٦٨/١ .

(٣) أبو شامة ، الروضتين : ٢٣٤/١ .

اهواءهم والقبض على بني ابن الداية ، فإن المؤامرة ، حدثت مستقبل العلاقة بين صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بن نورالدين ، كما احدثت هذه المؤامرة انشقاقا كبيرا بين السنة والشيعة بحلب . فقد كان اهل السنة مواليين لبني ابن الداية ضد ابن الخشاب الذي تولى قيادة الشيعة . وكان سبب الانشقاق سياسيا واقتصاديا غايته السيطرة على حلب وقد استغله امرأء دمشق ليستقيم امرهم بحلب^(١) ، و « طلب الفقراء دور الاغنياء فنهبت دار ابي جعفر بن المنذر بالعقبة »^(٢) ، وانتهت الفتنة باختفاء ابن الخشاب بعد ان ملكت داره . ثم قبض عليه بعد ايام وقتل^(٣) .

وقد استنكر صلاح الدين الاعمال التي قام بها ابن المقدم وزملاؤه من الامراء بحلب ، والمشكلات التي اتاروها ، وبعث اليهم منذرا ومخبرا اياهم بقدمه نحو الشام بحجة كفالة الملك الصالح اسماعيل وحفظ البلاد من خطر الصليبيين^(٤) . الا انهم كتبوا اليه يسيئون الادب عليه^(٥) ، وراسلوا أتابك الموصل سيف الدين غازي وطلبوا منه الحضور الى دمشق ليملكوه عليهم ، قبل ان يملكها صلاح الدين^(٦) الا انه لم يفعل وظنها مكيدة منهم له ، وآثر توطيد مكاسبه في منطقة الجزيرة^(٧) . وربما خاف من المسير الى دمشق ، لان سعد الدين كمشتكين كان قد هرب من عسكره اليها اثر سماعه بوفاة نورالدين الذي كان قد وضعه عينا على سيف الدين

(١) انظر : ابن العديم ، الزبدة : ١٥/٣ - ١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق : ١٦/٣ .

(٣) الروضتين : ٢٣٣/١ .

(٤) Ency. Britanica, vol, 19 (Art. Saladin) P. 864.

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٨٦/١٢ .

(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ .

(٧) Runciman, op. cit., vol, 11, P.P. 403-404

غازي وحافظا له من تعاطي ما لا يليق من الفواحش والمنكرات ، فظن ان كمشتكين قد دبر له مكيدة^(١) .

وقد انتقد ابن الاثير سيف الدين غازي لعدم تقدمه نحو دمشق واحتلالها واعتبر تهاونه السابق سببا من اسباب ملك صلاح الدين دمشق واتهمه بالجبن ، ووصفه بيت من الشعر جاء فيه :

يرى الجبناء ان الجبن حزم وتلك طبيعة الرجل الجبان^(٢)

كما علق ابن خلدون على الحادث واذاف بأن سيف الدين غازي لم يكتف بعدم سيره الى دمشق بل أرسل زيادة على ذلك الى ابن المقدم يفاوضه على اقرار ما بيده وانتهت المفاوضة بالموافقة وحصل كل طرف على ما بيده^(٣) .

الا ان اهالي دمشق الحوا على ابن المقدم وطلبوا منه دعوة صلاح الدين لنجدهم والسير اليهم خوفا من سعد الدين كمشتكين الذي استولى على حلب ، فخافوا ان يسير الى دمشق ويستولى عليها^(٤) . كما ان تهديدات الصليبيين كانت من جملة الاسباب الموجبة لذلك الالحاق^(٥) . وهذا يدلنا على ان صلاح الدين اصبح في هذه الفترة ، معقد آمال المسلمين ، ومحط انظارهم في منطقة الشام والمنقذ من الاخطار المهددة في الداخل والخارج .

وعلى كل حال فان صلاح الدين لبى النداء وتقدم نحو سوريا ، وكان وراء تقدمه اسباب كثيرة . ورغم اتخاذ صلاح الدين من الوصاية على الملك

(١) ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٨٥/١٢ .

(٢) الكامل : ٤١٦/١١ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ٢٧٩/٥ .

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٤/٦ - ٢٥ .

(٥) Champdor, Saladin, P. 77.

الصالح ، وهجوم الصليبيين على بانياس ، واضطراب الأحوال بدمشق ، وسيلة لتحقيق اهدافه في وحدة مصر والشام . فان الوثائق التاريخية أشارت الى وجود دوافع اخرى كانت وراء مسيرة نحو الشام . وقبل البت فيها تتساءل : هل كان صلاح الدين يحب السيطرة والغزو ، وبالتالي سفك الدماء من اجل مصالحه الشخصية ؟ وهل كان يهيمه امر اعادة وحدة مصر والشام وبالتالي اخراج الغزاة منها ؟ ام ان تلك الاسباب كانت تخفي وراءها مطامح اخرى ؟

يقول هارولد لامب : ان صلاح الدين لم يمتط سهوة جواده ليحارب المسلمين الا انه كان لا يتوانى عن محاربتهم اذا ما خابت الوسائل السلمية . حتى انه كان قد أوصى أحد ابنائه - في إحدى رسائله - بالابتعاد عن سفك الدماء التي لا ضرورة لسفكها ، لان سفك الدماء لا يولد الا الحرب^(١) .

وقد اوضح صلاح الدين سياسته تجاه النوريين بالكتاب الفاضلي الذي ارسله الى خليفة بغداد سنة ٥٨١ هـ والذي جاء في بعضه : « وما كنا بشهادة الله في قتال المذكورين [المواصلة خاصة والنوريين عامة] الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه »^(٢) .

ومن الامعان في تاريخ هذه الفترة يتبين بوضوح ، بأن فكرة الغزو والسيطرة على المدن الاسلامية لم تكن من اهداف صلاح الدين . انما كان الهدف تحقيق وحدة تشمل بلاد الجزيرة والشام ومصر من النيل الى الفرات وتعزيز امكانيات تلك الوحدة اقتصاديا وعسكريا ليتسنى له تحقيق الهدف الاكبر « تحرير القدس » . وكانت المصالح الخاصة للامراء المحليين من اسباب المنافسات المستمرة فيما بينهم . وكانت تلك المنافسات

(١) شعلة الاسلام : ٦٨ .

(٢) الروضتين : ٦٢/٢ .

تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الصليبيين ، إضافة الى ان اولئك الامراء - من جهة ثانية - يشكلون خطرا مباشرا على صلاح الدين في حالة تقدمه لقتال اولئك الغزاة ، لان خطوط رجعت ستكون مهددة انداك ، فضلا عن امكان تعاونهم جميعا في حربه . كما وجد صلاح الدين - بعقرته العسكرية - ان وحدة الجيوش تحت امره قائد واحد هي الشرط الاساسي لكل انتصار على الصليبيين . ومما يدل على صحة ما جاء فيما سبق :

اولا :- نص الكتاب الذي ارسله صلاح الدين الى الديوان العزيز ببغداد والذي شرح فيه الاسباب التي دعت له للمسير نحو حلب سنة ٥٧١ هـ فقال : « الخادم [اي صلاح الدين] ينهي ان الذي يفتحه من البلاد ويتسلمه ... انما يعده طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار ... ولانختار الى ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعقوها ، ولولا ان امور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه ان يكون كثير المشاركين ولا أساءة ان تكون الدنيا كثيرة المالكين . وانما امور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة » (١) .

ثانيا :- كان صلاح الدين اذا افتتح حصنا ، او مدينة نورية لا يشترط على اهلها في شيء سوى ان يكون العسكر تابعا له في اوقات الازمات ، بينما يترك المدينة لاهلها مع كل اموالها ومتاعها . ومن امثلة ذلك مدينة حلب التي فتحها سنة ٥٧٩ هـ . ولم يشترط على اتابكها عماد الدين زنكي سوى « ارسال العساكر في الخدمة للغزاة ... والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو » (٢) .

ثالثا :- كان صلاح الدين اذا دخل حصنا او مدينة للمسلمين من

(١) أبو شامة ، الروضتين : ٤٨/٢ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين : ٤٣/٢ .

الحصون والمدن التابعة لأحد الأمراء المسلمين المعادين له يعلن العفو العام عن أهل ذلك المكان^(١) . ولو كان مجبا لسفك الدماء لقضى على خصومه وأمر بقتلهم .

رابعا :- لو كان صلاح الدين ينوى حرب النورين والقضاء عليهم وبالتالي السيطرة على الشام لمصلحته الشخصية ، لما تقدم نحو الشام بحوالي سبعمائه جندي^(٢) ، ولم يجلب معه عساكر مصر ؟ ثم لماذا استقبله أهالي دمشق بالترحاب وساعده بما يملكون من قوة للتوجه نحو حلب واجبارها على الوخول في الوحدة ؟ لقد كان رحيل صلاح الدين الى الشام اشبه برحلة زيارة ، لانه لم يعد عدة الحرب ، ولم يظهر بمظهر الفاتح ، وانما ذهب اجابة لدعوة وجهت اليه - اضافة للاسباب التي نذكرها - ووجد في البلاد التي دعت استعدادا للدخول تحت لوائه وسرورا بالاتحاد معه^(٣) .

(١) ومن أمثلة المدن التي أعلن صلاح الدين عفوهم عن أهلها مدينة دمشق سنة ٥٧٠هـ ولقد ساعدت تلك السياسة صلاح الدين في كسب مودة الناس ، اذ دفعت بكثير من أهالي الحصون الى الاستسلام اليه لعلها مسبقا بسياسته المنوّه عنها . من أمثلة ذلك اذعان صاحب حصن كيفا له وهو نورالدين بن قرا ارسلان وصاحب حصن عكا سنة ٥٧٨هـ . انظر : مهرج الكروب : ٢٥٠/٢ - ٢٨ ، الروضتين ٣٢/٢ .

(٢) البنداري ، سينا البرق : ١٦٦/١ - ١٦٧ : المقرئزي ، السلوك : ٥٨/١ ؛ ابن الشحنة ، روض المناظر : ٢٣٦ ؛

Runciman, op. cit., 11, P. 404.

(٣) انظر مثلا عن رغبة مدينة دمشق بالانضمام الى صلاح الدين والقصائد التي نظمت لاجل ذلك :

— الاصفهاني ، خريدة القصر ، القسم الاول : ٣٢٩/١ - ٣٣٠ .

وعن استبشار اعيان سنجار بقدوم صلاح الدين اليهم وخروجهم للقائه انظر :

— ابن شاهنشاه ، مضمّار الحقائق : ١١١ .

ولقد علم صلاح الدين بأن كثيرا من العداة سيظنون به الظنون ،
ولذلك اوضح لهم سياسته بكتاب - ذكره العماد الاصفهاني في البرق
الشامي - بالانشاء الفاضلي جاء فيه : « ان الوفاء انما يكون بعد الوفاء ،
والحجة انما تظهر آثارها عند تكاثر العداة • وبالجمله انا في واد والظانون
ظن السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد لن يبعدنا عنه مراد ، ولا يقال
لمن طلب الصلاح (انك قاذح) ، ولا لمن القى السلاح (انك خارج) •
وما مرادنا الا مصلحة تؤثر لا فتنة تثار ••• فلو زرنا على غير هذا السبيل
لما سلكننا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب ، فلا يحمل امرنا الا على احسنه ،
ولا يظن بنا الا الخير الذي طبعنا اخص بوجوده من معدنه » (١) •

وقد ذكر القلقشندي بأن صلاح الدين بعث بكتاب الى الديوان العزيز
(الخلافة العباسية) ببغداد شرح فيه اسباب تقدمه نحو الشام ، بحوالي
عشر صفحات يمكن من خلاله ان تتلمس اسبابا جديدة يمكن اضافتها الى
ما سبق وهي : انه زحف الى الشام لكثرة المكاتبات التي وصلت اليه للمسير
اليهم لانقاذ الموقف ومحاربة الصليبيين والسيطرة على الاسباب التي تخدم
الهدف الكبير وهو فتح القدس فقال : « فكثر مكاتبات اهل الاراء
الصائبة ، ونظر للاسلام ولبلاذ الاسلام في العاقبة ، وعرفنا ان البيت المقدس
ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وامر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعه
والا ثبتت عروقه وكانت ••• همم القادرين بالعود آئمة ، وانا لا نتمكن
بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، واذا جاورناه
كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاذ قريبة ، والغزوة
ممكنة ، والميرة متسعة والخييل مستريحة ، والساكر كثيرة ••• » (٢) •

(١) الروضتين : ٢٣٤/١ : سنا البرق الشامي : ١٦٩/١ •

(٢) صبح الاعشى : ٨٥/١٣ •

كما اوضح صلاح الدين للديوان العزيز ببغداد ، ان من اسباب زحفه نحو الشام القضاء على بعض العقائد المعتلة^(١) ، والظاهر ان صلاح الدين قصد بها طائفة الاسماعيلية . كما اوضح ايضا سوء نية ابن المقدم وسعد الدين . تمسكتين اللذين تمسكا بكفالة الملك الصالح ، واعلن بأنهم « يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء بخدمته وهم عاملون بظلمه ... » والمراد الان هو كل ما يقوى الدولة ويؤدّد الدعوة ، ويجمع الامة ، ويفتح بقية البلاد^(٢) . وبذلك اعلن صلاح الدين بأن هدفه الاول فتح بقية البلاد ، بما فيها القدس ، وانه لا بد لذلك الفتح من دولة قوية ، وامة موحدة وشعب متآلف ، واعتبر نفسه المسؤول عن تحقيق تلك الاهداف .

وهكذا اذن كانت وفاة نور الدين بداية لتبوء صلاح الدين مركز الصدارة في قيادة المسلمين ، ووراثة المكانة التي كان عليها نور الدين . وكان هدف زحفه الى الشام توحيد مصر والشام والجزيرة في دولة قوية ، واتخاذ منطقة الشام مركزا عسكريا قريبا من تحصينات الصليبيين في المنطقة . الا ان الامراء المحليين لم يحسنوا التصرف ، ولجأوا الى المكابرة والعدا ، وزجوا بولد نور الدين في قتال صلاح الدين فاضطر الى مقاومتهم^(٣) ، وبالتالي السيطرة على ممتلكاتهم ، او اجبارهم على الانقياد لسلطانه .

ثانيا - مسير صلاح الدين من مصر الى الشام وتملكه كلا من دمشق وحمص وحماة سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م .

اخذ صلاح الدين يتجهز للسفر الى الشام في اوائل سنة ٥٧٠هـ / النصف الثاني من سنة ١١٧٤م) بعد ان مكث في مصر - بعد وفاة

(١) نفس المصدر : ٨٩/١٣ .

(٢) نفس المصدر : ٨٩/١٣ - ٩٠ .

(٣) القزاز ، الحياة السياسية في العراق : ٢٥٤ .

نورالدين - حوالي خمسة اشهر ينظر عن كسب الى الاضطرابات التي كانت تحدث في الشام اثر وفاة نورالدين ، انتظارا لفرصة سانحة • فقد انكر على سيف الدين غازي ، حاكم الموصل احتلاله بلاد الجزيرة • كما بعث الى الامراء بحلب يلومهم على اعتقال اصدقائه بني ابن الداية ، ثم راسل الملك الصالح وظهر استعداداه لتولى الوصاية عليه^(١) .

ولم يكن ثمة امل في العثور على خلف يمكن ان يحتل مكانة نورالدين ، ويتمن من الحفاظ على وحدة مصر والشام والجزيرة - كما سبق القول - • لذلك فان اية محاولة جادة وصادقة لاعادة البنيان السياسي الذي كان قائما ايام نورالدين ، لابد لها ان تتصدى بحزم للامارات الزنكية القائمة في منطقة الشام والجزيرة • وكان من الطبيعي على من سيقود تلك المحاولة ان يلاقي معارضة شديدة من اولئك الذين اعتقدوا بانهم اوصياء شرعيون على الملك الصالح بن نورالدين ، وهذا هو الذي وجدناه من مقاومة ابن المقدم وسعد الدين كمشتكين لصلاح الدين ، ومحاولتهما تشويه مقاصده^(٢) • كان هدف صلاح الدين اقامة دولة قوية موحدة لمقاومة الخطر الصليبي^(٣) .

(١) انظر : الروضتين : ٢٣٤/١ ؛ صبح الاعشى : ٩٠/١٣ .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٨٦/١٢ .

(٣) أورد أبو شامة نصا أشار فيه الى سياسة صلاح الدين ومبتغاه من السيطرة على الشام وذكر بأنه عزم على فتح القدس ، واعادة توحيد الاتابكيات الزنكية ، التي ان لم تسانده في حربه ضد الصليبيين ، فانها - من غير شك - ستكون مستعدة للتواطؤ مع عدوه ضده فقال : « ان يكونوا بنيانا فيعضدوه اذا سعى ويلبوه اذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس ... فان قعدت بهم العزائم واخذتهم في الله لومة لائم فلا اقل من ان يكونوا اعوانا عليه يلقنونه عن قصده حربين على اتصال المكروه اليه » الروضتين : ٢٥٤/١ والاطلاع على نصوص اخرى اصدرها صلاح الدين موضحا فيها نفس الاهداف انظر : البنداري ، سنا البرق : ١٦٩/١ ؛ الروضتين : ٢٣٣-٢٣٤ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى : ٩٠-٨٨/١٣ .

ولذلك كان عليه ان يعمل على ضم كل الاتابكيات الزنكية الى حكمه ، وكان من الطبيعي ان يقع الصراع بين الطرفين ، لانه ليس من المعقول ان ينضم كل الامراء الى صلاح الدين بالطريقة التي يراها صلاح الدين نفسه ! •
 فصلاح الدين كان كرديا ، واغلب الامراء النوريين كانوا من الاتراك ، كما ان صلاح الدين كان اميرا لمصر ، وقد اتهم بمحاولة للقيام بانقلاب والانفصال بمصر عن السلطة المركزية النورية - كما سبق القول - وان وصاية الملك الصالح ومقارعة الصليبيين معناه انشاء سلطة عسكرية مركزية ببلاد الشام • فهل كان بالامكان ان يتقبل الامراء النوريين في الشام والجزيرة ، سلطة رجل يطمع في ملكهم ، وكان يحكم بلادا هي بعيدة عن بلادهم ! ؟ علما بأن السلطان والنفوذ هو هدف كل صغير وكبير من الامراء في تلك الفترة • لان الملك كما هو عزيز على من يطمح فيه ، عزيز على من هو فيه •

ان نظرة موضوعية للتاريخ تشير الى انه في اغلب الفترات التي تسودها المصالح الشخصية ، ويتتابها الصراع من اجل الوصول للسلطة والقيادة ، يكون فيها التمسك بالدين ضعيفا ، ولذلك كان على صلاح الدين في كل الاحوال « اعادة التسليح الخلفي »^(١) المبني على العقيدة الاسلامية ليتمكن ان يدخل الشام ويحكمه من دون معارضة • اذ بغير اعلانه شعار « الجهاد في سبيل الله » (*) ، واعلامه الاطراف بأنه انما يقصد توحيد

(١) جب ، صلاح الدين : ١٨٨ •

(*) يقول ايمانويل سيفان Emmanuel Sivan ان الاسباب التي دفعت صلاح الدين (لاعلانه الجهاد في سبيل الله) هي: - انه لم يكن بين جيل صلاح الدين من كان مؤهلا لقيادة الامة غيره وقد اعتبر صلاح الدين مجاهدة الفكار (اي الصليبيين) واجبا جماعيا Obligation Collective ولما وجد ان الامراء مشغولين عنه • كان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة، ولذلك اعتبر تقدمه نحو الشام انما هو لخدمة الجهاد في سبيل الله •
 L, Islam et la Croisade (Paris, 1968) p. 96.

الكلمة لحرب الصليبيين ، كان لا يستطيع مطلقا دخول الشام الا على أسنة الحراب ، وان دخلها فانه كان لا يستطيع المكوث فيها ، لانه سيلقى - من غير شك - مقاومة شديدة . الا ان صلاح الدين عرف كيف يتصرف ، واختار الوقت الملائم ، وخرج من القاهرة بحوالي سبعمائة فارس بضمنهم سيف الدين طغتكين ، وتقي الدين عمر ، وعزالدين فروخ شاه ، بعد ان عهد الى اخيه الملك العادل بادارة شؤون مصر^(١) . وفرق بعض عساكره على ثغورها ومداخلها الحربية لصيانتها والمحافظة عليها^(٢) .

وفي بداية صفر من سنة ٥٧٠ هـ (٣ أيلول سنة ١١٧٤ م) نزل صلاح الدين البركة^(٣) واقام بها حتى اجتمع اليه العسكر ، ثم رحل الى بليس في ١٣/ربيع الاول/٥٧٠ هـ ، وكان رسل حاكم بصرى شمس الدين جاولي ورسل شمس الدين ابن المقدم عنده يستحثونه على مواصلة المسير ودخول الشام . فسار ودخل بصرى^(٤) وكان أثناء سيره يتمهل قليلا ليثبت اقدامه في كل خطوة يخطوها ، فمر بصدر وأيلة متفقدا استحكاماتها العسكرية^(٥) .

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ الكامل : ٤١٧/١١ ؛
المقريزي السلوك ٥٨/١ ؛ ابن العديم ، الزبدة : ١٩/٣ .
Lanep ool, A History of Egypt, p. 199.

(٢) سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٥٨ .
(٣) وتعني بركة الجب ، ويقال لها ايضا بركة الحجاج ، وتقع في
الجهة البحرية من القاهرة ، وكان صلاح الدين يخرج اليها للصيد والنزهة .
سنا البرق الشامي : ١٧٦/١ ، هامش ٤ .

(٤) الكامل ٤١٧:١١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ .

(٥) الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية : ١٧٧ ؛ ابن خلدون ،
التاريخ : ٥٦٦-٥٦٧ .

وقد انفرد ابن الاثير برواية مفادها بأن صلاح الدين استعمل اساليب الدهاء مع صاحب بصرى • حيث اوحى اليه بأنه يملك خمسين الف دينار، مما دفع بصاحب بصرى واتباعه الى مساعدة صلاح الدين للحصول على الاموال ، وعدم مقاومتهم اياه لانه كان بعدد قليل من العسكر • وعندما استقبل شمس الدين جاوولي - حاكم بصرى - صلاح الدين خارج القلعة وجده في قلة من العسكر ، فخاف على نفسه ، واراد الانسحاب عن معاضدته ، الا انه اجتمع بالقاضي الفاضل وقال : « ما ارى معكم عسكرا ، وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ، ولو منعكم من به ساعة من النهار اخذكم اهل السواد ، فان كان معكم مال سهل الامر : فقال : معنا مال كثير يكون خمسين الف دينار • فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال : هلكتم واهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة الاف دينار » (١) •

ولئن صحت هذه الرواية فمعناها ان صاحب بصرى كان يرى في صلاح الدين سلطانا طامعا عاديا ، وانه لا بد لمثل هذا السلطان من عسكر قوى ومال مبذول يستميل به الناس • اما صلاح الدين فكان يرى نفسه قائدا للامة ، يؤيده الناس ويحمونه وينصرونه على اعدائه والمخالفين عليه • وان الجيوش الكثيرة والاموال المبذولة انما تستخدم لكسب النصر على الصليبيين ، لا لحرب المسلمين •

ومن بصرى خرج صلاح الدين الى صلخد - كما ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامى - وسار معه حاكمها الى الكسوة (٢) • ومنها نظم صلاح الدين امر دخول مدينة دمشق ثم وصلها يوم الثلاثاء نهاية شهر

(١) الكامل : ٤١٧/١١ •

(٢) انظر : سنا البرق الشامى : ١٧٧/١ ؛ بيومي ، قيام الدولة

الايوبية : ٢١٧ •

ربيع الآخر من سنة ٥٧٠ هـ الموافق ٢٨ تشرين الاول سنة ١١٧٤ م ،
وخرج كل من بها من العسكر اليه « فلقوه وخدموه » ، ودخل البلد ونزل
في دار والده المروفة بدار العقيقي^(١) ثم خرج الى الميدان الكبير بدمشق
فجاءت اليه فرق الملاعب من المصارعين والمتأنقين وغير ذلك ، فقاموا باعمال
رياضية وبهلوانية جلبت انتباه السلطان تعبيراً من اهالي دمشق بالفرحة
التي اتابتهم بتملك صلاح الدين زمام امورهم^(٢) .

اما قلعة دمشق فقد امتعت عليه قليلاً ، وكانت بيد خادم اسمه
جمال الدين ريحان . الا ان صلاح الدين استماله لجانبه وقال له : « انا
مملوك الملك الصالح وما جئت لانصره واخدمه » واعيد البلاد التي
اخذت منه اليه^(٣) .

وهكذا ملك صلاح الدين مدينة دمشق وقلعتها ، وظهر انه انما جاء
لاقرار شرعية الحكم ولتربية الملك الصالح وتدير ملكه . واصدر على

(١) الكامل : ٤١٧/١١ ؛ سنا البرق : ١٧٧/١ ؛ مفرج الكروب :
١٩/٢-٢٠ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٦٩ ؛ ابن العديم ، الزبدة :
١٩/٣ ؛ ابن العبري تاريخ مختصر الدول : ٢١٦ ؛ العزي ، نهر الذهب :
٩٨-٩٩ ؛ ابن العماد شذرات الذهب : ٢٣٦/٤ ؛ ابو الفدا : ٧٦/٥ ؛
بول ، طبقات سلاطين الاسلام : ٧٢ ؛ الزركلي ، الاعلام : ٢٩٢/٩ .

(٢) كان من بين الالعب التي اقيمت امام صلاح الدين ، لعبة سحرية
قام بها رجل وصف : برجل يعمل الاعاجيب كان يدخل الخيمة امام صلاح
الدين فيختفي بداخلها ، بحيث لم ير ولم يجده احد اذا فتش عليه ، ثم
تربط الخيمة في محل آخر ، واذا به يخرج منها . وقد اعجب به الناس
الا ان الامير سنقر الخلاطي قام اليه وضرب عنه بين الناس محتجاً بأن مثل
هذا لا يؤمن ان يكون جاسوساً لدى الصليبيين ، وأراد الخلاطي قتل رفيقه
فالتجأ الى صلاح الدين ، فحماه وطلب منه مغادرة دمشق . ابن اياس ،
كتاب تاريخ مصر (القاهرة ١٣١١ هـ) ، ٧٣/١ .

(٣) الكامل : ٤١٧/١١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ .

الفور بيانا الى اهالي دمشق أعلن فيه عفوه عنهم ، وتصميمه على تحقيق ما عزم عليه من المضيّ قدما في محاربة الذين اغتصبوا أملاك سيده نورالدين . فذكر بالانشاء الفاضلي : « ان الله ملكنا دمشق عناية لا عنوة ، ولم يكتب فيها بحمد الله الى خطيئة خطوة ، ولا حدثت عشره فعلموا . . . (السيف اصدق انباء) والحق اعز بناء ، والباطل يضمحل عفاء والزبد يذهب جفاء ، الا وانا رأينا العفو أقرب للتقوى ، وامثل في سلوك الطريقة المثلى وارحنا القلوب من نصبها ، وابقينا السلطة في منصبها ونظرنا في احوال البيت النورى ، اعلاه الله ، فاذا هو قد اطفئت مصابيح نوره وكاد ذكره في الزهاب يلحق بمذكوره فاستأنفنا تديرات تؤمل ان الله سبحانه يقيم البيت الكريم على عمده ، ويغنيه عن مساندة من لا يغنيه عن سنده وقفنا حق الملك الصالح وحق والده رحمه الله باظهار الاحسان في كفاله ، واستشعار الجميل في خدمته وقد كان ريحان مانع بتسليم القلعة ريثما علم ان لا يبقى بالرماح ريحانه فاعطيناه امانا وبوأناه منها مكانا » (١) .

وقد اتبع صلاح الدين في دمشق نفس السياسة التي قام بتنفيذها في مصر ، بعد توليته الوزارة سنة ٥٦٧ هـ . اذ عمد الى كسب تأييد الشعب فاصدر على الفور اوامره بانفاق الاموال وتوزيعها على الناس ، والمناداة بازالة المكوس وابطال القبائح والمنكرات والضرائب التي احدثت بعد وفاة نورالدين محمود ، وكاتب امراءه والاطراف المعنية باتباع الاوامر الجديدة (٢) .

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١٧٧/١ - ١٧٨ .

(٢) الروضتين ١: ٢٣٦ ؛ النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ السلوك : ٥٨/١ ؛

تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٦٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٧٤٣ .

وعمد صلاح الدين الى ارضاء علماء الدين لكسب تأييدهم ، وكان لهذه السياسة اثر كبير في نفوس الناس نظرا للمكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها علماء الدين فقد مشى الى دار قاضي القضاة (كمال الدين ابن الشهرزوري)^(١) فدخلها وسلم على صاحبها ، ولم يلتفت الى ما كان بينه وبين الشهرزوري قبل هذا التاريخ من سوء تفاهم . فظهر للشهرزوري خاصة وللمدشقيين عامة صفاء نيته وحسن خلقه .

وقد رحب به قاضي القضاة اجمل ترحيب ، واعلن انصياعه لصلاح الدين ثم ذكر له وسط تجمعات الحاضرين « طب نفسا فالامر امرك والبلد بلدك »^(٢) . فكانت هذه الكلمات من قاضي القضاة بدمشق اعلانا عاما للمدشقيين بالتسليم المطلق لصلاح الدين والانصياع له ، فظهروا فرحتهم ، واعلنوا سرورهم و « ارتاحت قلوبهم وطابت نفوسهم ، وسارت حياتهم في المدينة سيرها الطبيعي المعتاد »^(٣) ، وسلموا اليه مقاليد امورهم ، وقد قابلهم صلاح الدين ايضا بالاكرام والترحاب وظهر السرور لهم^(٤) .

(١) كمال الدين ابن الشهرزوري ، قاضي قضاة دمشق . كان له مكانة كبيرة في عهد نورالدين الذي اطلق له زمام امور دمشق ، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين متوليا لرئاسة شرطة المدينة . وكثيرا ما كان يقع بين الطرفين عدم توافق في تسيير امور المدينة . كما كان الشهرزوري متوليا لامرية الاشراف على بناء أسوار دمشق ومدارسها على عهد نورالدين ، ومكث بدمشق حتى توفي نورالدين فيها ثم خدم صلاح الدين بعد ان دخل دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، وعندما حضرته الوفاة بدمشق سنة ٥٧٢ هـ طلب من صلاح الدين تولية أخيه ضياء الدين في منصب القضاء بدمشق فاستجاب له السلطان ، وهو دليل على التقارب الذي كان بين الطرفين . انظر : ابو شامة ، الروضتين : ١ / ٢٦٢ .

(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب : ٤ / ٢٤٣ .

(٣) سعداوي ، المصدر السابق : ٥٩ .

(٤) النجوم الزاهرة : ٦ / ٢٤-٢٥ ؛ رض المناظر : ٢٣٦ .

وكان من نتائج المحبة والتعاون الذى ظهر بين صلاح الدين والدمشقيين ، ان مدحه بعض شعرائهم بقصائد كثيرة وصفوا فيها دمشق بعد دخول صلاح الدين اليها • فذكر الشاعر محمد بن عبدالله التعاويذي في سنة ٥٧٥ هـ بأن دمشق اصبحت مأوى للمطرودين او الهاربين من الاتابكيات الزنكية ، كما اصبحت موئلا للمساكين ومحطة للتجار الذين اخذوا يحيطون فيها رحالهم ، للامن الذى سادها بفضل عدل صلاح الدين وعفته حتى باتت دمشق بأهلها وكأنها صورة لما روى في التاريخ عن مدن المسلمين الاول^(١) •

وقد شبهه الشاعر نشوء الدولة ابو الفضل احمد بن المبارك (ت: ٦٠١ هـ) بالنبي يوسف ، وانه قدم الى دمشق بعد ان استغاثت به ، وتمنت لو كانت مصر • وان صلاح الدين لما دخلها غدت بجلاله تزهو على غيرها من البلاد^(٢) •

(١) ذكر ابو الفتح محمد التعاويذي في سنة ٥٧٥ قوله :
اضحت دمشق وقد حلت بجوها ماوى الطريد وموئل المسكين
وغدت بعدلك وهي اكرم منزل تلقى الرحال به وخير قطين
يثني عليك المعدمون بها كما تشني الرياض على السحاب الجون
لك عفة في قدرة وتواضع في عزة وشراسة في لين
واريتنا بجميل منك ما روى الرا وون عن امم خلت وقرون
ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٢٢-٢٣ •

(٢) ذكر الاصفهاني ان الشاعر نشو الدولة علي بن المبارك مدح صلاح الدين عند دخوله دمشق بقوله :
بدا في سماء الملك من شخصك البدر وقابله الاقبال والفتح والنصر
وجلى ظلام الشرك اقبال نوره فأصبح مخذولا له الذي والقهر
اتى بعدما نادى دمشق لبعده الى ربها : تالله مسني الضر
شكت بعده لما توطن غيرها وقالت ، كم امثالها ، ليتني مصر
وكانت له يعقوب اذ هو يوسف فأضحت به تزهو وباشرها البشر
خريدة القصر ، ق ١ : ٣٢٩/١ - ٣٣٠ •

كما وصفه الشاعر وحيش الاسدي^(١) بالاسد الذي أحيا دمشق كما أحيا مصر من قبل • وعدد للمدحيين انتصاراته على الصليبيين في دمياط سنة ٥٦٥هـ والاسكندرية سنة ٥٦٩هـ • وعلى قوى الفاطميين بعد مقتل الوزير شاور - السابق الذكر - كما اعلن الاسدي بأن الشام لو لم يتداركه صلاح الدين لاندست آثاره فقال :

والشام لو لم يدارك اهله اندرت آثاره وعفت آياته حُقباً^(٢)

وعلى الرغم من عدم خلو الوصف السابق لصلاح الدين من المبالغة - نظرا لان المدح قيل في فترة وجود الدولة الايوبية أولا ، وكون بعض الشعراء من أصدقاء صلاح الدين ثانيا كالشاعر وحيش الاسدي - فانه لا يخلو من حقيقة تاريخية ذلك لان دمشق كان يسودها جو من القلق والخوف على مستقبلها لخلوها من حاكم قوي - بعد خروج سعدالدين كمشتكين بالملك الصالح الى حلب - وكثرة تهديدات الصليبيين لها • لذلك فان دخول صلاح الدين الى دمشق - وهو الحاكم القوي لدولة مصر القوية الواسعة - معناه اعطاء دمشق دفعة قوية من الامل في الامن والاستقرار والوقوف بوجه التحدي الصليبي •

اما الامراء النوريون ذووا الاطماع في السلطة والوصاية على الملك الصالح فقد كان موقفهم من دخول صلاح الدين دمشق موقفا سلبيا بصورة عامة فقد سادهم جو من التوتر خلقه الخوف على مناصبهم ، وقد وصفهم

(١) هو الشاعر ابو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله ولد سنة ٥٠٤ هـ ومدح صلاح الدين بعدة قصائد عند وصوله الشام وملكه دمشق سنة ٥٧٠ هـ • انظر : الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣ : ٢٤٢/١ •

(٢) نفس المصدر السابق : ٢٤٣ •

العماد الاصفهاني - في البرق الشامي - بقوله : « ولما سمع المدبرون للملك الصالح باقبال صلاح الدين المؤذن بادبارهم حاروا في حوارهم ، ولبسوا شعار استشعارهم ، وراسلوا بالعنف معنفين وبالعسف معسفين »^(١) . ثم اجمعوا على مراسلته وحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة ارعدوا فيها ، وانذروا بأنهم عازمون على حربه ان لم يرتد عما قصده ، فقد جاوز حدّه ولا بد من التصدي له وقالوا : « هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي جنيت بها قصور المضربين على اكتافنا والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك وعما تصدّيت له تصدك وانت فقد تعديت طورك وتجاوزت حدك »^(٢) .

ويقال بأن قطب الدين بن ينال المنبجي فاه بتلك الرسالة الجارحة ، بعد ان مكث بضيافة صلاح الدين ثلاثة أيام ، وبعد ان كان صلاح الدين - كما ذكر ابن ابي طيء - قد « تلقاه بموكبه وب نفسه وبالع في اكرامه والاحسان اليه »^(٣) . ومع كل ذلك فان صلاح الدين احتمله وتغافل عن كلامه ، واجابه بكلام لطيف وقال له : « اعلم يا هذا انني وصلت الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحيطة الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نور الدين »^(٤) ، ولانقاذ اخوة مجد الدين^(٥) .

الا ان المنبجي اغلظ له في القول مرة ثانية ، وقال له : « انت تريد الملك لنفسك ، ونحن لا ننزع في قدسك ولا نبني على اسك ، فارجع حيث

(١) سنا البرق الشامي : ١٧٩/١ .

(٢) الروضتين : ٢٣٧/١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٧٩/١ ؛ مفرج

الكروب : ٢١/٢ .

(٣) الروضتين ، : ٢٣٧/١ .

(٤) نفس المصدر : ٢٣٨/١ ؛ مفرج الكروب : ٢٢-٢١/٢ .

(٥) سنا البرق الشامي : ١٧٩/١ .

شئت ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع»^(١) . وكاد صلاح الدين ان يسطو عليه في هذه المرة ويقتله واومى الى رجاله باقامته من بين يديه^(٢) .

ولما رأى صلاح الدين بأن النوريين لا يميلون لوجهة نظره ، وانهم مصرون على اتهمه بحبه للسيطرة والفتح ، ورغبتهم بعدم الانضمام اليه ، عوّل على أخيه سيف الاسلام طغتكين في ادارة شؤون دمشق ، ورعاية رعيته وقرر التوجه نحو حمص^(٣) ، التي كانت هي ومدينة حماة وقلعة مرعش وسلميه وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخرالدين مسعود الزعفراني من امراء نورالدين^(٤) .

وفي يوم الاحد ١١ جمادى الاولى سنة ٥٧٠هـ (٨ كانون الاول سنة ١١٧٤م) خرج صلاح الدين الى حمص ، ودخلها يوم الثلاثاء منتصرا ، دون قلعتها التي امتنعت عليه^(٥) . وكانت كما وصفها ابن جبير وقتذاك « في غاية العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها حديد ، تكتفها الابراج المشيدة الحصينة »^(٦) . لذلك لم يشأ صلاح الدين

(١) نفس المصدر السابق : ١٧٩/١ .

(٢) الروضتين : ٢٣٨/١ ؛ بيومي ، المصدر السابق : ٢١٩ .

هامش (٥) .

(٣) الروضتين : ٢٣٧-٢٣٨/١ ؛ سنا البرق الشامى : ١٨٠/١ ؛

مفرج الكروب ٢٢-٢٣ ، ابن الاثير : ٢٧٦/١١ ؛ ابن العديم ، الزبدة :

٢٠-٢١ الزركلي ، الاعلام : ٢٩٢/٩ .

(٤) الكامل : ٤١٨/١١ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٦٨/٥ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ الكامل : ٤١٧/١١ ؛

البنداري : ١٨٠/١ ؛ مفرج الكروب : ٢٣/٢ ؛ زبدة الحلب : ٢١/٣ ؛

السلوك : ٥٩/١ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٦٩ ؛ ابن خلدون : ٥٦٨/٥ ؛

ابن الوردي ، التاريخ ١٢٠/٢ ؛

(٦) رحلة ابن جبير (ط . ليدن) : ٢٣٧ .

الاستمرار في حصارها ، بل ترك عليها حامية تحاصرها وتمنع وصول
الميرة اليها^(١) .

ولم يترك صلاح الدين قلعة حمص ، بل عاد اليها بعد ان فتح مدينة
حماة اثر محاصرته لحلب سنة ٥٧٠ هـ . لان سعد الدين كمشتكين راسل
الصليبيين بعد محاصرة صلاح الدين لهم وطلب مساعدتهم . وكان متولي
امرهم القائد الصليبي ريموند الثالث - الوصي على الملك بلدوين الرابع
ملك بيت المقدس الصبي -^(٢) الذي لبي نداء كمشتكين وزحف على حمص
وحاصرها في ٦ ربيع الاول سنة ٥٧٠ هـ (أول شباط سنة ١١٧٥ م) ، فاضطر
صلاح الدين الى رفع الحصار عن حلب والتوجه الى صد الهجوم الصليبي .
مما دفع بريموند الثالث الانسحاب من حمص^(٣) فتوجه اليها صلاح الدين
فورا وحاصر قلعتها تسعة أيام حتى تمكن من فتحها في ١٧ آذار سنة
١٩٧٥ م ، بعد ان نصب عليها المجانيق واخذها قسرا ورتب عليها واليا^(٤) ،
وقيل اقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وهو زوج اخته ست
الشام بنت أيوب^(٥) .

(١) الكامل : ٤١٨/١١ ، زبدة الحلب ٢:٣ ، جب ، صلاح الدين:

١٢٣ .

(٢) لم تنقل المصادر التاريخية المعاصرة نصوص من تلك المراسلات
التي كانت بين كمشتكين والصليبيين . بل أشارت فقط الى ان جماعة
الامراء بحلب راسلوا الصليبيين وهاذنوهم بعد ان بذلوا لهم اقطاعات
خاصة لابعاد شرورهم عن حلب وبانياس . وكان سعد الدين كمشتكين
من جملة الامراء الذين كانوا مسيطرين على الامور بحلب . انظر :
الروضتين : ٢٣٦/١ ؛ مفرج الكروب ١٧/٢ - ١٨ .

(٣) الكامل (القاهرة : ١٣٠١) : ١٨٩/١١ ؛ السلوك : ٥٩/١ .

(٤) مفرج الكروب : ٢٩/٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٨٩/١٢ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢٢٧/١ ؛ ابن كثير : ٣١٧/١٢ .

ويمكن ان يكون - من جهة ثانية - في ملك صلاح الدين لمدينة حمص رد اعتبار للايوبيين ، لان حمص كانت من اقطاع شيركوه - عم صلاح الدين - ايام كان في خدمة نورالدين ، الا ان نورالدين استردها منه بعد استقرار ملك صلاح الدين بمصر^(١) .

وبعد ان ملك صلاح الدين حمص توجه الى مدينة بعلبك ، التي كانت تابعة لنورالدين ويحكمها رجل من عنده عرف بيمين ، فسلم اليه قلعتها بالسلم في يوم السبت رابع شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ^(٢) ، بعد ان يش من معونة حلب^(٣) . وربما لضعف قوته وعدم تمكنه من مقاومة أي حصار يقع على المدينة . والارجح بأن يمتنا هذا سلم مدينة بعلبك لصلاح الدين بعد ان علم بملك صلاح الدين لدمشق وحمص ومحاصرتها لحلب ، فعلم ان الوقت لصالح صلاح الدين ففضل السلامة لنفسه واختار الوقوف الى جانب المتصنر .

وقد راسل صلاح الدين أخاه سيف الاسلام - نائبه بدمشق - وأخبره مبشرا بفتح بعلبك وجاء بنص الكتاب المرسل بالانشاء الفاضلي : « ونزول المسار ربه بفتح قلعة بعلبك بالسلم الذي اغمدت فيه السيوف . . . ورجمت من الاعداء الانوف . . . »^(٤) . وهذا يدلنا على ان النوريين كانوا يتوقعون وقوف قلعة بعلبك الى جانبهم ضد صلاح الدين ، الا ان ظنونهم خابت وسلمت القلعة بالامان .

وفي هذه الفترة وصل الى خدمة صلاح الدين الكاتب العماد

(١) بيومي ، المصدر السابق : ٢٢٣ .

(٢) الكامل : ٤٢٠/١١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٨٣/١ .

(٣) السلوك : ٥٩/١ .

(٤) سنا البرق الشامي : ١٨٣/١ .

الاصفهاني ، الذي خرج من الموصل في ٤ جمادي الاول وعبر الخابور الى الرقة ونزل مدينة دمشق . وكان صلاح الدين قد أنهى فتح بعلبك ، فامتدحه بقصيدة اوضح له فيها ان الاسلام سيفتخر به ، وان فتحه بعلبك استقرار لسلطانه في منطقة الشام ، وان ذلك الفتح قد ابكى حساده دما . ثم دعا الى فتح البيت المقدس الذي هو هدف الجميع وان ما عداه من الفتوح انما هو اعداد لذلك الفتح^(١) .

اما قلعة حماة ، فان صلاح الدين توجه اليها بعد محاصرته قلعة حمص في المرة الاولى في ١٣ جمادي الاولى سنة ٥٧٠هـ (١٠ كانون الاول سنة ١١٧٤م) وكانت بيد الامير عز الدين جورديك ، الامير النوري ، الذي شارك صلاح الدين بقتل الوزير الفاطمي شاور سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م^(٢) .

(١) جاء في القصيدة التي امتدح بها اصفهاني صلاح الدين بفتحه بعلبك ما يلي:-

بفتوح عسرك يفخر الاسلام وبنور نصرك تشرق الايام
وبفتح بعلبك تهذب هذي الممالك واستقر الشام
وبكى الحسود دما ، وثغر الثغر - من فرح بنصرك - للهدى بسام
فتح تسنى في الصيام كأننا - شكرا لما منح الاله - صيام
فتمل فتحك ، وافتح القدس الذي بحصوله لفتوحك الاتمام
انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٠ / ٢ ، ابو شامة ، الروضتين :
٢٥٩ / ١ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٨٤ / ١ - ١٨٥ .

(١) كان عز الدين جورديك ممن امتنع عن تأييد تولي صلاح الدين القيادة بمصر . غير انه في هذه الفترة عند تقدم صلاح الدين لحصار قلعة حماة ، انقلب الى جانب صلاح الدين ، وربما بدت علائم الانتصار على صلاح الدين ، فأراد جورديك أن يكون مع المنتصر ، ولكن مراسله صلاح الدين له اثناء حصار قلعة حماة بضرورة تسليمها اليه لانه انما جاء - اضافة للاسباب الواردة اعلاه - لاعادة بلاد الجزيرة التي احتلها سيف الدين غازي ، وربما تدل على وجود صراع بين سيف الدين غازي وعز الدين جورديك . فضل الثاني الوقوف الى جانب صلاح الدين لان ذلك يحقق مطامحه . انظر الكامل : ٤١٨ / ١١ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٦٩ / ٥ .

- سابق الذكر - وقد وصل صلاح الدين مدينة حماة في أول جمادي الثاني سنة ٥٧٥هـ / ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١١٧٤م • فأستقبله جورديك استقبالا حسنا عند الرستن ، من نواحي مدينة حماة وسلمه المدينة بعد ان امتنع عن تسليمها في البداية ، اعتقادا منه بان صلاح الدين ينوي السيطرة على البلاد والاستيلاء على املك نورالدين • الا ان صلاح الدين عرفه الاحوال ، وما هو عليه من طاعة الملك الصالح ، وانه انما جاء لحفظ بلاده عليه ، ومدافعة الصليبيين عنه ، وارجاع بلاد الجزيرة من ابن عمه سيف الدين غازي حاكم الموصل • وقد استخلفه عزالدين على ذلك ومن ثم سلم اليه القلعة^(١) التي كان عليها أخوه ، وعرض على صلاح الدين تطوعه ليكون سفيرا له لدى الحليين ليعرفهم الاحوال ، فوافق صلاح الدين على طلبه وأرسله الى حلب رسولا من عنده لتحقيق صلح بين الطرفين^(٢) • وربما دل ذلك على وثوق جورديك بصدق نوايا صلاح الدين •

ولما وصل عزالدين جورديك الى حلب أشار على من بها من الامراء بمصالحة صلاح الدين • الا ان سعدالدين كمشتكين اتهمه بالتواطؤ مع صلاح الدين ، وأمر به فاودع السجن مع بني ابن الداية • وظل صلاح الدين ينتظر أخباره في الرستن حتى طال عليه الانتصار ، فتقدم الى جيباب التركمان ، قرب حلب ، فلقية أحد غلمان جورديك وأخبره بما جرى على سفيره من الاعتقال • فرحل عائدا الى حماة وطلب من أخي جورديك ضرورة تسليم قلعة حماة اليه ، وأخبره بما جرى على أخيه ففعل • وبذلك

(١) الكامل : ٤١٨/١١ ؛ الروضتين : ٢٣٨/١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٨٠/١ ، مفرج الكروب : ٢٣/٢ ؛ زبدة الحلب : ٢٢/٣ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٦٩/٥ •

(٢) ابن العديم ، الزبدة : ٢٢/٣ •

تسلم صلاح الدين قلعة حماة ، وصعد إليها وولاهها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس^(١) . وقيل بأن صلاح الدين ولاها خاله شهاب الدين محمود الحارمي^(٢) . وهكذا دخلت حماة كليا تحت امرته ، وأصبح حكم صلاح الدين يمتد على كل من مصر ودمشق وما بينهما ، وكل من حمص وحماة وبلبك .

ثالثا - موقف صلاح الدين من الصالح اسماعيل بن نور الدين حتى وفاته سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م :

تولى الملك الصالح اسماعيل الملك شكليا ، بعد وفاة والده نور الدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م . اذ كان طفلا صغيرا في الحادية عشر من عمره - كما تبين ذلك من قبل - وقد تمكن الامراء المحيطون به من التلاعب بمقدرات الوصي والوصاية ، ونقلوا مركز الحكم من دمشق الى حلب^(٣) . ومن هناك بدأ الامير كمشتكين بتنفيذ سياسته القاضية بانفراده بالوصاية على الملك الصالح ، فاعتقل بني ابن الداية^(٤) ، وتآمر مع الاسماعيليه في قتل رفيقه الامير أبو صالح ابن العجمي سنة ٥٧٢هـ الذي كان مساعده في نقل الملك الصالح من دمشق الى حلب والوصاية عليه^(٥) .

(١) الكامل : ٤١٨/١١ ؛ الروضتين : ٢٣٨/١ ؛ زبدة الحلب :

٢١/٣ ؛ سعداوي ٦١ .

(٢) الدواداري ، كنز الدرر : ٥٨/٧ - ٥٩ .

(٣) الدواداري ، كنز الدرر : ٥٨/٧ - ٥٩ .

(٤) يرى ابن أبي طي : بأن نور الدين هو الذي اوصى بأن تكون حلب مركزا لاقامة ابنه فيها من بعده ، نظرا لعامل القربى والمحبة التي كانت

بينه وبين بني ابن الداية حكام حلب . الروضتين : ١٧٤/١ .

(٥) انظر : سنا البرق الشامي : ١٦٢/١ - ١٦٥ ؛ زبدة الحلب :

١٥-١٤/٣ .

(٦) يذكر ابن واصل ان جماعة من الباطنية (الاسماعيليه) قفزوا يوم

ومن هناك أخذ سعد الدين كمشتكين يخطط بحزم للسيطرة على حلب
وابعاد صلاح الدين عنها بكل الوسائل ، فعندما تقدم صلاح الدين الى الشام
بعث اليه كمشتكين كتابا اتهمه فيه بحبه للغزو والسيطرة على املاك سيده
نور الدين وابنه الملك الصالح^(١) - كما تبين من قبل - ، بعد ان هرب من
مقدمة عسكر سيف الدين غازي - حال علمه بوفاة نور الدين - الى دمشق
واقنع الملك الصبي بضرورة الانتقال الى حلب ليتسنى له هناك السيطرة على
ادارة البلاد لوحده^(٢) .

والظاهر ان صلاح الدين لم تكن تخفى عليه مخططات كمشتكين
واعوانه^(٣) ، وكان يحاول بين فترة وأخرى مراسلة الملك الصالح لتوضيح
الامر له وافهامه بضرورة اقصاء كمشتكين عنه والا فان العلاقة بين الطرفين
سوف تفسد ، طبقا لما ورد في كتاب صلاح الدين للملك الصالح الذي ارسله

الجمعة علي ابي صالح ابن العجمي فقتلوه . وقيل للملك الصالح بأن
كمشتكين هو الذي دفعهم الى قتله ليستقل بالامر . فقبض عليه ، وتوفي
اثناء تعذيبه امام قلعة حارم التي كانت تابعة له . اذ كان قد سير اليها
تحت الاستظهار ، ليأمر اصحابه بتسليمها الى الملك الصالح فعذب
سعد الدين حتى مات من العذاب . مفرج الكروب : ٦٢/٢ .
(١) مرآة الزمان ، ق ١ : ٣٢٧/٨ .

(٢) انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب : ١١/٣ ؛ ابن كثير : البداية
والنهاية : ٢٨٥/١٢ ؛ البنداري ، منا البرق الشامي : ١٦٢/١ .

(٣) كان يحيط بالملك في حلب ، بالاضافة الى سعد الدين كمشتكين ،
الامير خالد بن محمد وابو صالح ابن العجمي ، وينال بن حسان المنبجي ،
وبعض غلمان نور الدين من الذين ارتضوا العمل لدى الملك الصالح تحت
امره كمشتكين وكان ه لاء جميعا يتعمدون تشويه كل كتاب يرسله
صلاح الدين للملك الصالح بخصوص الصلح ، ويشيرون عليه بمكاتبة
صلاح الدين بالغلظة . انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ق ١ ، ج ٨ ،
ص ٢٣٦ .

اليه بعد دخوله دمشق سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م وقد جاء في بعضه : « انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدي ما يجب من حقوق المرحوم [أي نورالدين] فلا تسمع ممن حولك فتفسد احوالك وتختل امورك وما قصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج » (١) • الا ان كمشتكين كان يعمد الى تشويه مقاصد صلاح الدين امام الملك الصبي ويأمره بمكاتبة صلاح الدين بالغلظة ، وقد أرسل اليه - تعبيرا عن ذلك - ينال بن حسان يغلظ له بالقول ويتهمة باجحاد الاحسان وكفر النعمة • وقد أجاب صلاح الدين رسول الحلبيين بكلمات عبرت بوضوح عن اعتقاده بأن الامراء المحيطين بالملك الصالح انما هم امراء مضللون ، وانهم سبب كل المشاكل فقال لينال بن حسان : « والله ما جئت الا لأستقذ هذا [أي الملك الصالح] من يد مثلك وامثالك فاتم سبب زوال دولته » (٢) •

ويبدو ان الملك الصالح لم يكن راضيا عن تصرفات من حوله ، الا انه لم تكن بيده حيلة يستطيع بها ابعادهم من حوله ، فقد كان صغير السن ، سريع التصديق والتأثر بمن حوله ، وقد دل على ضعف الملك الصالح ، وتلاعب كمشتكين بمقدراته ما ذكره ابن أبي طي من ان الاخير هو الذي كان وراء اعتقال عز الدين جرديك ، أمير حماة ورسول صلاح الدين للملك الصالح ، الذي قدم الى حلب في محاولة من صلاح الدين لعقد صلح بين الطرفين « فاتهمه الامراء بالمخامرة وردوا مشورته وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ، ولج سعدالدين كمشتكين في القبض عليه فقبض وثقل بالحديد » (٣) •

(١) مرآة الزمان ، المصدر السابق ، ق ١ : ٣٢٧/٨ •

(٢) نفس المصدر والمكان السابق •

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٢٣٨/٢ •

لذلك فمن الطبيعي ان يتوجه صلاح الدين الى حلب لاستتقاذ رسوله
والملك الصالح وضم حلب الى ملكه ، طالما أصبح حاكمها الفعلي لا يستطيع
تدبير أمره بنفسه ، اضافة الى ان حلب كانت تمثل مركزا مهما للغاية من
مراكز بلاد الشام التي وصفها أسدالدين شيركوه لنورالدين محمود أثر
وفاة والده زنكي سنة ٥٤٢ هـ بقوله : « وقد رأيت ان اصيرك الى حلب
وتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام ، وانما اعلم ان
الامر يصير جميعه اليك ، لان ملك الشام يحصل بحلب ، ومن ملك حلب
استظهر على بلاد المشرق » (١) . واذا ما علمنا بأن صلاح الدين كان صاحباً
ومرافقاً لكل من اسدالدين شيركوه ونورالدين ، وانه كان في كثير من
الاحيان رسول نورالدين الى شيركوه (٢) ، فانه من الطبيعي ان يكون
صلاح الدين عليماً بأهمية حلب ، وانه أراد السيطرة عليها ليحصل له ملك
الشام خاصة وانه كان يهدف الى توحيد البلاد وجمع الشعوب الاسلامية
لاستخدام طاقاتها من أجل اخراج الغزاة وتحرير القدس .

وقد كتب القاضي ابن الفراهيدي (٣) قصيدة مدح فيها صلاح الدين
واوضح بأن البلاد التي يملكها تنبسم له لانها كانت قبله موحشة القلوب ،
ووصف الذين يحاربونه من الامراء المسلمين ، كسعدالدين كمشكين ،
بأنهم رهط المغيرة بن سعيد الذي خرج في اماره خالد بن عبدالله القسري ،

(١) نفس المصدر السابق : ٤٦/١ - ٤٧ .

(٢) انظر الفصل الاول صفحة : ٦٠ .

(٣) ابن الفراهيدي : هو القاضي شمس الدين ابو عبدالله من اهالي
دمشق ، كان قاضي العسكر ايام نورالدين بالشام ، وبعد وفاة نورالدين
سنة ٥٦٩ هـ ولاء صلاح الدين الاشراف على خزائن دولته وأقره على قضاء
عسكره وخاصته ، وكان صديقاً حميماً لعماد الدين الاصفهاني الذي مدحه
بقوله : « وهو اصدق من خطب الي صداقته ، وجعل صداقها صدقه » .
الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ١ : ٢٨٩/١ - ٢٩٠ .

أو شبيب بن يزيد الخارجي أبو الضحاك أحد الثائرين على بني أمية ، ودعا صلاح الدين الى محاربتهم ، لان جهاده اياهم ، في هذه الفترة ، أهم من جهاد الصليبيين ، ثم ذكره بأن نورالدين كان قد ادخره ليدفع من بعده نائبة الخطوب ، لذلك شجعه على تخليص ابن نورالدين من اولئك الامراء الذين حبسوه ومنعوه من اللقاء بالحبيب ، ويقصد به صلاح الدين ، لانه كان صغيرا بينهم ، لا بل أسيرا^(١) .

وقد توجه صلاح الدين الى حلب بعد ان ملك دمشق وحمص وحماة ثم بعلمك ونزل على جبل جوشن فوق مشهد الدكة في ٣ جمادى الثاني سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م وامتدت عساكره الى الخناقية والى السعدى^(٢) . غير انه توقف عن تقدمه قليلا لاستنفار سيفالدين غازي - اتابك الموصل - عساكره وارساله لاخته عزالدين مسعود بحوالي ستة آلاف فارس لمساندة كمشكين في حربه لصلاح الدين^(٣) .

كان سعدالدين كمشكين هو المدير للامر لاتباعه سياسة حكيمة تمكن

(١) مما جاء في قصيدة ابن الفراهي ما يلي :-
عصت حلب وقاتل ساكنوها وليس قتالهم لك بالعجيب
لانك ناصر الاسلام حقا وهم رهط المغيرة او شبيب
جهادك ان طلبت الغزو فيهم اهم اليك من غزو الصليب
ولم ينخرك نورالدين الا لتدفع عنه نائبة الخطوب
فخلص ابنه بالسيف منهم فقد حبسوه في بلد جديب
يبست وقلبه المحزون اشهى الى لقياك من ضم الحبيب
صغير بينهم ، لا بل اسير غضيض الطرف منجوس النصيب
تذكر عهده واحسن عليه ونفس عنه تضيق الكروب

انظر : الاصفهاني : خريدة القصر ، ق ١ ج ١ : ٣٠٢-٣٠٣ .

(٢) ابن ابي طي ، انظر : ابو شامة ، الروضتين : ٢٣٨/١ .

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٢٤٩/١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب :

٣١/٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٢٤-٢٥ .

بها ان يوقف نشاط صلاح الدين ، ولو لفترة محدودة ، ويمنعه من الاستمرار في حصار حلب ، فهو الذي ارسل الى سيف الدين غازي وطلب منه انضمام القوات الموصلية الى القوات الحلبية - كما ذكرنا من قبل - كما ارسل الى القومص^(١) الصليبي حاكم مدينة طرابلس ، ووعدته بأموال جزيلة ان هو تمكن من ابعاد صلاح الدين عن حلب^(٢) وقالوا له : « أنت طليقنا ، وكنت رفيقنا في الاسر ، والآن انت عتيقنا ، وحقنا عليك متعين ، وبرهان ذلك بين »^(٣) . وقد استجاب القومص لطلب كمشتكين وتقدم لحمص وحاصرها في ٧ رجب ٥٧٠ هـ . الا ان صلاح الدين - صده عن مقصده - وقام بمظاهرة عسكرية تقدم بها الى الرستن ، ولما علم الصليبيون بقربه منهم رحلوا عن حمص ، ولما وصل اليها صلاح الدين حاصرها وضايقها

(١) القومص : هو ا لكونت ريموند الثالث صاحب امارة طرابلس الصليبية ويلقب في بعض المصادر العربية (بالصنجلي) وهو تحريف عربي للقبه الفرنسي

(La Conte Raymond descendant... de saint-Agilles).

انظر : ابن واصل ، المصدر السابق ٢: ٢٩ ، هامش رقم (٢) . وكان القومص مأسورا لدى نورالدين منذ سنة ٥٥٩ هـ ، وبقي معتقلا بحلب ، حتى اطلق سراحه كمشتكين سنة ٥٧٠ هـ بعد ان تكفل بدفع مائة وخمسون ألف دينار صورية مع اطلاق سراح ألف أسير من المسلمين . الروضتين ٢٤: ١ ؛ مفرج الكروب : ٢/ ٢٤ ؛ البداية والنهاية : ١٢/ ٢٨٩ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/ ٥٦٨/ غير ان ابن الجوزي يرى بأن القومص اطلق سراحه من المعتقل في عهد نورالدين نفسه وليس في عهد ابنه الملك الصالح . المنتظم في اخبار الملوك والامم : ٨/ ٢١٦ .

(٢) الروضتين : ١/ ٢٤٠ ؛ مفرج الكروب ٢: ٢٤ ؛ البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٩ .

البرق الشامي ١/ ١٨٢ .

(٣) العماد الاصفهاني في البرق الشامي . انظر : البنداري ، سنا

حتى تمكن من فتح قلعتها التي كانت قد عصت عليه من قبل في ٢١ شعبان من السنة نفسها^(١) . والظاهر ان ريموند كان قد أدرك أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما ادرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة وحلب ودمشق ، لذلك اسرع بنجدة الملك الصالح لیسد الطريق بوجه صلاح الدين^(٢) .

وقد أشار المؤرخ الصليبي وليم الصوري الى هذا التعاون الذي تم بين القومص وكمشكين وذكر بأن الاخير شكر القومص على استجابته للنداء واطلق ما كان في يده من الاسرى الصليبيين في حلب امثال رينالد شايون وجوسلين كوريتناي تعبيرا منه عن صدق نواياه^(٣) .

ولم يكتف سعدالدين كمشكين بمراسلة سيفالدين غازي والقومص ، وانما راسل - أيضا - راشدالدين سنان مقدم الاسماعيليه في الشام ، ووعد به باعطائه أموالا كثيرة ان تمكن من قتل صلاح الدين . وقد استجاب راشدالدين سنان لطلب كمشكين ، الا ان محاولته باءت بالفشل وقتل صلاح الدين جماعة الاسماعيليه في الحال^(٤) .

واضافة الى ذلك ، فقد أجبر سعدالدين كمشكين الملك الصالح

(١) مفرج لكروب : ٢٩/٢ ؛ المقریزی ، السلوك : ٥٩/١ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٦٩/٥ .

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٤٤/٢ .

Runciman, op. cit., 11, P. 407. (٣)

(٤) كانت هذه المحاولة الاولى التي قام بها الاسماعيليه لقتل صلاح الدين ، وسوف نتطرق الى شرح هذا الحادث في فصل قادم انظر : الكامل ٤١٩/١١ ؛ مفرج الكروب : ٢٤/٢ ؛ البداية والنهاية : ٢٨٩/١٢ / وقد انفرد ابن كثير برواية مفادها بأن الملك الصالح راسل شيبان صاحب الحسبة وطلب منه ارسال نفر من اتباعه الى صلاح الدين ليقتلوه فلم يظفروا منه بشيء . انظر : البداية والنهاية : ٢٨٩/١٢ .

اسماعيل بالميل نحو طائفة الشيعة بحلب ، خاصة وانه وجد من طائفة السنة في حلب ميلا نحو صلاح الدين ، فخاف ان يسلموا اليه البلد ، كما فعل أهالي دمشق • فتعاون مع طائفة الشيعة وتسامح معهم في اقامة شعائرهم الدينية التي غالها نورالدين كالجهر « بحي » على خير العمل « في الاذان والدعوة للائمة الاثني عشر امام الجنائز وفي الاسواق ، والصلاة على أمواتهم خمس تكبيرات • كما اتفق معهم ان تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر حمزة من زهرة الحسيني - أحد كبار الشيعة في حلب - اضافة الى اعادته اليهم شرقية الجامع بحلب لاقامة صلاتهم فيه على قاعدتهم القديمة^(١) •

ومما يدل على ذلك قول المؤرخ الشيعي ابن أبي طي : « فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل ، وصلى أبي في الشرقية مسبلا ، وصلى وجوه الحلبيين خلفه ... وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه »^(٢) •

وللتأثير على الرأي العام الحلبي ، وقطع كل محاولة منهم لتسليم حلب الى صلاح الدين أشير على الملك الصالح بن نورالدين بالقاء خطبة مؤثرة على جموع الشيعة بحلب ، وقد ذكر ابن أبي طي نص الخطبة الملقاة ومما جاء فيها ما يلي : « يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم واللاجئ اليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الاخ ، وصغيركم عندي يحل محل الولد » [قال ابي ابي طي] وحقته العبرة وسبقته الدمة وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ، وضجوا بالبكاء وقالوا نحن عبيدك وعبيد أهلك نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وانفسنا لك »^(٣) •

(١) ابن ابي طي ، انظر : ابو شامة ، الروضتين : ٢٣٨/٢ •

(٢) ابو شامة ، المصدر السابق : ٢٣٩/٢ •

(١) ابو شامة : ٢٣٨/٢ وقد اضاف ابن العديم وغيره الى نص

والظاهر ان الخطبة السابقة نقلت عن ابن أبي طيء الى كثير من المصادر والمراجع من دون تمحيص أو تدقيق لواقع الخطبة ولطبيعة الناس الملقاة عليهم^(١) . فالذين تجمهروا حول الملك الصالح ، لم يكونوا من الحلبيين عامة ، انما كانوا من طائفة الشيعة - كما ذكرنا من قبل - ثم ان الملك الصالح لم يتقدم الى القاء خطبته بدافع ذاتي ، انما اشير عليه من قبل كمشتكين الذي تواطىء مع الشيعة بحلب . وقد ذكر ابن أبي طيء ما يدل على ذلك « اشير على ابن نورالدين ان يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ، ويخاطبهم انهم الوزر والملجأ »^(٢) ، علما بان طائفة الشيعة لم تبد استعدادها لمساعدة الملك الصالح الا بعد ان تنازل لهم عن كل ما حظر عليهم فعله أيام والده نورالدين ، فقد اشترطوا « على الملك الصالح ان يعيد اليهم شرقية الجامع وان يجهر بحي على خير العمل والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر »^(٣) .

ومن بين المصادر التي نقلت الخطبة بشويش ابن الاثير القائل :
« ركب الملك الصالح ، وهو صبي عمره اثنا عشرة سنة ، وجمع أهل حلب

الخطبة ما يلي : « وقد عرفتم احسان ابي اليكم ، وقد جاء هذا الظالم ينتزع ملكي » انظر : زبدة الحلب : ٢٢/٣ ؛ ابن العبري ، التاريخ المختصر : ٢١٦ .

(١) اشارت بعض المصادر والمراجع التي نقلت عن ابن أبي طيء بأن الملك الصالح القى الخطبة على جموع الحلبيين ، وانه اثر فيهم وابكاهم ودفعهم الى لتعاطف معه ، ووعدوه ببذل اموالهم وأنفسهم في سبيله . أنظر : مثلا الكامل : ٤١٨/١١-٤١٩ ، مفرج الكروب : ٢٣/٢ ؛ زبدة الحلب : ٢٢/٣ ، ابن خلدون ٥/٥٦٩ ؛ سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٦٢ ؛ بيومي ، قيام الدولة الايوبية : ٢٢١ .

(٢) الروضتين : ٢٣٨/٢ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق .

وقال لهم : قد عرفتم احسان ابي اليكم ومحبه لكم ... وبكى بأبكى
الناس فبدلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده ،
وجدوا في القتال ، وفيهم شجاعة ... فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين
عند جبل جوشن ، فلا يقدر على القرب من البلد «^(١)» . ونظرة عميقة
للنص الذي اورده ابن الاثير - والذي نقله عنه الكثيرون - تشير الى ان
فيه شيئاً من التعميم والمبالغة . فقد اشار ابن الاثير ان الصالح اسماعيل جمع
أهالي حلب وخطب فيهم ، علماً بأن الذين تجمهروا حوله انما كانوا من
طائفة الشيعة الاثني عشرية فقط - كما ذكرنا من قبل - أي ان في النص
تعميماً وتورية . ثم ان ابن الاثير يشير الى ان الصالح اسماعيل قال في
خطبته المؤثرة للناس حوله من الشيعة : « قد عرفتم احسان أبي اليكم

ومحبته لكم » والحقيقة ان نورالدين لم يحسن اليهم كاحسان ابنه الصالح
اسماعيل ، الذي كان تحت تأثير سعدالدين كمشتكين ، لان نورالدين انما
كان قد أبطل شعائهم الدينية مثل (الاذان بحجّي على خير العمل) ، وجعل
مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية بالخط الذي تسير عليه جماعة السنة
- وقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على ذلك - ولو كان الملك الصالح - كما
ذكر ابن الاثير - قد ذكر الحلبين باحسان والده ومحبه لهم ، فلماذا اذن
يطلبون منه السماح لهم باقامة شعائهم المحظورة عليهم ؟ ثم اذا كانت لدى
اتباع الملك الصالح من القوة العسكرية ما يدفع بها صلاح الدين بحيث
يجعله لا يقدر على القرب من حلب - كما ذكر ابن الاثير - فلماذا اذن
انهزم الحلبون أمامه وتحصنوا بأسوار المدينة ، وامتنعوا عن التصادم به
وجها لوجه ؟!

ولو كانت لدى الملك الصالح القوة الكافية لصد صلاح الدين ، فلماذا

(١) الكامل : ٤١٨/١١ - ٤١٩ .

اذن استعان بقوى الصليبيين والاسماعيلية والمواصلة • علما بان أغلب المصادر التاريخية لم تشر الى ان الحلبيين كانوا يخرجون من حصونهم ويقاتلون صلاح الدين ، بل على العكس كان الصالح اسماعيل وسعد الدين كمشتكين قد خافا من طائفة السنة في حلب ان يسلموا البلد الى صلاح الدين فاستمالوا طائفة الشيعة وتحصنوا في البلد^(١) •

ويبدو من دراسة النص ان ابن الاثير عمم خطبة الملك الصالح السابقة الذكر ، والتي يبدو فيها ان الصالح اسماعيل كان قد خطب في جموع الحلبيين عامة في بداية تقدم صلاح الدين لحصار حلب ، وانه لما وجد من طائفة السنة ميلا نحو صلاح الدين ذكروهم باحسان والده اليهم ومحبة لهم ، الا انهم - كما يبدو - امتنعوا عن اجابته لصغر سنه ووقوعه تحت تأثير سعد الدين كمشتكين الذي كان متواطئا مع الصليبيين وطائفة الاسماعيلية ، وبقيت طائفة الشيعة الى جانبه لصداقة كمشتكين لهم • بعد ان منحهم الملك الصالح بعض التنازلات ، لذلك كله بذلوا أموالهم وانفسهم دونه ثمنا لتلك التنازلات لا حبا بالتوريين •

اما موقف سيف الدين غازي صاحب الموصل من تحركات صلاح الدين فانه استغل انشغال صلاح الدين بقلعة حمص وبلبك ، وجهاز قواته العسكرية وارسلها بقيادة أخيه عز الدين مسعود بن مودود للانضمام للقوات الحلبية في مواجهة خطر صلاح الدين^(٢) • وذلك لان سيف الدين غازي خاف على مصالحه الشخصية وملكه ان يستولى عليهما صلاح الدين ، فقد

(١) كانت الاسباب التي دفعت صلاح الدين الانسحاب من حلب شدة البرد وكثرة تساقط الثلوج والامطار في تلك السنة ، اضافة الى هجوم الصليبيين على مدينة حصن ومحاولتهم السيطرة عليها ، ابن ابي طي ، انظر: الروضتين ٢٣٩/٢ •

(٢) الروضتين : ٢٤٨/١ ؛ مفرج الكروب : ٣١/٢ •

وجد بان صلاح الدين « قد استفحل أمره وعظم شأنه فخاف ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الامر اليه »^(١) علما بان جماعة من امراء حلب - كما ذكر ابن أبي طي - اتصلوا بعز الدين مسعود أخي سيف الدين وأخبروه بأن صلاح الدين متى ملك حلب لم يكن له قصد الا الموصل^(٢) .

وسواء كان في تقدم عساكر الموصل الى الشام استدعاء من حلب ، أو للحفاظ على مصالح سيف الدين الشخصية في المنطقة ، فان صلاح الدين كان رجلا سياسيا كبيرا ، استطاع ان يفكر بحذق وينقذ نفسه من الخطر المحدق به ، والذي كان ينتظره لو وقعت الحرب بينه - وهو في عساكر قليلة - وبين القوات العسكرية لمنطقة الجزيرة - بما فيها الموصل وسنجار - وحلب . حيث استخدم أساليب نورالدين نفسها أثناء تقدمه لحصار دمشق عن طريق « اضعاف الحزب المعارض بتشجيع المرتدين ، وتنظيم تظاهرات عسكرية في اللحظات المناسبة »^(٣) وتمكن بذلك من ان يوقع اشقاقا كبيرا بين قوات الموصل وسنجار ، وبعبارة أخرى بين الاخوين سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وعمادالدين زنكي صاحب سنجار .

فقد كاتب صلاح الدين عمادالدين صاحب سنجار واطعمه في الملك لانه هو أكبر أمراء البيت الزنكي^(٤) ، ويقال بأن صلاح الدين نوه له بولاية

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ ابن تغرى بردى ،
النجوم الزاهرة ٢٣/٦ .
(٢) الروضتين : ٢٤٩/١ ؛

Lanepool, A History of Egypt, P. 200.

(٣) جب ، صلاح الدين : ١٣٢ .
(٤) الكامل : ٤٢٠/١١ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٧٠/٥ ؛ سعداوي ،
المصدر السابق ٦٥ . ويرى ابن شداد بان عمادالدين هو الذي أظهر الانتماء

الموصل^(١) . وقد نجحت هذه السياسة سريعا لأن عماد الدين رفض الانقياد لمطالب أخيه ، وتحصّن بقلعة سنجار وأحسن حفظها والذب عنها ضد أخيه سيف الدين^(٢) . الذي جهز أخاه الثاني عز الدين مسعود^(*) وارسله الى الشام للانضمام للقوات الحلبية ، وجعل الامير عز الدين زلفندار مساعدا له في قيادة عساكر الموصل ، بينما ذهب هو الى سنجار لحصار عماد الدين في شهر رمضان من سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م^(٣) .

تقدمت قوات الموصل وحلب لمضايقة صلاح الدين في منطقة الشام وتقدموا الى حماة وحاصروها ، الا انهم رحلوا عنها لعدم تمكنهم من السيطرة عليها ، وراسل مقدمو حلب والموصليون - كما ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي - النائب السلطاني في حماة ، علي بن أبي الفوارس ، وطلبوا منه تسليم البلد وقالوا له : « انما وصلنا للصليح والاجتماع فيما يعود بين الجانبين بالنصح والنجاح »^(٤) .

لصلاح الدين . فأمدّه الاخير ببعض القوات العسكرية لمجابهة خطر اخيه سيف الدين . النوادر السلطانية : ٥١ ؛ وانظر : أبو شامة ، الروضتين : ٢٤٩/١ .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب : ٢٤/٣ .

(٢) الكامل : ٤٢٠/١١ ؛ مفرج الكروب : ٣١:٢ .

(*) هو عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي الذي اصبح حاكما لولاية الموصل بعد وفاة اخيه سيف الدين غازي . وكان يختلف عن اخيه بما قيل عنه انه كان رجلا صالحا وسياسيا كبيرا جرت له مع صلاح الدين حروب كثيرة وامتدت حياته من سنة ٥٧٦ هـ الى سنة ٥٨٩ هـ (١١٨٠-١١٩٣ م) انظر : الكامل ٦٦/١٢ ، الروضتين ٢/٢٢٦-٢٢٧ ؛ سنا البرق الشامي : ١٨٦/١ ؛ وفيات الاعيان : ٢٩٠/٤ - ٢٩٣ ؛ سعيد الديوهجي ، الموصل في العهد الاتابكي (بغداد ١٩٥٨) : ٣٢ .

(٣) الكامل : ٤٢٠/١١ .

(٤) سنا البرق الشامي : ١٨٦/١ .

فكتب النائب لصلاح الدين يحثه للقدوم اليه علّه يتم عقد صلح لا يتأتى نقضه ، فمضى اليه صلاح الدين بجمع يسير من عسكره رجاء الائتلاف ، وابعادا للحرب . حيث التقى بالامير سعد الدين كمشتكين وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي رغبة منه في الوصول الى السلام ، ورغم ما طلب منه التنازل عن كل الحصون التي فتحها في منطقة الشام ، فان صلاح الدين اجابهم الى طلبهم شريطة ان يكون نائبا عن الملك الصالح وله مدينة دمشق فقط بعد ان أقسم ان يسلك في الملك الصالح سبيل الامانة الا ان الموصلين والحليين اغتروا بقوتهم ، ووجدوا في صلاح الدين ضعفا لاجابته كل ما التمس منه اضافة الى قلة عسكره ، فظنوا فيه العجز واشتطوا في الطلب ، وجاوزا حد الاشتراط وطلبوا منطقة الرحبة وأعمالها ، فامتنع صلاح الدين عن اجابتهم لانها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه^(١) . وبذلك لم يسمح صلاح لاي انشقاق يحدث بين صفوفه ، وربما اكتشف بأن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل بآثارة الانشقاق بينه وبين أقربائه الذين وكل اليهم قيادة الفرق العسكرية وإدارة بعض القلاع ، ففضل الحافظ على وحدة صفه على كسب أعدائه بمثل هذه الطريقة .

ولم يشأ صلاح الدين ان يقاتل جموع عساكر الموصلين والحليين التي اتحدت ضده - وهو بقواته القليلة - لذلك عمد سياسته الحكيمة التي استخدمها من قبل في إثارة الانشقاق بين أعدائه ، فجعل يداريهم ويدعوهم للمصالحة لعل عسكره يلحق به^(٢) . فتنازل لكمشتكين عن

(١) سنا البرق الشامي : ١٨٦/١ ، ابن ابي طي : انظر :

الروضتين : ٢٤٩/١ .

(٢) البداية والنهاية : ٢٩٠/١٢ .

حصص وحماة وبعلبك واقتنع بدمشق وحدها لعله يشير انشقاقا بين حلب والموصل ، الا ان سياسته في هذه المرة فشلت لان العرض رفض^(١) . ونهض مقدمو حلب والموصل من مجلسه الى مخيمهم ، ثم ساروا بعساكرهم الى جانب نهر العاص من شيزر ، واطهروا بانهم يريدون الحرب^(٢) .

لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من حربهم ، وتقدم الى قرون حماة ، ومن هناك حاول مرة أخرى مصالحتهم ، واجتهد في ذلك - كما ذكر ابن شداد - فما صالحوه ورأوا ان في الحرب معه خير وسيلة لاصلاح أوضاعهم ونيل مقصودهم^(٣) . فاضطر صلاح الدين الى اعلان الحرب عليهم ، بعد ان استنفر عسكره وجعله كردوسا^(٤) ، واحدا للمدافعة حتى تصل اليه عساكره التي استدعاها من المدن القريبة التابعة له^(٥) .

وفي يوم الاحد ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ (١٣ نيسان سنة ١١٧٥م) التحم الطرفان بمعركة حامية وكان كردوس صلاح الدين يقاتل ميمنة وميسرة لسد الفراغ في نقص عدد الجند ، ومشاغلة الاوقات حتى وصل اليهم جماعة من العسكر المصري في عشرة من المقدمين الاكابر منهم تقي الدين

Runciman, op. cit., 11, P. 409.

(١)

(٢) سنا البرق الشامي : ١٨٨/١ ؛ مفرج الكروب : ٣٢/٢ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥١ .

(٤) الكردوس : نظام لتعبئة الجيوش في العصور القديمة ، يخالف نظام الكتائب ، وهو نظام روماني لا يتقيد فيه الجند بصف واحد او كتيبة واحدة ، انما يكون عدة كتائب يشكل منها كردوسا واحدا . وكان يخرج من الكردوس «النداء» الذي يستخدم للواجبات الخاصة . انظر : زيدان ، التمدن الاسلامي (القاهرة ١٩٠٢) ١ : ١١٧ ، عبدالله العمري ورفقاه ، الجيش العربي في صدر الدولة العباسية (بغداد ١٩٦٣) : ١٤١ ؛ سعداوي ، التاريخ العربي المصري : ٦٥ هامش ٤ .

(٥) ابن ابي طي ، انظر : الروضتين ١/٢٥٠ .

عمر وعزالدين فرخشاہ ابنا اخي صلاح الدين ، وشهاب الدين محمود بن
تكش خاله وجماعة من خواص صلاح الدين ورجاله الذين اندفعوا للحرب
بقوة جعلت فيها آمال الزنكيين تخب ، فقد انهزموا مولين الادبار ، وتركوا
انقالهم واحمالهم ، وأسر جماعة من عساكرهم ، وثبت قليلا عزالدين
مسمود بعد انهزام أصحابه ، الا انه ازيل عن موقفه ، وغنم صلاح الدين
كل ما كان معه ، وتبعهم الى حلب قاصدا محاصرتها وعندئذ امر بقطع خطبة
الملك الصالح وازالة اسمه عن السكة في بلاده^(١) . وبذلك بسط
صلاح الدين نفوذه على كل أملاك النوريين بالشام تقريبا بضمناها جنوب
مقاطعة حلب .

ولقد اتبع صلاح الدين في هذه المعركة مع النوريين سياسة حكيمة
للغاية . ففي الوقت الذي كانت فيه رحي الحرب تدور ، كان صلاح الدين
- كما ذكر ابن أبي طي - يرأسل جماعة من أمراء الموصل - بعد ان
فشلت سياسته السابقة بفك ارتباط حلب عن الموصل - ويستميلهم اليه ،
ويستفدهم بحمل الاموال اليهم حتى أبطأهم عن الحرب^(٢) . وربما
قصد صلاح الدين في هذه المرة الحفاظ على دماء المسلمين وعدم اراقتها .
ومما يدل على ذلك الاوامر التي أصدرها لعساكره بعد فرار العسكر النوري
أمامهم ، بأن « لا يتبع مدبر ولا يقذف على جريح » ثم اطلق من وقع في

(١) الكامل : ٤٢٢/١١ ؛ النوادر السلطانية : ٥١ ؛ الروضتين :
٢٥٠/١ ؛ سينا البرق الشامي : ٨٨:١ ؛ مفرج الكروب : ٣٢/٢ ؛ تاريخ
ابن خلدون : ٥٧:٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٢٣/٦ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٠/١٢ ؛
الغزي ، نهر الذهب في اخبار من ذهب : ١٠٠/٣ - ١٠١ ؛

Lanepool, A History of Egypt, P. 200; Runciman, op. cit.,
11, P. 409.

(٢) الروضتين : ٢٥٠/١ .

اسره»^(١) . حتى قيل بأنه لم يقتل في تلك المعارك أكثر من سبعة
انفس^(٢) . وربما اراد صلاح الدين أيضا ان يكسب ثقة من حاربه من
المسلمين ومودتهم ، لانه انما ثان يريد ان يضمهم الى جانبه ليكونوا له
عونا عند محاربه الصليبيين ، ولو ثان يريد حرهم والقضاء عليهم لما اطلق
اسراهم ولتبع فلولهم المنهزمة . ويمكن ان يكون لتلك الجماعات التي
هربت من المعركة من دون غدر صلاح الدين بها أثر في انتظام الصلح بينه
وبين الحليين فيما بعد . اذ بعد ان تقدم صلاح الدين لحصار حلب في المرة
الثانية ، ثان الحليون قد راسلوه^(٣) على ان يكون لهم ما بأيديهم ،
ولصلاح الدين ما افتتحه من بلاد الشام ، فوافق صلاح الدين على ذلك
وانسحب من حصار حلب في العشر الاول من شوال سنة ٥٧٠هـ^(٤) .

وبالرغم من السياسة الجديدة التي اتبعها صلاح الدين ضد النوريين ،
والتي ادت الى انتصاره وهزيمة من حاربه من المسلمين ، فان ابن الاثير
يعزى سبب هزيمة النوريين الى مقدم العسكر النوري عز الدين زلفندار

(١) البداية والنهاية : ٢٩٠/١٢ .

(٢) المقرئزي ، السلوك : ٥٩/١ .

(٣) الكامل : ٤٢٢/١١ . وقد ذكر العماد الاصفهاني في البرق
الشامي بأن صلاح الدين بعد انتصاره على النوريين في قرون حماة توجه
الى بقرا حصار من اعال حلب ، وعيد عيد الفطر فيها وهو ينوي حصار
حلب ، فجاءت اليه رسلهم بالانقياد وأجابوا الى المراد وتنازلوا لصلاح الدين
بكل ما أخذ الى حماة ، ولما رأى صلاح الدين انكسارهم استزادهم على
حلب كفر طاب والمعرة ، وأخذ منهم الايمان المستقرة على شروط هذا
الصلح وسألهم اطلاق سراح اخوه مجد الدين من السجن فأجابوه وتم
الصلح . سينا البرق الشامي : ١٩٠-١٩١ ، انظر : الروضتين :
٢٥٠/١ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٧٠/٥ ؛ البداية والنهاية ٢٩٠/١٢ ؛
السلوك : ٥٩/١ .

(٤) مفرج الكروب : ٣٣/٢ .

الذي وصفه بقوله « وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه ، الا انه رزق سعادة وقبولا من سيف الدين » (١) .

وعلى أية حال فان انتصار صلاح الدين عند قرون حماة كان له نتائج ايجابية هامة : فقد ثبتت مركزه تماما في منطقة الشام ، كما اضعفت مركز مناوئيه من المسلمين . حتى ان بعض القلاع القريبة كان متولوها يرسلون الى صلاح الدين طلب الاستسلام والانقياد لحكمه امثال صاحب قلعة بعيرين (٢) . التي كانت بيد الامير نخرالدين مسعود الزعفراني ، وهو من أكابر الامراء النورية ، اذ لما أحس بقوة صلاح الدين نزل من قلعته وانقاد له وطلب الدخول في خدمته ، وظن انه يكرمه ويشاركه في الملك . الا ان صلاح الدين لم يلتفت اليه ففادرها ، ومن ثم تسلمها صلاح الدين واقطعها لخاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي (٣) .

(١) الكامل : ٤٢١/١١ .

وفي ذكر ابن الاثير لحوادث هذه المعركة تظهر ميوله نحو امير الموصل، الذي ربما قصد ارضاءه عندما تحدث عن العسكر النوري فقال : « ولما التقى الجمعان لم يثبت العسكر . . . وثبت عز الدين اخو سيف الدين بعد انهزام اصحابه ، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال : أما أن يكون اشجع الناس او انه لا يعرف الحرب ، وأصر اصحابه بالحملة عليه فحملوا وأزالوه عن موقفه » الكامل ٤٢١/١١-٤٢٢ ولو تسألنا : هل كان ابن الاثير الى جانب صلاح الدين وسط معمة الحرب ليعرف ما قاله عن عز الدين ؟ ليتبين بوضوح ميله نحو امير الموصل عز الدين .

(٢) وردت هذه القلعة في كتاب الكامل والبرق الشامي باسم « بعيرين » وفي مفرج الكروب والنوادر السلطانية باسم « بارين » والاصح « بعيرين » لتواردها في أغلب المصادر القديمة انظر : الكامل : ٤٢٣/١١ ، النوادر السلطانية : ٥١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٩١/١ ؛ مفرج الكروب : ٣٤/٢ .

(٣) الكامل : ٤٢٣/١١ ؛ مفرج الكروب : ٣٤/٢ وفيما يخص

اعلن صلاح الدين نفسه - بعد ذلك الانتصار - حاكما على مصر والشام وتخلّى عن تبعيته للملك الصالح بن نورالدين الذي لم يبق له سوى مدينة حلب وبعض القلاع المحيطة بها^(١) . اضافة الى ان ذلك الانتصار هزّ الخلافة العباسية ببغداد مما دفع بالخليفة العباسي الى ارسال الخلع السنية والتشريفات العباسية والاعلام السود ، اضافة الى التوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام^(٢) . وبهذا التقليد أصبح صلاح الدين سلطانا شرعيا بنظر المسلمين ، ووارثا حقيقيا لدولة نورالدين وجهاده واكسبه التقليد الخلفي مهابة الصليبيين خاصة وامراء المسلمين عامة .

تولية صلاح الدين قلعة بعين لخاله الحارمي ، يرى نظير سعداوي بأن عدم التفات صلاح الدين للزعفراني وسحب القلعة من يده وتسليمها للحارمي ، انما هي سياسة التعصب العنصري التي سار عليها صلاح الدين بتفضيل العنصر الكردي على العنصر التركي لان الزعفراني كان تركيا وان صلاح الدين كان كرديا ، فكان يولي اقرباءه من الاكراد القلاع والمدن . (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين : ٦٨) .

والحقيقة ان سعداوي خاطيء فيما نسبته لصلاح الدين ، لان سياسة التعصب العنصري وتفضيل قومية على أخرى لم يكن مألوفا في عهد صلاح الدين الذي سادته الشعور الاسلامي من اجل احياء معالم الجهاد لمقاومة الخطر الخارجي القاضي بانصهار القوميات جميعا للعمل في مصلحة الاسلام . اضافة الى ان العنصرية والقومية لم تظهر معالمها الا بعد القرن ١٩م . ثم ان تسلم صلاح الدين الحصون والقلاع لاقرباءه لا يعني تفضيل قوميتهم على القوميات الاخرى ، انما يعني سياسة حكيمة من صلاح الدين لتثبيت مركزه وحكمه في تلك المدن والحصون . وهذا امر طبيعي يتبع قديما وحديثا ، لان كل قوة جديدة اذا ارادت ان تتركز قوتها في المناطق المفتوحة عليها أن تضع قيادة امورها وحصونها بيد انصارها أو اقربائها لفترة محدودة حتى يستقيم الحكم .

(١) الكامل : ٤٢٢/١١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٩٢/١ - ١٩٣ ؛

البداية والنهاية : ٢٩١/٢ .

(٢) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٩٢/١ - ١٩٣ .

وبعد الانتصار الذي حققه صلاح الدين على النوريين في قرون حماة عاد الى دمشق فدخلها في آخر شوال من السنة ، ثم رحل منها الى مرج الصفر فنزل به الى آخر السنة^(١) . وتقدم الشعراء اليه والى أقربائه من الأمراء الايوبيين بالمدح لانتصارهم على النوريين في قرون حماة ، كان من بينهم العماد الاصفهاني الذي مدح محمد بن شيركوه بقصيدة جاء فيها :

وتحطمت عند القرون قرونها بل كلت الانياب والاففار
عبروا المعرة مالكين معرة والعار يملك تارة ويعار
او ما كفاهم يوم حمص وكفهم في بعلبك بمثلها الانذار^(٢)

وفي مرج صفر في بداية سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م جاء رسول الصليبيين الى صلاح الدين يطلب عقد هدنة بين الطرفين ، فاجيب الى طلبه ، بعد ان اشترط على الصليبيين أمورا التزموها^(٣) . لان الصليبيين اصابوا في ذلك العام بشدة كبيرة ، وضائقة اقتصادية نظرا للمجذب الذي أصاب منطقة الشام^(٤) . وربما خاف الصليبيون من قوة صلاح الدين التي أصبحت تهدد قوتهم في المنطقة . اذ ان الانتصار الذي حققه صلاح الدين في حمص وحماة ، وقرون حماة على النوريين ، اوقع الرعب في قلوب الصليبيين ، فدفعهم ذلك الى ان يحسبوا لقوة صلاح الدين حسابها ففضلوا السلامة ، واختاروا جانب الهدنة ، فأرسلوا اليه وفدا لمفاوضته على ذلك ، فوافق صلاح الدين على الاقتراح الصليبي ليعطي لسكره قسما من الراحة ينعم بها المقاتلون عند أهلهم ، خاصة وان الشام كان مجدبا - كما ذكرنا من

(١) مفرج الكروب : ٣٥/٢ .

(٢) الروضتين : ٢٤٩/١ .

(٣) مفرج الكروب : ٣٥/٢ .

(٤) البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ .

قبل - اضافة الى ان صلاح الدين كان قد توصل الى عقد هدنة مع الحليين •
لذلك كله فرّق العسكر ، وارسل بالقاضي الى مصر برفقة العساكر المصرية
« ليستغلوا المغل وليحفظ الفاضل ما استجد من الممالك »^(١) •

وربما قصد صلاح الدين - باتفاقه مع الصليبيين - ان يأمن جانب
أعدائه - ولو لفترة قصيرة - ليتسنى له التفرغ للتوريين وتوحيد الكلمة ،
كـي لا يحارب في جبهتين في وقت واحد • فقد كان النوريون في حلب وبلاد
الجزيرة وديار بكر (أي من الشمال والشرق من مراكزه) بينما كان
الصليبيون يحتلون جزء من فلسطين والساحل الشامي ، وهم بذلك يهددون
حدوده الغربية والجنوبية أيضا فيما اذا تقدم الى داخل بلاد الجزيرة^(٢) •

وبعد ان تم له الاطمئنان من المناوئين له من المسلمين ، وتمت الهدنة
مع الصليبيين عاد الى دمشق وأخذ يجلس في دار العدل ، وعاد الى سيرته
الاولى في التردد الى الصيد وأخذ الشعراء والكتاب يزورونه وينشدون
القصائد والمدائح بمآثره ومكارمه • وقد مدحه من بين هؤلاء العماد
الاصفهاني في قصيدة حيا فيها انتصاره على أعدائه ، ووضح بأن صلاح الدين
انما كسب الكرام بـتره ، وجانبه أعداؤه لبطشه ، وطلب من الله ان يمدّه
بـعمر طويل ليحقق كمال الانتصار على عدوه • وربما دلت القصيدة على
أسباب عقد الصليبيين الصلح مع صلاح الدين ، لانه ببأسه صدهم ، ولانهم

(١) مفرج الكروب : ٣٦/٢ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ •

(٢) قيل ان هذا الاتفاق الذي وقع بين صلاح الدين والصليبيين كان
فرصة طيبة عرفت فيه لأول مرة خلق صلاح الدين النبيلة لدى أعدائه الذين
اعجبوا بمزايده ، حتى ان ممثل الصليبيين هنري اف تورن
Humphry of Toron منح صلاح الدين لقب فارس بعد ان اعجب به

اعجابا كبيرا •

Lanepool, A History of Egypt, P. 200.

قصده بطلب الصلح خوفا منه^(١) .

نقض سيف الدين غازي معاهدة الصلح مع صلاح الدين

بينما كان صلاح الدين يجني ثمار انتصاره في قرون حماة ، نجد ان سيف الدين غازي يحارب بجبهتي أولاهما كان يحاصر أخاه عماد الدين ، أمير سنجار ، لعدم اتفاه معه لمحاربة صلاح الدين . نجده في الاخرى يحارب قوات صلاح الدين . وحين بلغه نبأ اندحار قواته أمام جيوش صلاح الدين صالح أخاه عماد الدين ، بعد ان كادت سنجار تسقط بيده ، وهرع الى الموصل ليجمع قواته من جديد للانتقام من صلاح الدين^(٢) .

وفي الوقت الذي عقد فيه سيف الدين غازي الصلح مع عماد الدين ، كان الصلح قد انتظم بين صلاح الدين والحليين ، ولما وصل خبره الى سيف الدين عتب على الحليين « ووبخهم ونسبهم الى العجلة في ذلك والى الضعف ، وسلوك غير طريق الحزم ، وحملهم على النقض والنكث ، وانفذ اليهم من أخذ عليهم الموائيق »^(٣) . كما بعث برسول من عنده الى صلاح الدين بدمشق ليأخذ له عهدا ويكون جاسوسا للموصلين لاكتشاف نوايا صلاح الدين ومقاصده . الا ان الرسول لما وصل دمشق وقابل صلاح الدين غلط واخرج من كفه نسخة يمين الحليين لسيف الدين

(١) جاء في بداية القصيدة التي مدح بها العماد الاصفهاني صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م اثناء وجوده بدمشق ما يلي:-

سواك لسهم العلي لن يريشا فنسال رب العلي ان تعيشا
من الناس بالبر صدت الكرا م ، وبالبأس في البر صدت الوحوشا

انظر : مفرج الكروب : ٣٦/٢ .

(٢) انظر : ابن ابي طي ، الوضتين ٢٤٩/١ ؛ الكامل ٤٢٧/١١ ؛

مفرج الكروب : ٣٧ و ٣١/٢ ؛ مراة الزمان ، ق ١ : ٣٣٣ .

(٣) الروضتين ٢٣٥/١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٩٥-١٩٦ ؛

مفرج الكروب ٣٦/٢ .

القاضية بنقض الهدنة التي بينهم وبين صلاح الدين ، ولما تسلمها صلاح الدين علم باتفاقهم عليه ، ونقض الحليين ما أخذ عليهم من الموائيق وقال للرسول - كما ذكر العماد الاصفهاني - « كيف حلف الحليون للمواصلة ، ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون أمرا الا بمراجعتهم لنا واستيذانهم ؟ »^(١) * .

وبالاضافة الى ما سبق عمد سيف الدين غازي الى جمع عساكره من الموصل وديار بكر . بعد ان استنجد - أيضا - بصاحب حصن كيفا وماردين ، وأخذ ينفق الاموال الكثيرة للاعداد لحملة كبيرة تقدم بها الى نصيبين في ربيع الاول من سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م ، وأقام بها حتى انتهت موجة الامطار والبرد ، ثم سار نحو حلب فعبّر نهر الفرات من البيره وخيم على الجانب الغربي منها ، وراسل الحليين واستقرت القاعدة بين الطرفين على انضمام القوات الحلية الى عسكر سيف الدين لمحاربة صلاح الدين ، بعد ان كانت قد جرت بين سيف الدين وسعد الدين مراسلات طويلة ، عزم خلالها سيف الدين مرارا العودة الى الموصل ، وترك مقاومة صلاح الدين^(٢) . الا ان أمره استقر باجتماعه بابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين قرب قلعة حلب ، ثم افترق الطرفان بعد ان عاد الملك الصالح الى حلب ونزل سيف الدين غازي بعين المباركة وكان عسكر كمشتكين يخرج الى خدمته

(١) سنا البرق الشامي : ١٩٥/١ - ١٩٦ : مفرج الكروب :
٣٧/٢ : مرآة الزمان ق ١ : ٣٣٢/٨ .

(٢) لم أجد في المصادر التاريخية مضامين المراسلات التي جرت بين سيف الدين حاكم الموصل وسعد الدين كمشتكين الوصي على الملك الصالح في حلب . ولا الاسباب التي كانت تدع سيف الدين الى الانسحاب للموصل ، غير ان ابن الاثير ذكر بأن عسكر سيف الدين غازي ضجر من طول المقام بالشام لنفاذ نفقاتهم ولبرودة الجو لانه مكث بنصيبين حتى انقضى فصل الشتاء ، فكان هذا من اسباب رغبته بالعودة الى الموصل . انظر : الكامل : ٤٢٧/١١ .

كل يوم ثم غادرها وتوجه الى تل السلطان^(١) بجمع كبير من عساكر الموصل وحلب وديار بكر وغيرها^(٢) .

ولم يكتف سيف الدين غازي وسعد الدين كمشتكين بما قرراه من الاتفاق على مقاومة صلاح الدين ، وانما اتفقا أيضا على وجوب التعاون مع الصليبيين لتحقيق نفس الهدف . وربما أرادوا بذلك دفع صلاح الدين على القتال وحده في جبهتين .

لذلك اطلقوا سراح من كان في الاسر في حلب من ملوك الصليبيين منهم البرنس ارناط صاحب حصن الكرك وجوسلين خال الملك بعد ان اتفقا معهم على وجوب المساعدة لهم^(٣) .

اما حقيقة ذلك التعاون الذي كان بين الصليبيين والجهة المتحدة من الموصلين والحليين : فان المصادر التاريخية لم توضحه ، واكتفت بالقول على ان الجهة المتحدة (سيف الدين غازي والصالح اسماعيل) استعانت بجماعة من الصليبيين^(٤) ، وقيل : اطلق الحليون من كان في اسرهم من ملوك الصليبيين^(٥) . علما بان الاثير وابن شداد لم يذكر شيئا عن التعاون مع الصليبيين في هذه الفترة .

(١) تل السلطان : منزلة بين حلب وحماة . انظر : النجوم الزاهرة ، المصدر السابق : ٢٦/٦ .

(٢) الكامل : ٤٢٧/١١ - ٤٢٨ : النوادر السلطانية : ٥١ ؛ مفرج الكروب : ٣٧/٢ - ٣٨ ؛ النجوم الزاهرة ٦: ٢٧ ؛ مرآة الجنان بتاريخ الاعيان ٣: ٣٩٣ ؛ مرآة الزمان ١ : ٣٣٣/٨ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٧٠/٥ - ٥٧١ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ ؛ الحريري ، الاخبار السنية : ١٢٨ ؛ سعداوي ، المصدر السابق : ٧٠ - ٧١ .

(٣) سنا البرق الشامي : ٢٠٢/١ ؛ مفرج الكروب : ٣٨/٢ .

(٤) البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ .

(٥) سنا البرق الشامي : ٢٠٢/١ ؛ مفرج الكروب : ٣٨/٢ .

ورغم عدم تحديد المصادر التاريخية - أو سكوتها - عن ماهية الاتفاق الذي حصل بين الجبهة المتحدة والصليبيين فإن أغلب المراجع الحديثة أشارت الى ان الجبهة المتحدة قررت الدخول في مفاوضات مع حاكم امارة انطاكية الصليبية ، الا انه لم يعرف ما اسفرت عنه تلك المفاوضات - كما ذكر نظير سعداوي - سوى اطلاق سراح اسراهم من حلب^(١) . وأشار الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور الى ان سيف الدين غازي أرسل سفارة الى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على بيت المقدس يطلب فيها محالته في مقاومة صلاح الدين . ولكي يثبت حسن نواياه أرسل الى ريموند ما كان لديه من اسرى الصليبيين^(٢) .

والحقيقة انه لا توجد أية مفاوضات بين الموصلين والحلبين من جهة وامارة انطاكية أو طرابلس الصليبية من جهة ثانية . ذلك لان كل المصادر التاريخية العربية المعاصرة لم تشر قط الى وجود محاولة للاتفاق مع ريموند ولم تشر الى اسمه . علما بان الدكتور عاشور أشار الى ابن واصل كمصدر لمعلوماته التاريخية ، في الوقت الذي لم اجد في ابن واصل ما يدل صراحة على ما جاء به الدكتور عاشور ، وان ابن واصل لم يذكر سوى « واطلق الحلبيون من كان في الاسر من ملوك الفرنج »^(٣) . اضافة الى ان عاشور اتهم سيف الدين غازي بتواطئه مع الصليبيين واتفاقه معهم ، بينما الذي ذكره ابن واصل - كما مر أعلاه - ان الحلبين هم الذين اطلقوا سراح ملوك الصليبيين لا أمير الموصل سيف الدين غازي .

(١) سعداوي ، المصدر السابق : ٧٠ .

(٢) الحروب الصليبية : ٧٤٧/٢ .

(٣) مفرج الكروب : ٣٨/٢ ؛ وانظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٤٧/٢ للمقارنة مع ما أورده ابن واصل فيما يخص محاولة الاتفاق بين سيف الدين غازي - اتابك الموصل - والصليبيين .

اما ما أشار اليه نظير حسان سعداوي من ان سيف الدين غازي والصالح اسماعيل « اتفقا على الدخول في مفاوضات عسكرية مع امارة انطاكية الصليبية » ولم يعرف تماما ما اسفرت عنه تلك المفاوضات الا اطلاق سراح من كان في حلب وقتذاك من اسرى الصليبيين»^(١) . فان قوله أيضا لا يخلو من جانب التعميم والجمع بين الادب والتاريخ . فقد أشار سعداوي الى أبي شامة كمصدر لمعلوماته ، علما بان أبا شامة لم يشر قط الى وجود مفاوضات مع امارة انطاكية الصليبية^(٢) . ثم ان في النص الذي اورده سعداوي شيئا من التعميم والادغام ، يقول سعداوي : « اتفقا على الدخول في مفاوضات » أي انهم (غازي واسماعيل) لم يدخلوا بعد في اتفاق مع الصليبيين ثم يقول : « ولم يعرف تماما ما اسفرت عنه تلك المفاوضات » .

واستقراء مما سبق يظهر لي بان سيف الدين غازي وسعد الدين كمشتكين عندما اتفقا على مقاومة صلاح الدين ووحدا جهودهما وقواتهما العسكرية من أجل ذلك أطلقا سراح البرنس ارناط وجوسلين للمكانة الكبيرة التي كانا يحتلانها عند الصليبيين ليأمنوا جانبهم فيما اذا تقدموا لحرب صلاح الدين . وعندما اطلق سراحهما ذهبا الى ريموند الثالث حاكم امارة طرابلس وربما - عرفانا للجميل - طلبا منه عدم مهاجمة الموصلين والحليين في حالة تقدمهم نحو صلاح الدين ، أو طلبا منه تقديم بعض المساعدات للنوريين ضد صلاح الدين . والظاهر ان ريموند قد استجاب لطلبهما لا حبا بالنوريين ، أو تطبيقا لمعاهدة بين الطرفين ، انما طمعا في اضعاف قوة صلاح الدين لانه العدو المشترك بالنسبة لهم . لان أية محاولة من قبل صلاح الدين - أو غيره - تعمل على توحيد مصر والشام كانت تعتبر ضربة قاصمة لقوة الصليبيين في المنطقة . وقد اوضح المؤرخ الصليبي وليم الصوري

(١) التاريخ العربي المصري : ٧٠ .

(٢) انظر : الروستين : ٢٥٥/١ .

سنة ٥٧١هـ/ ١١٧١م - من دون ان يشير الى وجود اتفاق مع النوريين - ذلك المفهوم بقوله : « كل ازدياد في قوة صلاح الدين كان سببا يثير الريبة في انظارنا ... » لانه كان رجلا حكيم المشورة ، وباسلا في الحرب ، وشهما الى أبعد حدود الشهامة وبدا لنا [من جانب الصليبيين فقط] أكثر حكمة ان نمد العون للملك الصبي [الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين الذي كان يحلب] ... ليس من أجل ذاته بل لتشجيعه كخصم ضد صلاح الدين »^(١) . وهكذا يبدو بان الصليبيين كانوا يستخدمون سياسة « فرق تسد » بين المسلمين فيعملون جاهدين لتقديم مساعداتهم لكل طرف يرون ان قوته قد ضعفت لادامة نزاعه مع الطرف الثاني كي يحقق لهم بقاء أطول في المنطقة ، سواء طلبت منهم المساعدة أو لم تطلب .

اما موقف صلاح الدين من تجمعات الموصلين والحليين العسكرية ضده ، فانه لما يقن صدق قصدهم لمحاربته خرج من دمشق في شهر رمضان ، واجتاز حماه وخيّم بالقرب من بو قيس في مرجه في ٢٥ رمضان سنة ٥٧١هـ ، حتى اذا انتهى شهر رمضان عبر صلاح الدين نهر العاصي بالقرب من شيزر ووصل الى تل السلطان وكان أعدائه قد سبقوه اليها^(٢) . ولما كان صلاح الدين في قليل من العسكر ، لانه كان قد سيرها الى مصر - كما ذكرنا من قبل - فانه بعث الى أخيه الملك العادل بمصر يأمره باستدعاء العساكر المصرية بالحضور للغزاة^(٣) . كما بعث بكتاب فاضلي الى بغداد شرح فيه للديوان العزيز مقاصد الحليين وسبب محاربتهم اياه ،

(١) جب ، صلاح الدين : ١٢٥ .

(٢) الروضتين : ٢٥٤/١ ؛ مفرج الكروب : ٣٨/٢ ؛ البداية

والنهاية : ٢٩٢/١٢ النجوم الزاهرة : ٢٦-٢٧ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥١ ؛ البداية والنهاية

٢٩٢/١٢ ؛ زبدة الحلب : ٣/٢٥ .

وأوضح لهم أن الحليين تقضوا العهد الذي كان معقودا بين الطرفين •
ومن جملة ما جاء في الكتاب المرسى الى بغداد ما يلي :-

« ان الحليين والموصلين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا
بعد ان كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحليين في اليكارات الى
الكفر وعرضنا عليهم الامانة فحملوها والايمان فبذلوها وسار رسولنا وحلف
صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وامراء مشهده يمينا جعل الله فيها
حكما وضيق في نكثها المجال على من كان خيفاً مسلماً وعاد رسوله ليسمع
منا اليمن فلما حضر واحضر نسختها اومى بيده ليخرجها فاخرج نسخة
يمين كانت بين الموصلين والحليين مضمونها الاتفاق على حربنا والتداعي
الى حزبنا والتساعدا على ازالة خطبنا والاستنفار على من هو على بعدنا وقربنا
وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا تقضت الاولى
فرددنا اليمن الى يمين الرسول وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجة واردت
عمرا واراد الله خارجه وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله ان يكون
اسمه معرضا للحنث العظيم والنكث الذميمة وعلما ان الناقد بصير والاخذ
قدير والمواقف الشريفة النبوية اعلاها الله مستخرجة الاوامر الى الموصلين
اما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله بعد ميثاقه ، واما ان تكون الفسحة
واقعة لنا في تضيق خناقه [ثم ذكر علاقتهم بالصليبيين فقال] : انهم
يشاركونه ضد العدو اسما ولفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظا والعدو
يجاورهم ، (١) •

اما ما قيل في عدد العساكر التي اشتركت في القتال والنتائج التي
تمخضت عنها المعركة ، فان المعلومات التاريخية التي وجدت في كل من
مؤلفات المقرئزي وابن تغري بردي وسبط ابن الجوزي وابن كثير وابن

(١) الروضتين : ٢٥٤/١ •

خلدون وابن العديم وكل المصادر والمراجع الأخرى المتأخرة ، لا تعدوا أن تكون نقلا لما ورد في تاريخ الكامل لابن الاثير ، والبرق الشامي للعماد الاصفهاني^(١) ، المعاصرين لصلاح الدين ، واللذين يمثلان وجهتي نظر مختلفتين ، بل ومتناقضتين لما كان يدور بين النوريين والايوبيين من صراع في الفترة الاولى قبل الوصول الى وفاق من أجل مكافحة الغزاة •

فالعماد الكاتب الذي ساءت علاقته مع النوريين بعد وفاة نورالدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م وخروجه من بين ظهرانيهم غاضبا عليهم^(٢) ، يتهم الموصلين والحليين بالتواطئ مع الصليبيين اضافة الى مبالغته في عدد اجنادهم ، في الوقت الذي تعتمد الاقلال من عسكر صلاح الدين ليتسنى له في النهاية الاكبار من انتصاره على أعدائه فقال : « ولما تحقق اجتماع الموصلية والحلية ، واتفاقهم بالهمم الابية ايقنا منهم صدق القصد وضلالهم عن نهج الرشد فرحلنا من دمشق في شهر رمضان ، فما عرجنا على بلد ولا انتظرنا ما وراونا من مدد ، حتى جزنا حماة وخيما بقرب بوقيس في مرجه وبعث النصر في فوجه ••• فاسمنا الخيول ••• وركب السلطان عند استكمال امداده واحتفال أجناده ••• وجاءنا الخبر انهم في عشرين ألف فارس

(١) عثرت على ما ورد في البرق الشامي للعماد الاصفهاني فيما اورده ابو شامة في الروضتين من نصوص مختصرة لنفس الكتاب • وكذلك الملخص الذي اورده البنداري المتوفي في القرن ٧ هـ في كتاب « سنا البرق الشامي » الذي حقق القسم الاول منه رمضان ششن ، في طبعة بيروت سنة ١٩٧١ •

(٢) ذكر العماد الاصفهاني انه بعد وفاة نورالدين تغيرت عليه الاحوال فأضطر الى هجر النوريين ، لاختلال امره وكثرة حساده الذين بلغ مرادهم اضداده حتى كان دمه يفيض من جراء ذلك ، فخرج من الموصل وتوجه الى خدمة صلاح الدين الذي اكرمه واحسن اليه • انظر : سنا البرق الشامي : ١٥٩/١ و ١٨٥ •

سوى سوادهم وما وراءهم من امدادهم ، وانهم موعودون من الفرنج
بالنجدة وانهم يزيدون كل يوم في القوة والشدة ، وما كان اجتمع من
عسكرنا سوى ستة آلاف فارس» (١) .

ولما كان الاصفهاني قد خرج من الموصل غاضبا على أهلها ، فقد اتهم
المواصلة - لا الحليين - بأنهم هم الذين اطلقوا سراح من كان في الاسر
من ملوك الصليبيين وهم البرنس ارنات صاحب الكرك وجوسلين خال
الملك ، وكذلك صور قوات الموصل - متهمكا - بأسلوب أدبي أظهر من
خلالها عداوته لهم فوصف سيف الدين وعسكره بأنه : « شاب حوله
شباب ... والملك الصالح مع الحليين في خلاه ... قد جمع ... من
سائر قبائل الاكراد ومن الممالك الاتابية كل كمش وهجان
واكديش » (٢) .

ثم يرجع الاصفهاني الى تعليل أسباب انتصار صلاح الدين على أعدائه ،
ويرى بأن صلاح الدين عبأ عسكره تعبئة جيدة ، وأمرهم بعدم الهجوم على
النوريين وقال لهم : « دعوهم يتعبوا ويركضوا وينقضوا قواهم ويرفضوا ،
واذا قربوا منا ابعدهم ، واذا وصلونا قطعناهم » فنحن نعطهم الاشواط
ونوليهم الافراط وهم يصلون متسابقين متفرقين فاذا دنوا من بيان صفنا
المرصوص انقض عليهم جداره ... » (٣) .

(١) سنا البرق الشامي : ٢٠٠/١ - ٢٠١ . وقد اخذ ابن كثير بوجه
نظر الاصفهاني وأشار الى ان عدد عسكر الجبهة المتحدة (عسكر سيف الدين
والملك الصالح) كان « عشرين الف مقاتل على الخيول المضمرة » ، بينما
اشار الى عدد عسكر صلاح الدين فقال : « وانما معه الف فارس من الحماة » .
البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ .

(٢) سنا البرق الشامي : ٢٠٢/١ - ٢٠٣ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق .

وكانت نتائج المعركة - كما ذكر الاصفهاني - لصالح صلاح الدين ،
الذي حقق انتصارا عظيما ، وغنم كل ما كان مع أعدائه من خيام وعدة ،
مع أسر عدد كبير من الامراء المقدمين وفرار البقية الباقية منهم الى حلب ،
وغلاقهم أبوابها على الفور ظنا منهم بأن صلاح الدين وراثتهم . كما أشار
الاصفهاني الى ان صلاح الدين عندما سيطر على عدة الموصليين وجد في
بعضها خمورا وطيورا ، وبذلك يكون قد اتهم عسكر الموصليين بتعاطي
المحرمات (١) .

وقد روى ابن الاثير حوادث تلك المعركة ، وحاول تلمس الاعذار
لهزيمة النوريين ، وأخفى كثيرا من معالمها ، بل لقد تجاهلها تماما في كتابه
(تاريخ الدولة الاتابكية) . وأشار في الكامل الى ان عدد عساكر الموصليين

(١) نقل عن الاصفهاني نتائج المعركة الكثير من المؤرخين امثال:
سبط ابن الجوزي وابن خلدون وابن كثير والمقرئ وغيرهم وأشاروا
جميعا الى نفس اتهام الاصفهاني للمواصلة بتعاطي المحرمات من دون نقد
لطبيعة المؤرخ وعلاقته بالمواصلة ، بل ان البعض منهم من المتأخرين -
عند نقله للنصوص ، تمثل بموقف الاصفهاني في الوقوف الى جانب صلاح
الدين وتبرير حربه لعسكر المواصلة ولذلك بالغوا كثيرا في اتهام المواصلة
بشرب الخمر وتعاطي المحرمات ومثل هذا ان كان المواصلة فعلا يتعاطونه ،
فانه ليس من المعقول ان يستخدم الخمر - وهو مخدر نوعا ما - في اوقات
الحروب التي تتطلب الحزم والجلاد . ومن امثلة ذلك ما ذكره ابن كثير
بقوله : « ووجد السلطان في مخيم غازي سبتا من الاقفاص التي فيها
الطيور المطربة ، وذلك في مجلس شرايه المسكر ، وكيف من هذا حاله
ومسلكه ينتصر ، فأمر السلطان بردها عليه وتسييرها اليه وقال للرسول
قل له بعد وصولك اليه وسلامك عليه : اشتغالك بهذه الطيور احب اليك
مما وقعت فيه من المحذور وقد كان معه اكثر من مائة مغنية ورد
آلات اللهو واللعب الى حلب وكان السلطان قد وجد عسكر المواصلة
كالهانة من كثرة الخمر والبرابط والملاهي ، وهذه سبيل كل فاسق
سواه لاهي ، . البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ وأنظر ايضا : مرآة الزمان
ق ١ : ٣٣٣/٨ : السلوك ٦١/١ .

والحليين الذين جابهوا صلاح الدين كانوا ستة آلاف فارس^(١) . ثم عرج ابن الاثير الى تحليل أسباب الهزيمة أمام صلاح الدين وأشار بأن سيف الدين غازي جمع العساكر وسار بها الى نصيبين في ربيع الاول من سنة ٥٧١هـ وأطال البقاء بها حتى انقضى فصل الشتاء فضجر العسكر ونفذت النفقات « وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا مع طول المقام بالشام بعد هذه المدة »^(٢) .

وقد عزا ابن الاثير أسباب الهزيمة الى مقدم العسكر النوري (زلفندار) ووضح بان عسكر صلاح الدين وصل الى تل السلطان عصر ليلة المعركة وهو تعب أشد التعب بالإضافة الى عطشه ، وقد وقعوا على الارض ليس فيهم حركة . وقد أشار جماعة على سيف الدين بوجوب الهجوم عليهم وهم على تلك الحال ، الا ان زلفندار قال : « ما بنا حاجة الى قتال هذا الخارجي [أي صلاح الدين] في هذه الساعة ، غدا بكره نأخذهم فترك القتال الى الغد ، فلما أصبحوا اصطفوا للمقتال فجعل زلفندار ... اعلامهم في وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها ، فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان [أي سيف الدين] قد انهزم ، فلم يشبوا وانهزموا »^(٣) .

(١) أشار ابن العديم نقلا عن ابن الاثير بأن عدد عساكر النوريين كان ستة الاف فارس ، بينما ذكر اليافعي بأن عددهم كان ستة الاف وخمسمائة . والظاهر ان الرقم الذي أورده كان تحريفا لرواية ابن الاثير بأن عددهم كان على التحقيق يزيد على ستة الاف فارس اقل من خمسمائة فنقلها اليافعي ستة الاف وخمسمائة انظر : الكامل ٤٢٧/١١ ؛ زبدة الحلب : ٢٤/٣ ؛ مرآة الجنان : ٣٩٣/٣ .

(٢) الكامل : ٤٢٧/١١ .

(٣) نفس المصدر السابق : ٤٢٨١/١ . ومن المصادر التي نقلت عن الكامل : مفرج الكروب ٣٨-٣٩ ؛ زبدة الحلب ٢٧/٣ وغيرها .

وقد تجاهل ابن الاثير ذكر الخسائر التي الحقت بالنوريين بعد الهزيمة ، الا انه ذكر - ومن دون ان يعلل ما قال - بأنه لم « يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد »^(١) . ومما سبق يمكن استخلاص بعض الحقائق التاريخية وهي :

أولا :- ان العماد الاصفهاني كان مبالغاً في اتهامه للنوريين عامة والموصلين خاصة وان ما اورده عن نتائج المعركة وفسوق الموصلين ، والخمور والطيور والمغنيات التي وجدت في خيامهم بعد الهزيمة امام صلاح الدين ، يحتمل ان يكون بدافع الحقد عليهم ، لان الموصلين اخرجوه بعد وفاة نورالدين حتى اضطر الى مفارقتهم . علماً بأن الطيور التي وجدت في عدة الموصلين - ان صح ما ذكره الاصفهاني - لا غرابة فيها . فالعساكر - قديما وحديثا - التي تذهب للمعارك لابد ان ترافقها المؤن وما تحتاج اليه من غذاء لانتقطاعها اياما طويلة في ساحات القتال بعيدا عن مراكز التجمع الحضري ، وربما كانت اقفاص الطيور من احدى المؤن التي جلبت مع العسكر لتكون غذاء الجند عند الازمات كقطائع الانعام مثلا التي ترافق العساكر أيام الحروب في أغلب الاحيان .

اما اتهام عسكر الموصلين بتعاطي المحرمات ، ووجود الخمور والمغنيات في خيامهم . فهو اتهام قد يكون من قبيل تشويه سمعة الخصوم ، وتسمويد صفحتهم في نظر جمهور المسلمين . علماً بأن أغلب المصادر التاريخية الاخرى تجاهلت ذكر ذلك الاتهام كابن شداد مثلا وابن واصل من المتأخرين ، واكتفاهم بذكر ان صلاح الدين استولى على ما كان في

(١) نفس المصدر والمكان السابق . اما المصادر التي نقلت نفس الرواية عن الكامل فمنهما : مفرج الكروب : ٤٠/٢ ؛ مرآة الجنان : ٣٩٣/٣ .

عسكر سيف الدين غازي ومطابخه وسرادقه التي كانت تحوى من أنواع الطيور الكثير (١) . اضافة الى ان الصاق تهمة شرب الخمر و اباحة المنكرات الاخرى كانت من جملة الاسلحة التي يستخدمها بعض المسلمين لحرب خصومهم - خاصة في تلك الفترة - واطهارهم بمظهر الفساق الذين يجب قتالهم ، وقد رأينا من قبل كيف اتهم صلاح الدين بشرب الخمر ومن بعده عز الدين مسعود ، وفي هذه المرة كان الاتهام شاملا لعسكر الموصلين عامة لتبرير حرب صلاح الدين لهم .

ثم ان تعاطي العساكر الخمر في أوقات الحروب أمر بعيد الاحتمال ، لانه يسبب فتورا في النفس وخمولا في نشاطات العساكر ، والحروب تتطلب شد العزائم وشحن القوى لمواجهة متطلبات المعارك ، الا اذا كانت القيادات متواطئة مع الاعداء . ولم تحدثنا المصادر التاريخية كافة عن وجود أي تواطء بين قادة عساكر الموصل وصلاح الدين .

ثانيا :- كان الاصفهاني مبالغا في عدد الجند الذين اشتركوا في المعركة ، حيث يدعى بأنهم كانوا عشرين ألفا . وقد ردّ ابن الاثير على الاصفهاني وقال بأن عددهم كان على وجه التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة نظرا لاطلاعه على جريدة العرض التي كان المتولي لها أخاه مجد الدين . ثم يعلق ابن الاثير على مبالغة الاصفهاني ويقول : « انما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم ستة آلاف عشرين الفا ... » ثم ليت شعري كم هي الموصل واعمالها الى القراب حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس » (٢) اضافة الى انه لم يكن في تلك الفترة استخبارات

(١) النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٣٩/٢ - ٤٠ ؛

زبدة الحلب : ٢٧/٣ .

(٢) الكامل : ٤٢٩/١١ .

دقيقة ، وكان التقدير هو الطريق المتبع في معرفة عدد جنود الاعداء • علما بأن الذي ذكرته المصادر - ومن ضمنها الاصفهاني - بأنه « جاء الخبر الى صلاح الدين بأن أعداءه في عشرين ألف فارس »^(١) ولم يذكروا بأن عددهم كان عشرين ألف فارس^(٢) •

ثالثا :- ان ما ذكره ابن الاثير من ان عدد القتلى رغم كثرة المقاتلين كان رجلا واحدا ، فيه تحيز واضح الى جانب الموصلين لان الهزيمة كانت فيهم ، ومع ذلك فان العدد لا يخل من حقيقة تاريخية : كانت في ان حربا حقيقية لم تقع بين الموصلية وصلاح الدين ، ولهذا فمع كثرة عدد العساكر لم يقتل من الطرفين سوى رجل واحد لان الموصلية اندحروا فارين من ساحات المعركة قبل ان تقوم الحرب حتى ان ابن واصل يقول : « وكانت هذه الكسرة من الله تعالى بغير حرب ولا قتال »^(٣) •

وعلى أية حال فان النوريين خسروا المعركة ، واندحروا فارين من

(١) انظر : سنا البرق الشامي : ٢٠٠/١ ؛ مرآة الزمان ، ق١ : ٣٣٣/٨ ؛ مفرج الكروب : ٤٠/٢ •

(٢) اشار ابن كثير لوحده بأن سيف الدين غازي سار في عشرين ألف مقاتل • البداية والنهاية ١٢: ٢٩٢ غير انه لا يؤخذ بما جاء به ابن كثير لانه مصدر متأخر ، اضافة الى انه أخذ بوجهة نظر الاصفهاني الذي نقل عنه رواياته ، ولهذا فهي لا تخل من حقد ضد الموصلية انظر مثلا: صفحة رقم (٢٩٢-٢٩٣) من نفس المصدر •

(٣) مفرج الكروب : ٤٠/٢ • اعتقد بأن فرار الموصلية من المعركة بهذه السرعة كان لضعف العقيدة التي يحملها الجند في محاربة صلاح الدين ، فقد خرجوا من الموصل الى الشام لحرب صلاح الدين من دون مبرر منطقي يدفعهم لقتاله • بينما خرج صلاح الدين من مصر الى الشام واخذ يفتح مدينة بعد أخرى من مدن النوريين وهو يحمل عقيدة وكان يبررها لاجناده فاندفعوا صوب ساحات القتال مؤمنين بأنهم المنقذون والمعيدون لبنیان الوحدة المنهارة والمدافعون عن البلاد ضد الغزاة •

ساحاتها امام عسكر صلاح الدين بعد ان اسر منهم الكثير . غير ان صلاح الدين من عليهم واطلقهم ، وكان من بينهم فخر الدين عبدالمسيح^(١) . ثم توجه صلاح الدين صوب حلب يوم الاحد ١٣ شوال سنة ٥٧١ هـ بعد ان كان قد فرق كل ما غنمه على جنده دون الاحتفاظ لنفسه بشيء منها^(٢) . وقد كان لهذا التصرف الحسن اثره الكبير في ترابط وحدة صفوفه . وقد مدحه العماد الكاتب بقصيدة يتن فيها اهمية انتصاره على الموصلين الذين انما اوقعهم جهلهم في حرب صلاح الدين ، فجنى عليهم سلاحهم بعد حشهم يمين الصلح الذي اصلحه صلاح الدين بعزمه وفلاحه ، ثم يعرج الاصفهاني التلميح بفتح القدس وتخليص الساحل الاقصى من الصليبيين ، لان صلاح الدين وجنوده انما هم فرسان الدهر وفناكه^(٣) .

اما سيف الدين غازي - اتابك الموصل - فانه بعد هزيمته عاد الى مدينة حلب ، واخذ منها خزائنه^(٤) . وسار حتى عبر الفرات ودخل

-
- (١) النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٣٩/٢ ؛ زبدة الحلب ٢٧٠/٣ ، السلوك ٦١/١ .
 (٢) النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٣٩/٢ ؛ زبدة الحلب ٢٧/٣ ؛ السلوك : ٦١/١ ؛ الروضتين ٢٥٥:١ ،
 (٣) جاء في بعض ابيات القصيدة التي مدح بها العماد الاصفهاني صلاح الدين ما يلي :
 فالحمد لله الذي افضاله
 عاد العدو بظلمة من ظلمه
 حمل السلاح الى القتال ، وما درى
 اضحى يريد مواصليه صدوده
 ان افسد الدين العداة بحنثهم
 فكأنني بالساحل الاقصى ، وقد

حلو الجنا عالي السنا ، وضاحه
 في ليل ويل قد جنا مصباحه
 ان الذي يجني عليه سلاحه
 وغدا يحيد رثاء مداحه
 فالناصر الملك الصلاح صلاحه
 ساحت ببحر دم الفرنجة ساحه

- انظر : الروضتين ٢٥٥/١ ، مفرج الكروب ٤١/٢-٤٢ .
 (٤) النوادر السلطانية : ٥٢ .

الموصل وكان - كما ذكر ابن الاثير - لا يصدق بالنجاة • وقد ترك بحلب بعد خروجه منها أخاه عز الدين مسعود بجمع من العسكر للدفاع عن الملك الصالح ، ولاستقطاب بقية العسكر المهزوم^(١) • وقد استشار سيف الدين غازي وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية خوفا من هجوم صلاح الدين عليهم ، فقال له مجاهد الدين : « رأيت ان ملكك الموصل عليك أتقدر ان تمتنع ببعض ابراج الفصيل ؟ فقال : لا ، فقال : برج في الفصيل خير من العقر »^(٢) • ولم يشأ صلاح الدين ان يلاحق فلول النورية المنهزمة امامه ويحاصر حلب بل اكتفى بالقيام بغارات على أعدائه المتمردين في المنطقة ، بعد ان سيطرت جنوده على الحصون المحيطة بحلب شمالا وجنوبا^(٣) • كي يفرض على حلب حصارا عسكريا ربما يدفعها للاستسلام بدون قتال ، لذلك تقدم نحو (بزاعه) وتسلمها ٢٢ شوال سنة ٥٧١ هـ ، ثم تقدم نحو منبج وتسلمها أيضا بقية الشهر المذكور ، وكان صلاح الدين حنقا على حاكمها قطب الدين ابن حسان المنبجي لفظاظته التي قابل بها صلاح الدين عندما أرسله الحلبيون رسولا اليه^(٤) •

ويرى ابن الاثير بأن المنبجي كان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والظعن فيه مما جعل صلاح الدين حنقا عليه ودفعه الى ملك مدينته ، بينما امتنعت عليه قلعته^(٥) • الا ان صلاح الدين حاصرها

(١) الكامل : ٤٢٩/١١ ؛ مفرج الكروب : ٤٠/٢ •

(٢) مفرج الكروب : ٤٢-٤١/٢ •

Cahen, op. cit., P. 416.

(٣)

(٤) ابن واصل ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ زبدة الحلب

• ٢٧/٣

(٥) الكامل : ٤٢٩/١١ •

وضيق عليها وملكها غنوة رغم كل مدخراتها التي قدرت بستمائة ألف دينار من عين ونقد ومصوغ وغير ذلك^(١) . كما اخذ ابن حسان معه أسيرا ، الا ان صلاح الدين اطلق سراحه فصار الى الموصل وعوضه سيف الدين - اتابكها - بمدينة الرقة^(٢) .

وفي ٤ ذي القعدة^(٣) من سنة ٥٧١ هـ تقدم صلاح الدين الى مدينة (عزاز) وحاصرها ثمانية وثلاثين يوما^(٤) ، وضيق على من بها ونصب عليها المجانيق . وفي ليلة الاحد ١١ ذي القعدة عندما كان صلاح الدين في خيمة الامير جاولي الاسدي ، وثب عليه جماعة بزري الجند قتل منهم من الاسماعيلية وأرادوا قتله ، الا ان محاولتهم فشلت ، واكتشف صلاح الدين بأن عملية الاغتيال اشترك في اعدادها الحلبيون^(٥) . مما دفعه للاصرار على فتح عزاز

(١) يرى المقرئزي بأن صلاح الدين اخذ منها « ثلاثمائة الف دينار ، ومن الفضة والانية والاسلحة ما يناهز بألفي الف دينار » السلوك : ٦١/١ . وفي كيفية استلام صلاح الدين بعض تلك الاموال ذكر ابن ابي طيء قوله : لما تسلم صلاح الدين اموال ابن حسان المنبجي استعرضها فوجد مكتوب على الاكياس التي بداخلها الاموال يوسف . فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ابن حسان ويؤثره كان يدخر له هذه الاموال . فقال صلاح الدين « انا يوسف وقد اخذت ما اخبىء لي » . الروضتين : ٢٥٧/١ .

(٢) الكامل : ٤٢٩/١١ - ٤٣٠ ؛ مفرج الكروب : ٤٢/٢ - ٤٣ ؛ زبدة الحلب : ٢٧/٣ - ٢٨ ؛ السلوك : ٦١/١ ؛ مرآة الزمان ق ١ : ٣٣٤/٨ - ٣٣٥ ؛ البداية والنهاية ٢٩٣/١٢ .

(٣) وقيل ايضا حاصر صلاح الدين عزاز في ٣ ذي القعدة . انظر : زبدة الحلب : ٢٨/٣ .

(٤) وقيل ايضا حاصر صلاح الدين قلعة عزاز لمدة ثمانية وعشرين يوما . مرآة الزمان ق ١ : ٣٣٤/٨ . وقيل اربعون يوما كانت مدة الحصار . تاريخ ابن خلدون : ٥٧٣/٥ .

(٥) سوف نتطرق في الفصل الرابع الى تفصيل حادثة اغتيال صلاح الدين المشار اليها اعلاه ونبين دوافعها . انظر : النوادر السلطانية : ٥٢ .

وحلب ، حتى ان عسكر صلاح الدين أصابه رد فعل شديد ضد قلعة عزاز لمحاولة اغتيال سيدهم فاشتدوا في ضرب البلد حتى أحدثوا فيه كثيرا من النقوب التي دفعت حاكم القلعة الى الاستسلام وطلب الامان ، وتسلم صلاح الدين قلعتها في ١١ ذي الحجة^(١) من سنة ٥٧١هـ/ ٢٦ يونيه سنة ١١٧٦م واصلح ما تهدم منها ثم اقطعها الى ابن اخيه تقي الدين عمر^(٢) .

وبعد ان ملك صلاح الدين قلعة عزاز توجه الى مدينة حلب وحاصرها للمرة الثالثة في ١٥ ذي الحجة سنة ٥٧١هـ الموافق ٢٥ يونيه سنة ١١٧٦م ، بعد ان كان قد خيّم على رأس الياوقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها واقطع ضياعها . وكان لشدة حصاره لحلب يمنع ان يدخل اليها شيء ، أو يخرج منها أحد^(٣) . وكان سعد الدين كمشتكين قد خرج الى حصن حارم ، فقطع طريق العودة أمامه الى حلب ، فاحتال على صلاح الدين وتضرع بأنه يدخل حلب لاصلاح الاحوال بين الطرفين . وكان في حقيقة امره خائفا من ان تقع معاهدة صلح بين صلاح الدين والحليين ليس له فيها اسم ولا ذكر . فراسل صلاح الدين يتلطف معه الحال ويقول : « لو نسمح لي في الدخول الى حلب سارعت في الخدمة واصلحت الامر على ما يرومه السلطان وراسل أيضا الملك الصالح والامراء بحلب يقول لهم : قد حصلت خارجا وقد بلغني أمور ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة اليكم ، فان الذي قد حصل عندي لا يمكن الكلام فيه ، فراسل الملك الصالح السلطان في الاذن في الدخول الى حلب فأذن له »^(٤) .

(١) وقيل تسلم صلاح الدين قلعة عزاز في ١٤ ذي الحجة . انظر : النوادر السلطانية : ٥٢ .

(٢) مفرج الكروب : ٤٥/٢ ؛ زبدة الحلب : ٢٩/٣-٣٠ .

(٣) الروضتين : ٢٦١/١ ؛ سنا البرق الشامي : ٢١٥/١ ؛ مفرج

الكروب ٤٦/٢ .

(٤) الروضتين : ٢٥٩/١ .

وكان صلاح الدين قد انفذ رهائنا من عنده اليهم وهم شمس الدين ابن أبي المعنا الخطيب والعماد الكاتب واسل اليه الحلييون نصره الدين ابن الزنكي • الا ان العدل بن العجمي - السابق الذكر - احتجز رهائن صلاح الدين في بيت ومنع عنهم غلمانهم ولم يحضر لهم طعام ولا مصباح ، حتى صباح اليوم التالي ، فاحضر الى مجلس الملك الصالح وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود وجماعة من أرباب الدولة اضافة الى سعد الدين كمشتكين الذي كان قد وصل البلد • فعرض لرسال صلاح الدين نسخة اليمين فوقها وخرجا الى صلاح الدين وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان ، فعلم حينئذ بانها كانت حيلة حتى يتمكن كمشتكين من دخول حلب • لذلك اطلق رسول الحليين (نصره الدين) وقاتل أهل حلب حتى انتهت سنة ٥٧١هـ (١) •

والظاهر ان المعاملة السيئة التي لاقاها رسول صلاح الدين انما كانت نتيجة للعلاقات السيئة التي كانت بين الموصلين خاصة والنوريين عامة وبين العماد الاصفهاني الذي ترك العمل بين ظهرائهم غاضبا عليهم ، وانصرف الى خدمة صلاح الدين - كما تبين ذلك من قبل - اما اطلاق صلاح الدين نصره الدين فكان فيها أكثر من معنى واحد : فقد اوضح للحليين انه قابل الاساءة بالاحسان • ثم ان عودة نصره الدين الى حلب معززا مكرما معناه رغبة صلاح الدين في كسب مودة الحليين ، لان الرسول لابد ذاكرة مواقفه ومعاملته التي عومل بها عند صلاح الدين ، علما بان سياسة صلاح الدين كانت تسير بخط ارضاء رجال الدين - كما تبين ذلك من قبل عند دخول صلاح الدين دمشق - الذين كانت يدهم قيادة الشعب فكريا •

ويرى الاصفهاني بأن الحليين لما وجدوا استمرار صلاح الدين في

(١) الروضتين : ٢٥٩/١ •

حصارهم علموا ان العاقبة وخيمة فدخلوا من باب التذلل وتوسلوا اليه ان يصلحهم بعد ان اعترفوا بخطئهم ، فأجابهم صلاح الدين الى طلبهم وتم الصلح بينهم^(١) . غير ان ابن الاثير يرى بأن الصلح تم بين الحلبيين وصلاح الدين في ٢٠ محرم من سنة ٥٧٢هـ بعد ان وقعت عليه الاجابة من الطرفين ، لان أهل حلب خافوا من طول الحصار الذي ربما يضعف قواهم ، وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على دخول البلد يسر ولا الدنو منه ولا على قتال من به فوافق على اعادة الصلح^(٢) .

ويتبين مما سبق وجهتا نظر مختلفتين كانتا نتيجة للصراع الدائر بين الايوبيين والنوريين ، وتبني كل مؤرخ لوجهة احد الجانبين ومبالغته فيما ينسبه للطرف الثاني . فالاصفهاني الذي كان بجانب صلاح الدين ومن نقل عنه كأبي شامة ، والمقرئزي وابن كثير وغيرهم - اظهروا الحلبيين بموقف الضعف والذلة أمام صلاح الدين . بينما صورهم ابن الاثير على جانب كبير من القوة بحيث ان صلاح الدين كان لا يقدر على الدنو من البلد وفي هذا تحيز واضح للحلبيين ، لان صلاح الدين - كما ذكر المقرئزي - لم يقاتل الحلبيين ، انما حاصر حلب وضيق عليها ومنع احدا من ان يدخلها أو يخرج منها^(٣) . ثم لو كانت لدى الحلبيين القوة التي صورها ابن الاثير لما انهزموا فارين . ولما طلبوا مساندة قوات الموصل والجزيرة واعتصموا بقلعة حلب ؟!

والذي يظهر بأن الحلبيين وصلاح الدين رغبا في عقد الصلح لا لضعف فيهما ؟ انما لدفع الخطر الخارجي الذي كان يهدد كلا الطرفين وخدمة

(١) الروضتين : ٢١٧/١ ؛ السلوك ٦٢/١ ؛ البداية والنهاية

٢٩٥/١٢ .

(٢) الكامل : ٤٣١/١١ .

(٣) السلوك : ٦٢/١ .

لمصلحة المسلمين عامة • ولذلك قدّم كل طرف من جانبه تنازلات عن طيب خاطر جبا في الوصول الى السلام ولتوحيد الكلمة من أجل مقاومة الصليبيين ، وفي شروط الاتفاقية ما يدل على ذلك :

لقد تقرر الصلح وكان عاما شاملا للموصلين والحليين ، وأهل ديار بكر وماردين وكانت القاعدة ان يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر^(١) • وكتب في نسخة اليمين « انه اذا غدر واحد وخالف ولم يف بما عليه حالف كل الباقيون عليه يدا واحدة وعزيمة متعاقدة حتى يفى الى الوفاء والوفاق ويرجع الى مرافقة الرفاق »^(٢) • وقد تنازل صلاح الدين - عن طيب خاطر - للملك الصالح عن قلعة عزاز - التي فتحها عنوة - بعد ان كان الملك الصالح قد ارسل له اخته الصغيرة فاكرمها صلاح الدين ، وسألها ما تريد ، فقالت : قلعة عزاز فمنحها اياها^(٣) •

وهكذا تم عقد صلح عام بين النوريين وصلاح الدين ، بعد ان أنقض سيف الدين غازي المعاهدة التي كانت بين صلاح الدين والملك الصالح - اتابك حلب - والحليين ويمكن توضيح صيغة المعاهدتين - استخلاصا مما سبق - بما يلي :-

أولا - في سنة ٥٧٠هـ الحليون والايوبيون طرف واحد ضد الصليبيين •
ثانيا - لا يحق لطرف التحالف أو التعاقد مع طرف ثالث الا بموافقة أو علم الطرف الثاني •

(١) الكامل : ٤٣١/١١ ؛ الروضتين : ٢٦١/١ ؛ مفرج الكروب : ٤٦/٢ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢١٦ •

(٢) العماد الاصفهاني انظر : تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢١٧-٢١٨ ؛ الروضتين : ٢٦١/١ •

(٣) الكامل : ٤٣١/١١ ؛ النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٤٦/٢ ؛ زبدة الحلب : ٣٠/٣ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٥/١٢ •

ثالثا - نقض الحليون العهد بتحالفهم مع المواصلة ضد صلاح الدين •
رابعا - تجدد العهد سنة ٥٧٢هـ مرة ثانية وانضم اليه المواصلة وأصبح
بالصيغة التالية :

أ - الجميع يدا واحدة ضد الغزاة الصليبيين •

ب - لا يجوز لاحد الاطراف نقض العهد •

ج - اذا نقض أحد الاطراف العهد أو خالفه فالباقون يدا واحدة
عليه حتى يرجع الى الوفاق •

وبعد انتهاء عقد الصلح مع النوريين توجه صلاح الدين الى حصون
الاسماعيلية للانتقام منهم على محاولاتهم المتعددة لاغتياله ، وانتهت علاقته
معهم بالتوصل الى معاهدة سلام بين الجانبين بتوسط شهاب الدين الحارمي
خاله^(١) •

وبعد ان امن صلاح الدين جانب أعدائه من المسلمين تفرغ للإصلاحات
الداخلية وبناء الحصون والمدارس • فقد عاد بعد حصار قلاع الاسماعيلية
الى حماة ، وفيها وصل اليه من اليمن أخوه الملك المعظم شمس الدولة توران
شاه بعد ان ذهب لفتحها سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥ - ١١٧٦ م • فقد عاد الى
الشام بعد ان استقرت أموره هناك واشتاق لزيارة أهله وأقاربه فاستقبله
صلاح الدين استقبالا حسنا^(٢) ، وخرج من حماة عائدا الى دمشق فوصلها
في ١٦ صفر سنة ٥٧٢هـ / ٢٦ آب سنة ١١٧٦ م وفي دمشق تم زواج
صلاح الدين من الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أثر ، ارملة نورالدين

(١) الاصفهاني ، انظر : سنا البرق الشامي ج/ ٢٢٣ ؛ مفرج

الكروب : ٤٨-٤٧/٢ •

(٢) الاصفهاني ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ مفرج الكروب :

٤٨-٤٩/٢ ؛ سعداوي ، المصدر السابق : ٧٧-٧٨ •

وأم الملك الصالح التي كانت مقيمة بقلعة دمشق ، وولى تزويجها منه أخوها
الامير سعد الدين بن انر ، وحضر القاضي ابن ابي عسرون العقد ، وقد
مكث صلاح الدين بقرب زوجته الجديدة ليلتين ثم عاد الى مصر^(١) .

وفي يوم السبت ١٦ ربيع الاول سنة ٥٧٢ هـ الموافق ٣-١٠-١١٧٦م
دخل صلاح الدين القاهرة بعد ان أصبح سلطانا لكل من مصر والشام
وأعالي الجزيرة . بينما كان قد دخلها من قبل مرافقا لعمه أسد الدين
شيركوه ، ونائبا عن نور الدين محمد زنكي وسوف تتطرق في فصل قادم الى
أهم أعماله الداخلية التي قام بانجازها في مصر اثر عودته اليها . علما بأن
علاقات سياسية مهمة دارت في هذه الفترة بين الصليبيين وصلاح الدين كان
في أغلبها النصر لصلاح الدين ، ما عدا معركة الرملة التي خسرها وعاد
منهزما الى القاهرة^(٢) . وكانت نتيجة تلك العلاقات عقد معاهدة للسلام
لمدة سنتين ، تقدم بطلبها بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، ووافق عليها
صلاح الدين ليتفرغ للامراء المسلمين ويتمكن من توحيدهم ورض
قواهم^(٣) .

(١) العماد الاصفهاني ، انظر : تلخيص البنداري ، سنا البرق
الشامي : ٢٣٠-٢٣١ / ١ : امرأة الزمان ، ق ١ : ٣٣٥/٨ : مفرج الكرب :
٥١/٢ : زبدة الحلب : ٢٠/٣ : النجوم الزاهرة : ٧٨/٦ : البداية
والنهاية ٢٩٥/١٢ .

(٢) في اثناء وجود صلاح الدين بالقاهرة نازل الصليبيون حماة في
سنة ٥٧٣ هـ . الا انهم ارتدوا عنها لعدم تمكنهم مقاومة حاميتها التي
كانت بيد خال صلاح الدين الحارمي كما نازل الصليبيون حارم ، ولذلك
خرج صلاح الدين لمنازلتهم ودفع اذاهم عن بلاد المسلمين ، ودارت بين
الطرفين عدة معارك انتصر فيها صلاح الدين امثال معركة مرج العيون
سنة ٥٧٥ هـ ، وتخريب بيت الاحزان ، وسوف نتطرق الى شرح كل
ذلك في الثالث .

Lanepool, A History of Egypt, P. 206.

(٣)

كما حدث في هذه الفترة علاقات سياسية بين صلاح الدين وسلاجقة الروم الذين استنجدوا به لدفع الخطر الذي أصابهم من تهديدات الأرمن . ثم راسل السلطان السجوقي قلعج ارسلان صلاح الدين في صلح الشرقين عامة معه فوافق صلاح الدين وحلف عليه في ١٠ جمادى الاولى من سنة ٥٧٦هـ على نهر شنجة - في أعالي الفرات - وكان الصلح عاما لسلاجقة الروم والموصلين وأهالي ديار بكر^(١) .

وبعد ان أمن صلاح الدين جانب الأمراء المسلمين - نتيجة للمعاهدة السابقة - عاد الى دمشق ، وخرج منها الى بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون لاستمالاته قوما من التركمان كانوا يرعون في بلاده غدر بهم وأسرههم . فغزاه وأحرق قلعة « المناكير » التي كانت من القلاع الحصينة التابعة له . فاضطر ابن لاون بالخضوع اليه ، ودخل في طاعته بعد ان اطلق ما بيده من أسارى المسلمين . ثم عاد على أثرها صلاح الدين الى حماة فوصلها في آخر جمادى الآخرة سنة ٥٧٦هـ^(٢) . وتقدم اليه الشعراء بالمدح والثناء^(٣) .

وفي يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٥٧٦هـ غادر صلاح الدين الشام الى القاهرة لوفاة أخيه الملك المعظم توران شاه بالاسكندرية . واستتاب بالشام

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٤ .

(٢) مفرج الكروب : ٩٨/٢ - ٩٩ .

(٣) من الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين بعد انتصاره على ابن لاون الشاعر جمال الدين ابو غالب محمد بن الخطاب بقصيدة جاء في بعضها :

ازرت ابن لاون لأواءه ،	فأضحى به خبرا عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى ،	حذارا من الرافعات اللدان
فلا قدم عنده للثيبا	ت ، وليس له بسطاكم يدان
واخلى اليكم مناقيره	وغادر للهدم تلك المباني

انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب : ٩٩/٢ .

ابن اخيه عز الدين فرخشاء • وفي القاهرة اشتغل بعمارة أسوارها وتنظيمات مصر الداخلية^(١) ، حتى وافاه الخبر ب وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ ٤ كانون الاول سنة ١١٨١ م ، وكان عمره آنئذ تسع عشرة سنة بعد ان اصيب بمرض القولنج^(٢) • وكان قبل وفاته قد أحضر امراءه وأوصاهم بتسليم مدينة حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود^(٣) •

ويرى ابن الاثير بأن سبب اختيار الملك الصالح لعز الدين مسعود خليفة من بعده لحكم حلب ، وعدم اختياره لعماد الدين زنكي - ابن عمه واخي عز الدين مسعود - لان الاول كان أقوى من الثاني وبيده العساكر ، وهو بما يملك من مؤهلات يستطيع حماية حلب من صلاح الدين فيما اذا أراد السيطرة عليها^(٤) • وفي هذا الرأي شيء من التفخيم والمبالغة من خطر صلاح الدين ومحاولة اساءة العلاقة بينه وبين الملك الصالح التي تحسنت في الفترة الاخيرة ، بعد ان اكرم بقلعة عزاز • والظاهر ان ابن

(١) مفرج الكروب : ١٠١/٢ •

(٢) القولنج : مرض يصيب بطن الانسان وصفه الخوارزمي بقوله : « اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون » انظر : مفاتيح العلوم (القاهرة ، ١٣٤٢ هـ) ٩٨ •

(٣) النوادر السلطانية : ٥٥ ؛ الروضتين : ٢١/٢ - ٢٢ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢١٨ ، زبدة الحلب : ٤٠/٣ - ٤٢ ؛ البداية والنهاية : ٣٠٨/١٢ - ٣٠٩ ؛ الغساني ، المسجد المسبوك : ١٣ ؛ مرآة الزمان ، ق ١ : ٣٦٧/٨ - ٣٦٨ ؛ ابن الشحنة ، روض المناظر : ٢٤٠ ؛

Runciman, op. cit., 11, P. 433.

Lanepool, A History of Egypt, P. 206.

(٤) الكامل : ٤٧٢/١١ - ٤٧٣ ؛ الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية :

١٨٢ - ١٨٣ •

الاثير أراد تبرير تقدم عزالدين مسعود الى حلب وتملكه اياها ، كما أراد
تبرير حادثة وفاة الملك الصالح التي قيل فيها - اضافة الى موته بمرض
القولنج - بأنه مات مسموما^(١) .

وتبين من دراسة الحادث أن عزالدين مسعود ساء - وهو أكبر
امراء البيت النوري - حكم الملك الصالح عليهم وهو صغير السن لا يبلغ
عمره العشرين سنة . فأراد امتلاك الامر بيده ، فبعث الى الملك الصالح
من وضع له السم في طعامه وقتله . ولما أخبر بنجاح العملية تقدم فوراً الى
حلب وامتلكها ومما يدل على ذلك احتجاج عمادالدين - اتابك سنجار -
على سيطرة عزالدين على حلب ودعوته اياه ان يسلمها اليه عوضاً عن
سنجار وبعث اليه قائلاً : « كيف تختص انت ببلاد عمي وابنه وبأمواله
دونني ، وهذا أمر لا صبر لي عنه »^(٢) . في الوقت الذي لم تذكر جميع
المصادر التاريخية دفاع عزالدين عن نفسه واحتجابه ضد منافسيه في
امتلاكه حلب بان الملك الصالح هو الذي سلمها اليه بوصايته . اضافة الى
ان الالم الذي يصيب الانسان من استخدامه السموم يتتاب منطقة البطن ،
وان كافة المصادر تقول بأن الصالح اسماعيل اصيب بمرض القولنج ثم
توفي ، علماً بان هذا المرض يصيب بطن الانسان أيضاً ، وربما كان هذا
التقارب في موضع الالم دليل آخر على ان الملك الصالح توفي مسموما .

(١) يقول ابن ابي طي : كان سبب موت الملك الصالح ان علم
الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد ، وقيل
ان الذي سقاه ياقوت الاسدي في شراب وقيل انه اطعمه خشكناكه وهو
في الصيد . البروضتين : ٢١/٢ .
(٢) زبدة الحلب : ٤٧/٣ .

« كان صلاح الدين ، في هذه الفترة ، يخاف ضرب الموصليين بقسوة
لأن دم المسلمين واحد ، وقد استخدم الطرق النفسية حتى لا يثير غضب
المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم » •

Sivan L' Islam et la Croisade ideologe et propagande dans
les Reactions, P. 98.

رابعاً - موقف صلاح الدين من امراء الموصل منذ وفاة سيف الدين غازي
سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م حتى سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٥ م وامتلاكه

حلب وسنجار

في ٣ صفر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م توفي سيف الدين غازي بن مودود بن
زنكي أتابك الموصل نتيجة لاصابته بمرض السل ، بعد ان طال به المرض
وادركه في آخره السرسام^(١) ، وكان عمره آنشد ثلاثين سنة حكم الموصل
منها حوالي عشر سنين وثلاثة أيام^(٢) .

وكانت علاقته بصلاح الدين غير حسنة يصاحبها الشك ويتابها
النزاع ، ويغلب عليها طابع الخوف والحذر من قوة صلاح الدين التي
بازديادها فقدان لسلطانه . وقد اتهمته بعض المصادر - كما تبين من قبل -
بشرب الخمر وإباحة المحارم . الا انه على أية حال تاب في آخر أيامه
وكان يخرج مع الناس لاستسقاء الامطار ، كما كان يتردد على رجل زاهد
اسمه أبي أحمد بن الحداد في قرية قريبة من الموصل اسمها الفضلية^(٣) .

وقد أراد سيف الدين أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه بن
غازي البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة . الا ان أخاه عز الدين مسعود
امتنع من لمثل تلك الاوامر ، وأشار أكابر الامراء في الموصل امثال
مجاهد الدين قايماز على وجوب جعل الملك في عز الدين ، لما كان عليه من
كبر السن والشجاعة والعقل ، على ان يقطع معز الدين سنجرشاه ، ابن
عز الدين بعض البلاد . فوافق سيف الدين على ذلك الاقتراح ، خاصة وانه

(١) سرسام : يقول الخوارزمي بأنه مرض يصاحبه حمى دائمة
مع صداع وثقل في الرأس والعينين اللتين يصاحبهما حمرة شديدة مع
كراهية الضوء . انظر : مفاتيح العلوم : ٩٦ .

(٢) النوادر السلطانية : ٥٤ ؛ مفرج الكروب : ٩٢/٢ .

(٣) مرآة الزمان ، ق ١ : ٣٦٤/٨ .

خاف على ملكه من صلاح الدين فتقرر من بعده بالملك عز الدين ، بعد ان منح سيف الدين جزيرة ابن عمر وبلادها لمعز الدين سنجر شاه ، وقلعة عقر الحميدية لولده الآخر ناصر الدين كشك^(١) .

وقد حافظ عز الدين مسعود على عهد أخيه ، وقام بتدبير أموره مجاهد الدين قايمار ، كما ارسل الى صلاح الدين الشيخ الفقيه فخر الدين أبا شجاع بن الدهان البغدادي ليتفق معه على ابقاء العلاقة بينهما كما كانت على عهد سيف الدين ، على ان تكون سروج والرها والرقعة وحران والخابور ونصيبين في يده فلم يجبه صلاح الدين لانها بحكم تقليد خليفة بغداد تكون تابعة لصلاح الدين ، وانما جعلها بيد سيف الدين غازي بالشفاعة بعد ان اشترط عليه ان يمدّه بالعساكر عند الحاجة^(٢) . ولكي يجعل امتلاكه لتلك البلاد شرعيا ، ويجعل من الذين يعارضونه في ذلك خارجين عن سلطان الخليفة العباسي . كتب الى الخليفة العباسي يعلمه بوفاة سيف الدين غازي ، ويطلب منه ان يقلده تفويضا بتلك البلاد ليقوى بها ثغور المسلمين بالشام . وقد كاتب بذلك الشيخ صدر الدين عبدالرحيم شيخ الشيوخ بانشاء العماد الكاتب ، بعد ان اوضح صلاح الدين للشيخ المنجزات التي حققها ، والمشاكل التي قضى عليها ، والجهاد الذي قام به ضد الصليبيين في حفظ ثغور المسلمين ، ثم اوضح لبغداد بأنه تحمل وحده مشاق تلك الحروب والمرابطة في الثغور ضد الكفار في السنين الخمس السوابق لهذا الكتاب . ونظرا لاستمرار رغبته في الجهاد فهو أحسوج ما يكون ان تنضم اليه تلك البلاد لاستخدام عساكرها في عمليات الجهاد وفي نص الكتاب المرسل الى بغداد ما ثبت ذلك :

(١) مفرج الكروب : ٩٣/٢ .
(٢) العماد الاصفهاني . انظر : الروضتين : ١٧/٢ .

« قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية ، للدار العزيزة النبوية ، بما لم يختص به أحد ، وامتدت اليه منا في اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتد اليه يد ، وازلنا من الاقاليم الثلاثة أدعاء ، وخلفناهم للردى ، حيث دعوا بلسان الغواية خلفا ، ولا خفاء ان مصر ، اقليم عظيم وبلد كريم ، بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة وعانت كل هزيمة وعانت كل عظمة ، حتى انقذها الله بنا من عيد بني عبيد واطلقها بمطلقات أعنتنا اليها من غناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأموني الشر الى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة ، فمن حقها ان يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لاعضل رتقة واتسع على الراقع خرقة ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام ونغور الاسلام الى استصحاب العسكر المصري اليها ، وله مدة خمس سنين في بيكارها ، منتقماً من كفارها متحملاً لمشاقها على غلاء أسعارها ، وانما أحوج الى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقطعت عنه ، وعساكرها أخذت منه » (١) .

وقد أجابت بغداد بالقبول على كتاب صلاح الدين وارسلت اليه في رجب من سنة ٥٧٦هـ صدرالدين شيخ الشيوخ ابا القاسم عبدالرحمن ، وشهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف (٢) ، فتلقاهم

(١) الروضتين : ١٧/٢ ؛ مفرج الكروب : ٩٤-٩٥ .
(٢) كان هذا التشريف الذي وصل الى صلاح الدين ، هو اول خلعة قدمت من الخليفة الناصر لدين الله لصلاح الدين وكانت تشمل ثوب اطلس اسود واسع الكم مذهب ، وبيقار وطيلسانان اسودين مذهبين ، ومشده مذهبة مع طوق وتخت وسرفسار ، وجواد كميت من مراكب الخليفة عليه سرج اسود وسلال اسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم اسود وعدة خيول ، وقد تسلم صلاح الدين تلك التشريفات بالفرحة بعد ان كانت دمشق قد تزينت لاستقبال الرسل . انظر : الروضتين : ١٩/٢ .

صلاح الدين بالاكرام وترجل لهم ، ثم حسنّ لشيخ الشيوخ مرافقته الى مصر لزيارة قبر الامام الشافعي هناك ، فوافق شريطة ان يخرج من مصر الى أرض الحجاز لاداء فريضة الحج في ذلك العام^(١) .

ورغم اعتبار صلاح الدين ان حلب وما جاورها من القلاع هي تابعة له بحكم تفويض بغداد ، الا ان عز الدين مسعود لم يلتفت اليه وبقي مالكا لحلب ، ولم يتمكن صلاح الدين آتئذ من مزاحمته عليها لانه كان في مصر^(٢) . لذلك استولى عز الدين على الخزائن والذخائر التي كانت في حلب وتحكم فيها وأقام بقلعتها الى سادس عشر شوال من سنة ٥٧٧هـ . الا انه علم بأنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل سوية لوجود الخطر الايوبي ، وظهور بعض الاضطرابات الداخلية بين صفوفه كالحاج بعض أمرائه عليه بزيادة رواتبهم واقطاعاتهم ، فاضطر الى الرحيل من حلب عائدا الى الموصل بعد ان ابقى في حلب ولده مظفر الدين بن زين الدين . وأثناء عودته الى الموصل التقى بأخيه عمادالدين زنكي في منطقة الرقة واتفقا سوية على ان يسلم عز الدين مدينة حلب الى عمادالدين عوضا عن سنجار^(٣) . بعد ان قيل بأن عمادالدين هدد أخاه عز الدين بتسليم مدينة سنجار لصلاح الدين ان لم يسلمه مدينة حلب^(٤) .

(١) نفس المصدر والمكان السابق ، مفرج الكروب : ٩٥/٢ .

(٢) الكامل : ٤٧٣/١١ - ٤٧٤ : الروضتين : ٢١/٢ .

(٣) النوادر السلطانية : ٥٥ ؛ مفرج الكروب : ١٠٩/٢ ؛ زبدة

الحلب : ٤٧/٣ .

(٤) الكامل : ٤٧٤/١١ وبالرغم مما ذكره ابن الاثير ان عمادالدين زنكي هو الذي طالب بمدينة حلب عوضا عن سنجار ، فان المنصور الايوبي وابن العديم يريان بأن عدم تمكن عز الدين من حفظ حلب وادارتها دفعته الى مراسلة عماد الدين وترغيبه باستلام حلب عوضا عن سنجار التي وجد عز الدين بأن انضمامها اليه فيه اهمية كبيرة لتعزيز قواه لان سنجار

ولم يكن يتوقع من صلاح الدين ان يقف مكتوف اليدين حيال تحركات عز الدين السابقة القاضية بنقض المعاهدة المبرمة بين الطرفين ، والتي ستؤدي - دون شك - الى القضاء على مشروع الوحدة الذي يسعى لتحقيقه لذلك عمد الى استخدام سياسة حكيمة لفك ارتباط حلب بما حولها من القلاع والحصون القريبة ، فقد كتب الى صاحب قلعة الراوندان^(١) يأمره بأن يكون في مساندة الملك المظفر تقي الدين عمر - صاحب حماة - الذي أمره صلاح الدين بالتأهب والنهوض لحرب النوريين ، كغيره من سائر النواب الذين كاتبهم صلاح الدين بنفس الخصوص^(٢) ، وقد وصل كتاب صلاح الدين الى صاحب قلعة الراوندان في العشر الاواخر من شعبان سنة ٥٧٧هـ وجاء فيه ما يلي : « وقد عرفت ما تجدد من وفاة صاحب حلب وهي ولايتنا التي لا ننتهي عنها عنان الطلب ، فانها من تقليدنا من أمير المؤمنين ، وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلمها في أيدينا الا رعاية لحقوق أبيه ، ورغبة فيه ولا مانع الآن عنها من يمين معقودة »^(٣) .

قريبة من الموصل عكس حلب التي كانت بعيدة عن الموصل وتؤدي الى انقسام قوته ، اضافة الى ان عز الدين كان يعلم بأن صلاح الدين كان يتعلق بمدينة حلب . انظر : ابن شاهنشاه من مضمار الحقائق وسر الخلائق (لقاهرة ١٩٦٨) : ٦٠ ؛ زبدة الحلب : ٥١/٣ - ٥٢ .

(١) الراوندان : من جند قنسرين في بلاد الشام ، وهي قلعة حصينة عاتية ، ولها عين وبساتين ، وتقع في الشمال من قلعة حارم ، بينها وبين حلب مرحلتين ، وتعتبر كورة من نواحي حلب . انظر : مرصد الاطلاع : ٥٩٨/٢ ؛ شيخو ، مجاني الادب (بيروت ١٩٢٣) : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) العماد الاصفهاني ، انظر : الروضتين : ٢٣/١ ؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٦١ ؛ مفرج الكروب : ١١٠/٢ .

(٣) ابن شاهنشاه ، نفس المصدر والمكان السابق .

كما عمل صلاح الدين على كسب تأييد الخلافة العباسية ، والقيام بحملة اعلامية لتوضيح تواطؤ عز الدين مسعود مع الاسماعيلية والصليبيين ليثبت لبغداد صدقه ، وليدفع جنده لحرب النوريين عن طيب خاطر منهم ، باعتبار ان النوريين متواطئون مع الاعداء وان محاربتهم واجبة لاعادة وحدة الصف في قوات المسلمين ولذلك كتب صلاح الدين الى الخليفة العباسي مخبرا اياه بسوء أحوال الشام ، بعد ان اغار الصليبيون على انطاكية وهددوا المدينة المنورة . ومما جاء في الكتاب المرسل الى الديوان العزيز ما يلي :

« وشاع الخبر بغارة افرنج انطاكية على حارم ، وآتوا من النهب والسبي بالعظائم ، وشاع أيضا ان عسكر حلب اغاروا على الراوندان وهي في عملنا ، ورسلمهم عند الفرنج يستنجدونهم ، وراسلوا الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خاف ، والعلم بالمعتاد عنه كاف ، وابن أخينا غائب في اقصى بلاد الفرنج في أول برية الحجاز ، فان طاعة منهم جمع خيله ورجله ، وحدثته نفسه الخيشة مخضبه بقصد تيماء ، وهي دهليز - على ساكنها السلام - واغتمت كون البرية معشبة مخضرة في هذا العام والعجب انا نحامي عن قبر النبي - صلوات الله عليه وسلامه - مشتغلين بهمه والمذكور - يعني صاحب الموصل - ينازع في ولاية هي لنا . ليأخذنا بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة من دون المؤمنين ، ويحمل اليهم كرائم الاموال هذا ما نعد في الملة الخفيفة والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعد مثلها لابي مسلم ، لانه اقدم ثم خامر ، ووالى ثم ولي ، ولا اخرا لطغرل بك ، فانه نصر ونصب ، ثم حجر وحجب ، وقد عرف ما فضلنا الله به عليهما في نصر الدولة ، وقطع من كان ينازع الخلافة رءاءها ، ويطهر المنابر من رجس الادعاء ، ولم نفصل ما فعلناه لاجل الدنيا ، غير ان التحدث بنعمة الله واجب فان اقتضت

الاورام الشريفة ان يوعز للمذكور بحلب بتقليد ، فالاولى ان يقلد الكل ،
فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ، ولمالك الامر الحكيم في ممالك
الممالك» (١) .

ونظرا لرغبة صلاح الدين في التقدم نحو الشام وتجهزه للسفر ،
فقد خرج الناس لوداعه في القاهرة يوم ٥ محرم سنة ٥٧٨ هـ صحبة العلماء
والفضلاء والشعراء الذين آخذ كل واحد منهم ينشد أبياتا في الوداع (٢) .
وقد خرج صلاح الدين من القاهرة قاصدا مدينة حلب ، وجعل طريقه على
ايله ، ثم وصل الى دمشق يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٨ هـ ، وكان الصليبيون
قد نقضوا معاهدة الصلح المعقودة بين الطرفين سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م ، ولذلك
خرج من دمشق واغار على طبرية وبيسان (٣) . كما ارسل الى مصر يطلب
من أخيه الملك العادل تجهيز الاسطول المصري لمقابلته على الساحل الشامي
بعد ان خرج الى بعلبك ، الا انه ترك حصار بعلبك وتوجه
لحصار بيروت حال سماعه بأن الاسطول المصري خرج اليها .
ورغم الحصار الشديد والضربات التي تلقتها المدينة ، الا انها لم تفتح نظرا

(١) مفرج الكروب : ١١٠/٢ - ١١٢ .

(٢) يقال بأنه أخرج أحد مؤدبي اولاد صلاح الدين رأسه اثناء
تجمعات الناس لوداع صلاح الدين وأنشد بيتا من الشعر قال فيه:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وقد تطير صلاح الدين من ذلك البيت من الشعر ، وانقبض
انبساطه ، وكان الشاعر نطق بما هو مقدر . لانه قدر لصلاح الدين الا
يعود الى مصر مرة اخرى حتى توفي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م . انظر : مفرج
الكروب : ١١٣/٢ ، زبدة الحلب : ٥٥/٣ .

(٣) النوادر السلطانية : ٥٦ ؛ مفرج الكروب : ١١٣/٢ - ١١٥ ؛
زبدة الحلب ٥٦/٣ .

لقلة المنجنيقات ، واستجماع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لسفن عكا
وصور لرفع الحصار عن بيروت ، وما اشيع عن الموصليين بأنهم تهادنوا مع
الصليبيين وعقدوا معهم معاهدة دفاعية هجومية ضد صلاح الدين^(١) .

ورغبة من صلاح الدين بالالتفات الى القوى الاسلامية ، والتفرغ
لمشروع وحدة الكلمة قبل ضرب الصليبيين ، ونتيجة للعوامل السابقة ،
فقد ترك حصار بيروت ورحل الى بعلبك ومنها الى مديّة حمص ، ثم الى
حماة . ولما قرب من حلب وصل الى خدمته مظفر الدين كوكبري بن
زين الدين الذي كانت بيده قلعة حرّان ، لانه كان قد استوحش من
عزالدين مسعود - أتابك الموصل - ووزيره مجاهد الدين قايماز^(٢) .

وفي ١٨ جمادى الاولى سنة ٥٧٨هـ وصل صلاح الدين حلب
وحاصرها لمدة ثلاثة أيام^(٣) . الا انه ترك حصارها وفضل السيطرة على
بلاد الجزيرة والحصون المجاورة لها ، ليتمكن من دخول حلب بسلام ،
بعد ان يدفعها لطلب الاستسلام^(٤) . ونظرا لرغبة صلاح الدين الصداقة في
العمل على توحيد بلاد الشام والجزيرة من أجل مقاومة الصليبيين ، وابعادا

(١) مفرج الكروب : ١١٥/٢ - ١١٦ : التاريخ الحربي المصري :
١٣٦ ؛

Lanepool, Saladin, P. 169.

- (٢) النوادر السلطانية : ٥٦-٥٧ ؛ مفرج الكروب : ١١٦/٢ .
ورغم ما ذكر اعلاه من اسباب ترك صلاح الدين حصار بيروت والتقدم نحو
حلب مارا بحران . فان ابن الاثير يرى بأن مجاهد الدين قايماز هو الذي
كاتب صلاح الدين واطمعه في البلاد ودعاه الى عبور الفرات بعد ان وعده
النصرة ، مما دفع صلاح الدين الى ترك حصار بيروت وتقدم نحو حران بعد
ان اظهر بأنه ينوي حصار حلب سترا للحال . الكامل : ٤٨٣/١١ .
(٣) مفرج الكروب : ١١٦/٢ ، السلوك : ٧٨/١ .
(٤) انظر : الكامل : ٤٨٣/١١ ؛ رحلة ابن جبير : ٢٤٧ .

لكل اصطدام مسلح يقع مع المسلمين ، فقد أصدر قرارا بالعمو العام عن جميع المسلمين الذين يرغبون العمل معه في مجاهدة الصليبيين شريطة ان تكون القيادة له ، حيث كاتب ملوك الاطراف والامراء المحليين أنه « من جاء مستسلما سلمت بلاده ، على ان يكون من أجناد السلطان واتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة »^(١) .

وقد استجاب لقرار العمو الامير نورالدين بن قر أرسلان بن سقمان ابن ارتق - صاحب حصن كيفا - وتقدم الى صلاح الدين بالاذعان ، فوعده صلاح الدين بمنحه قلعة آمد بعد فتحها اكراما له^(٢) . بينما امتنع عليه الامير فخرالدين مسعود بن الزعفراني أمير مدينة الرها ، فتقدم صلاح الدين الى مدينته وحاصرها وضيق عليها حتى اضطر الزعفراني الى طلب الامان ، فأمن وسلم البلد الى صلاح الدين ودخل في خدمته . ثم تقدم صلاح الدين الى الرقة وملكها بعد ان هرب منها أميرها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي الى الموصل عند سماعه بتقدم صلاح الدين نحوه . كما استسلمت كل من الخابور وقرقيسيا ، وماكسين وعربان ومشهد الرمان من أرض الجزيرة وكافة الحصون الاخرى المحيطة بحلب والمنتشرة في أرض الشام والجزيرة وقلعة رأس العين والشمسانية والمجلد والحصين ونصيبين التي استسلمت بعد ان حوصرت عدة أيام فدخلها صلاح الدين واقطعها للامير أبي الهيجاء السمين^(٣) .

(١) الروضتين : ٣٢/٢ : مفرج الكروب : ١١٧/٢ .

(٢) الكامل : ٤٨٣/١١ : الروضتين : ٣٢/٢ : مفرج الكروب :

١١٧/٢ .

(٣) الكامل : ٤٨٤/١١ ، الروضتين : ٣٢/٢ ، تاريخ مختصر

الدول : ٢١٨ ، مفرج الكروب : ١١٧-١١٨ : عاشور ، الحركة الصليبية :

٧٧٦/٢ .

اما موقف عز الدين مسعود عز الدين مسعود - اتابك الموصل - من تحركات صلاح الدين ، فانه خاف على ممتلكاته وجمع عساكر الموصل ، وتقدم بها نحو نصيبين للدفاع عجب حلب في حالة تقدم صلاح الدين اليها ، غير ان عبور صلاح الدين للفرات - كما تبين من قبل - قطع عليه خطوط رجسته فاضطر الى العودة الى الموصل^(١) ، بعد ان قيل بأنه راسل الصليبيين وطلب منهم العون على مقاومة صلاح الدين^(٢) .

وقد راسل صلاح الدين الخليفة العباسي ببغداد وواقفه على تحركات الموصلين ووضح له تواطئهم مع الصليبيين ، ليضفي على تحركاته صفة الشرعية ، وربما استهدف ، من جهة ثانية ، الحصول من الخليفة العباسي على تفويض بتحويله سلطة عليا على بقية الامراء المسلمين في اقليم الجزيرة كسلطة سلاطين السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي^(٣) . وقد جاء في نص الكتاب المرسل للديوان العزيز ببغداد بالانشاء الفاضلي ما يلي :-

« وكتاب الخادم الآن من البيرة بعدما قطع الفرات وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد ولا يلقي السمع وهو شهيد ، يظن ان ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده ولما تحقق الخادم ان المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر وخصمتهم خطوط الايدي المتمسكة ببعض الكوافر وعقدوا معهم عقد أشهده من هو حاضره ونقله الى من سمعه من هو ناظره ، وكان عقدهم احدى عشرة سنة والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار على ان تسلم ثغور المسلمين الى الكفار منها بانياس وشقير تيرون

(١) الكامل : ٤٨٣/١١ .

(٢) انظر ابو شامة ، الروضتين : ٣٣/٢ .

Grousset, op. cit., 11, P. 714.

(٣)

وحيس جلدك وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يشرجعونه من الخادم مساعدة الفرنج ، ولما تم لهم هذا العقد وحملوا الى الفرنج ذلك النقد ظنوا ان الحق يجادله الباطل فيدحضه ، وان يد الكفر تبسط الى الاسلام فتقبضه وان الخادم لا يمكنه ان يتوجه اليهم ، الا ان يكون للفرنج سلما ، ولا يستطيع ان يقسم العساكر فيجعل بازاء الفرنج قسما وبازائهم قسما ... وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفرنج من جانب ، ونظروا فيما يوصل المشاة الى الخادم ولم ينظروا للاسلام في العواقب ، فوصل المواصلة الى نصبيين مجدين ، وحرکوا الفرنج للخروج الى الشام متطرفين ... لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ... ولما قرب الخادم من الفرات وصل اليه صاحب حران ابن زين الدين على كوجك ... وكذلك صاحب سروج وصاحب البره وكل بيده مفاتيح بلده وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده ، وتوالت كتب امرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جبايات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات يرغبون الى الخادم في الانفاذ ويحثونه في المسير ... (١) .

وبذلك اوضح صلاح الدين للخليفة العباسي بأن الموصليين انما عزموا على اضعاف قواه بتعاونهم مع الصليبيين ، معتقدين بأن نهر الفرات يعصمهم من تقدمه الا ان آمالهم خابت ، حيث تمكن صلاح الدين من عبوره وامتلاك كل الحصون والقلاع المنتشرة هناك بعد ان كانت تلك القلاع والحصون نفسها تراسل صلاح الدين وتطلب الانضمام اليه للارهاق الاقتصادي الذي كانت تعانيه من جراء ظلم الامراء النوريين ولذلك لم يبق أمام صلاح الدين

(١) الروضتين : ٣١/٢ - ٣٢ .

الأموي الموصل فتقدم ليحاصرها •

حصار صلاح الدين الموصل الاول سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م

وجد صلاح الدين بأن الصراع مع الصليبيين لا يمكن دفعه بقواته المحدودة التي تحيط به خاصة وان عساكر مصر - في أغلب الاحيان - لا يستغنى عنها للدفاع عن مصر نفسها ، علما بأن الغرب النصراني كان لا يزال يقدم امداداته المتوالية للصليبيين في الشام ، وانه طالما بقي النوريون في حلب وسنجار والموصل تحت أمرة غيره فانهم - من دون شك - يشكلون قوة ثالثة لا يستأمن جانبها ، ولهذا فان النتيجة الحتمية التي يتوقع قيامها هي : محاولة صلاح الدين ضم الموصل وسنجار وحلب الى حكمه سواء بطريق الحرب مع النوريين ، أو باتباع سياسة سلمية يمكن معها جعل عساكر تلك البلاد تقف الى جانبه أثناء الازمات كالتوقيع على معاهدة جديدة يحترمها كلا الطرفين للتعاون العسكري من أجل مقاومة الغزاة •

كان صلاح الدين قد احتل كثيرا من المواقع النورية ، وخسرج الى حمص وحماة قاصدا ضم حلب الى ملكه ، غير ان مظفر الدين كوكبري أشار على صلاح الدين بالمسير نحو الموصل^(١) • لما كان عليه الموصليون من نكت اليهود ومكاتبه الصليبيين لاجل مقاومته^(٢) • فتقدم صلاح الدين اليها بعد ان كان قد ملك كلا من الرها والرقه ونصيبين بالامان - كما تبين ذلك

(١) يرى ابن الاثير بأن صلاح الدين لما ملك نصيبين جمع امراء وارباب مشورته واستشارهم بأي البلاد يبدأ : الموصل ام سنجار ، أم بجزيرة ابن عمر ، فأختلفت آراؤهم ، وأشار مظفر الدين على الموصل وأيده ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه الذي سعى لاحتلال صلاح الدين الموصل ليمتلكها هو عوضا عن اموال يقدمها لصلاح الدين • وسوف يتبين حقيقة هذا الرأي فيما بعد • انظر : الكامل : ٤٨٤:١١ - ٤٨٥ •

(٢) النوادر السلطانية : ٥٦ •

من قبل - وبعد ان كان قد اتضح له بأن تحقيق أهدافه لا يتم بدون نزاع مسلح مع الموصلين الذين رفضوا الانصياع لقراراته القاضية بانضمامهم اليه ، ورفضهم لاية محاولة جادة للصلح ، الا انسحابه الى مواقعه القديمة في مصر^(١) .

ولهذا صمم صلاح الدين على حصار الموصل ونزل عليها يوم الخميس ١١ رجب سنة ٥٧٨ هـ وظل محاصرا اياها قرابة خمسة وثلاثين يوما^(٢) . وكان قد استشار امرائه في كيفية حصار البلد ، ودار حول السور ، وعين لكل مقدم موضعا حوله يقاتل منه الموصلين ، فجعل تقي الدين في القسم الشرقي وأخاه تاج الملوك بوري عند باب العمادية ، وكان المتولي عن حفظ الموصل مجاهد الدين قايمار الذي راسل الديوان العزيز ببغداد وطلب شفاعتهم للتوسط لدى صلاح الدين في الكف عن حصار الموصل . وقد استجابت الخلافة العباسية لطلب الموصلين وارسلت الى صلاح الدين صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة ، فرحل عنها الى مدينة سنجار^(٣) .

وكان عز الدين مسعود - اتابك الموصل - قد سير القاضي بهاء الدين

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٠٩ .
(٢) استمر حصار الموصل مدة ٣٥ يوما ، ذلك لان صلاح الدين نزل عليها يوم ١١ رجب وغادرها الى سنجار يوم ١٦ شعبان ، فكان مجموع : ١٩ يوما من رجب و١٦ يوما من شعبان يساوي ٣٥ يوما انظر : النوادر السلطانية : ٥٧ ، الروضتين ٣: ٣٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/ ١٢٠/ اما اذا اخذنا بقول المنصور الايوبي بأن صلاح الدين نزل على حلب في رجب وعشرة ايام من شعبان ، فان مدة الحصار تكون ٢٩ يوما . انظر : مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١٠ .

(٣) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٠٧ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٣١٨ ؛ الروضتين ٢/ ٣٢-٣٣ ، مفرج الكروب : ٢/ ١٢٢ .

ابن شداد رسولا من عنده الى الديوان العزيز لأجل التوسط بينه وبين صلاح الدين . وقد وصف ابن شداد ذهابه الى بغداد لاداء المهمة فقال : « كنت - اذ ذاك - في الموصل ، فسيرت رسولا الى بغداد قبيل نزوله عليها بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، واتي بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى شيخ الشيوخ وكان في صحبته رسولا من جانبهم ، يأمرونه بالحديث معه »^(١) .

وقد دخل رسول الخليفة العباسي بين صلاح الدين وعزالدين وتحدث مع الطرفين حديث الصلح ، غير ان عزالدين طلب اعادة البلاد التي كانت تابعة لحكمه فأجاب صلاح الدين الى ذلك ، شريطة ان يسلموا مدينة حلب اليه ، فامتنع عزالدين عن ذلك ، ثم نزل صلاح الدين عن رأيه ، وطلب منهم الامتناع من انجاد عمادالدين صاحب حلب ضده ، فامتنع عزالدين بحجة ان بينه وبين أخيه عهود ومواثيق ، وانه لا يمكنه نكثها ، ولذلك لم يتوصل الجانبان الى حلول ايجابية ، وبقيت الرسل تردد بين الطرفين من دون نتيجة^(٢) .

كما أرسل عزالدين مسعود الى بلهوان بن ايلدكز (١١٧٢ - ١١٨٥م) - أتابك همذان - رسولا يستنجد به ضد صلاح الدين ، الا ان الاخير عرض عليه شروطا قاسية منعت عزالدين من التعاون معه . اضافة الى ان الجاندار رسول مظفر قزل ارسلان - اتابك اذربيجان - ورسلًا من شاء أرمن اتابك خلاط ، وصلت لتحقيق نفس الهدف ، الا انه لم ينتظم امر ولا تم صلح^(٣) . نظرا لان الموصلين - كما ذكر المنصور الايوبي - كانوا

(١) النوادر السلطانية : ٥٧ ؛ الروضتين : ٣٣/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٢٢/٢ .

(٢) الكامل : ٤٨٦/١١ ؛ مفرج الكروب : ١٢٢/٢ .

(٣) الكامل : ٤٨٧/١١ ؛ مفرج الكروب : ١٢٣/٢ .

يماطلون ويختالون في حديث الصلح ويطلبون مطالب كثيرة وأشياء متعددة • وكان شيخ الشيوخ رسول الخليفة العباسي - يتوهم بأن صلاح الدين هو الذي لا يؤثر الصلح ، فلما تبين لصلاح الدين منه ذلك عمد الى التنازل للموصلين الى ما طلبوه ارضاء لممثل بغداد • علما بان ممثلي صلاح الدين - القاضي الفاضل والفقير عيسى الهكاري - امتنعوا عن حضور جلسات التفاوض مع الموصلين لما طلتهم في حديث الصلح ، فاضطر ممثل بغداد الدخول الى الموصل للتأكد من حسن نواياهم فوجدهم متبكيين عن سلوك النهج وقالوا له بعد كلام طويل : « ان اراد صلاح الدين وفاقنا فليرحل عنا • ويرد بلادنا ونحن نخلي بينه وبين حلب ، ولا يطلب منا مساعدة ، لان لنا مع عماد الدين زنكي يمينا وعهدا ••••• وكان قد استقر مع الرسل انهم يسلمون الى السلطان حلب ويستعيدون منه البلاد فندموا على ما قدموه من التقرير ، وتبين له ما كان المواصله عليه من الخنث والمخادعة فانصرف شيخ الشيوخ من عندهم متوجها الى بغداد »^(١) • الا انهم لحقوا به معتذرين وطلبوا منه العودة الى صلاح الدين ، لاعادة حديث الصلح^(٢) • لان انسحاب ممثلي صلاح الدين ، وممثل بغداد من المفاوضات معناه فشل المفاوضات مع الموصلين ، وان الحرب آتية لا ريب فيها •

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٠٨-١٠٩ •

(٢) ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامى بأن المواصله جاؤا الى ممثل بغداد وتضرعوا اليه وتشفعوا وقالوا : « تعود وتعيد ما سمعته وتحكي من المعنى ما استعلمته فلعلك تأتي بالعلل بعد النهل ويرد بلفظك من عنف علينا وصعب الى المنهج للإسهل فرجع بغير ما رجا واستكشف كذبهم حجاب المجا ••• فلما اجتمع بالسلطان استغفى من الكلام واستوفى حديث ما سمعه ••• فقالوا له هذه اشهر شراف وميامين بقدمك طراف وقد عزمنا ان نرحل ونهب لوصولك الموصل » • انظر : جب ، صلاح الدين : ١١٤ •

وقد تحدث ابن الاثير عن حصار صلاح الدين الأول للموصل ، وكان في حديثه بعض الامور التي تستحق الدراسة ، خاصة وانه كان شاهداً عياناً ، وان روايته نقلت الى الكثير من المصادر والمراجع^(١) دون الاشارة الى مدى صحة تلك الرواية ، وعلاقة مؤرخها بالاحداث ، علماً بان ابن الاثير كان موصلياً البيئية والفكرة وكان في حصار الموصل الثاني سنة ٥٨١ هـ أحد المدافعين عن الموصل من داخل السور ضد صلاح الدين^(٢) . وقد ذكر ابن الاثير بأن صلاح الدين عندما تقدم لحصار الموصل انفرد مع أعيان دولته كالامير مظفر الدين وناصر الدين بن شيركوه واقتربوا من البلد للتحقيق في كيفية دخوله ، الا ان صلاح الدين لما رأى الموصل « رأى ما هاله وملاً صدره وصدر أصحابه ، فانه رأى بلداً عظيماً كبيراً ورأى السور والفضيل قد ملأ من الرجال ، وليس فيه شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين ، فلما رأى ذلك علم انه لا يقدر على أخذه ، وانه يعود خائباً ٠٠٠ » [وقال للامراء حوله] غررتما نبي واطمعتما نبي في غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل أخذاً بالاسم والهيئة التي حصلت لنا ، ومتى نازلناه ، وعدنا منه ينكسر ناموسنا ٠٠٠ وخرج اليه بعض العامة يوماً فقالوا منه ٠٠٠ [ولما أشير عليه بنصب المجانيق على البلد قال] مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ، وحتى ان نصبناه أخذوه ولو خرّبنا برجاً وبدنه من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير ؟ فألحّ بقي الدين

(٢) انظر مثلاً : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول : ٢١٨ - ٢١٩ ، الروضتين : ٣٣/٢ ، مفرج الكروب : ١٢٠/٢ - ١٢١ . علماً بأن ابن واصل نقل رواية ابن الاثير بالنص ما عدا اختلاف بسيط في نقله لكلمة « المداس » بدلا من كلمة « اللالكه » والمعنى واحد قارن مع ابن الاثير ، الكامل : ٤٨٤/١١ - ٤٨٧ .

(٣) انظر الكامل : ٥١٢/١١ .

وقال نجر بهم به ، فنصب منجيقا ، فنصب عليه من البلد تسعة مجانيق وخرج جماعة من العامة فأخذوه ، وجرى عنده قتال كثير ، فأخذ بعض العامة لالكه^(١) من رجليه فيها المسامير الكثيرة ، ورمى بها أميرا يقال له جاولي الاسدي مقدم الاسدية وكيرهم فأصاب صدره ... وأخذ الالكه وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال : قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا مثلها ، والقي الالكه وحلف انه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم ان صلاح الدين رحل من قرب البلد ، ونزل متأخرا ، خوفا من البيات ، فانه لقربه كان لا يأمن ذلك ... وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكر أصحابه فصار من الموصل اليها^(٢) .

ولو تفحصنا رواية ابن الاثير لوجدنا فيها ما يلي :

أولا :- صور ابن الاثير سبب تقدم صلاح الدين الى الموصل بأنه اشارة من مظفر الدين وناصر الدين الذي دفع صلاح الدين لامتلاك الموصل ليمنحها اياه عوضا عن أموال يدفعها اليه . علما بان صلاح الدين لم يتقدم لحصار الموصل باشارة احد ، أو لاسباب اقتصادية طمعا في أموال ناصر الدين - كما ادعى ابن الاثير - انما الذي دفعه لحصارها - ولحصار غيرها من المدن السابقة - سياسته التي نبعت من عقيدته التي كان يحملها ، والتي تمثلت بتحقيق شعار « الجهاد في سبيل الله » الذي تطلب جمع الكلمة وحرص القوى من أجل مقاومة الغزاة^(٣) . ولو كان صلاح الدين يهدف

(١) الالكه : هو المداس أو الحذاء ، واللالك لفظ فارسي والجمع (لوالك) واللالكي هو صانع الاحذية . انظر : مفرج الكروب : ١٢/٢ هامش ٤ .

(٢) الكامل : ٤٨٤/١١ - ٤٨٧ .

(٣) ذكرنا فيما سبق نصوص كثيرة تثبت ما جاء اعلاه تمثلت

بفتوحاته وغزواته الحصول على متاع الدنيا لاستولى على خزائن دمشق عندما فتحها • ثم لو كانت رغبته الحصول على الاموال لما منح قلعة آمد - بما حوت من آلات وأموال قدرت بثلاثة ملايين من الدنانير - لنورالدين محمد بن قرا أرسلان الارتقي دون ان يستلم منها شيئا رغم معارضة امرائه^(١) • اضافة الى ان صلاح الدين عندما فتح القدس سنة ٥٨٣ هـ سمح للصليبيين - ولرجال الدين خاصة - بنقل أموالهم ومجوهرات كنائسهم - بما فيها كنيسة القيامة - الى خارج البلد دون اعتراض^(٢) ، كما انه توفي ولم يتخلف في خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما ودنانرا • فكيف اذن يتهم من يترك أموال أعدائه دون ان يغتصبها ويتوفى ولم يترك الا حوالي بضعة دنانير ، بأنه كان يفتح المدن للحصول على مغنم اقتصادية ؟!

ثانيا : - يوضح ابن الاثير بأن الاسباب التي دفعت صلاح الدين الى الانسحاب من حصار الموصل بأنها كانت في قوة الموصليين وشجاعتهم التي منعت صلاح الدين وجنوده من التقرب من البلد أولا ، وانتصار العساكر

بالكتب المرسلة الى الديوان العزيز ببغداد • انظر مثلا : الروضتين : ٦٢/١ و ٤٨/٢ •

(١) انظر : الروضتين : ٣٩/٢ ؛ مفرج الكروب ١٣٦/٢ ؛ البداية والنهاية ٣١٣/١٢ •

(٢) كان في القدس بعد فتحها من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ بعض نساء ملوك الروم اللواتي يملكن الكثير من الاموال والجواهر النفيسة ، فسمح لهن صلاح الدين بالخروج من القدس ولم يأخذ من أموالهن شيئا • كذلك خرج من القدس البطريرك الكبير ومعه اموال البيع - منها قبة الصخرة وكنيسة القيامة - التي كانت عظيمة جدا بما حوت من مجوهرات دون ان يعترضه صلاح الدين • ف قيل له : خذ ما معه لتقوي به المسلمين ، فقال : لا اغدر به • ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير بدل الامان على النفس حسب ما جاء في شروط اتفاقية الصلح • انظر : الروضتين ٩٦/٢ ؛ مفرج الكروب ٢١٦/٢ •

الموصلية التي بسنجان على عساكر صلاح الدين ثانيا • فاضطر صلاح الدين الى ترك حصار الموصل والتوجه الى سنجار نجدة لاصحابه المهزومين هناك • واستقراء لكثير من المصادر تبين ان انسحاب صلاح الدين من حصار الموصل تمثل بالاسباب التالية :-

أولاً - انسحب صلاح الدين من حصار الموصل ، لانه لم يحب اراقة الدماء بين المسلمين في شهر رجب ، وهو أحد الاشهر الحرم في الاسلام • وقد تبين من قبل كيف ان صلاح الدين اوقف القتال مع النوريين سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م عند قرون حماة في شهر رمضان ، احتراماً لذلك الشهر • وكذلك عند محاصرة صلاح الدين لمدينة سنجار سنة ٥٧٨هـ والتي حاصرها حصاراً شديداً ، حتى انهدمت ثلثة من سورها ، ولما دخل شهر رمضان كف عن القتال حرمة للشهر حتى سلمت المدينة بالإمان^(١) ومما يدل على ان صلاح الدين كان يحترم الاشهر الحرم ولا يقاتل فيها ما قاله لرسول بغداد عند كلامه في حديث الصلح مع الموصلية : « هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونهب لوصولك الموصل »^(٢) •

ثانياً - ايقن صلاح الدين ان استسلام الموصل - وهي البلد الكبير الواسع - لا يتأتى الا عن طريق حصارها الشديد والسيطرة على القلاع والحصون المجاورة لها ، والتي تموتها بما تحتاج اليه ، ولذلك فضل ملك سنجار والعودة الى حصار الموصل ثانية^(٣) •

ثالثاً - ان صلاح الدين ترك حصار الموصل ولم يفتحها لعدم تقليد الخليفة العباسي ، مقاليد الموصل اليه • ولو ان بغداد منحتة التقليد لفتحها

(١) انظر : الروضتين : ٣٣/٢ •

(٢) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١١٠ •

(٣) النوادر السلطانية : ٥٧ ؛ الروضتين : ٣٣/٢ •

بكل يسر استادا الى ما ذكره صلاح الدين في الكتاب الذي أرسله الخليفة العباسي للتعريف بفتح آمد سنة ٥٧٩هـ - وهو بالإنشاء الفاضلي - « ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها ولو بدرجة ادلجها وأخذها ولو بحصاة نبذها »^(١) .

رابعا - يرى المنصور - وهو ابن الملك المظفر ، ابن اخي صلاح الدين وقد كان معاصرا لاحداث عد حصار صلاح الدين للموصل هذا - بأن صلاح الدين انسحب من حصار الموصل لان الاخبار وصلت اليه بانتصار الملك المظفر على عسكر الموصل عند حدود سنجار فترك صلاح الدين حصار الموصل لمساندة العسكر الايوبي هناك وتكملة فتح سنجار والعودة الى حصار الموصل ثانية^(٢) .

فتح صلاح الدين سنجار وتبعيتها له :

تبين مما سبق ان صلاح الدين انسحب من حصار الموصل لعوامل عدة اجتمعت في عدم ارسال خليفة بغداد تقليد المدينة اليه ، وانتصار عسكره على عسكر الموصلين عند حدود سنجار ، ووساعة المدينة وحصاتها ، فرحل عن الموصل الى سنجار في ١٦ شعبان ٥٧٨هـ / ١٥ ديسمبر ١١٨٢م . وفي أثناء طريقه اليها وجد عسكرا من الموصل سائرا اليها ، فأخذ خيلهم وعددهم وردداهم الى الموصل رجالة^(٣) .

ويتبين من موقف صلاح الدين تجاه عسكر الموصل شيء من سياسته التي هدف من ورائها التخلص من اطعام الاسرى ، والاستفادة من خيولهم

(١) الروضتين : ٤١/٢ .

(٢) ابن شاهنشاه ، مضممار الحقائق : ١١٠ .

(٣) الكامل : ٤٨٨/١١ ؛ الروضتين : ٣٣/٢ ؛ مفرج الكروب :

١٢٣/٢ .

لمصلحة عساكره • ثم لكسب ودّ الاسرى وود أهلهم في بلدهم ، أن منّ عليهم باطلاقهم احرارا دون ان يصيبهم منه أذى اضافة الى انه لم تكن لصالح الدين معسكرات قريبة لايواء الاسرى فيها •

وقد امتنع حاكم سنجار (شرف الدين أمير اميران هندو) - أخو عزالدين مسعود أتابك الموصل - من تسليم قلعة سنجار الى صلاح الدين بالامان ، فاضطر صلاح الدين لمحاصرتها والتضييق عليها ، حتى تمكن من دخولها بعد ان ملك أحد أبراجها ، فاضطر شرف الدين الى طلب الامان لنفسه ولأمواله ولعسكره في ٢ رمضان سنة ٥٧٨ ، فأمنه صلاح الدين وخرج شرف الدين من البلد الى الموصل محفوظا مكرما ، ودخلها صلاح الدين ورتب أحوالها ، وأمر بعمارتها وولائها سعدالدين مسعود بن أنر^(١) • وقد استبشر أعيان سنجار بقدوم صلاح الدين اليهم وخرجوا للقاءه ، فقابلهم صلاح الدين بالاكرام والاحسان واسقط ما كان في المدينة من مكوس وضرائب^(٢) • وكان رؤساء سنجار من بني يعقوب فترك الرياسة فيهم ، وولى القضاء منهم نظام الدين بن المظفر محمد بن يعقوب^(٣) •

وبعد ان دخل صلاح الدين سنجار ، ورتب امورها رحل منها الى نصيبين وأقام بها لشدة البرد • وقد شكاه أهاليها من معاملة أميرهم القاسية أبو الهيجاء السمين فعزله واستصحبه معه الى دارا التي كانت تابعة للامير الارمني صمصام الدين بهرام الذي تلقى صلاح الدين بالاكرام • ومن نصيبين خرج صلاح الدين الى حرّان للاستراحة فيها ، بعد ان ودّع رسل

(١) الكامل : ٤٨٨/١١ ، الروضتين : ٣٣/٢ ، مفرج الكروب :

١٢٣/٢ ، مضمار الحقائق : ١١٠-١١١ ، زبدة الحلب : ٥٩/٣ •

(٢) مضمار الحقائق : ١١١ •

(٣) الروضتين : ٣٣/٢ •

الخلافة العباسي^(١) •

اما موقف عز الدين مسعود - اتابك الموصل - من ملك صلاح الدين لسنجار ، فانه راسل شاه ارمن^(٢) سقمان ظهير الدين اتابك اخلاط ، يستجده ويستنصره على صلاح الدين^(٣) • فأجابه الى طلبه وانفذ الى صلاح الدين رسولا من عنده يشفع في الموصل وسنجار التي كانت آتخذ لم تفتح بعد • غير ان صلاح الدين سوف في الجواب ، فلما رأى بكتمر جواب صلاح الدين ، اخرج له رسالة ثانية فيها الوعيد والتهديد ان لم يرحل عن البلد وعاد الى شاه ارمن فأخبره الخبر^(٤) • فجهز بقواته العسكرية وخرج من اخلاط التي كان مخيما بظاهرها الى ماردين ، وحضر معه دولة شاه - اتابك بدليس وارزن - والتقى معهم عز الدين مسعود بقليل من العسكر والاتقال^(٥) • واجتمعت عساكرهم على حرزم^(٦) للتوجه لقتال صلاح الدين الذي كان آتخذ في حران قد فرق العساكر واخذ الى الراحة

(١) الروضتين : ٣٣/٢ ، مفرج الكروب : ١٢٤/٢ ، زبدة الحلب : ٥٩/٣ •

(٢) كان شاه ارمن خال صاحب ماردين ايلغازي بن البي بن تمرناش • علما بأن صاحب ماردين هو ابن خال عز الدين مسعود اتابك الموصل • وهذا يوضح لنا سبب تعاون شاه ارمن لا اتابك الموصل عز الدين مسعود • انظر : العماد الاصفهاني في البرق الشامى (تلخيص ابو شامة) ، الروضتين ٣٨/٢ •

(٣) النوادر السلطانية : ٥٨ ، مفرج الكروب : ١٣٢/٢ •

(٤) مفرج الكروب : ١٣٣/٢ •

(٥) النوادر السلطانية : ٥٨ ، الروضتين : ٣٨/٢ في مفرج الكروب : ١٣٣/٢ •

(٦) حرزم : بلدة صغيرة في واد ذات نهر جاد وبساتين بين ماردين ودينيسر من اعمال الجزيرة ، وأكثر اهلها من ارمن النصارى ، انظر : النوادر السلطانية ٥٨ هامش ١ ، مفرج الكروب : ١٣٣/٢ هامش ٥ •

كما تبين ذلك من قبل •

وفي حرّان أعاد صلاح الدين جمع العساكر القريبة منه ، وارسل الى تقي الدين - أمير حماة - بطلب النجدة فأمدّه ببعض العساكر • وخرج بما أصبح عنده منها الى رأس العين فلما سمع به أعداؤه تفرقوا ، وعاد كل منهم خائبا الى بلاده من دون ان يحققوا أي مطلب^(١) ، بينما توجه صلاح الدين الى آمد وافتتحها •

فتح قلعة آمد وأهميتها في انضمام الارائقة الى صلاح الدين :

في يوم الاربعاء ١٧ ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ / نيسان ١١٨٣م توجه صلاح الدين الى قلعة آمد (ديار بكر حديثا) وكان المتولي لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان ، بينما كان اتابكها محمود بن ايكليدي^(٢) ، وهو شيخ كبير كان الملك له فيها من جهة السلاطين السلاجقة - ليس له من الملك سوى الاسم^(٣) •

واستمر صلاح الدين في حصار آمد حتى دخلت سنة ٥٧٩هـ ، لان القلعة كانت غاية في الحصانة والمتانة ، ويضرب بسورها المثل ، الا ان سوء تصرف ابن نيسان اضعف من كان فيها ودفعهم الى التهاون في القتال • وقد

(١) النوادر السلطانية : ٥٨ ؛ الروضتين : ٣٨/٢ ؛ مفرج الكروب ١٣٣:٢-١٣٤ •

(٢) محمود بن ايكليدي : هو جمال الدين شمس الملوك بن ايكليدي الاينالي حكم قلعة آمد من سنة ٥٣٦ هـ الى سنة ٥٧٩ هـ حيث انتقلت القلعة من يده الى حكم صلاح الدين • انظر : زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) ٢١١/١ •

(٣) يقول ابن واصل : كان محمود بن ايكليدي محكوم عليه في قبضة مسعود بن نيسان الذي كان يظهر للرسول التي تصل محمود على انه نائبه ، وكان يتصرف تحت امره ونهيه ، بينما كان حقيقة الامر بيده • مفرج الكروب ١٣٤/٢ •

اتهمه ابن الاثير بأنه « لم يعط الناس من الذخائر شيئاً ، ولا فرق فيهم ديناً ولا قوتاً ، وقال لاهل البلد : قاتلوا عن نفوسكم ، فقال بعض أصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم ... وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وملكتهم وتضييقهم عليهم في مكاسبهم فالتاس كارهون لها ، محيون لانقراضها » (١) .

وقد استغل صلاح الدين الاضطرابات الداخلية في البلد ، فعمد الى وسيلة من وسائل الحرب النفسية ، حيث امر بكتابة رقائع كثيرة علفت بالسهام ، كتب عليها - كما ذكر ابن أبي طيء وابن الاثير - ابراق وارعاد ووعد وايعاد باستأصال شأفتهم ان داموا بالقتال ، والاحسان اليهم ، وازالة ما كان عليهم من الكلف والضرائب ان اعتزلوا القتال فدفعتهم تلك الرقاع الى التهاون في الدفاع عن القلعة ، خاصة وان جند صلاح الدين احدثوا في السور نقبا ، فدفعت تلك العوامل جميعا الى ان يرسل ابن نيسان نساءه الى القاضي الفاضل ليتوسط له لدى صلاح الدين بطلب الامان لنفسه ولأمواله ، فأجيب الى طلبه ، ووافق صلاح الدين على منحه ثلاثة أيام ينقل خلالها أمواله الى خارج البلد (٢) .

وفي ١٤ محرم سنة ٥٧٩هـ / ٦-٥-١١٨٣م تسلم صلاح الدين آمد (٣)

(١) الكامل : ٤٩٣/١١ ، وقد نقل ابن واصل نفس الرواية التي ذكرها ابن الاثير انظر : مفرج الكروب : ١٣٥/٢ .

(٢) الكامل : ٤٩٤/١١ ، الروضتين : ٣٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٣٥/٢ ؛ البداية والنهاية : ٣١٣/١٢ .

(٣) الروضتين ٣٩/٢ ، بينما يرى العماد الاصفهاني في البرق الشامي وابن واصل بأن صلاح الدين تسلم آمد في العشر الاول من محرم انظر : الروضتين : ٣٩:٢ اما ابن شداد فيذكر بأن صلاح الدين قاتل آمد وأخذها في ثمانية ايام وذلك في اوائل المحرم ، النوادر السلطانية : ٥٨ .

بعد ان نصب ابن نيسان خيمه ظاهر البلد لينقل اليها أمواله ، غير ان أصحابه لم يعينوه بصدق وسرقوا تقريبا نصف ما كان يخرج به ، فاضطر صلاح الدين الى ارسال رجال من عنده ليساعدوه حتى انقضت أيامه الثلاثة فمنع من نقل ما تبقى له . واستلم البلد بما فيه من الغلال والسلاح وآلات الحصار وكانت تحوى الشيء الكثير^(١) . الا ان صلاح الدين لم يأخذ منها شيئا ، ووهبها لنورالدين محمد بن قرا أرسلان ابن سقمان بن أرتق - أتابك حصن كيفا - (*) لانه كان قد وعده بها - كما تبين ذلك من قبل - رغم امتناع بعض أصحاب صلاح الدين وقالوا له : « ان هذه المدينة فيها من

(١) هناك وصفا طويلا مفصلا في انواع الآلات والاموال التي وجدت في قلعة آمد تجده في ابي شامة نقلا عن ابي طيء . كذلك يوصف ابن كثير وابن واصل تلك الامتعة والآلات ومما جاء في الوصف : انه كان في البلد من الدخائر ما يساوي قيمته ثلاثة ملايين دينار ، وبرجا مملوء بنصول الشباب او آخر فيه مائة الف شمعة ، ووجد فيه خزانة كتب فيها مليون ومائة واربعين الف مجلد فوهبها صلاح الدين كلها للقاضي الفاضل الذي انتهى منها حمل سبعين حمارا وترك الباقي في البلد . انظر : الروضتين : ٣٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٣٦/٢ ؛ البداية والنهاية : ٣١٣/١٢ .

(*) كان قطب الدين ايلغازي (ت : ٥٨٠هـ) والامراء الارائقة الاخرون هم الذين رتقوا فتوق الاسلام اولا وكانوا يتولون بيت المقدس وحمايته من الصليبيين قبل الفاطميين ، حتى استولى عليه الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ . بينما بقيت ديار بكر ومن والاها وحلب وأعمالها بحماية الارائقة وقد توارثوا الامارة في ذلك الاقليسم الى أن انتهى الى قطب الدين ايلغازي أعمال ميفارقين وماردين ، ولما توفي بقيت بيد ابنه البالغ من العمر عشر سنين ، وانتهى الى ابن عمه نورالدين بن محمد قرا أرسلان حصن كيفا وخرتبته ، ثم أضاف اليه صلاح الدين آمد . وقد كان قطب الدين اولا الى جانب الموصليين ، ثم اذعن لصلاح الدين ودخل في طاعته انظر : الروضتين : ٦٠/٢ .

الذخائر ما يزيد على الف الف دينار ، فلو أخذت ذلك واعطيته جندك واصحابك ، وسلمت اليه البلد فارغا لكان راضيا ... فامتنع ، من ذلك وقال : ما كنت لاعطيه الاصل وابخل بالفرع . »^(١) وقد علق المستشرق جب على هذا الكرم النبيل من صلاح الدين لنورالدين الارتقي فقال : « لتبت مرة والى الابد بطلان جميع التهم التي الصقها به أعداؤه عن الاطماع الانانية »^(٢) .

ولو تساؤلنا قائلين : اذا كان هدف صلاح الدين من فتح القلاع والمدن الاسلامية ليفيد بما فيها من عددٍ وعدة في مقاومة الصليبيين ، فلماذا اذن سلم قلعة آمد - وهي القلعة الحصينة الغنية - الى الاراتقة لمجرد وعد قطعه على نفسه ؟ الحقيقة ان صلاح الدين لم يكن من السذاجة بمكان بحيث يسلم مثل تلك القلعة - وقد كلفته الكثير من الجهد والوقت - لحكم غيره من دون ان يحقق هدفه الرئيس من فتح الحصون والمدن الاسلامية . لان صلاح الدين لم يسلم آمد لنورالدين الارتقي الا بعد ان حلف له الاخير ان يظهر العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا له مع معاداة الاعداء ومصافات الاصدقاء في كل الاوقات ، وان يكون الى جانبه عند الازمات^(٣) . وبذلك يكون تسليم صلاح الدين قلعة آمد لنورالدين مجرد توليته الامارة عليها ، كسائر المدن والقلاع الاسلامية الاخرى التي بعد ان يدخلها يولي عليها اميرا من عنده . ولقد كان الامير المولى في هذه المرة ارتقيا قد كسب ثقة قائده الاعلى لالتقاء هدفهما ، ولذلك فمنح آمد

(١) مفرج الكروب : ١٣٦/٢ ؛ انظر ابو شامة : ٣٩/٢ ؛ عماد الدين ، امارة بني ارتق : ١٠٥-١٠٦ .

(٢) صلاح الدين : ١٣٧ .

(٣) العماد الاصفهاني في البرق الشامى ، انظر الروضتين ٤٢/٢ -

لنور الدين لا يعني انفصاله بها ، انما تبعيته لصالح الدين •

وقد امتدح الشعراء صلاح الدين بعد ملكه آمد ، وعدوا دخوله اليها من الانتصارات العظيمة التي اعادت لمنطقة الجزيرة حيويتها ونشاطها • كالقاضي السعيد ابن سناء الملك^(١) • الذي وصف أرض الجزيرة بانها لم تظفر من قبل برئيس فطن وانه لم يرأسها فيما سبق الاخصي أو صبي ، فلما جاء صلاح الدين انصلحت أمورها لاستخدامه العدل وقضائه على المفاسد ، ثم امتدحه على هبته آمد لنور الدين ، وعدّه من المفاخر الجليلة ، لانه ردّ للمسلوب حقوقه^(٢) •

ولقد كان لفتح آمد اهمية كبيرة ، فقد دفعت باقي القلاع القريبة منها

(١) هو القاضي السعيد ابو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ، أكبر شعراء مصر في العصر الايوبي ، ولد في حدود سنة ٥٥٠ هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ . وكان لوالده علاقة طيبة بوزير صلاح الدين القاضي الفاضل ، حتى قيل بأنه كان يشرف على شؤون القاضي الفاضل اثناء تغيبه في الشام وللشاعر قصائد كثيرة ، وديوان موشحات انظر : ابن خلكان ، الوفيات : ١١٢/٥ - ١١٦ ؛ مفرج الكروب : ١٣٧/٢ هامش رقم (٣) •

(٢) جاء في بعض القصيدة التي ذكرها ابن سناء الملك ما يلي:-

ارض الجزيرة لم تظفر ممالكها	بمالك فطن او سائس درب
ممالك لم يدبرها مدبرها	الا برأي خصي او بعقل صبي
حتى اتاها صلاح الدين فأصلحت	بعد الفساد ، كماصلحت عن الوصب

انظر : مفرج الكروب : ١٣٧/٢ - ١٣٨ ، وفي الروضتين نجد قصيدة طويلة ، من ضمنها الابيات الشعرية السابقة ، غير ان ابو شامة يرى بأن القصيدة قيلت بعد فتح صلاح الدين حلب سنة ٥٧٩ هـ وليس آمد . أنظر الروضتين ٤٣:٢ - ٤٤ • واعتقد ان الشاعر مدح بها صلاح الدين بعد فتح حلب وعرج الى ذكر ماثر صلاح الدين في آمد واهميتها لان آمد وحلب ملكهما صلاح الدين بنفس السنة •

أو التابعة للارائقة*) بالانضمام الى سلطان صلاح الدين • امثال صاحب قلعة ميادين وماردين والدين ارسلوا برسوليهما الى صلاح الدين يطلبان الامان ويقدمون فروض الطاعة والولاء لسلطانهم • وقد استقبلهم صلاح الدين بالقبول وردّ ذلك رسول منهم بالافرام^(١) ، وبذلك تكون قوة الارائقة في المنطقة - كقوة مستقلة - قد انتهت ، واصبحوا داخلين في الوحدة الجديدة التي يرأسها صلاح الدين • وقد اخلص الارائقة للعهد وبرهنوا - كما سنجد فيما بعد أكثر من مرة - على صدقهم بانضمامهم للوحدة نظرا لمشاركتهم الحروب الكثيرة التي قادها صلاح الدين ضد الصليبيين •

وبعد ان ملك صلاح الدين آمد ورتب أمورها ، عبر الفرات عائدا الى الشام فاصدا حلب وولاياتها التي كانت بيد الامير النوري عمادالدين زنكي - أخو عزالدين مسعود اتابك الموصل - فنزل على تل خالد - من أعمال حلب - فحصرها ورمها بالمنجنيق حتى طلب أهلها الامان فأمنهم وتسلم القلعة في ١٢ محرم سنة ٥٧٩هـ^(٢) • ثم سار منها الى عين تاب ، وكانت بيد

(*) الارائقة : ينتمي الارائقة الى أرتق بن اكسك ، الملقب بظهير الدين ، الى قبيلة الدقر Doger التركمانية ، التي تنتمي الى قبيلة الغز التي انتظمت في صفوف السلاجقة الذين منحوهم اقطاعات خاصة للعمل الذاتي داخل نطاق حدود الدولة السلجوقية • وكان أرتق السابق الذكر من ممالك السلطان ملكشاه • وقد حكم الارائقة من ٤٦٥-٥٢١ هـ / ١٠٧٢-١١٢٧م في منطقة ديار بكر ، وكانت اهم معاقلهم ماردين وكيفا وحسن آمد • وسقطت معاقلهم الواحدة تلو الاخرى على يد زنكي - انظر : عمادالدين خليل ، امارة بني ارتق (وهي رسالة معدة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس باشراف الدكتور حسن حبشي (القاهرة، ١٩٦٨) : ٣٢-٣١ •

Ency of Islam (Art. Artukids), Vol, 1, PP. 662-667.

- (١) الروضتين : ٤١:٢-٤٢ : جب صلاح الدين : ١٣٨ •
 (٢) الكامل : ٤٩٥/١١ : النوادر السلطانية : ٥ : الروضتين : ٤٢/٢ : مفرج الكروب : ١٣٩/٢ : تاريخ الازمنة : ٨٥ •

الامير ناصر الدين محمد بن خمار تكين الذي بادر فور وصول صلاح الدين اليه بتقديم الطاعة والولاء له وطلب منه ان يبقيه على امانة الحصن فوافق صلاح الدين • وتقدم من عين تاب الى حصار حلب^(١) •

« فتح صلاح الدين حلب وتمايم الوحدة بين مصر والشام »

بعد ان تسلم صلاح الدين تل خالد وعين تاب - من أعمال حلب - تقدم لحصار حلب^(٢) • ونزل عليها في ٢٦ محرم سنة ٥٧٥هـ^(٣) • الا انه

(١) نفس المصادر والامكنة السابقة ، ثم أنظر ايضا : السلوك : ٨١/١ ؛ تاريخ ابن خلدون ٧٩:٥ ؛ المختصر في أخبار البشر : ٨٩/٥ •
(٢) يقول ابن ابي طي : « بأن كثيرا من الشعراء كانوا يحرضون صلاح الدين على فتح حلب منهم ابو الفضل بن حميد الحلبي وقد جاء في قصيدته :

يا ابن ايوب لا برحت مدى الدهر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآك ولهي وله الصب ريع بالهجيران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة طويلة دعى فيها صلاح الدين الى فتح حلب بعد ان وصفها « بالحسنة أم القرى » فقال :
ايه صلاح الدين شد ازرها واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المتعة من قبابها وبابها المغلق في وجه الامم
الروضتين ٤٤:٢ •

والحقيقة ان هذه الابيات الشعرية لم تكن هي الدافع لفتح حلب، لان ذلك يخالف الهدف الرئيسي الذي تمثل بقول صلاح الدين المرسل الى بغداد بالانشاء الفاضلي والذي جاء فيه : « تسلمنا مدينة حلب ... وسرنا انها انجلت والكافر المحارب والمسلم هو المسالم ، واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو » • الروضتين : ٤٣/٢ •

(٣) لم تحدد المصادر التاريخية بالضبط اليوم الذي نزل فيه صلاح الدين لحصار حلب • فابن الاثير يروى بأنه نزل عليها في المحرم من السنة ، وابوشامة يذكر في ٢٦ محرم ، بينما ذكر المقرئ في بأن صلاح الدين نزل عليها في اوائل المحرم • انظر : الكامل : ٤٩٦/١١ ؛ الروضتين : ٤٢/٢ ؛ السلوك : ٨١/١ •

لم يتقدم لقتالها مباشرة حيث نزل بالميدان الأخضر وأقام به عدة أيام ، ثم انتقل الى جبل جوشن ونزل باعلاه ، واخذ يظهر للحليين بأنه ينوي ان يتدّير وانه يبني مساكن له ولاصحابه وعساكره ، ليدفع الحليين الى الاستسلام من دون قتال ، لانه كان لا يرغب باراقة دماء المسلمين ، وكان ينهى عن القتال ويقول : انما مقصودنا البلد ، ولا حاجة بقتل أحد من المسلمين ، الا ان بعض الشباب من العسكر والجهال كانوا يتقدمون الى حلب ويقاتلون عليها^(١) . وفي احدى الاصطدامات مع الحليين جرح تاج الملوك بوري^(*) .

وكان اتابك حلب - عمادالدين زنكي - ومن معه من العساكر النورية يجدون في الحفاظ على البلد ، وكان قد أخذ بعض رهائن الحليين ، واصعد جماعة من أولادهم وأقاربهم الى القلعة خوفا من تسليمهم البلد الى صلاح الدين^(٢) . ولما طال حصار البلد كثرت المصروفات اليومية المنفقة على العساكر في حفظ البلد ، والتي قدرت بحوالي عشرة آلاف دينار يوميا^(٣) ،

(١) الكامل ٤٩٦:١١ ؛ ابن شاهنشاه ، مضممار الحقائق : ١٤١ ؛
الاصفهانى تلخيص ابو شامة ، الروضتين ٤٢/٢ ؛ مفرج الكروب :
٤١/٢ ؛ السلوك ٨١/١ . زبدة الحلب ٦٤:٣-٦٥ ؛ مرآة الزمان ق ١ :
٢٧٥/٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥٧٩/٥ ؛ المختصر في اخبار البشر : ٨٩/٥ ؛
الغزي ، نهر الذهب ١٠٣/٣ .

(*) تاج الملوك : هو اخو صلاح الدين الايوبي ، وبوري كلمة تركية
معناها الذئب . ولد سنة ٥٥٦ هـ وتوفي سنة ٥٧٩ هـ في حلب اثر الجرح
الذي أصابه عند محاولته اقتحام اسوارها . وكان صلاح الدين يحبه
كثيرا . وحزن لفقده مدة ثلاثة ايام . انظر : الكامل ٤٩٨/١١ ؛
الروضتين ٤٢/٢-٤٣ ؛ وفكات الاعيان : ٢٦١-٢٦٢ .
(٢) زبدة الحلب : ٦٤/٣ .

(٣) يقول المنصور ان عمادالدين نظر بعواقب الامور نظرا لطول
حصار حلب وكان قد «وجد عليه في كل شهر ما يصرفه على الاجناد ثلاثين

دُفعت عماد الدين الى التهاون في حفظ البلد ، والى الشحّة في صرف الاموال حتى ان بعض الاجناد جاء مرة يطلب بعض الاموال لينفقها في الدفاع عن حلب فاعتذر اليه عماد الدين بقلة الاموال فقيل له : « من يريد ان يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نساءه »^(١) . فاضطر الى اخراج بعض أواني الذهب والفضة وانفقها على الاجناد^(٢) .

غير ان عماد الدين لما رأى ان الحصار طال امده ، وانه لا قبل له بصلاح الدين ، وان أمواله لا بد نافذة ، اتفق مع الامير حسام الدين طمان على عقد الصلح مع صلاح الدين وتسليم البلد اليه . وكان حسام الدين يخرج سرا للاتفاق مع صلاح الدين على الشروط الخاصة بتسليم البلد اليه . وكانت هذه الشروط تقضي ان يتسلم صلاح الدين حلب من عماد الدين ، ويسلمه عوضا عنها سنجار والخابور ونصيبين وسروج ، وان تكون الرقة لحسام الدين طمان ، وان يباشر عماد الدين الى خدمة صلاح الدين متى دعه^(٣) .

ويروى ابن الاثير ان الحلبيين والعساكر التي كانت بحلب لا علم لها بما كان يدور بين صلاح الدين وعماد الدين حتى صعدت أعلام صلاح الدين على القلعة فاندeshوا لذلك الفعل^(٤) . والواقع ان ابن الاثير بالغ فما

الف دينار» ولو قسمت هذه الكمية من المصروفات على عدد ايام الشهر لخرجت عشرة الاف ديناراً يومياً مصروف عماد الدين على الدفاع عن حلب اثناء حصار صلاح الدين لها . انظر : مضممار الحقائق وسر الخلائق : ١٤٢ .

(١) الكامل : ٤٩٦/١١ ، مفرج الكروب : ١٤٢/٢ .

(٢) زبدة الحلب : ٦٥/٣ .

(٣) الكامل : ٤٩٦/١١ و ٤٩٧ ، مفرج الكروب : ١٤٢/٢ ، زبدة

الحلب ٦٦/٣ ، اريخ ابن خلدون ٥٧٩/٥ .

(٤) بالغ ابن الاثير بتصوير موقف الحلبيين من تسليم عماد الدين

نسبه للحليين لانه قصد تشويه العلاقة الحقيقية التي كانت بينهم وبين صلاح الدين والتي تمثلت بميلهم اليه حتى ان عمادالدين خافهم ان يسلموا البلد الى صلاح الدين ، فأخذ بعضا من رهائنهم وأطفالهم واحتجزهم في القلعة كما تبين ذلك من قبل . كما ان صلاح الدين لما تسلم البلد خرجت العساكر الحلية الى خدمته ، كما تقدم مقدموا حلب الى تقديم الطاعة له ، ولو كان في قلوبهم شيء ما قصده ابن الاثير لما نزلوا الى خدمته وقدّموا فروض الطاعة بمثل تلك السرعة ! اذ ان الحليين لما علموا بملك صلاح الدين البلد انفذوا عنهم اليه عزالدين جورديك وزين الدين بلك ، فمكثوا عنده الى الليل ، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد فحلف لهم . وذلك في ١٧ صفر سنة ٥٧٩ هـ . ثم دخل صلاح الدين البلد فخرجت العساكر الحلية الى خدمته بالميدان الاخضر فتلقاهم بالاكرام وخلع عليهم وطيب قلوبهم^(١) . كما عمل عمادالدين وليمة جيدة لصلاح الدين احتفاءً بقدومه للبلد وتسلمه اياها^(٢) .

البلد الى صلاح الدين وذكر بأنهم عجبوا من ذلك التسليم وأسقط بأيديهم ، وانهم قبحوا فعله واسمعوه مكروها ومن ذلك : انت لا تصلح للملك ، وانما لغسل الثياب ، الكامل : ٤٩٧/١١ ، نقل عن الكامل ابن واصل . انظر : مفرج الكروب ١٤٢/٢ واصاف ابن الصديم الى تلك المبالغات قوله : ان العامة بحلب عملوا أشعارا كانوا ينشدونها على عماد الدين للاستهزاء بها :

احباب قلبي لا تلوموني هذا « عماد الدين » مجنون
قايض بسنجار قلعة حلب وزاده المولى نصيبين

زبدة الحلب : ٦٨/٣ .

- (١) النوادر السلطانية : ٥٩ ؛ الكامل : ٤٩٧/١١-٤٩٨ ؛ مفرج الكروب : ١٤٢/٢-١٤٣ ؛ البداية والنهاية : ٣١٣/١٢-٣١٤ .
(٢) قيل أنه في اثناء تلبية صلاح الدين لدعوة عمادالدين جاءه من

وفي يوم الاثنين ٢٧ صفر من السنة صعد صلاح الدين قلعة حلب من باب الجبل وكان يسير ويقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع من تشاء وتدلل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير الآية^(١) . وعندما سئل عن أهمية فتحه لحلب قال : « والله ما سررت بفتح مدينة كسروري لفتح هذه المدينة ، والآن تبنت انني املك البلاد وعلمت ان ملكي قد استقر »^(٢) . وللتدليل على صحة مدعاه نعت نفسه بسلطان بلاد المشرق جميعا Orientalium Rexomninm regum كما جاء في الكتاب الذي أرسله الى البابا اليوسوس الثالث سنة ١١٨٣م بشأن بعض الاسرى من المسلمين الذين كانوا بيد الصليبيين^(٣) .

وكان لدخول صلاح الدين حلب صدى بالغ الاثر في نفوس أصحابه وأعدائه فقد تقدم اليه الشعراء بالمدح والثناء^(٤) . كما بشره بعضهم بفتح

اخبره بوفاة اخيه تاج الملوك بوري ، غير ان صلاح الدين لم ينهض من الدعوة ، وبقي جالسا وسط الحاضرين حتى انتهاء الدعوة وانصراف المدعويين ، كي لا يكدر عليهم مجلسهم وأمر بأن يجهز سرا واحتمل الحزن وحده . وبذلك اثبت صلاح الدين خلقا عظيما وصبرا جميلا . انظر : نفس المصادر والامكنة السابقة .

(١) آل عمران : ٢٦/٣ . انظر : عبد الباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المهرست لالفاظ القرآن الكريم (القاهرة ١٣٦٤ هـ) : ٦٧٣ .

(٢) ابن ابي طي ، تلخيص ابو شامة ، الروضتين : ٢/٤٥ / الرواية ضعيفة لان ابن ابي طي كان مؤرخا شيعيا وقد تأثر بعقيدته .

Lanepool, Saladin, P. 174.

(٣)

(٤) من الشعراء الذين تقدموا الى صلاح الدين بالمدح والثناء لفتحته مدينة حلب : يوسف البراعي ، سعيد بن محمد الحريري ، وابو طي النجار الذي مدح مدينة حلب فقط ، وابن سناء الملك والعماد الاصفهاني والمجد بن جهيل . ومن جملة الابيات الشعرية قول ابن سناء الملك السابق الذكر :

القدس^(١) • وأصبح صلاح الدين أقوى سلطان في العالم الاسلامي في

بدولة الترك عزت ملة العرب	وبأبن ايوب ذلت شيعة الضلبي
وفي زمان ابن ايوب غدت حلب	من ارض مصر، وعادت مصر من حلب
ولا بن ايوب دانت كل مملكة	بالصفح، والصلح، او بالحرب والحرب
مظفر النصر، منعوت بهمته	الى العزائم، مدلول على الغلب

انظر : ديوان ابن سناء الملك ، تصحيح وتعليق محمد عبدالحق (الهند ١٥٨) ٩-١٠ ، الروضتين : ٤٣/٢-٤٦ ؛ مفرج الكروب ١٤٥/٢-١٤٦ ؛ شذرات الذهب : ٢١٣/٤-٢١٤ ؛ بدوي أحمد ، صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابته (القاهرة ١٩٦٠) : ٧٦-٧٨ ؛ حمزة ، ادب الحروب الصليبية : ١٣٠ •

(١) قال ابن ابي طي : كان الفقيه مجد الدين بن جهيل الشافعي الحلبي قد وفد اليه تفسير القرآن الكريم لابي الحكم المغربي فوجد فيه عند قوله تعالى ألم غلبت الروم في أدنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون « الآية ان أبا الحكم قال : ان الروم يغلبون في رجب سنة ٥٨٣ هـ وتفتح القدس ، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه • فلما فتح صلاح الدين حلب ، كتب اليه المجد بن جهيل ورقة بشره فيها بفتح القدس على يديه ، واعطى الورقة للفقيه عيسى ، فلما وقف عليها ، لم يتجاسر على عرضها لصلاح الدين خوف الا تتحقق ، وحدث بما في الورقة لمحي الدين بن زكي الدين القاضي الدمشقي ، وكان هذا الاخير يثق بعقل ابن جهيل ، فعمل قصيدة مدح بها صلاح الدين وقال :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر قضي لكم بافتتاح القدس في رجب
انظر : الروضتين ٤٥/٢-٤٦ ، البداية والنهاية ٣١٤/١٢ ، وقد ذكر ابن الاثير البيت السابق ببعض الاختلاف وهو .
وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب
انظر : الكامل ٤٩٧/١١ •

وقيل ان هذا البيت هو من نسج الشاعر ابن سناء الملك ، وقيل بل من قول فخر الدين المولى وقيل هو قول ابو المعالي ابن الحسن القرشي ، والاصح هو شعر القاضي محي الدين بن زكي الدين كما جاء في الرواية الاولى • انظر : شذرات الذهب : ٢١٤/٤ ؛ التاريخ الحربي المصري : ١٤٧-١٤٨ ، هامش رقم (٦) •

عصره ، وكان اسمه يرفع بعد كل آذان في الحجاز - وغيرها من مساجد المدن الاسلامية - بالتمجيد والدعاء على انه أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن بعد ذكر اسم الخليفة العباسي وأمير مكة « لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، والقي عليه من محبة الناس وعباد الله شهداءه في أرضه » (١) .

اما أعداء صلاح الدين فقد احدث دخوله حلب ردود فعل معاكسة لديهم ، فقد وجد الصليبيون من ملك صلاح الدين لحلب انتكاسة لقواهم ، لانه بات من غير شك ان صلاح الدين - أصبح بما يمتلك من قوة كبيرة - سوف يحاصر ممتلكاتهم في منطقة الشام (٢) . حتى ان المؤرخ الصليبي وليم الصوري اعترف بما آلت اليه حالة الصليبيين السيئة بعد ملك صلاح الدين حلب ، وصرح بأن استيلاءه عليها كان اسوأ حادثة اصاب بها الصليبيون في تلك الفترة (٣) . حتى ان بعض امراء الحصون والقلاع الصليبية المجاورة لحلب أخذوا يسارعون الى كسب رضا صلاح الدين عنهم ، واستحصل الامان لقلاعهم ، نظرا للقلق والتوتر الذي أصابهم امثال أمير حصن انطاكية الذي أرسل الى صلاح الدين جماعة من اسرى المسلمين كسبا لرضاه ، « كما سارع الى اللياذ بعفو السلطان وأمانه فقبله السلطان » (٤) .

وبعد ان ملك صلاح الدين حلب واعمالها - تل خالد وعين تاب - لم يبق أمامه من القلاع المجاورة سوى قلعة حارم ، التي كانت بيد المملوك النوري سرخك . لذلك راسله صلاح الدين وطلب منه تسليم القلعة ، ووعده بأموال كبيرة اليه اضافة الى ولاية بصرى وضبعة بدمشق مع حمام

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) : ٩٦ .

Look: Grousset, op. cit., 11, P. 729. (٢)

Stevenson, op. cit., P. 230. (٣)

(٤) مفرج الكروب : ١٤٧/٢ .

العقيقي وأربعين ألف دينار ذهباً منها عشرة آلاف لآخيه ، إلا أنه اشتط في الطلب . لذلك توعد صلاح الدين وتهدهد ويقال بأنه لتهديد صلاح الدين له راسل الصليبيين وطلب حمايتهم ، فسمع أصحابه أنه يرأسل الصليبيين ، فخافوا أن يسلم البلد إليهم . فقبضوا عليه أثناء نزوله من القلعة ، ونادوا بشعار صلاح الدين وأرسلوا إليه يعرفونه الخبر فجاء إليهم وتسلمها منهم (١) .

والحقيقة أن محاولة اتهام الخصوم بالتواطىء مع الصليبيين ، كانت مطية يستخدمها كل من يحاول أن يرتقي على أكتاف غيره لينال حظوظاً . ذلك لأن سرخك - كما يتبين لي من دراسة النصوص التاريخية - لم يكن متواطئاً مع الصليبيين ، إنما كان قد تباطىء بقبول منح صلاح الدين التي عرضها عليه عوضاً عن حارم لعله ينال أكثر منها ، فاستغل نقيب البلد هذا التباطىء ، وقبض عليهم واتهمه بالتواطىء مع الأعداء لينال مكانة لدى صلاح الدين ويحتل موضعه في إمارة البلد . ومن الأدلة على ذلك : ما قيل بأن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه لدى صلاح الدين فرأسله ووعدته بتسليمه البلد شريطة أن يمنحه وجماعته بعض الأنعام (٢) . إضافة إلى أنه كان مع صلاح الدين عند تسلمه حارم الأمير بدر الدين حسن ابن الداية ، الذي رفض مزاعم نقيب القلعة واتهمه بأنه كاذب على سرخك ، لأنه كان قد استخدم معه من قبل نفس الأسلوب وأخرجه من القلعة ظلماً (٣) .

(١) الكامل ٤٩٩/١١ : ابن أبي طيء ، انظر : الروضتين : ٤٦/٢ ؛

مفرج الكرب ١٤٦/٢-١٤٧ : زبدة الحلب : ٧٠/٣

(٢) الكامل : ٤٤٩/١١ ، مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١٤٥ ،

الروضتين : ٤٦/٢ .

(٣) مضمار الحقائق وسر الخلائق : ٤٦/٢ وقد روى ابن أبي طيء

بأن ابن الداية قدم إلى صلاح الدين عند اتهام نقيب قلعة حارم لأميرها وقال

وهكذا يظهر بأن نقيب القلعة كان من الذين يتطلعون الى الامارة والسلطان ولذلك كان يحاول ان يجعل غيره سلما يرتقي عليه لتحقيق أهدافه ، الا ان ابن الداية كشف أمره لانه كان من أحد ضحاياه ، غير ان صلاح الدين لم ينكل به ، بل اكرمه ، نظرا لانه كان قد وعده ببذل العطاء له ان سلمه البلد . لذلك تلمظ لابن الداية وقال له : « ان بين أيدينا أمكنة نريد أخذها ومتى لم نف بما نعد ونجزل العطاء لم يشق بنا أحد » (١) .

وبعد ان تسلم صلاح الدين حارم في ١٩ صفر سنة ٥٧٩هـ ، مكث فيها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه ، ثم عاد الى حلب فدخلها في ٣ ربيع الاول سنة ٥٧٩هـ وقام باصلاح أمورها وولى القضاء لمحبي الدين بن زكي الدين ، واستتاب فيها زين الدين أبا البيان المعروف بابن البانياس ، كما كشف عن حلب المظالم والمكوس ، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج ، وجعل الملك بحلب لولده الظاهر غياث الملك الغازي ، أما الحصون التابعة لحلب فقد أقر عين تاب بيد صاحبها ، وأعطى تل خالد وتل باشر للامير بدر الدين يلدرم ، كما منح اعزاز للامير علم الدين سليمان بن جندر (٢) . وقد كتب القاضي الفاضل بتوقيع صلاح الدين أمر اسقاط المكوس بحلب الذي وزع على الاهالي والامراء وقد جاء فيه :

« انتهى الينا بمدينة حلب رسوما استمرت الايدي على تناولها والالسنه

له : « يا مولانا لا تلتفت الى هؤلاء فانهم آذوا هذا الوالي وكذبوا حتى فوتوه ما كان السلطان وعده به وما قلت هذا الا عن تجربة فأنني لما كنت متوليا لهذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحرضهم على امور كدت بها اهلك مع نورالدين وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة » الروضتين ٤٦:٢ .

(١) الروضتين : ٤٧/٢ .

(٢) الروضتين : ٤٧/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٤٧/٢ .

على تداولها وفيها بالرعاة ارفاق وبالرعايا اضرارا ولها مقدار الا عند من كل شيء عنده بمقدار منها ما هو على الاثواب المجلوبة ومنها ما هو على الدواب المركوبة ومنها ما هو في المعاش المطلوبة وقد رأينا بنعمة الله ان نبطلها ونضعها ونعطلها وندعها ونضرب عنها في أيامنا ونضرب عليها بأقلامنا ونسلك ما هو اهدى سبيلا ونقول ما هو اقوم قليلا ونكره ما كره الله ونحظر ما حظره الله ، فانه من ترك شيئا عوضه الله امثاله واربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أضرها ... فعلى كافة أوليانا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا ان لا يهواوا اليها ولا يردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا ويشغلوا بها ميزان المال فتخف ميزان الاعمال ... وليعلم ان ذلك من الامر المحكم والقضاء المبرم والعزم المتمم» (١) .

ويتبين من الكتاب السابق ان صلاح الدين وجد بحلب بعد فتحها ضرائب كمركية كانت تؤخذ على الاثواب المجلوبة ، وضرائب نقل كانت تؤخذ على الدواب المركوبة اضافة الى ضرائب أخرى محلية كانت تؤخذ على البضائع الاقتصادية كالمعاش ، فابطلها جميعا معتقدا بأن من ابطال ضريبة في سبيل الله عوضه الله اضعافها . و اشار الى ذوي الامر في دولته بالكف عن أخذها ولو أفلست خزائنها وبهذه السياسة تمكن صلاح الدين ان يجعل حلب - وهي عاصمة دولة النوريين ومركز تجمع أعدائه - تقف الى جانبه حتى النهاية . وأصبح من غير شك انه لا يوجد بين سلاطين وامراء المسلمين من ينافسه المكانة السياسية التي سما اليها .

فقد كان سلاجقة آسيا الصغرى يتوددون الى صلاح الدين ويخطبون رضاه ، والامراء الارائقة انضموا جميعا تحت سلطانه . اما النوريون فان أغلب مدنها وحصونهم وقعت تحت سيطرة صلاح الدين طوعا أو كرها ،

(١) الروضتين : ٤٧/٢ .

ولم يبق سوى الموصل التي كان اتابكها بين الفترة والاخرى يرأسل بغداد ويطلب الشفاعة ممن فيها ليتوسطوا له عند صلاح الدين^(١) . وكان من الطبيعي ان يقع الصدام بين الطرفين ان لم تنضم الموصل الى الوحدة الجديدة التي كان تحقيقها من صميم أهداف صلاح الدين وفي الصفحات التالية تبيان لكيفية انضمام الموصل للوحدة ومشاركتها في تحقيق الهدف الاكبر « تحرير القدس » .

خامسا :-

« حصار الموصل والصلح عليها ، وتمايم الوحدة بين مصر »

والشام بلاد الجزيرة

في الوقت الذي ملك فيه صلاح الدين حلب ، تم انضمام الشام الى الوحدة مع مصر ، ولم يبق الا جزء من بلاد الجزيرة بما فيها الموصل لم تنضم للوحدة . ولذلك أخذ صلاح الدين يخطط لاجبارها على الدخول في الوحدة والانضمام الى سلطانه . ولم يقصد صلاح الدين بانضمام الموصل اليه لاشباع رغباته الشخصية وتوسيع سلطانه انما ليتخذ من الموصل عوناً له بما تملك من قدرات طبيعية وبشرية لتحرير القدس بعد ان يكون قد أمن خطوطه الخلفية من هجوم معاكس . وقد اوضح صلاح الدين موقفه

(١) من امثلة الطلبات التي ارسلها عز الدين مسعود - اتابك الموصل الى بغداد بطلب الشفاعة للمواصل من صلاح الدين . الطلب المرسل في ٧ ذي الحجة سنة ٥٨٠ هـ الى الخليفة الناصر لدين الله . وقد استجاب الناصر لهم وارسل الى صلاح الدين شيخ الشيوخ صدام الدين برفقة شهاب الدين بشير الخادم . وكانت نتيجة هذه الشفاعة ، عند صلاح الدين ، الاتفاق على ان لا يتفقوا بسبب رفض صلاح الدين التنازل عن جزيرة ابن عمر واربل المنضمتان اليه طواعية . انظر : مفرج الكروب ١٥٥/٢-١٥٦ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥/٥٨١ ؛ التاريخ الحربي المصري : ١٥٢-١٥٣ .

من الموصلين بالكتاب الذي أرسله الى الخليفة العباسي ، بالانشاء الفاضلي في أواخر سنة ٥٧٩هـ وقد جاء فيه : ان الموصلين لم يطلبوا مساعدة بغداد اعترافا بها ، انما لعجزهم عن المدافعة • ولو كانت عندهم القدرة لما التفتوا الى الديوان العزيز • وللتدليل على صحة مدعاه وصفهم بالطمع وعقوق امر الخلافة ، كما عاق أولهم وتقدم لمضايقة بغداد • ثم وصفهم بالخيانة فقال : « لو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة ولكانت بلادهم له خزانة [ثم يتن صلاح الدين هدفه من ضم الموصل فقال :] ويرجو الخادم [أي صلاح الدين] بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله » (١) •

ولم يجعل صلاح الدين الموصل طريقه الى القدس ادعاء ، لانه بعد انضمام الموصل اليه تمت الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة ، وعمل صلاح الدين على استثمار طاقات تلك المناطق الواسعة وحقق للمسلمين جميعا أهدافهم بتحريره القدس • ولو لم يفتح القدس بعد انضمام الموصل اليه ، لكان بالامكان اتهمه باتخاذ شعار « العمل من أجل تحرير القدس » ، بأنه كان شعارا زائفا يخفي وراءه مطامحه الشخصية •

ولقد ساد بين صلاح الدين والموصلين شيء من التباعد بعد فتح حلب ، نظرا لانشغال كل جانب ببعض المشاكل الجانية فعز الدين مسعود - اتابك الموصل - قام بتغيير وزيره المعتمد مجاهد الدين قايماز ، باتباع من أراد المصلحة لنفسه ، وهو عز الدين محمود زلفندار الذي تولى نيابة اتابكية الموصل بدلا من قايماز • فاثار هذا التبديل غضب صاحب أربل وجزيرة ابن عمر اللذين كانا على علاقة حسنة مع مجاهد الدين قايماز • ولذلك امتنع على اتابك الموصل ورفض التعاون مع عز الدين مسعود ، وراسلا صلاح الدين بالطاعة والولاء ، غير ان عز الدين مسعود علم بالمضرة التي

(١) الروضتين : ٤٩/٢ •

أصابته من جراء إبعاد وزيره المعتمد قايماز ، لذلك اطلق سراحه واعاده لمنصبه القديم ، وقبض على زلفندار وأعوانه بعد عدة أشهر من توليته الامر وكان ذلك سنة ٥٨٠هـ^(١) .

اما صلاح الدين فانه خرج من حلب الى دمشق صحبة أخيه الملك العادل فوصلها في ٢٤ شعبان سنة ٥٧٩هـ/٢٤-٨-١١٨٣م ، وبعد ان مكث بدمشق شهر رمضان ، بعث بأخيه العادل الى حلب بعد ان ولاء الامارة عليها ، وعند وصوله اليها ، خرج من حلب الملك الناصر بن صلاح الدين ، الذي كان نائباً عن أبيه فيها ، ووصل الى دمشق في خدمة والده^(٢) .

وأثناء اقامة صلاح الدين بدمشق كانت الرسل تتردد اليه من الجوانب مستسلمة اليه . فوصله رسول معزالدين سنجر شاه أتابك الجزيرة معلنا خضوع اتابكته لصلاح الدين ، كما وصل اليه رسل أرمل ، وأخوه الملك العادل من حلب يوم الاثنين ٤ ذي الحجة ، وأقاما عنده حتى انقضت أيام العيد الاكبر^(٣) .

كما اشغل صلاح الدين في هذه الفترة بمهاجمة حصن الكرك الذي كان بيد الامير الصليبي ارناط ، لتأديبه ، نظرا لقيامه بمهاجمة المدينة المنورة ، وقطعه طريق المواصلات بين مصر والشام . فاستدعى عساكر من مصر وحلب وجاءته امدادات من حصن آمد ودارا وماردين ، وتقدم بما تكون لديه من قوة نحو حصن الكرك . وقد حدثت عدة اصطدامات مع الصليبيين كان النصر فيها للعسكر الصلاحي . وكان ذلك مقدمة لدخول

(١) الكامل ١١/٤٩٩-٥٠٠ ؛ الروضتين : ٥٤/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٥٣-١٥٤ .

(٢) النوادر السلطانية : ٦٤ ؛ الروضتين : ٥٠/٢٠ ؛ مفرج الكروب : ١٥٢/٢ - ١٥٣ .

(٣) مفرج الكروب ١٥٦/٢ .

مدينة نابلس والاستيلاء على كل ما كان فيها ما عدا حصنها • ومن ثم عاد صلاح الدين بقواته الى دمشق فوصلها يوم السبت ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ^(١) •

وأثناء وجود صلاح الدين بدمشق وصلت اليه رسل مظفر الدين بن زين الدين صاحب حرّان معلّمة بأن عسكر الموصل وعسكر قزل - صاحب العجم - نازلوا اربل وانهم نهبوا واحرقوا ، وان ابن زين الدين نصر عليهم وكسرهم ، مما دفع بصلاح الدين الى التوجه نحو الموصل^(٢) • وقد ادعى ابن الاثير بأن الذي دفع بصلاح الدين الى التوجه نحو الموصل ، هو مظفر الدين - صاحب حران - الذي تكفل له بخمسين ألف دينار ان هو اقبل على فتح الموصل^(٣) •

(١) انظر : النوادر السلطانية : ٦٦-٦٧ ؛ الروضتين ٥٤/٢-٥٥؛ مفرج الكروب ١٥٧/٢-١٦٢ •

(٢) العماد الاصفهاني ، انظر : الروضتين ٦٠:٢ ؛ النوادر السلطانية : ٦٧ ؛ مفرج الكروب : ١٦٤/٢ •

(٣) اعتقد ان هذه القصة هي من نسج ابن الاثير وبعبارة عن الحقيقة ، وقد استخدم نفس الاسلوب مع صلاح الدين عند تقدمه لحصار الموصل الاول ، وذكر بأن أسباب تقدمه اليها كان باشارة من ناصر الدين الذي وعده بدفع بعض الاموال اليه ان هو احتل الموصل وسلمها اياه • وقد تبين من قبل خطأ هذه الرواية والاسباب الحقيقية التي دفعت صلاح الدين لحصار الموصل الاول وغيرها من المدن الاسلامية • راجع ص ٢١٩ - ٢٢٠ من الكتاب وانظر : الكامل : ٥١١/١١ ، الروضتين : ٦١/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٦٥/٢ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٨١-٥٨٢ • ومما يثبت خطأ رأي ابن الاثير ما ذكر ابن واصل : بأن صلاح الدين عندما وصل الى حران قبض على مظفر الدين واعتقله تأديبا له لانه ظن انه يميل الى اصحاب الموصل وفي هذا ما يناقض رأي ابن الاثير السابق ، اذ لو كان مظفر الدين هو الذي دفع صلاح الدين لاحتلال الموصل لما اتهمه صلاح الدين بالميل نحو المواصله ولوجدنا العكس • انظر : مفرج الكروب : ١٦٥/٢ •

والحقيقة : لم تكن اعتداءات الموصليين على اربل ، ولا الاموال التي وعد بها صلاح الدين ، هي التي دفعته لمحاربة الموصلين ، انما حددت تلك الاعتداءات الوقت الذي خرج فيه صلاح الدين لتنفيذ هدفه تجاه الموصليين ، وهو اجبارهم على الدخول في الوحدة لمقاومة الخطر الصليبي - كما تبين من قبل - كما ان تلك الاموال التي وعد بها صلاح الدين من مظفر الدين - ان صحت رواية ابن الاثير - فهي على ما يبدو من العوامل المساعدة ، لا من العوامل الدافعة لذلك التحرك * والذي يبدو بأن مظفر الدين قد وعد صلاح الدين بأن يساعده على تنفيذ مهمته - كأبي أمير بسيط تابع للسلطان العام - لتبعيته له * ولو لم يساند مظفر الدين صلاح الدين على تنفيذ المهمة لعزله من منصبه طبقا لسياسة صلاح الدين العامة التي كان يشترطها على كل أمير تابع له * ومما يدل على ذلك المنشور الذي كتبه صلاح الدين الى زين الدين علي كوجك بأربل والذي اوضح فيه بأن هدفه الجهاد في سبيل الله فمن ساعده على اتمام هذا الفرض ، والا تزال يده عن منصبه ويعزل^(١) .

ولما كان صلاح الدين قد اوضح بأن الموصل الطريق الى القدس ، لذلك فان فتحها من تمام الجهاد في سبيل الله ، ولهذا كان علي مظفر الدين - وغيره من الامراء القرييين من الموصل والتابعين لصلاح الدين - ان يقدموا العون للعسكر الايوبي ويسهلوا له مهمة فتح المدينة والا سيكون العزل نصيبهم .

وقد خرج صلاح الدين من دمشق متوجها نحو الموصل في ١٢ محرم سنة ٥٨١هـ ، فمرّ على حمص وحماة ثم سار الى حلب والتقى بأخيه الملك

(١) للاطلاع على نص المنشور انظر : مفرج الكروب : ١٦٣/٢ -

العادل ، حيث اجتمعت العساكر جميعا تحت قيادته فُعبر بها الفرات الى حرّان ، وقبض على صاحبها مظفر الدين كوكبرى تأديبا له على مخالفته لبعض الاوامر ، ثم اطلق سراحه واعاد اليه ممتلكاته . ثم غادر حرّان في ٢ ربيع الاول سنة ٥٨١ هـ الى رأس العين ، وفيها وصل اليه رسل الملك السلجوقي قلعج ارسلان بن مسعود صاحب الروم - واخبروه بأن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على محاربته ان لم يعد عن الموصل . غير ان صلاح الدين لم يثخن عن عزمه ورحل الى دنيسر ، فجاءه عماد الدين بن قرا ارسلان ومعه عساكر آمد فاكرمهما صلاح الدين ، ثم رحل طالبا الموصل فوصل الى نصيبين فانضمت اليه قوات الجزيرة بقيادة معز الدين سنجر شاه ، فتقدم بما معه من العساكر وخيم على موضع قرب الموصل يعرف بالاسماعيليات . ومن هذا الموضع ارسل بالقاضي ضياء الدين الشهرزوري الى بغداد لتعريف الخليفة العباسي بالخطوات التي يتبعها ، وما عليه المواصلة من تواطىء مع الصليبيين ، وتبعيتهم لسلطان العجم الذي ينقمون السكة باسمه ، واوضح للخليفة بانه انما جاء لحصار الموصل لنصرة الاسلام بهم ولردهم لطاعة الخليفة^(١) .

ومن منطقة الاسماعيليات شرع صلاح الدين باقطاع البلاد للجنود ، وارسل جماعة من امرائه لفتح الحصون المجاورة للموصل كحصن العقر والحמידية ، كما فكر بقطع مياه دجلة عن الموصل حتى تضطر الى طلب الاستسلام ، الا انه عدل عن رأيه ، لصعوبة الامر وعدم الامكان في تحقيقه^(٢) . وكانت تحدث مناوشات عسكرية بين القوات الصلاحية

(١) ابن شداد : ٦٧-٦٨ ؛ الروضتين ٦١/٢-٦٢ ؛ مفرج الكروب ١٦٥-١٦٦ وانظر : السلوك : ٨٩/١ ؛ مرآة الزمان ق ١ : ٣٨٣/٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥٨٢/٥ .

(٢) ذكر الاصفهاني وابن واصل بأن الوقت الذي كان فيه صلاح

والموصلية في الجانب الشرقي من المدينة قرابة شهر من أول ربيع الآخر الى آخره ، حيث غادر صلاح الدين الموصل الى خلاط لوفاة شاه أرمن - صاحب خلاط - ومكاتبة أعيانها له باستدعائه اليهم ليملكوه البلد . غير ان هذه المراسلة لم تحقق لصلاح الدين أي مكسب ، لان شمس الدين البهلوان - صاحب اذربيجان - كان قد زوج شاه أرمن ابنته ليكون له طريقا للسيطرة على خلاط . ولذلك لما علم بوفاة شاه أرمن تقدم الى خلاط واحتلها واصطلح أهلها معه ، وتقدم البهلوان بطلب الاعتذار الى صلاح الدين ، مما دفع صلاح الدين الى مغادرة خلاط والتوجه الى ميافارقين^(١) .

كانت ميافارقين تابعة لصاحب ماردين اسد الدين يرتقش ، فحاصره صلاح الدين وضيق عليه في جمادى الاولى سنة ٥٨١ هـ ، غير انه وجد ان امر حصارها يطول فراسله ورغبه في المودعة والتسليم ، وكان البلد بيد الخاتون ابنة فخر الدين قرا ارسلان - اخت نور الدين الدراج ، وهي

الدين محاصرا الموصل شديد الحرا ، وكان ماء دجلة قد قل ، وتقدم من له الخبرة في علم الهندسة - قيل هو الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان - الى صلاح الدين واقتراح عليه تحويل نهر دجلة عن الموصل كي يعطش أهلها ، ويضطروا الى تسليم البلد من دون مقاومة^١ . وقد جاء في الكتاب المرسى الى بغداد بالانشاء العمادي بخصوص حصار الموصل ما يلي : « وذكر المهندسون من اهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء عنها ، وحينئذ يضطر أهلها الى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر في تضيق ولا نزاع » . الروضتين ٦٣١/٢ وانظر : الكامل ٥١٣/١١ ؛ مفرج الكروب ١٦٧/٢ .

(١) انظر : النوادر السلطانية : ٦٩ ؛ الكامل ٥١٣/١١ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢٢٠ ؛ المنتخبات : ٢٨٦ ؛ مفرج الكروب : ١٦٨/٢ - ١٦٩ ؛ مرآة الزمان ، ق ١٨٤/٨ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٨٢-٥٨٣ ؛ تاريخ ابن الوردي : ١٣٥/٢ .

زوجة ابن عمها قطب الدين الغازي صاحب ماردين الذي توفي فأحال أسد الدين أمر ميفارقين إليها - فراسلها صلاح الدين أيضا وضمن لها كل ما تطلبه ، حتى سلمت البلد إليه فوفى لها بوعده ، ثم طلبت منه حصن الهناخ - في ديار بكر قرب ميفارقين - فمنحها إياه وتسلم منها ميفارقين ، ثم غادره عائدا إلى حصار الموصل ، وهو الحصار الثالث^(١) .

« حصار الموصل الثالث وتمام الصلح عليها »

لما انتهى صلاح الدين من أمر ميفارقين ، عاد إلى الموصل وهو ينوي حصارها للمرة الثالثة ، وقد جعل طريقه على نصيبين ووصل إلى كفر زمار - بقرب الموصل - في شعبان من سنة ٥٨١ هـ ، ومكث فيها حتى انتهى فصل الشتاء البارد . ثم جاءه رسل عز الدين مسعود تطلب عقد صلح بين الطرفين ، وكان وقد الرسل يتكون من النساء الاتابكيات وفيهن ابنة الملك العادل نور الدين^(٢) « فآكرمهن السلطان ووعدهن بالاحسان وقال قد قبلت شفاعتكن

(١) النوادر السلطانية : ٦٩ ؛ الكامل : ٥١٥-٥١٦ / ١١ ؛ مفرج الكروب : ١٦٩-١٧٠ / ٢ .

(٢) روى ابن الأثير أن عز الدين - اتابك الموصل - أرسل بالنساء الاتابكيات إلى صلاح الدين للتوسط في حل النزاع بين الطرفين في حزيران ١١٨٥م عند حصار الموصل الأول . إلا أن صلاح الدين ردهن خائبات ، ثم ندم على ردهن وعاد إلى اللذين أشاروا عليه بذلك باللوم والتوبيخ . الكامل : ١٢٠ / ١١ / وقد نقل رواية ابن الأثير وثبتها بتاريخها هذا كل من : ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨ / ٣ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٨١ / ٥ وغيرهم من المتأخرين من دون التدقيق في إثبات لتاريخ السفارة . وقد روى الأصفهاني ما يدل على خطأ ابن الأثير في تحديد تاريخ السفارة ، حيث أشار إلى أن عز الدين أرسل بالنساء الاتابكيات إلى صلاح الدين أثناء الحصار الثالث بعد شعبان سنة ٥٨١ هـ وأن صلاح الدين أكرمهن وقبل شفاعتهن . انظر الروضتين : ٦٤ / ٢ ؛ مفرج الكروب : ١٧٠-١٧١ / ٢ . ومن دراسة الأحداث يتبين أن رواية الأصفهاني هي الصحيحة وأن ابن

لكن لابد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم ، واستقر الأمر على ان يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين « (١) » .

وفي كفر زمار مرض صلاح الدين مرضا شديدا ، فرحل عائدا الى حرّان في مستهل شوال ، وبلغ غاية الضعف ، فوصل اليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه اطباؤها . وكان عز الدين أثناء مرض صلاح الدين يعمل جاهدا للحصول على بعض المساعدات ليعيد صلاح الدين عن الموصل ، ومن ذلك انه أرسل بالمؤرخ بهاء الدين ابن شداد الى الديوان العزيز ببغداد يستجد بهم ، والى سلطان العجم أيضا ، لكنه لم يحصل منهما أية مساعدة . لذلك وجد في مرض صلاح الدين فرصة طيبة وعلم أهالي الموصل « سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت فد بوي [أي ندب المواصلة ابن شداد] لهذا الامر وبهاء الدين الريب . . . وقالوا : امضيا ما يصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان . وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة [٥٨١هـ] فاحترمنا احتراماً عظيماً وجلس لنا . . . ومات رحمه الله وهو على ذلك الصلح لم يتغير عليه . . . » (٢) .

وكانت قاعدة الصلح بين صلاح الدين وأهالي الموصل بالصيغة التالي :-

الاثير قصد بروايته تشويه مقاصد صلاح الدين وقد ذكر المستشرق جيب ما يدل على ذلك : « فلا سبيل الى الجدال بأن رواية عماد الدين هي الاكثر طبيعية والاشد تماسكا في ذاتها ومع الظروف ، بينما قام ابن الاثير بتحريفها لكي يظهر صلاح الدين في اسوأ ضوء ممكن » صلاح الدين : ٨٨ .

(١) الروضتين : ٦٤/٢ .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٠-٧١ ؛ انظر : الاصفهاني (تلخيص

ابو شامة) الروضتين ٦٤/٢-٦٥ ؛ مفرج الكروب : ١٧٢/٢ :

أولاً :- يسلم عز الدين مسعود - اتابك الموصل - الى صلاح الدين شهرزور وأعمالها وولاية ، القرايلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال مع ولاية بني قفجاق •

ثانياً :- يترك صلاح الدين لعز الدين مسعود الموصل وأعمالها ، يتحكم فيها بأمره على ان يكون تابعا لصلاح الدين • أي ان صلاح الدين منح ولاية الموصل استقلالا ذاتيا بأمرة عز الدين مسعود •

ثالثاً :- وافق عز الدين مسعود على ان تكون الخطبة باسم صلاح الدين في كل البلاد التابعة له (الموصل وديار بكر وبلاد الجزيرة) وان تقطع الخطبة السلجوقية من تلك البلاد • كما وافق عز الدين مسعود على سك النقود باسم صلاح الدين في تلك البلاد أيضا •

رابعا :- على عز الدين مسعود الحضور بعساكره في خدمة صلاح الدين متى استدعاه وان يشترك الطرفان في مجاهدة الصليبيين •
خامسا :- تعهد الطرفان الحفاظ على المعاهدة السابقة ، ووقعت بنودها بالقبول في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ المصادف ٣-٣-١١٨٦ م •

واكراما لعز الدين مسعود على موافقته على شروط التضامن مع صلاح الدين عمد الاخير الى ارسال هدايا كبيرة اليه ، قدر ثمنها بحوالي عشرة آلاف دينار سوى الملبوس والخيول والطيب^(١) •

وبعد انتهاء الصلح مع أهالي الموصل كتب صلاح الدين الى أخيه سيف الاسلام باليمن كتابا اوضح له فيه تطور العلاقة مع الموصلين ،

(١) انظر: النوادر السلطانية ٧٠ ؛ الكامل: ٥١٧/١١ ؛ الروضتين: ٦٤/٢ ، ٦٦ السلوك ٩٠/١ ؛ مفرج الكروب ١٧٢/٢ ؛ زبدة الحلب ٨٣/٣ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٨٢/٥-٥٨٣ ؛ روض المناظر في اخبار الاوائل والاواخر : ٢٤٣ ؛ مرآة الجنان : ٤١٩/٣ ؛ شذرات الذهب ٢٦٨/٤ •

وواصلها الى السلام وقد جاء في الكتاب ما يدل على ما ورد سابقا وهو :

« وانا أقمنا على بلاد الموصل وتصرفنا فيها ، وانعمنا على الاجناد بأعمالها ونواحيها ، فاتفق اختلال امر ديار بكر لموت ملوكها وتبدد سلوكها ، فقصدناها وقررنا امورها ... وفتحنا ميفارقين ... فملكنا بها ديار بكر ... ودخل الشتاء فخرجنا من تلك الديار بعد ضم شتاتها ... رأينا ان نقيم في بلاد الموصل لنشتو بها الى الربيع ... ولما تحقق صاحب الموصل هذا العزم ، ضاقت عليه الارض بما رحبت ... فالقى سلاحه وطلب بالصلح صلاحه ... وكان حلمنا لمأمن روعه لما اتى يومنا ونزل لنا عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع ... وشهرزور ومعقلها وأعمالها وولاية بني قفجاق والقرايلي (البوايج) وعانه . وقررنا عليه الموصل وأعمالها على انه يكون بحكمنا وينفذ عسكره بخدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا وان يطلق المظالم ولا يرتكب فيها المأثم وقد حصلت لنا مع صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة ... » (١) .

وهكذا تمت الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة بدخول كل من حلب وميفارقين والموصل تحت امرة صلاح الدين ، اذ كان يفتح حلب كمال انضمام الشام الى مصر ، ويفتح ميفارقين امتلاك صلاح الدين لديار بكر ، وب عقد الصلح مع الموصلين انضمت منطقة الجزيرة للوحدة . وهكذا تمت الوحدة ، وثبت مركز صلاح الدين كقائد اسلامي عام لكافة القوى الاسلامية الممتدة في كل من مصر والشام وبلاد الجزيرة وديار بكر ، ومناطق شهرزور وما وراء الزاين وبلاد القرايلية وبني قفجاق وقد أصبحت

(١) مضممار الحقائق وسر الخلائق : ٢٢٥ : وانظر الروضتين :

تلك المناطق جميعا • بعد أن سادها الاستقرار بين مختلف عناصرها العربية والكردية والتركمانية ، مادة لجيوش صلاح الدين ، وكان من نتائج تلك الوحدة والاستقرار ان هزم الصليبيون أمام صلاح الدين في معركة حطين وحررت القدس في سنة ٥٨٣هـ ، أي بعده عدة أشهر من تمام تلك الوحدة^(١) • وهكذا تمكن صلاح الدين من تحقيق امنيتين من أمنيّتي نورالدين كانت الاولى باحلال السنة محل الشيعة في مصر ، وكانت الثانية بتوحيد مصر ببلاد الشام والجزيرة^(٢) • وبذلك أصبح صلاح الدين - كما ذكر ابن منقذ - « صلاح الدنيا والدين » • • • جامع كلمة الايمان » و « الذي احيى سنة الخلفاء الراشدين ، واقام عمود الدولة والدين »^(٣) • ولم يبق له الا الهدف الثالث ، وهو اجلاء الصليبيين عن أرض الشام • وهو موضوع البحث في الفصل التالي •

واستنتاجا من دراسة الفصل الثاني أرى ما يلي : أولا - ان وصول صلاح الدين الى مركز القيادة ، واحتلاله مكانة نورالدين محمود بن زنكي المرموقة في قيادة المسلمين ، لم يكن مجرد صدفة عارضة ، انما الذي اوصله اليها مجموعة من العوامل تمثلت فيما يلي :

١ - عدم وجود شخصية سياسية قوية وقديرة في البيت الزنكي كان بإمكانها ان تحتل مكانة نورالدين •

٢ - كان صلاح الدين غداة وفاة نورالدين يملك بلاد مصر القوية

(١) انظر : القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير : ٢٦٣-٢٦٤ ؛

Stevenson, op. cit., P. 236.

(٢) انظر : العقيقي ، نجيب ، المستشرقون (القاهرة ١٩٦٤) : ٦٢:١ •

(٣) الاعتبار : ١٦٤ ، ١٦٥ •

الغنية الواسعة التي كانت أكبر من أي اقليم آخر كان بيد الامراء المسلمين في الشام والجزيرة •

٣ - وجود بعض الانصار والمؤيدين لصالح الدين بين أعضاء البيت الزنكي وبين صفوف جمهور المسلمين • حتى اعتبره بعضهم المنقذ من الازمات خاصة عندما كان الصليبيون يغزون مدنهم أو حصونهم ، كما حدث في انطاكية ودمشق وغيرها حيث كان جمهور الناس وبعض الامراء يكتبون لصالح الدين ويدعونه لنصرتهم ، حتى ان البعض منهم كان يخوف الصليبيين بصالح الدين كابن المقدم مثلا •

٤ - ثم لا يخفى ما كان يتمتع به صالح الدين من شخصية قوية ومكانة كبيرة بين الامراء ، نظرا للخدمات الجليلة التي قدمتها عائلته للدولة النورية خاصة ، والمسلمين عامة ، اضافة الى ما قام به صالح الدين من أعمال جيدة في الدفاع عن دماط والاسكندرية والكرك ضد الصليبيين •

ثانيا :

رغم المعارك الكثيرة التي حدثت بين صالح الدين والقوى الاسلامية في منطقة الشام والجزيرة ، فانها لم تكن معارك حاسمة يضحي فيها الجند بكل قواهم من أجل القضاء على الخصم ، بل كثيرا ما كان يفر احد الطرفين من ساحات المعركة ، أو يتحصنون وراء القلاع والاسوار ، دفعا لاي اصطدام عنيف قد يؤدي بكلا الطرفين الى الموت • وقد حدث هذا فعلا في المعركة التي حدمت بين صالح الدين وامراء الموصل وحلب في الحرب التي دارت عند قرون حماة سنة ٥٧٠ هـ ، وكذلك في تحصن أهالي سنجار والارائقة وراء الاسوار وعدم محاربتهم لصالح الدين وجها لوجه •

ونظرا لعدم رضاء جمهور المسلمين عن الحروب التي كانت تقع بين كلا الطرفين من المسلمين ، وعدم رغبة الجند من كلا الجانبين بالقتال الى

آخر نفس ضد الخصم ، كان على صلاح الدين والامراء الذين وقفوا ضده العمل من أجل كسب رضا الجمهور ، ودفع الجند للقتال عن طريق تبرير موقفهم . فكان الامراء النوريون يشيرون بين أجنادهم بأن صلاح الدين جاحد للنعمة ، وانه خارجي يحب السيطرة والغزو على أملاك سيده نورالدين ، ولذلك يجب قتاله . وفي الفترة الاولى من الاصدامات التي وقعت بين الطرفين ، كان أغلب الجمهور والاجناد يقفون موقفا ايجابيا من امرائهم ويعملون بكل قواهم للايقاع بصلاح الدين ، الا ان انتصارات صلاح الدين التي حققها في دمشق وحمص وحماة وبلبك ، دفعت بأغلب الجمهور الى الميل الى صلاح الدين لان مركز القوى أصبح بيده . ولذلك كان بعضهم يحتاج على الامراء الذين يدفعونهم لحرب صلاح الدين بالقول الآتي : (ليس صلاح الدين بكافر حتى نقاتل عن انفسنا دونه) .

وكان صلاح الدين من جانبه أيضا يحاول بكل خطوة يخطوها ان يكسب رضا الجمهور والخلافة العباسية ، وكان عليه ان يدفع بالاجناد الى القتال عن طيب خاطر ضد الخصم من القوى الاسلامية التي كانت في مدن وقلاع الشام والجزيرة . ولذلك نجده يرفع شعارات مختلفة بين الفترة والآخرى ، ويرسل بالكتب الى بغداد لتوضيح موقفه واتهام خصمه ، وكان الشعار الاول الذي رفعه بعد وفاة نورالدين هو (العمل من أجل وصاية الملك الصالح بن نورالدين وتحريره من أيدي الذين يأكلون الدنيا بأسمه) . ولما كان سعدالدين كمشتكين وابن المقدم وغيرهما من الامراء قد سيطروا على وصاية الملك الصالح بحلب ، لذلك فلا بد ان يتهم اولئك الامراء بالتواطؤ مع الغزاة الصليبيين ليتسنى لصلاح الدين ابعادهم عن الملك الصالح وقيادة الامور بنفسه .

ورغم ان اتهام الامراء ، الذين وقفوا ضد صلاح الدين بالتواطؤ مع

الصليبيين مبالغ فيه ، غير انه لا يخلو من حقيقة تاريخية تمثلت في ان بعض الامراء الذين لم يتمكنوا من وقف تقدم صلاح الدين اليهم اضطروا الى طلب العون من الصليبيين لا حبا بهم ، بل لجعل صلاح الدين يقاتل على جبهتين . ومن جهة ثانية كان الصليبيون يساندون بعض الامراء النوريون لا حبا بهم ، وانما خوفا من نتائج الوحدة الايجابية التي سوف تضعف قواهم .

وبعد ان توفي الملك الصالح ، وملك صلاح الدين جزءاً كبيراً من منطقة الشام والجزيرة ، كان شعاره الثاني (العمل من أجل تحرير القدس) . وكان اعادة الوحدة بين القوى الاسلامية في مصر والشام ومنطقة الجزيرة أهم الوسائل - بنظر صلاح الدين - لتحقيق ذلك الهدف . ولذلك كانت كتبه ومراسلاته جميعاً تدعو الى اقامة الوحدة واعداد العدة ، وانه لا يحارب المسلمين الا من أجل هذا الهدف وانه انما يريد من الحصون والقلاع شوكتها لا زهرتها ، ولذلك نجده يتنازل عن كل ما في المدن والحصون التي يفتحها لاصحابها أو للامراء الذين يمنحهم تقليدها كما حدث في حصن آمد وحلب ودمشق مثلاً .

ثالثاً :

ولما كان صلاح الدين يهدف الى اقامة الوحدة واعداد العدة من أجل تحرير القدس ، لذلك كان هدفه أيضاً كسب رضاء الجمهور والاجناد ، وعدم التفريط بهم في كل الاحوال . فكان يطلق الاسرى . ويأمر بعدم العنف في قتال المسلمين والهجوم على حصونهم . واذا ما أراد فتح مدينة من المدن التي استعصت عليه فانه كان يستخدم الطرق التالية لفتحها :

أ - كان يصدر قرارات الامان لكل من يستسلم بدون قتال على شرط ان تكون العساكر واحدة عند النصرة ضد العدو الخارجي ، كما

حدث ذلك لاهالي حصن كيفا مثلاً •

ب - كان صلاح الدين يلقي بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب ، الى داخل الحصون الممتعة لدفع أهلها الى طلب الاستسلام بعدما يحدث بين صفوفهم اضطراباً نفسياً ، كما حدث ذلك عند فتح حصن آمد •

ج - كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية الحصينة ، بأنه انما جاء يتدبر بقربها ، وانه عازم على الاستقرار بجوارها • مما يدفع بمن داخل المدينة الى طلب الامان أو السعي من أجل الوصول الى الصلح لدفع قوات صلاح الدين الضخمة من قرب البلد ، لانها ان استمرت بحصار البلد سوف تلحق أضراراً كبيرة به ، وهذا هو الذي حدث فعلاً عند حصار صلاح الدين للموصل في المرة الثالثة سنة ٥٨١ هـ •

د - وفي بعض الاحيان كان صلاح الدين يقدم بعض التنازلات ويمنح الاموال الوفيرة لامراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعا للقتال ، كما حدث ذلك عند محاصرته حصن حارم وميافارقين •

هـ - وأحياناً أخرى كان صلاح الدين يلجأ الى الاساليب السياسية ، فيعمد الى التحالف مع بعض الامراء ضد الامراء الآخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه الى طلب الاستسلام • وقد جرب صلاح الدين هذا الاسلوب بتحالفه مع عمادالدين أمير سنجار ضد أخيه عزالدين أمير الموصل •

رابعاً :

بقي صلاح الدين اثنتي عشرة سنة ٥٧٠ - ٥٨٢ هـ / ١١٧٤ - ١١٨٦ م يعمل من أجل تحقيق الوحدة واعداد العدة قبل ان يبدأ أوبرحلة التحرير • وقد كسب خلال هذه المدة محبة جمهور المسمين عامة وثقتهم • فكان الناس من كل الحصون والقلاع يرسلونه ويطلبون الانضمام الى وحدته حبا في

الجهاد في سبيل الله ، بينما اختار البعض الآخر طريق الوحدة لتمرير مصالحه الشخصية للوصول الى امارة الحصن الذي ينتمي اليه ، كما فعل بعض الامراء الذين كانوا بحسن حارم *

وبذلك بنى صلاح الدين وحدة قوية متينة ارتكزت على جمهور المسلمين لا على القيادات السياسية بين الامراء *، ونظرا للانتصارات التي حققها صلاح الدين بفضل الوحدة القوية المتينة التي بناها ، وبفضل رفعه لشعار العمل من أجل تحرير القدس ، فقد تطلع الى طموحات اوسع من ان تنحصر بمنطقة الشام والجزيرة * كانت في اعادة امجاد الدولة العباسية ، وفي احياء معالم الجهاد في سبيل الله ضد الكفر في كل مكان ، ومما يدل على ذلك الكتاب الذي ارسله الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٥٧٩هـ أثناء حصاره للموصل ، والذي اوضح فيه بأنه سوف يستمر في الجهاد في سبيل الله « الى ان تملو كلمة الله العليا ، وتملاً الولاية العباسية الدنيا ، وتعود الكنائس مساجد والمذابح المستعبدة معابد ، والصليب المرفوع حطبا في المواقف ... » ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى ما يجاور اكنافه ، ويمد أطرافه مثل تكريت ودقوقا والبواريج وخوزستان وكيش وعمان والذي وقع اعظم من الذي يتوقع ، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع ، والذي رؤى أمس أكثر من الذي يسمع » (١) *

هكذا اذن تمكن صلاح الدين ان ينتصر على مناوئيه من سائر امراء المسلمين لحسن تديره السياسي والعسكري وتمكنه من استغلال الظروف التي كان يعيشها المجتمع الاسلامي آنذاك ، والمناذاة بما كان يطمح اليه جمهور المسلمين من توحيد الجهود ، ورصّ القوى ، لتحرير القدس ، وسائر البلاد الاسلامية من الغزاة الصليبيين *

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٤٩/٢٠

الفصل الثالث
موقف صلاح الدين من القوى الصليبية
٥٧٠ - ٥٨٨ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٢ م

اولا - صلاح الدين والصليبيون في فترة الاعداد لباء الوحدة

٥٧٠-٥٨٢ هـ ١١٧٤-١١٨٦ م

بعد ان قبض صلاح الدين على زمام الامور في مصر ، عقب وفاة عمه أسدالدين شيركوه ، اتجهت سياسته الى اقامة دولة ايوبية قوية في مصر مع الحفاظ على العلاقات الودية مع نورالدين بالشام ، وعلى هذا الاساس أقام سياسته تجاه الصليبيين . فقد ساند صلاح الدين نورالدين ضد الصليبيين في حصار الكرك والشوبك ، وقام بعدة غزوات على تجمعات الصليبيين في المنطقة التي تربط مصر بالشام ، كالسيطرة على أيلة ، ليتسنى لقواته العسكرية وللقوافل التجارية ، وقوافل الحجاج ان تسير بين مصر والشام والحجاز بسلام كما تبين ذلك من قبل .

وفي الفترة التي اعقت وفاة نورالدين تطور موقف صلاح الدين من النقوى الصليبية ، فقد أصبح - بحكم ما تميز به من مقدرة سياسية وعسكرية - الرجل الذي سيحتل المكانة المناسبة في قيادة المسلمين ضد الصليبيين ، والخلف الشرعي لنورالدين ، والحلقة الرابعة والمتمة من تلك الحلقات القيادية التي ظهرت في منطقة الشام ، والتي تمثلت في مواقف التصدي للغزاة الصليبيين في شخص زنكي وعمادالدين ومن ثم في نورالدين . وقد تركزت سياسته في العمل من أجل توحيد مصر والشام وما يمكن ضمه اليهما من البلاد الاسلامية ليتسنى له ان يقف بصلابة وحزم بوجه التحدي الصليبي الذي كانت تدعّمه قوى نصارى اوربا ، وليجعل من البلاد الاسلامية التي تنضم تحت لوائه أساسا لقوته وطريقا الى تحرير القدس .

لهذا تميزت سياسة صلاح الدين الايوبي تجاه الصليبيين ، في الفترة

المحصورة بين وفاة نورالدين ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وبين سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م

- الفترة التي تمت فيها الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة - بطابع اللين والموادعة والمهادنة ، وتعليل ذلك سهل ميسور ، فقد كان صلاح الدين يهدف الى القضاء على الصليبيين قضاء تاما ، وذلك لا يتيسر قبل اقامة دولة اسلامية موحدة قوية . ومن هنا فقد هادن الصليبيين موقتا ، لتصفية الحساب مع الامراء المسلمين الذين يقاومون انشاء دولة موحدة .

ورغم ان صلاح الدين لم يقم بحروب حاسمة ضد الصليبيين في هذه الفترة ، الا انه كان بين وقت وآخر يكيل لهم الضربات القوية^(١) ، ليرهن لهم على انه قادر على مجابهة التحدي ، وربما ليشعر أعداءه من الامراء المسلمين بانه قادر على القتال في جبهتين في آن واحد .

وقد حدثت في هذه الفترة أمورٌ سياسية وعسكرية مهمة ، تمثلت بهجوم الصليبيين على الاسكندرية ، وانهزام صلاح الدين في معركة الرملة ، وانتصاره في مرج عيون وحصاره المتكرر لحصن الكرك وتخريبه نابلس ، وقد تخلل هذه الوقائع الحربية مهادنات سلمية ، استخدمت لتجميع القوى ضد الخصم المباشر ، وللاعداد للمعارك الفاصلة في المستقبل البعيد ، وسوف نتطرق الى كل ذلك تباعا .

« تصدي صلاح الدين للهجوم الصليبي الصقلي على الاسكندرية »

بعد وفاة نورالدين احتل ميزان القوى في منطقة الشام بين الصليبيين والمسلمين ، وحسب الصليبيون خطأ ان الفرصة قد سنحت لهم للهجوم على

(١) في الصفحات التالية سيتبين هذا الامر بوضوح ، عند مهاجمة صلاح الدين قوى الصليبيين عند حارم سنة ٥٧٣ هـ ، وتخريب حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ هـ ، وانتصاره عليهم في معركة مرج العيون سنة ٥٧٥ هـ .

المعاقل الإسلامية المنيعه • وثان حاكم بيت المقدس أثمد هو الملك أموري الذي قرر الانتقام لنفسه من النوريين ، لان نورالدين كان قد الحق بالصليبيين - قبل مماته - عدة هزائم • لذلك هجم أموري على بانياس في ربيع سنة ١١٧٤م آخر شوال سنة ٥٧٠هـ غير ان ابن المقدم - وهو الوصي على الملك الصالح - راسل الصليبيين وهادنهم وانتهى الامر بالمصالحة بين الطرفين بعد ان سلمهم شيئاً من المال واطلق بعض اسراهم^(١) •

ولما سمع صلاح الدين بالهدنة انكرها ، وكتب الى الامراء بالشام موضحاً لهم انه انما يعد عدته لغزو الصليبيين وقطع دابرهم ، ودعاهم الى نقض المعاهدة التي لهم مع الصليبيين • غير ان المعاهدة ظلت سارية المفعول لعدم ثقة الامراء النورية بنواياه^(٢) •

ولم يتمكن صلاح الدين في تلك الفترة من افشال تلك المعاهدات الا انه لم يستطع التقدم نحو الشام ، نظرا لان أنصار الدولة الفاطمية في مصر راسلوا الصليبيين في الشام وصقلية ، واتفقوا معهم على وجوب القضاء على صلاح الدين والدولة الايوبية في مصر ، عن طريق هجوم الصليبيين على مصر • ففي الوقت الذي يتقدم فيه صلاح الدين لصد الهجوم خارج القاهرة ، يكون أنصار الدولة الفاطمية قد قاموا بثورة داخل القاهرة يطيحون بها بالايوبيين ، ويعيدون الدولة الفاطمية من جديد غير ان المؤامرة اكتشفت واطيح بزعمائها منهم الشاعر عمارة اليمني • وضادف في تلك الاثناء وفاة الملك أموري - ملك بيت المقدس - فتعطل تقدم القوات الصليبية من

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٢ ؛
Champur, Saladin, P. 76.

(٢) مفرج الكروب : ٨/٢ ؛
Stevenson, op. cit., P. 213.

الشام ، ولم يبق الا غزو مصر عن طريق البحر من صقلية حسبما جاء في الاتفاقية المعقودة بين الاطراف المعنية الثلاثة الصليبيون من الشام وصقلية ، والفاطميون من داخل مصر^(١) .

وفي ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ / ٢٨ حزيران ١١٧٤م تقدم اسطول حربي من صقلية الى الاسكندرية ، لتنفيذ خطة المؤامرة السابقة . ولم يكن قائد الاسطول الصقلي (تانكرد كونت ليكا) يعلم بفشل المؤامرة^(٢) . لذلك استمر تدفق قطعات اسطوله الحربي الى الاسكندرية من قبل الظهر الى وقت العصر^(٣) . وكانت عدة ذلك الاسطول « ستمائة قطعة ما بين شيني^(٤) وطرادة^(٥) وبطسه^(٦) وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين الفا على ما

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٤١٢/١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب :

١٢/٢ ؛

Elisseeff (Nikita): Nur Ad-Din (Domas; 1967), 11, PP. 688-690;

Crousset, op. cit., 11, PP. 617-618; Lane Pool, Saladin, P. 126; Stevenson, op. cit., P. 213.

Crousset, op. cit., 11, P. 618.

(٢)

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٤٨-٤٩ ؛ ابن واصل ،

مفرج الكروب : ١١/٢ .

(٤) شيني : انظر الفصل الاول صفحة (٩١) هامش (١) .

(٥) طرادة : انظر الفصل الاول صفحة (٩١) هامش (٢) .

(٦) بطسه : ويقال احيانا بطشة . وقد تحرف الى بسطة ، والجمع بطسات وبطس او بطش . وهي كلمة مأخوذة عن الاسبانية ، ومعناها السفينة الكبيرة . وكانت تستخدم اصلا للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، وكانت تحمل في العادة ما بين ٣٠٠ الى ٧٠٠ مقاتل . (ابن شداد، النوادر (تحقيق الشيبال) : ٤٩ هامش رقم (١) ؛ مفرج الكروب : ٧٢/٢ هامش رقم (١) .

ذكر» (١) . وكانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس حسبما ذكر اسارى الحرب . وكان عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبيرة وغيرها ست سفن ، كانت عدة المراكب الحاملة أربعين مركبا (٢) . وقد حملوا على المسلمين حملة قوية اضطرتهم الى التراجع نحو السور ، ثم حاصروهم بعد ان ضربوا خيامهم حول السور ، وكانت عدتها ثلاثمائة خيمة (٣) .

ومهما كان عدد الصليبيين المهاجمين للاسكندرية مبالغا فيه ، فانه كان كبيرا بالقياس الى قوة المسلمين في الاسكندرية ، لذلك تخوف أهالي البلد من هذه الغزوة كثيرا وقاوموها بشدة (٤) . ومنعوها من النزول بسلام الى ساحل البر في الفترة الاولى . غير ان ضعف قواهم المحلية ، وعدم وجود حصن قوية على ساحل البحر ، دفعت الوالي الى أن يأمر الجنود بالانسحاب الى سور المدينة والقنصل من داخله (٥) . وفي الوقت نفسه كتب الى صلاح الدين مستجدا (٦) .

-
- (١) النوادر السلطانية : ٤٨-٤٩ ؛ أنظر : عبدالعزيز سالم ، تاريخ مدينة صيدا (القاهرة ، ١٩٦١) : ٦٥ - ٦٦ .
 (٢) الروضتين : ٢٣٤/١ ؛ الاصفهاني ، البرق الشامى ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامى : ١٧١/١ ؛ مفرج الكروب : ١٢/٣-١٣ ؛ البداية والنهاية ٢٨٧/١٢ ؛ التاريخ الحربى المصرى : ٤٦ هامش رقم (١) .
 (٣) الروضتين : ٢٣٥/١ ؛ مفرج الكروب : ١٤/٢ .
 (٤) Champdor, Saladin, P. 76.

(٥) يرى ابن واصل بأن كثرة النازلين من الصليبيين على ساحل الاسكندرية « حملوا على المسلمين حملة اوصلوهم الى السور ، وجذفت مراكب الفرنج داخله الى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة » . مفرج الكروب : ١٤/٢ .
 (٦) الكامل : ٤١٣/١١ .

دام حصار المدينة مدة ثلاثة أيام ، كان القتال فيها يتصل من الصباح حتى المساء ، وكانت ترمى بمجانيق كبار تضرب حجارة كبيرة سوداء ، إضافة الى مساعدة ثلاث دبابات بكباشاتها وهي تشبه الابراج في صلابه أخشابها وارتفاعها وقد جلبت من صقلية • الا ان المدينة صمدت صمودا رائعا نظرا لمناعة أسوارها - اذ كان صلاح الدين قد اهتم بتحصينها قبل سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م - ^(١) وصلاح أهلها واستماتتهم في الدفاع عن البلد ^(٢) • فقد تعاضمت بسالة الاهالي ، واشتدت عزائمهم ، وارتفعت مغوياتهم • خاصة عندما سمعوا بقدوم صلاح الدين لنجدتهم • حتى أصبح الرجل منهم - كما ذكر ابن الاثير - « يظن ان صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله » ^(٣) •

ولولا انقاذ صلاح الدين للموقف لسقطت المدينة ، نظرا للاضطرابات التي أحدثها التجار الايطاليون الذين كانوا يقومون بالاعمال التجارية في الاسكندرية ^(٤) ، فقد أبدى هؤلاء التجار استعدادا لمساعدة الغزاة الصليبيين ،

(١) انظر : حسين ومزملاته ، تاريخ مدينة الاسكندرية (القاهرة ، ١٩٦٣) : ٢٩٢-٢٩٣ •

(٢) انظر : النوادر السلطانية : ٤٩ ، الروضتين : ٢٣٥/١ ؛ مفرج الكروب : ١٥/٢ ؛ السلوك : ٥٧/١ ؛ البداية والنهاية : ٢٨٧/١٢ ؛ الشرق الاوسط والحروب الصليبية ٧٤٢/١ •

(٣) الكامل : ٤١٣/١١ •

(٤) كانت مدينة الاسكندرية ، في عهد صلاح الدين ، سوقا هاما للتجارة العالمية ، تتعامل مع ما يزيد على ثمانية وعشرين دولة • وكان يصلها معظم منتجات الشرق ، ولذلك اقامت الجمهوريات الايطالية لها بالاسكندرية فنادق ، لتجارها ، انظر : رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ، ١٩٤٥) : ١٧٧ ؛ تاريخ مدينة الاسكندرية : ٢٩٤-٢٩٥ ؛ احمد النجار ، الانتاج الادبي في مدينة الاسكندرية (القاهرة ، ١٩٦٤) : ٤٧-٤٨ •

ورغبوا ان يصير البلد اليهم ، ليتمكنوا من السيطرة على ميناء الاسكندرية •
ولما لم يتمكن الغزاة من تحقيق أهدافهم ، مني الايطاليون بخيبة أمل ،
وقدموا الى صلاح الدين متوسلين بالاعفاء عنهم والابقاء على امتيازاتهم
التجارية^(١) •

وتظهر سياسة صلاح الدين الحكيمة للدفاع عن الاسكندرية ، في
استخدامه للحرب النفسية ، واعلانه استفار العساكر ، ومحاولته للدفاع
عن الثغور الاسلامية الاخرى القريبة من الاسكندرية • فقد كان نازلا
بمسارده على فافوس ، وما ورد اليه خبر محاصرة الصليبيين للاسكندرية ،
ارسل في الحال مملوئا له الى اهالي الاسكندرية يعلمهم بتقديمه لمساعدتهم •
كما ارسل بعض العساكر الى ثغرى دمياط والاسكندرية^(٢) ، لمنع اي
هجوم معاكس يقع على دمياط التي كانت مهددة - فيما يبدو - بقوات صليبية
ولاشك بان تقدم هذه القوات الى دمياط ، ووصول الملوك الى
الاسكندرية كان له اثر كبير في تثبيت عزائم المدافعين عن البلد من جهة ،
واضعاف معنويات الاعداء من جهة ثانية •

وقد نجحت سياسة صلاح الدين فعلا ، لان أهالي الاسكندرية عندما
علموا بمسير صلاح الدين اليهم استماتوا في الدفاع عن البلد ، حتى ان
بعض العساكر فتحوا أحد أبواب المدينة وخرجوا على حين غفلة ، وهجموا
على آلات الحصار الحربية للعدو واحرقوها^(٣) • واتصل قتالهم الى العصر
من يوم الاربعاء - وهو رابع يوم من أيام الحصار - ثم خرج المسلمون
للقاتل مرة ثانية عند اختلاط الظلام ، وأحدثوا الرعب في نفوس الصليبيين ،

Grousset, op. cit., 11, P. 619.

(١)

(٢) الروضتين : ٢٣٥/١ ؛ مفرج الكروب : ١٥/٢ •

(٣) نفس المصدرين والمكان السابق •

أمامهم وتبعوهم الى البحر ، واقتحموا عليهم بعض المراكب وخسفوها ، واغرقوا من بداخلها بينما ولت البقية الباقية من تلك المراكب الهرب عائدة الى صقلية خائبة • وكان ذلك يوم الخميس أول محرم سنة ٥٧٠هـ^(١) •

وهكذا انتهت هذه الحملة بالفشل الذريع ، وثبتت مركز صلاح الدين بالاسكندرية خاصة ، ومصر عامة ، لانها كانت أول اصطدام جدّي لقوات صلاح الدين لتحصين سواحل مصر - كما سيتبين ذلك في فصل قادم - خوفاً عليها من هجوم مماثل من القوى الصليبية عن طريق البحر • وكانت خسائر المسلمين في هذه الغزوة سبعمائة نفس^(٢) •

وبعد ان انتهى صلاح الدين من تأمين قواه في مصر - بعد ان قضى على ثورات الفاطميين ، وصد الهجوم الصليبي على سواحل مصر - تقدم الى الشام لاصلاح الاحوال هناك نظرا للانشقاقات الخطيرة في دولة نورالدين بعد وفاته وهجوم الصليبيين على ضواحي دمشق •

ولما كان صلاح الدين في هذه الفترة ، ينوي التفرغ لمجابهة أتابكة الشام والجزيرة ويسعى لاقامة الوحدة بين أقاليم البلاد الاسلامية المتفرقة ، لذلك كانت مصلحته السياسية تتطلب المهادنة مع الصليبيين قليلا ، لاجل حشد الطاقات البشرية والاقتصادية ضدهم •

ففي المحرم من سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م خرج صلاح الدين بقواته العسكرية من دمشق بعد ان كان قد ملكها وعظمت قواه في الشام ، فخافه الصليبيون ، وظنوا انه يعتزم الهجوم على بلادهم لا محالة ، لذلك أرسلوا

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٤١٤/١١ ؛ ابو شامة الروضتين : ٢٣٥/١ ؛ الاصفهاني البرق الشامي ، انظر تلخيص البنداري ، سغا البرق الشامي : ١٧٣/١-١٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٦/٢ •
(٢) مفرج الكروب : ١٤/٢ •

اليه يطلبون مهادته^(١) ، وذلك للاحداث القلقة التي أصابت مملكة بيت المقدس آنذ^(٢) . والجذب الذي أصاب منطقة الشام في تلك السنة^(٣) .
فأجابهم اليها صلاح الدين وصالحهم^(٤) .

وقبل ان تنتهي مدة الهدنة راسل بلدوين الرابع - ملك بيت المقدس -

(١) الكامل : ٤٣٥/١١ .

(٢) في هذه الفترة كانت قد حدثت في مملكة بيت المقدس من التطورات السياسية ما يجب الالتفات اليه ، لانه اثر بصورة مباشرة على سير الاحداث في العلاقات التي جرت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس . فقد كان الملك بلدوين الرابع مصاب بمرض الجذام ، ومع ذلك فقد امتاز بمواهب ادارية وعسكرية جيدة . فقد تزعم قيادة الصليبيين ضد صلاح الدين ، وكانت فترة حكمه القصيرة (٥٧٠-٥٨١ هـ/ ١١٧٤-١١٨٥ م) مليئة بالاحداث الجسام : انظر : سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٣٦/٢ .

وإصابة بلدوين الرابع بمرض الجذام احدثت في مملكة بيت المقدس مشكلة في من سيللي ولاية العرش من بعده ، نظرا لان الاميرة سيللي رفضت الزواج منه لمرضه ، لذلك اصبح من اللازم ان يبحث للاميرة عن عريس ، يكون مستقبل مملكة بيت المقدس بيده . وقد وقع اختيار بلدوين الرابع على وليم دي مونتراف الملقب (وليم ذو السيف الطويل) وهو أكبر ابناء المركيز . وقد رضي بهذا الزواج ، وأصبح بحكم زوجيته حاكما على مملكة بيت المقدس ، الا انه توفي قبل ان تمضي سنة على زواجه .
Besant, Jerusalem, The City of Herod and Saladin (London, 1899) P. 375; Grousset, op. cit., 11, P. 700.

(٣) الروضتين : ٢٥٢/١ .

(٤) لم تذكر كافة المصادر المعاصرة نص الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وملك بيت المقدس واكتفت بالقول ان صلاح الدين اشترط على الصليبيين امورا فالتزموها انظر : الكامل : ٤٣٥/١١ ؛ الروضتين : ٢٥٢/١ ؛ السلوك : ٦٠/١ ؛ كنز الدرر : ٦٠/٧ ؛

Runicman, op. cit., 11, P. 410.

الدول الاوربية النصرانية ، يطلب النجداث للوقوف بوجه صلاح الدين ، الذي كانت قواته قد عظمت في منطقة الشام ، حيث كان قد تفرغ لمجابهة الامراء النورية ، وفتح كثيرا من حصونهم ومدنهم ، كما تبين ذلك من قبل .

وفي آب من سنة ١١٧٧م قدم الى القدس فيليب الالزاسي^(١) ، كونت فلاندرز على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين ، الا انه رفض فكرة القيام بهجوم على مصر^(٢) ، واحتج بأنه انما جاء الى القدس للحج ، ولترويج الاميرتين سييل وايزايل من بعض اقربائه^(٣) .

وفي ٢٦ ربيع الاول سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م غادر صلاح الدين الشام الى مصر بعد ان عقد مع الملك الصالح بن نور الدين - اتابك حلب - الصلح^(٤) واتهمز بلدوين الفرصة ، وكرر الطلب على الكونت فيليب الالزاسي ،

(١) اطلق عليه في المصادر العربية (الكسندر اقلندس) انظر : الروضتين : ٢٧٥/١ .

(٢) كان الذي شجع الملك بلدوين الى محاولة القيام بهجوم عسكري على مصر ، هو الامبراطور البيزنطي مانوئيل كومنين ، لانه مني بخسارة فادحة ، انزلها به سلاجقة الروم في ميريوكيفا لوم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م ، وقد ارسل مانوئيل بأسطول حربي مكون من سبعين سفينة تحمل عددا كبيرا من قواته العسكرية الى ميناء عكا . ونظرا لرفض الكونت فيليب الاشتراك معه بالهجوم على مصر ، وملل جنده من طول الانتظار بميناء عكا من دون تحقيق أي شيء ، فقد انسحب الاسطول البيزنطي الى البسفور من دون تحقيق أية مكاسب . انظر :

Grousset, op. cit., 11, P. 644-645; Runciman, op. cit., 11, PP. 411-414.

Setton, A History of the Crusades (Pennsylvania, 1958) Vol. 1, P. 595.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكرب : ٥٢/٢ .

بوجوب التعاون معه لسحق القوات الاسلامية الموجودة على الحدود الشرقية لامارتي الرها وطرابلس ، فوافق الاخير على اقتراحه ، واغارا بقواتهما الصليبية معا على كل من حمص وحماة • وكادت حماة تسقط بأيديهم ، لولا صلابه المسلمين في الدفاع عنها • اذ تمكنوا من اخراج الصليبيين من البلد « بعد ان كادوا يهجمونه ... » ثم رحلوا عن البلد ، وكان مدة حصارهم له أربعة أيام « (١) • وكان الجذب الذي أصاب منطقة الشام من أسباب تلك الغزوة أيضا ، وفي الكتاب الفاضلي المرسل الى بغداد بتوقيع صلاح الدين ما يدل على ذلك : « خرج الكفار الى البلاد الشاميه فاسخين لعقد كان محكما غادرين غدرا صريحا مقدرين ان يجهزوا على الشام لما كان الجذب جريحا ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الاولى ... » (٢) •

معركة الرملة :

بعد فشل الحملة البيزنطية الصليبية على مصر ، وانسحاب الصليبيين من حماة ، بعد هجومهم الفاشل عليها ، وعودة فيليب الانزاسي الى القسطنطينية خرج صلاح الدين من القاهرة يوم الجمعة ٣ جمادى الاولى وخيم بظاهر بليس ، ونودي بين العسكر ان يأخذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار ، فاندفع العسكر الى السوق للاتباع ، وارتفعت الاسعار حتى غرت العماد الاصفهاني ودفعته الى بيع أحماله وأثقاله والمكوث بالقاهرة ، وعدم الاشتراك بالغزوة « لان المدى بعيد والخطب شديد وهذه نوبة السيوف لا نوبة الاقلام » (٣) •

(١) الروضتين : ٢٧٥/١ ؛ مفرج الكروب : ٦٤/٢ •

(٢) الروضتين : ٢٧٥/١ •

(٣) قال العماد الاصفهاني عندما نودي للجهاد « ركبت الى سوق

وفي يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى ٥٧٣هـ / ١١٧٧م نزل صلاح الدين بقواته العسكرية على عسقلان ، واستولى على ما كان بها وقتل عددا من الصليبيين لنكثهم العهد وهجومهم على حارم . ولما رأى العسكر الايوبي خمود الصليبيين انتشروا في معاقلمهم القريبة لغرض الحصول على الغنائم ، وبقي صلاح الدين بقليل من عسكره عند الرملة بالقرب من تل الصافية^(١) ، استعدادا للقيام بهجوم على الصليبيين . وكان العسكر في تلك الساعة - كما حدث صلاح الدين بذلك لبهاء الدين بن شداد - « قد تعبوا تعبى الحرب ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة ، والميسرة الى جهة القلب ليكونوا حالة اللقاء ... » . فبينما اشتغلوا بهذه التعيية هجمهم الفرنج وقدر الله كسرتهم ... ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وظلوا بالطرق وتبدوا^(٢) . وكان مقدم العسكر الصليبي البرنس ارناط ، أمير حصن الكرك^(٣) . تسانده قوات القدس الصليبية بما فيها رجال الدين من الاستبارية والدواية^(*)

العسكر للابتياح وقد اخذ السعر في الارتفاع ، فقلت لغلامي قد بدا لي وقر خطر الرجوع من الخطر ببالي فأعرض للبيع احمالي واثقالي وانتبهز فرصة هذا السعر الغالي ، وانا صاحب قلم لا صاحب علم
الروضتين : ٢٧١/١ .

(١) تل الصافية - حصن بنواحي الرملة قرب بيت جبرين . معجم البلدان : ١٦٧/١ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٣ ؛ انظر : مفرج الكروبي : ٥٩/٢ .

(٣) المقرئزي ، السلوك : ٦٤/١ .

(*) الاستبارية : الكلمة تحريف ظاهر للفظ الافرنجي Hospitallers وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من

الذين كانوا برئاسة الملك بلدوين الرابع^(١) .

كانت خسائر المعركة كبيرة ، نظرا لان العسكر الايوبي كان غير مجتمع ، فكان سهل المأخذ . ولذلك تعقبه الصليبيون ، وقضوا عليه ، وغنموا ما كان يحويه من أثقال . وتكاثر الصليبيون على صلاح الدين بقصد القضاء عليه - وهو في طائفة يسيرة من عسكره - الا انه قاوم مقاومة شديدة ، حتى دخل الليل « فسلك البرية الى ان مضى في نفر يسير الى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة ، وقل عليهم القوت والماء ، وهلك كثير من العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير »^(٢) ، اما بقية العسكر التي كانت متفرقة ، فقد قتل أكثرها ووقع الباقون في الاسر منهم الفقيه عيسى الهكاري الذي كان من رجال العلم والدين والحرب^(٣) . « ولم تعظم هذه الواقعة الا بسبب ما اتفق للمسلمين من دخول الرمل وعدم الماء والدليل »^(٤) . اما خسائر الصليبيين في هذه المعركة فانها - طبقا للكتاب الذي أرسله صلاح الدين الى بعض امرائه بعد وصوله الى القاهرة - كانت كبيرة أيضا ،

الفرسان الدينيين . وقد أسست هذه الطائفة للقيام بالحرب المقدسة ضد المسلمين - على حد زعمهم - في كل الاحوال ومهما بلغت التضحيات ولمعرفة المزيد عنها أنظر :

King (E.J.): The Knights Hospitallers, PP. 1-33;

المقريري ، السلوك : ٦٨/١ (تحقيق مصطفى زيادة) ، هامش رقم (٤) .
اما الداويه فقد ورد تعريفها من قبل .

(١) عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٥٧/٧ .

(٢) مفرج الكروب : ٦١-٦٠/٢ .

(٣) أنظر : ابن العماد ، شذرات الذهب : ٢٤٤/٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٩٧/١٣ ، مرآة الجنان : ٣٩٨/٣ .

(٤) العماد الاصفهاني : أنظر مفرج الكروب : ٦١/٢ ، أنظر : الكامل : ٤٤٣-٤٤٢/١١ .

فقد قتل منهم « اضعاف المقتولة من المسلمين »^(١) .

ورغم ما مني به صلاح الدين ، في هذه المعركة ، من هزيمة قاسية ،
الا انه برهن على انها لم تكن حاسمة ، وان بإمكانه تلقين الصليبين دروسا
لن ينسوها . فاعلن تحمله مسؤولية اخذ الثأر منهم و « حلف الا تضرب
له نوبة حتى يكسر الفرنج »^(٢) .

ولكي يكسب صلاح الدين ثقة جمهور المسلمين ، وبقطع الطريق على
اولئك الذين ينتظرون الفرص لتهديم منجزات دولته ، اتبع سياسة حكيمة
قضت بتفريق الاموال الكثيرة على الناس ، وخاصة على المتضررين منهم ،
أو على أهاليهم ، فقد « اهتم بافاضة الجود . . . وجبر الكسير وفك الاسير
وتوفير العدد وتكثير المدد وتعويض ما نفق من الدواب »^(٣) . وبذلك ارضى
عامة الشعب المصري ، ودفعهم الى نسيان الآلام التي أصابتهم « فسلوا
ما نابهم ولم يأسوا على ما أصابهم »^(٤) .

كما عمل صلاح الدين على معاقبة الذين اعتقد بأنهم كانوا سببا في
هزيمة الرملة « فقطع اخباز »^(٥) جماعة من الاكراد ، من أجل انهم كانوا
السبب في هذه الكسرة »^(٦) .

وربما كانت أخطاء هؤلاء الاكراد تتمثل باشارتهم على العسكر الايوبي

(١) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر : البنداري ، سنا
البرق الشامي : ٢٦١/١ .

(٢) المقرئزي ، السلوك : ٦٤/١ .

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٢٧٤/١ .

(٤) العماد الاصفهاني ، انظر : الروضتين ٢٧٤/١ .

(٥) الاخباز : جمع خبز وهي ما كان يقدم للجندي من ارزاق اضافة
الى راتبه وقد تكون تلك الارزاق أرغفة من الخبز .

(٦) المقرئزي ، السلوك : ٦٥/١ .

بأن تعبر المينة الى جهة الميسرة ، والميسرة الى جهة القلب عن غير عمد ،
عندما كان الصليبيون قد اقتربوا من العسكر ، بحيث انهم ما ان اشتغلوا بهذه
التعنية ، الا وكان الصليبيون على رؤوسهم - كما تبين ذلك من قبل - .

ولما كان امر الشام يهم صلاح الدين ، كما يهمه امر مصر ، لذلك
عمل جاهدا على ابلاغ أهل الشام أخبار وصوله الى مصر سالما بالسرعة
الممكنة ليطمئن الناس وتأمين نفوسهم فلا يصيب العلاقات السياسية بين
الجانبين فقورا . ولهذا ارسل صلاح الدين على أجنحة الطير الكتب
المستعجلة ، التي قصد من ورائها ابطال الدعايات المغرضة ضده ، وقد ذكر
العماد الاصفهاني بان صلاح الدين ، حال وصوله الى القاهرة أمرهم بكتابة
الكتب الى من يهمهم الامر في الشام فقال : « فسيرنا بها البشائر وانهضنا
بطاقتها الطائر لآخراس السنة الراجيف وابدال التأمين من
التخويف » (١) .

ونتيجة لهذه السياسة الحسنة التي اتبعها صلاح الدين بعد الهزيمة ،
فقد استمر تأييد جمهور المسلمين له ، حتى ان بعض الشعراء قصده بالمدح
ليهنوا عليه الكسرة (٢) . وقد تمكن صلاح الدين بفترة لم تتجاوز الشهرين
من اعادة تنظيم قواته العسكرية ومهاجمة الصليبيين ، وفي نص الكتاب الذي
أورده العماد الاصفهاني ما يدل على ذلك : « وأما نوبة العدو في الرملة فقد
كانت عشرة علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ، ولزمننا ما نسي من اسمها ،

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٢٧٤/١ .

(٢) كان من بين الشعراء الذين قصدوا صلاح الدين بعد كسرة
الرملة ، الشاعر ابن سعدان الحلبي ، الذي مدحه بقصيدة جاء في بعضها :

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم ان يقرفوك بجرح غير منديل
وهل يخاف لساع النخل ملتبس مرت على اصبعيه لذة العسل

(الروضتين : ٢٧٤/١)

ولزمهم ما بقي من عزمها ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها الى الشام ، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة والحريم المستور والمال الوفور ،^(١) .

وصل صلاح الدين الشام بعد هزيمة الرملة ، واستمرارا لسياسته الحسنة التي قصد من وراثتها اعادة الثقة الى نفوس المسلمين ، وقطع دابر المضللين ، كان يأمر عسكره ان يقوم بمظاهرات عسكرية ، وكان يستدعي بعضا من العساكر المصرية ويكتب الى أخيه العادل « ان ينتخب من الاقوياء بالخيال والعدة الفا وخمس مائة فارس ، وأشار على الملك المعظم بالتوجه الى مصر مستصجبا معه من طال بالشام بيكاره ، وبان انقاضه واقتراره . ورأينا المصلحة في مسيرة لمنافع كثيرة وفوائد اثيرة . منها : التخفيف عن الشام في مثل هذا العام ، وذلك بعد ان رتب في بعلبك نوابه واقطعها اصحابه ، ومنها : ان في وصوله الى مصر وقد خرج منها عسكر اسما كبيرا وصيتا عظيما . فان الارجاف شائع باسطول صقلية المخذول وخروجه . ووصول اخينا يكسر من عزم العدو ، ويحطه من ذروة القوت . ومنها : انه اذا أقام بالقاهرة تصرف أخونا الملك العادل في البلاد بعسكره وعذب صفو مقصده في موارده وصدقه ،^(٢) .

وبعد هذا الانتصار الذي حققه الصليبيون على القوات الايوبية في معركة الرملة^(٣) ، عمدوا الى انشاء بعض الاستحكامات والحصون

(١) الروضتين : ٢٧٦/١ ؛ مفرج الكروب : ٦٥/٢ . ع
(٢) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر : البنداري ، سنا
البرق الشامي : ٣٢١-٣٢٢ .

(٣) تحدث البطريق الدويهي عن انتصار الصليبيين على صلاح الدين في معركة الرملة ، وأوضح بأن عدد العسكر الصليبي كان (٣٧٥ فارسا) ، بينما كان عدد قوات صلاح الدين العسكرية (٢٦ الف) . ومع

العسكرية ، واختاروا بناء حصن قوي عند « مخاضة الاحزان »^(١) في تشرين الاول سنة ١١٧٨م / ٥٧٤هـ ، وهو يبعد عن دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين طبرية وصفد نصف يوم^(٢) .

وقد اهتم الصليبيون كثيرا بتعمير هذا الحصن ، فقد كان - طبقا للكتاب الفاضلي المرسل الى بغداد - عرض حائطه أكثر من عشرة اذرع ، وكانوا قد قطعوا له عظام الحجارة ، كل خمسة منها سبعة اذرع الى ما فوقها ودونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، كما جعلوا بين الحائطين حشوا من الحجارة الصم ، وقد جعلت سقيته بالكلس حتى أصبح الجميع

قلة العسكر الصليبي ، فانه تمكن من هزيمة العسكر الايوبي ، لرفعه الصليب ، ولان الملك بلدوين استغاث بالله على المسلمين وكان اغلب عسكره من فرسان الهيكل ، والحقيقة ان لما جاء به الدويهي مبالغ فيه بشكل واضح وكبير ، فلم تذكر المصادر جميعا ما جاء به الدويهي اولا ، ثم لو كان لرفع الصليب من اهمية في الانتصار . على الاعداء ، فلماذا اذن خسر الصليبيون معركة حطين مثلا سنة ٥٨٣هـ وكانوا يحملون الصليب ايضا . والذي يظهر ان الدويهي ، لما كان من رجال الدين المسيحي - بطريرك - لذلك فقد اعتمد التفسير الديني اسلوبا للتحليل التاريخي ، وكان بكتابته مبالغا بشكل كبير .

انظر : تاريخ الأزمنة ، نشره على اصوله فردناند في مجلة المشرق (بيروت ١٩٥١) ص ٧٨ .

(١) مخاضة الاحزان : بلد بين دمشق وحلب والساحل ، زعم بأنه كان مسكن النبي يعقوب (ع) ايام حزنه على يوسف . ويقول ابن الاثير بأنه يقارب مدينة بانياس الكامل : ٤٥٦/١١ ويرى ابن كثير بأن الذي بنى هذا الحصن هم جماعة فرسان الداوية لاستخدامه كمرصد لحرب المسلمين . البداية والنهاية : ٣٠٠/١٢ ، انظر : جب ، صلاح الدين ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

كأنه جدار واحد لا يؤثر فيه الحديد^(١) .

وقد استشعر صلاح الدين خطورة هذا الحصن على بلاد المسلمين ، وجاءه من أخبره بأنه « متى احكم بناء هذا الحصن تمكن الوهن من بلاد الاسلام »^(٢) . ونظروا لانشغال صلاح الدين بأمر بعلبك^(٣) ، لذلك أجل التفاته اليه ، غير انه لم يهمل امر الحصن وصرح لامرائه انه اذا أتم الصليبيون بناء هذا الحصن « نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس »^(٤) .

وبعد ان أتم صلاح الدين أمر بعلبك تفرغ لحصن بيت الاحزان ، فهجم عليه وتخطف بعض الصليبيين من حوله ، فاضطر الملك بلدوين الى استدعاء قواته العسكرية لوضع حد لاغارات صلاح الدين وتقدم للمنازلة^(٥) . وكان صلاح الدين قد اجمع ومن معه من العسكر على اقتحام بلاد الصليبيين والاستيلاء على ما معهم في يوم واحد ثم يعودون فرحلوا صوب البقاع ليلة الاحد ٢ محرم سنة ٥٧٥ هـ . ولما أصبح صلاح الدين جاءه الخبر بأن الصليبيين عازمون على قتاله ، فتوجه اليهم والتفاهم قرب تل القاضي في سهل

(١) ابو شامة ، الروضتين : ١٣/٢ ؛ مفرج الكروب : ٧٢/٢ ؛
البداية والنهاية : ٣٠٤/١٢ .

(٢) مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

(٣) كان السبب الذي اشغل صلاح الدين بأمر بعلبك ، انه لما فتحها سلم أمر ولايتها لابن المقدم ، الا انه في هذه السنة ٥٧٤ هـ طلبها منه أخوه الملك العادل توران شاه لانها مرباه ومنشأه ولم يمكن صلاح الدين مخالفته . لذلك امر ابن المقدم بالنزول منها وتعويضه بأحسن منها ، الا انه رفض الطلب ، فحاصره صلاح الدين حتى اضطره الى التنازل عنها وعوضه بارين وكفر طاب . انظر : الروضتين : ٥/٢ ، البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣٣٣-٣٣٤ ؛ مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

(٤) مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

(٥) عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٦١/٢ .

مرج العيون • ورغم عدم استعداد صلاح الدين لمواجهة الصليبيين مواجهه فعلية ، الا ان سياسته العسكرية اقتضت عدم الانسحاب من ساحات المعركة والمحافظة على قابلية عسكره القتالية ، ولذلك صدم الصليبيين وهزمهم وأسر بعضا من فرسانهم منهم مقدم الداوية ومقدم الاستبارية وأمير طبرية وجنين وقسطلان ويافا وأخو صاحب جييل وابن القومصية وابن بارزان أمير الرملة وقدر عدد اسراهم بـ (٢٧٥ رجلا) ، وقد نقلوا الى دمشق ، ففدى ابن بارزان نفسه بعد سنة بـ (١٥٠ ألف دينار سورية) واطلاق ألف أسير مسلم ، اما مقدم الداوية فقد هلك بالسجن وسلمت جثته للصليبيين عوضا بأسير مسلم^(١) .

وبعد هذا الانتصار التفت صلاح الدين من جديد الى حصن بيت الاحزان ، وكانت سياسته تجاه الحصن في بداية الامر اتباع الطرق السلمية ، وعدم التضحية بالعسكر وتعبئتهم للمواقف الحازمة ، لذلك راسل الصليبيين وطلب منهم تخريب الحصن وبذل لهم عوضا عنه ستين ألف دينار ، غير أنهم امتنعوا ، فزادهم الى مائة ألف دينار • ولما وجد منهم اصرارا على الحفاظ على الحصن واستحكاماته ، أمر عسكره بالتوجه اليه وتخريبه يوم الخميس ٥ ربيع الآخر سنة ٥٧٥هـ^(٢) .

ونظرا لكون صلاح الدين صمم على تخريب الحصن - بعد فشل

(١) الكامل : ٤٥٦/١١ ؛ الروضتين : ٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ٧٦-٧٥/٢ .

Sivan, L, Islam et la Croisade (Paris, 1968), P. 95.

(٢) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٢٦-٢٤ ؛ الكامل : ٤٥٦-٤٥٧ ؛ سنا البرق الشامي : ٣٣٨-٣٣٥/١ ؛ البداية والنهاية : ٣٠٠/١٢ ؛

Sivan; op. cit., P. 95.

الطرق السلمية - لذلك امر بتجنيد قوات اضافية من عسكر التركمان والاجناد وسيرهم الى الحصن لمساندة القوات الشامية والمصرية . وفي ٢٥ آب سنة ٥٧٥هـ ضرب حول الحصن حصارا شديدا ، واقتحمت القلعة في اليوم السادس^(١) . بفضل الخطة العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين . فقد فرق الامراء على جوانب البرج ، وأخذ هو الجانب الشمالي^(٢) . ولما اشعلت النيران في بعض نقوب السور ، ووجد صلاح الدين ان تلك النيران سوف تعيق مواصلة الجند من اتمام مهمة توسيع النقب المحدثه في السور ، نادى انه « من جاء بقربة ماء فله دينار »^(٣) مما دفع بالعسكر الى التسابق في اطفاء النار حتى تمكنوا منها وواصلوا التوسع في نقب السور حتى اسقطوه يوم الخميس ٢٤ ربيع الاول سنة ٥٧٥هـ^(٤) .

ورغم الصعوبات الكثيرة التي واجهت صلاح الدين ، كانتشار روائح القتلى وكثرة الامراض ، فانه لم يغادر المكان حتى انهى هدم الحصن تماما^(٥) من الاساس وجعله دكا كأن لم يكن بالامس ، ليعطي الصليبيين درساً عملياً لن ينسوه ، بأن وعده لن يخلف ، وان امره لن يعارض ، وان اندحاره في معركة الرملة لم يكن الا حادثاً عارضاً .

وقد اكبر الشعراء هدم صلاح الدين لحصن بيت الاحزان ، منهم الشاعر علي ابن محمد الساعاتي الدمشقي المتوفى سنة ٦٠٤هـ والذي جاء في قصيدته :

(١) ابن شاهنشاه ، مضمّن الحقائق : ٢٨ - ٢٩ ؛ جب ، صلاح الدين : ١٣١ .

(٢) الروضتين : ١١/٢ ؛ مفرج الكروب ٨١/٢ .

(٣) الروضتين : ١١/٢ .

(٤) الروضتين : ١١/٢ ؛ مفرج الكروب : ٨٢/٢ .

(٥) نفس المصدرين والمكان السابق ؛ جب ، صلاح الدين : ١٣١ .

أُتسكن أوطان النسيين عصبية تمين لدى ايمانها وهي تحلف
صحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف^(١)

ونظرا لان صلاح الدين أصبح يحكم مصر وجزءاً كبيراً من الشام ،
لذلك وجه كل جهده للقضاء على الحصون الصليبية التي تقع بين مصر
والشام . والتي كانت تهدد طرق المواصلات ، وعلى رأس هذه الحصون ،
حصن الكرك^(٢) الذي كان يعرقل طريق التجارة ، بحيث ان التجار كانوا
لا يستطيعون المسير من مصر الى الشام الا بموافقة العسكر^(٣) . اضافة الى
ان امير هذا الحصن هو البرنس ارنات^(٤) كان من اغدر امراء الصليبيين
وانكتهم للمهود^(٥) . فقد كان مثلاً بين صلاح الدين وملك بيت المقدس
(بلدوين الرابع) سنة ١١٨٠م هدنة عامة في البر والبحر اتفق عليها لمدة
ستين ، نظرا للجذب الذي أصاب منطقة الشام ، في ذلك العام ، ورغبة

(١) الكامل : ٤٥٨/١١ ؛ الروضتين : ١٢/٢ ، مفرج الكروب :
٨٤/٢ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ / ومن الشعراء الذين مدحوا صلاح
الدين بمناسبة هدم حصن بيت الاحزان ايضا الشاعر تشو الدولة احمد
بن تقادة الدمشقي وقد جاء في قصيدته :

هلاك الفرنج أتى عاجلاً وقد آن تكسير صلبانها
ولم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت اخوانها

انظر : الكامل : ٤٥٧/١١ .

(٢) حصن الكرك : انظر ما ذكرناه عن هذا الحصن في الفصل
الاول صفحة (٥٦ ، ١٠٢) .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٦٣ .

(٤) يسمى البرنس ارنات في المصادر غير العربية باسم «رينالد
شاتيون» انظر : جب ، صلاح الدين : ١٣٩ و ٤٢٠ .

(٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق ٢ : ٧١/٢ ،

King: The Knights Hospitallars, P. 111.

كلا الطرفين باستخدام زمن الهدنة لتعبئة القوى وكسب الاحلاف^(١) ، غير ان الهدنة لم تستمر الا سنة واحدة ، وذلك لان البرنس ارناط نقضها باستيلائه على قوافل تجارية اسلامية^(٢) ومهاجمته للمدينة المنورة^(٣) . فاضطر صلاح الدين الى نقض الهدنة من جانبه أيضا وهاجم حصن الكرك عدة مرات حتى تمكن من فتحه سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م^(٤) .

ومن الغزوات المتكررة التي شنّها صلاح الدين على حصن الكرك ، نرى بأن سياسته كانت تهدف الى التركيز والاستمرار في قتال الصليبيين الذين بداخل الحصن كي يتمكن من فتحه بأقل جهد ، وبأقل خسارة ممكنة ، قبل ان تأتيه الامدادات من الخارج ، كما حدث ذلك في الغزوة التي قام بها في ١٤ جمادى الاولى سنة ٥٨٠هـ ، حيث نصب مرة واحدة تسعة مجانيق أمام الباب ، تمكن بواسطتها من هدم السور المقابل لها ، غير ان الخندق العميق الذي يفصل السور عن العسكر الايوبي ، وخشونة

(١) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٦٣/٢ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٨٠٤/١ و ٨٠٧ ؛ Runciman, op. cit., 11, P. 416

(٢) في سنة ٥٧٧ هـ هجم ارناط على قافلة تجارية كانت قادمة من مصر ، واستولى على ما كان فيها من اموال ومتاع ، كما عزم في هذه السنة على غزو المدينة المنورة فقد قصد تيماء من ارض الحجاز غير ان عز الدين فرخشاه صده عن مطلبه . مفرج الكروب : ١٠١/٢ - ١٠٢ ؛ البداية والنهاية : ٣٠٩/١٢ ؛ تاريخ ابن الوردي : ١٢٩/٢ ؛ جب ، صلاح الدين : ١٤٢-١٤١ .

(٣) انظر : رحلة ابن جبير : ٥٨-٦٠ ؛ الكامل : ٤٩٠/١١-٤٩١ .

(٤) للاطلاع على غزوات صلاح الدين لحسن الكرك انظر : النوادر السلطانية : ٦٣ ، ٧٧ ؛ الكامل : ٥٠٧/١١ ؛ الاعلاق الخطيرة ، ق٢: ٧٠-٧٣ ؛ السلوك : ٨٣/١-٨٤ .

الأرض ، ووصول بعض الامدادات الى الصليبيين الذي بداخل الحصن^(١) ،
اجبرته على الانسحاب قبل اكمال مهمته في تحطيم الحصن وعبور الخندق
العميق الواسع .

ورغم هذه الغزوات الكثيرة التي حدثت بين صلاح الدين والصليبيين ،
فان أمير طرابلس (القومص)^(٢) تقدم الى صلاح الدين ، وطلب الانتماء
اليه ، بسبب المشكلات التي حدثت داخل مملكة بيت المقدس ، والتي كان
من نتائجها ابعاده عن الحكم^(٣) . وقد استمر القومص بمصاحبة صلاح الدين

(١) انظر : الكامل : ٥٠٧/١١ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٨٥ ؛
مفرج الكروب : ١٥٨/٢ - ١٥٩ .

(٢) يسمى القومص في المصادر الاجنبية بريموند الذي كان اميرا
لمدينة طرابلس ، ثم انتقل ملكه الى مدينة طبرية ، ولما حاصر صلاح الدين
طبرية ، كانت زوجته بداخل القلعة محصورة ، وكانت هي المرسلة الى
ملك بيت المقدس (جاي لوزجنان) طالبة النجدة قبل حدوث معركة
حطين سنة ٥٨٣ هـ ، والتي كان ريमوند هو الوحيد الذي نجى من هذه
المعركة ، حيث هرب الى صور . انظر : عاشور ، الحركة الصليبية :
٨٠٢/٢ ؛

Lane Pool, A History of Egypt, P. 208.

(٣) قيل ان اسباب المشاكل التي حدثت في مملكة بيت المقدس
تمثلت في ان الملك بلدوين الرابع المجنوم ، كان له اخت اسمها سيبيل ،
ولما توفي خلفته في حكم بيت المقدس ، ولم يكن لها الاطفال صغير هو الذي
سمي بلدوين الخامس . وقد تزوج القومص بسيبيل ، غير انه لما توفي
بلدوين مدت سيبيل عينها على احد القادمين من الغرب فتزوجته وترك
القومص . ثم ان المقدم الجديد بعث الى القومص وطلب من حساب البلاد ،
فوقع الخلاف بين الطرفين ومال القومص على اثره الى جانب صلاح الدين
ضد مملكة بيت المقدس . انظر : الروستين : ٧٤/٢ - ٧٥ ؛ مفرج
الكروب : ١٨٤/٢ - ١٨٥ ؛

Runcirman, op. cit., 11, P. 422-450.

حتى معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وقد قيل بأنه أراد ان يسلم
لولا خوفه من أبناء ملته (١) .

وهكذا يتبين ، مما سبق ، بان سياسة صلاح الدين اقتضت ، في هذه
المرحلة ، على عارات حافظه ومرئزة على بعض معادل وحصول الصليبيين ،
والموافقة على عقد مهادنات قصيرة لغرض التفرغ الدامل لبناء الوحدة وتعبئة
القوى . وبعد ان حقق هدفه السابق ، تقدم لتصفية حسابيه الكامل مع
الصليبيين . وقبل التطرق الى شرح تلك الخطوات ، اشير الى مساليتين
هامتين ، أولاهما : ان صلاح الدين ما كان له ان يحقق أهدافه لولا نجاح
سياسته تجاه القوى الاسلامية . فلو لم يتمكن من توحيد مصر والشام
وبلاد الجزيرة ، لما تمكن ان يتصدى للصليبيين لوحده ، ولو لم يتمكن
من اتمام الوحدة لظلت سياسته الهادفة الى تحرير القدس مجرد امنية
جميلة . وثانيهما : ان صلاح الدين لم يتمكن من تطبيق سياسته والوصول
الى أهدافه لولا ان خدمته بعض الظروف المواتية ، التي تمثلت بوفاة
نورالدين ، واضطراب أحوال الصليبيين الداخلية من جهة ثانية .

الا انه يجب الا نبالغ كثيرا في تضخيم الموارد التي حصل عليها
صلاح الدين من المدن الاسلامية بعد اتمامه للوحدة ، لان ذلك يخالف
الوقائع التاريخية ، ويخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين :

أولاهما - انه يبرر خسارة الصليبيين أمام صلاح الدين . وثانيهما :
انه يقلل من أهمية انتصارات صلاح الدين .

وكثيرا ما ذكرت بعض المصادر الغربية والعربية وصفا لا يخلو من
مبالغة كبيرة في تعداد الطاقات البشرية والاقتصادية التي أصبحت تحت امرة

(١) العماد الاصفهاني في البرق الشامى انظر : الروستين :

صلاح الدين عند اعلانه مجاهدة الصليبيين ، من دون ذكر للمطابقات الهائلة التي كانت لدى الصليبيين ، اضافة الى مبالغتها بذكر الضعف الذي اتاب مملكة بيت المقدس قبل معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م * ومثال لذلك ما ذكره غرايه بقوله : « التفت صلاح الدين الى الافرنج ليحاربهم بالموارد الضخمة التي أصبحت تحت تصرفه - موارد مصر والشام والجزيرة واليمن - وآن أمرا طيعا ان يكسب صلاح الدين انتصارات أضخم من انتصارات أسلافه ، ولكنها قد لا تبدو بهذه العظمة اذا قيست بموارد امبراطورية صلاح الدين البشرية والاقتصادية » (١) .

وفي قول غرايه تضخيم لاهمية تلك الموارد في انتصارات صلاح الدين ، ولو لم يتجاهل المؤلف ذكر الموارد والطاقات الضخمة التي كانت بيد الصليبيين ، والتي تفوق موارد دولة صلاح الدين اضعافا مضاعفة ، لتبين بوضوح قلة أهمية موارد صلاح الدين ، نظرا لان العالم النصراني كان يمد الصليبيين بطاقات بشرية واقتصادية هائلة ، تمثلت بخيرة أبطالهم وقياداتهم ، وأضخم اتاجاتهم الحربية ومعداتهم التي كانوا قد سخروها لمواجهة التحدي الاسلامي ، وبخاصة في الحرب الصليبية الثالثة التي قاومها صلاح الدين ، والتي كانت تضم ملك المانيا وفرنسا وبريطانيا وامراء ايطاليا والبندقية وكل طاقات الكنائس الاوربية ورجالها حتى ان ريتشارد بحث عنمن يشتري منه لندن ، لينفق أموالها في الحرب ضد صلاح الدين (٢) * في الوقت الذي كان

(١) - العرب والأتراك (دمشق : ١٩٦١) : ٢٤٥ ، وانظر ايضا : عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٦٥-٧٦٩ : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ١٦٩-١٧٠ : كلاي ، فتح القسطنطينية : ٧٤-٧٥ ، فيشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ١٩٠/١ .

صلاح الدين يحارب بمساكر مصر والشام وبلاد الجزيرة فقط ، لان بلاد الحجاز رغم تبعيتها لصلاح الدين ، غير انها لم تشترك في الحروب ضد الصليبيين نظرا لبعدها عن ساحات القتال وعدم امتلاكها لقوى عسكرية كبيرة . بل بالعكس كانت تشغل صلاح الدين من التفرغ بكامل قواه للصليبيين ، لانه كان يرسل اليها بين الفترة والاخرى بعض قواته العسكرية للدفاع عنها ، وبخاصة عن اليمن ، والقضاء على ما كان يدور فيها من مشاكل كان يثيرها اتباع الدولة الفاطمية هناك . كذلك لم تقدم بغداد أية مساعدات كبيرة لصلاح الدين ، سوى بعض الاحمولة من النفط الخام^(١) .

(١) انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ق ١/١ : ٤٠١ ، وسوف اتطرق الى تبين موقف الخلافة العباسية من صلاح الدين واسباب عدم اشتراكها عمليا بكل طاقاتها في الحرب ضد الصليبيين في الفصل الرابع . اما لمعرفة الطاقات التي اشتركت في الحرب الصليبية الثالثة ضد صلاح الدين والملوك الذين اشتركوا فيها انظر : الكامل : ١٢/٦٥ ؛ الروضتين : ١٨٢/٢ - ١٨٣ ؛ الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٣٢٩ و ٣٣٥ و ٣٣٧ ؛ بالركر ، الحروب الصليبية : ٨٦ - ٨٧ رئيسمان ، المدينة البيزنطية : ٧٠٦ - ٧٠٧ ، Champdor, Saladin, P. 268.

ثانيا : (معركة حطين)

« لم يكن ثمة نصر كامل لصلاح الدين او نتائج مثمرة كما حدث في معركة حطين ، ولم يكن ذلك النصر الكامل الا نتيجة الخطة الجيدة والقيادة القوية » .

Rosebault (C.J.): Soladin Prince of Chivalry (London: 1930), P. 182.

ثانيا - معركة حطين :

لم يدخل صلاح الدين في صراع حاسم مع الصليبيين في الفترة السابقة لانشغاله باقامة الوحدة بين المدن والاقاليم الاسلامية التي تمكنه بطاقتها من تحقيق هدفه . وبعد كفاح دام اثنتي عشرة سنة تمكن من تحقيق وحدة قوية تمتد من النيل الى الفرات ، ولم يبق أمامه - طبقا لمقتضيات الواقع السياسي والعسكري - الا اعلان الجهاد ضد الصليبيين ، بعد ان كسب على المستوى الايدولوجي والاعلامي ثقة جمهور المسلمين^(١) .

وكان كل شيء معدا بالنسبة لصلاح الدين عند نهاية سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م غير ان صلاح الدين كان محافظا على شروط المعاهدة التي ابرمت مع مملكة بيت المقدس سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، وكان عليه ان ينتظر حتى يزود بذريعة للهجوم عليهم^(٢) . وربما أراد صلاح الدين الا يدفع عسكره لقتال لا يعلم نتائجه ، فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة ، لذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعا ، ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها . وجاءت الفرصة مناسبة بالنسبة لصلاح الدين عندما نقض البرنس ارنات أمير الكرك العهد الموقود بين صلاح الدين والصليبيين^(٣) بعد ان « اظهر انه على الهدنة وجنح للسلم واخذ الامان لبلده واهله وقومه ، وبقي الامن له شاملا والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا ، وهو يمكن الجائي والذاهب حتى لاحت له فرصة في الغدر فقطع الطريق وأخاف السيل

Look : Sivan, L'Islam et la (reisade, P. 94; (١)
Lane Pool, A History of Egypt, P. 208.

(٢) جب ، صلاح الدين : ١٤٧ .

(٣) Look, Atiya, Crusade, Commerce and Cul-
ture (London, 1962), PP. 78-79.

ووقع في قافلة ثقيلة معها نعم جليلة فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من
الاجناد فاقومهم في الشرك وحملهم الى الكرك واخذ خيلهم والعدة ، فأرسلنا
اليه ورمنا فعالة وقبحنا احتياله واغتياله فأبى الا الاصرار والاضرار فندّر
السلطان دمه « (١) » .

كان صلاح الدين آتئذ بدمشق فأرسل الى جميع الاطراف باستدعاء
العساكر للمسير لحرب ارناط ، فجاءته من كل فج ، وخرج هو من دمشق
مسرعا الى الجنوب في ١ - محرم - ٥٨٣ هـ / ١٣ - ٥ - ١١٨٧ م بعد ان ترك
ولده الاكبر الافضل عند رأس الماء القريبة من دمشق « يستدني اليه الامراء
الواصلين ويجمع الاعارب والاعاجم والأتراك » (٢) ، وتقدم صلاح الدين الى
قصر السلام القريبة من بصرى ليمنع اعتداء ارناط على قوافل الحجاج
القادمين من مكة والتي قيل ان اخته كانت فيها (٣) .

وقد تمكن صلاح الدين من منع اعتداء ارناط على قافلة الحجاج ، التي
وصلت الى مصر بسلام . وبعد ذلك خرج صلاح الدين من بصرى الى
عشترا ، واستعرض عسكره فكان اثني عشر الف مقاتل رتبهم اطلابا (٤) ،

(١) العماد الاصفهاني ، انظر الروضتين : ٧٥/٢ ، لمعرفة المزيد
عن غزو ارناط للقافلة الاسلامية وردود الفعل عند صلاح الدين انظر :
النوادر السلطانية : ٧٤-٧٥ ؛ الاصفهاني ، الفتح القسي : ١٣ ، العلمي ،
الانس الجليل : ٣١٩/١ ، الدويهي ، تاريخ الازمنة : ٨٧-٨٨ ؛ تاريخ
ابن الوردي : ١٣٧/٢ .

(٢) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر : الروضتين
٧٦/٢ .

(٣) مفرج الكروب : ١٨٦-١٨٧/٢ ؛ العريني ، الشرق الاوسط
والحروب الصليبية ٨٢٣/١ ؛

Lane Pool, A History of Egypt, P. 208.

(٤) الاطلاب : جمع طلب وهي كلمة كردية معناها الامير الذي
يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، وتطلق على قائد المائة او السبعين،

وخرج بهم الى الاردن يوم الجمعة ١٧ - ربيع الآخر - ٥٨٣ هـ ونزل
بشعر الاقحوان ، وأقام بها خمسة أيام يعين مواقع القتال ، ومواقف الامراء ،
وكان عسكره قد أحاط ببحرية طبرية^(١) عند قرية الضيبرة^(٢) .

ولما بلغ الصليبيون خبر اجتماع العسكر الايوبي وتقدمه نحو الاردن ،
علموا بأن صلاح الدين قاصدهم ، لذلك اجتمعوا واصطلحوا ، ودخل
القومص معهم ، بعد ان كانت بينه وبين صلاح الدين معاهدة سلام ،
واحتشدوا عند صفورية بعد ان رفعوا صليب الصلبوت^(٣) ، وكانوا في
خمسين الفا^(٤) ، وقيل في عشرين الفا^(٥) ، غير انهم لم يتقدموا لحرب

وأول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام في أيام صلاح الدين ، ثم عدل
مدلوله واصبح يطلق على الكتيبة انظر : السلوك (تحقيق مصطفى زيادة)
٢٤٨/١ ، هامش رقم (٢) .

(١) تقع طبرية فوق جبل مطل على بحيرة طبرية ، وعليها سور
حصين ، وبحيرتها لا يعيش فيها حيوان . كانت في أيدي المسلمين الى
ان ملكها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ وبقيت بأيديهم حتى استردها صلاح
الدين سنة ٥٨٣ هـ/ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق ٢ ، ج ٢/١٢٩ -
١٣٠ و ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٥-٧٦ : الروضتين : ٨١/٢ : مفرج
الكروب : ١٨٧/٢ - ١٨٨ .

(٣) صليب الصلبوت : هو قطعة من الخشب ، يعتقد الصليبيون
بأن المسيح (ع) صلب عليه ، ولذلك اصبح هذا الصليب مقدسا . وقد
جاء به البطريك من القدس ليرفع في المعركة ضد المسلمين ، اعتقادا منهم
بأنه ينقذهم في اوقات الازمات .

Rosebault, Saladin Prince of Chivalry, P. 185.

ولمعرفة المزيد عنه انظر : مجلة المشرق ، السنة ٤٣ ، ج ٢ ، ١٩٤٩ ،
ص ١٧٥-١٧٧ .

(٤) السلوك : ٩٢/١ : مفرج الكروب : ١٨٩/٢ : الانس الجليل :
٣٢٠/١ .

(٥) لامب ، شعلة الاسلام ، ترجمة عبدالله يعقوب (بغداد ١٩٦٧) ،
ص ١٠٧ .

صلاح الدين ، فاستغل هذه الفرصة للهجوم على طبرية بعد ان ترك اطلابه بحالها قبالة عسكر الصليبيين^(١) . ولم يمض الا وقت قليل حتى تمكن من في معيته من الحجارين والنقابين من ان يحدثوا نقبا في سور البلد ، ويستولوا عليه في ٢١ - ربيع الآخر - ٥٨٣هـ / ٢ - تموز - ١١٨٧م من دون القلعة التي امتنعت عليهم^(٢) .

وقد مدح الشاعر ابن الساعاتي صلاح الدين بقصيدة بمناسبة فتحه لمدينة طبرية ذكره فيها بأن هذا الفتح ، انما هو مقدمة لفتح القدس وان هذا النصر قد أقرّ عيون المؤمنين ، وان صلاح الدين انما يقاتل الصليبيين في سبيل الله لارضاء من أجل ملك الدنيا فقال :

جلت عزماتك الفتح المينا فقد قرّت عيون المؤمنين
رددت اخيذة الاسلام لما غدا صرف القضا بها ضمينا
يقاتل كي ذي ملك رياء وانت تقاتل الاعداء دنيا^(٣)

وقد احدث فتح صلاح الدين لطبرية ردود فعل قوية في مملكة بيت المقدس فكان على أثره اجتماع الملك جاي لوزجان بالبارونات في عكا ، وأصدر قرارا للتعبة العامة وافق عليه مجلس النبلاء ، بعد اقناع الامير جيران المنطرس على نسيان حقه الذي كان يحمله ضد مقدم الاستتارية وباليان امير بيت جبريل^(٤) .

(١) النوادر السلطانية : ٧٦ ؛ مفرج الكروب : ١٨٨/٢ .

(٢) النوادر : ٧٦ ، الاصفهاني ، الفتح القسي : ٢٢ ؛ الكامل : ٥٣٣-٥٣٤ الانس الجليل : ٣٢٠/١ ؛ زبدة الحلب : ٩٣/٣ ؛ وفيات الاعيان : ١٧٤/٦ جب ، صلاح الدين : ١٤٨ ؛

Grousset, op. cit., 11, P. 793.

(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٦/٢ ؛ الروضتين : ٨٥-٨٤/٢ .

Rosebault, op. cit., P. 183.

(٤)

وقد أسهم الداوية والاستارية بكل ما لديهم من فرسان وأموال ،
وتقرر حضور البطريك هرقل للاشتراك في الحرب صعبة الصليب
المقدس ، غير ان المرض منعه من الحضور ، فأرسل بالصليب الى اسقف
عكا^(١) . وبذلك يتبين ان الصليبيين كانوا يخططون للقيام بحرب شاملة
وقوية ضد صلاح الدين ، وان دعوة البطريك والصليب المقدس للاشتراك
في الحرب معناه ان الملك والنبلاء قرروا خوض حرب حاسمة ضد
صلاح الدين لا مجرد غزوة عابرة .

وكان الصليبيون وقتذاك بصدد احدى خطتين : احدهما هجومية
تقدم بها البرنس ارناط ، والاخرى دفاعية ، تقدم بها ريموند الذي نصح
الملك والنبلاء - بحكم معرفته بظروف المنطقة ، وصداقته لصلاح الدين
السابقة - بعدم مغادرة صفورية - التي كانت مركز تجمع القوات
الصليبية - حتى لو سقطت طبرية جميعها بيد صلاح الدين ، لان صفورية
تتمتع بموقع جغرافي ممتاز ، نظرا للظروف الطبيعية الملائمة ، وخلو المناطق
الاجرى من المياه^(٢) . الا ان ارناط اتهم ريموند بالميل نحو صلاح الدين ،
وتمكن من التأثير على الملك جاي ، ودفعه الى اصدار أوامره بالتقدم نحو
صلاح الدين من دون استشارة بقية النبلاء^(٣) . وبذلك « سار الجيش
الصليبي الى مصيره البأس ، وكان أملهم الوحيد ، قطعة الصليب المقدسة ،
التي اعتقدوا بأنه يخدمها حارس خاص ، وانها ستفعل المعجزة وتصرهم »^(٤) .
وبمغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية ، تحقق النجاح الاول لسياسة

Grousset, op. cit., 11, P. 787. (١)

Stevenson, op. cit., PP. 244-245. (٢)

King. The Knights, P. 125 (٣)

Rosebault op. cit., P. 185. (٤)

صلاح الدين الحكيمة التي قضت باخراج الصليبيين من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية ، لان صفورية كانت مشتهرة بغزارة مياهها ، حتى في زمن الصيف ، وكان بإمكان الصليبيين الاستمرار بمقاومة صلاح الدين لو مكثوا فيها لكثرة موجوداتها من المراعي والمواد الغذائية ، وهذا هو السبب الذي دفع ريموند ، من قبل ، ان يطلب من الملك جاي مغادرة صفورية^(١) .

وهكذا تبدو سياسة صلاح الدين العسكرية في اخراج أعدائه الى ساحات القتال الواسعة بعيدا عن الظروف الملائمة ، لانه كان يتوق للاشتباك معهم بمعركة فاصلة . ومما يدل على ان صلاح الدين كان يخطط لمثل هذا الامر ، وانه كان ينوي القضاء على الصليبيين وتحرير أرض الشام من أيديهم ، ما قاله لعسكره عندما سمع بمغادرة الصليبيين صفورية « جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد واذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع »^(٢) .

وفي الوقت الذي استعد فيه الصليبيون للهجوم ، كان صلاح الدين - كما ذكر الاصفهاني - يسهر الليل ، ويعين مواضع القتال لاجناده ، ويأمر بملأ الجعاب وكنائنها بالنبال ، حتى انه فرق من الشباب اربعمائة حمل ، كما عين سبعين موزعا ملأها بالنشاب ، ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها^(٣) .

وفي صباح يوم الجمعة ٢٤ - ربيع الآخر - ٥٨٣هـ / ٣ تموز -

(١) Lane Pool, Saladin, PP. 205-206; Rosebault, op. cit., P. 184.

(٢) العماد الاصفهاني في البرق الشامي . انظر : الروضتين :

٧٦/٢ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق .

١١٨٧م وصل العسكر الصليبي على جبل طبرية في منطقة تعرف باللوبيا ، فاسرع صلاح الدين الى التقدم نحوهم والاصطدام بهم ، قبل ان ينتقلوا الى موضع آخر يتحصنون فيه ، لان المنطقة التي وصل اليها الصليبيون كانت أرضا مكشوفة خالية من كل شيء ، عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال ، وكان صلاح الدين قد ردم من هذه المنطقة صهاريج المياه ، ومنع الصليبيين من القرب من المياه القريبة من طبرية ، لذلك وجد الصليبيون من العطش كثيرا ، ولما وجدوا بأنهم لا يقوون على المسير بسبب الانهك والعطش قرروا الميit فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين •

وفي صباح اليوم التالي الموافق السبت ٢٥ - ربيع الآخر / ٤ - تموز اكتشف الصليبيون بأنهم محاصرون بعيدا عن المياه ، فنزلوا مسرعين الى قرون حطين وهناك دارت معركة رهية انتصر فيها العسكر الايوبي انتصارا عظيما بعد ان احرق تحت أقدام الصليبيين الاعشاب « فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحرّ النار والدخان وحرّ القتال » (١) •

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٦/١١ ، ولمعرفة المزيد عن تفاصيل هذه المعركة الفاصلة التي اعتبرت حدا حاسما في العلاقات السياسية بين صلاح الدين والصليبيين • انظر : العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي : ١٢-١٤ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٧٦-٧٩ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٨٩ - ٢٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٨٩/٢ - ١٩٤ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٧٦-٧٩ ؛ المقرئزي ، السلوك : ٩٣/١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٩٣-٩٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٣٢-٣٤ ؛ تاريخ ابن الوردي : ١٣٨-١٣٩ ؛ ابو الفداء ، المختصرة : ٩٥-٩٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ١ ، ج ٨/٣٩٢-٣٩٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٣٣٠-٣٣٢ ؛ الظاهري ، كتاب زبدة كشف المالك : ٤٣ ؛ العليمي ، الانس الجليل : ٣٢٠-٣٢٣ ؛ القلقشندي ، مائثر الانافة : ٣/٣٠٤-٣٠٨ •

LanePool, A History of Egypt, PP. 207-208;

ولذلك فقد تمكن صلاح الدين من قتل عدد كبير منهم ، واسر مقدميهم ، وكان منهم الملك جفرى^(١) الذي فقد كل فرسانه ، ولم يبق حوله الا مائة وخمسون فارسا ، فالتف المسلمون حولهم وأسروهم^(٢) ، كما اسروا البرنس ارناط وأخا الملك وابن الهنفرى وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية والاستبارية ، وصاحب جيل ولم ينج الا القومص الذي هرب الى صور في بداية المعركة ، بعد ان عرف امارات الخذلان عليهم . وقد أمر صلاح الدين بقتل مقدمي الداوية والاستبارية ، كما قتل هو بيده البرنس ارناط لانه كان قد نذر دمه لاعتدائه المتكررة على قوافل المسلمين وتهجمه على النبي محمد (ص) ، بينما أكرم الملك جاي وعمول بالاحسان^(٣) .

ومن الجدير بالملاحظة ان العسكر الصليبي كان يفوق في العدد والعدة العسكر الايوبي ، وكان المقاتل الصليبي محميا بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه وكان الفارس منهم يحمل من الاقنعة ما يجعل السهم والرمح لا يؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذي يتهده هو السقوط من على ظهر

LanePool, Saladin, PP. 197-216; Grousset, op. cit., 11, PP. 793-798; Stevenson, op. cit., PP. 243-248.

(١) الملك جفرى اوجي ، هو الملك جاي لوزجنان ملك بيت المقدس وقد اطلقت عليه المصادر العربية التسمية الاولى . وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦م .

Besant, Joruslem, P. 384. (٢)

Besant, op. cit., P. 391.

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٧٧-٧٨ ، وانظر ما فات من مصادر في هامش رقم (١) من الصفحة السابقة .

الفرس^(١) .

لذلك لم تكن الهزيمة التي أصابت الصليبيين نتيجة لضعف أو فساد كان فيهم انما كانت قيادتهم ضعيفة ، وقابلهم جيش موحد من المسلمين له قائد محنك هو صلاح الدين^(٢) . الذي أصبح معروفا في أوروبا النصرانية بعد انتصاره هذا ، وأصبحت سياسته حديث الساعة التي يتناقلها الناس ، حتى ظهرت في العصور الوسطى اسطورة أدبية تدعي بأن صلاح الدين سافر الى اوربا واعتق النصرانية ، الا انه تركها بسبب تصرف القس ورجال الدين السيئ ، ثم عاد الى الشرق ليحاربهم بعد ان تعرف على أساليبهم وسياستهم^(٣) .

ولذلك أيضا ، فان انتصار صلاح الدين هذا ، لم يكن نتيجة لضعف الصليبيين أو لقلة عددهم وعددهم ، انما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها في اعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها . فقد احسن اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها ، الذي كان في شهر تموز اشد اشهر السنة حرارة وأقله ماء في الصحاريج اضافة الى انه خيم بعسكره على طبرية ، وبذلك أصبح بقواته العسكرية حائلا بين الصليبيين وبين الماء ، علما بأنه كان قد أمر بردم الكثير من الصحاريج التي كانت منتشرة في المنطقة ، فأصبح العطش والحر من بين الاسلحة التي استخدمها صلاح الدين ضده عدوه . اضافة الى ان وجوده وسط ساحة المعركة كان ، من العوامل المهمة التي دفعت بالعسكر الى الاستماتة في القتال ، خاصة وانه كان اذا

Rosenbault, op. cit., P. 185.

(١).

(٢) لامب ، شعلة الاسلام : ١١١/هامش رقم (٣) .

Daniel, Islam and the Weast (Edinburgh, (٣)
1966) P. 246.

ما وجد ضعفا في جماعة من أجناده ، كان يتقدم اليها ويصيح بأعلى صوته
مكررا « كذب الشيطان »^(١) ، فيعيد الثقة الى نفوسهم ، ويذكرهم بأن
الهزيمة من الشيطان ، وان المعركة انما هي جهاد في سبيل الله ومضى فيه
حتى النهاية ، ومن الادلة على ذلك ما ذكره الملك الافضل نورالدين عن
والده صلاح الدين قال : « كنت الى جانب أبي في ذلك المصاف ... فلما
رايت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحي : هزمناهم
... فالتفت اليّ والدي فقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة -
يعني خيمة الملك »^(٢) .

ولقد كان لانتصار صلاح الدين في حطين صدى بالغ الاثر في نفوس
المسلمين عامة ، وأهالي دمشق خاصة - لان دمشق كانت في تلك الفترة
مركز اعمال صلاح الدين ومقره وفيها قضاته وكتابه - الذين كانوا طوال
أوقات المعركة ساجدين لله وقائمين يدعونه النصره على الاعداء ، ولما سمعوا
نبأ الانتصار عبروا عن فرحتهم بقطرات الدموع التي أخذت تساقط من
عيونهم تارة وبالكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله تارة
أخرى ، حتى ان من أراد دخول الحمام بدمشق عول عنها بدخول الحمام
في طبرية . وقد جاء بنص الكتاب الذي أرسله القاضي الفاضل من دمشق
الى صلاح الدين ما يدل على ذلك :

« ليهن المولى ان الله قد أقام به الدين القيم ، وانه كما قيل أصبحت
مولاي ومولى كل مسلم ... الرأس الى الآن لم ترفع من سجودها
والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم ان البيع تعود مساجد
والمكان الذي كان يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه انه الواحد ،
جدد لله شكرا تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه ... والممالك

(١) الكامل : ٥٣٦/١١ ، مفرج الكروب : ١٩١/٢ .

(٢) نفس المصدرين والمكان السابق .

ينتظرون أمر المولى فكل من أراد ان يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية ... وللأسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل ...^(١) .

ولم يكن من نتائج معركة حطين أسر الملك جاي لوزجان ، ملك بيت المقدس وضياح هية مملكته ، ووقوع العسكر الصليبي بين القتل والاسر فحسب ، بل كانت هذه « مفتاح الفتوح الاسلامية »^(٢) في المنطقة فقد اتجه صلاح الدين بعدها الى سائر المدن والقلاع الصليبية ، وأخذ يسقطها الواحدة تلو الاخرى ، وبدا وكأن « روح الجهاد الذي كان قد استولى على النصارى في سبيل استرجاع الارض المقدسة من أيدي المسلمين ، قد انتقلت الآن الى العسكر الثاني »^(٣) .

ففي يوم الاحد ٢٥ - ربيع الآخر - ٥/٥٨٣ تموز ١١٨٧ م نزل صلاح الدين على طبرية ، بعد ان كانت أصوات عسكره طوال الليل ترتفع بالحمد والتكبير لله تعالى ، مما احدث قلقا لدى زوجة ريموند التي كانت قلعة طبرية يدها لذلك لم يسعها - بعد ان تخلى زوجها عنها وتعذر رجوعه اليها - الا ان تطلب الامان لها ولاصحابها ، فأمنها صلاح الدين ووفى بوعد ، فخرجت بمالها ورجالها وسارت الى طرابلس بلد زوجها^(٤) . علما

(١) الروضتين : ٨٢/٢ - ٨٣ .

(٢) مفرج الكروب : ٨٨/٢ .

(٣) حتي ، فليب ، لبنان في التاريخ ، ترجمة أنيس فريجه ، (بيروت ١٩٥٩) : ٣٦٦ وبالرغم من سلامة قول حتي في هذا الخصوص ، الا ان روح الجهاد لم تنتقل الى المسلمين بعد هذه المعركة . انما ظهرت فيهم منذ دخول الصليبيين الغزاة بلادهم سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م .

(٤) النوادر السلطانية : ٧٩ ؛ مفرج الكروب : ١٩٥/٢ ؛

LamePool, Saladin, P. 223.

بان صلاح الدين أمر أيضا بأن لا يلحق أي أذى بفرسانها وان يعاملوا بالملطف والاحترام • وأقام بالقلعة الى يوم الثلاثاء يرتب أمورها ، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجمي^(١) •

وفي يوم الاربعاء ٢٨ - ربيع الآخر/ ٨ تموز سنة ١١٨٧م تقدم صلاح الدين نحو عكا^(٢) • وما ان وصلها حتى خرج اليه اهلها يتضرعون ويطلبون الامان ، فأمنهم على انفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الإقامة والرحيل ، فاختاروا الرحيل ، وأخذوا ما امكنهم حمله وتركوا الباقي في المدينة ، حيث دخلها العسكر الايوبي يوم الجمعة ٢ جمادى الاولى^(٣) • واستقذروا من كان فيها من اسرى المسلمين ، وكانوا أربعة آلاف ، من دون ان يلحقوا أذى بأهالي البلد وتجاره من البنادقة والبيازنة والجنوية • وكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين مع أهالي البلد فوائد كثيرة ، فقد حافظت على استمرار الحياة الاقتصادية ، لان اولئك التجار الاوربيين استمروا بأعمالهم التجارية بعد ان لمسوا من صلاح الدين العدل

(١) الروضتين : ٧٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٩٦/٢ •

(٢) عكا : مدينة واسعة كثيرة الضياع ، لها مرسى مأمون • ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق٢، ج٢/ ١٧٥ • وقد ورد ذكرها في التوراة ، وهي من اعمال سبط آشور ، وتقع في أول حدود فلسطين ، في موقع ملائم من البحر لها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة الى اطراف القدس ، فتحها عمر بن الخطاب (رض) سنة ٦٦٨م واستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤م واستعادها منهم صلاح الدين بعد معركة حطين سنة ١١٨٧م • انظر : رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥) : ٩٣ •

(٣) ينفرد ابن شداد بالقول ان صلاح الدين دخل عكا بعد أن

قاتلها • انظر : النوادر السلطانية : ٧٩ •

والصلاح^(١) . اضافة الى ان تلك السياسة المعتدلة ، ساعدت على تسهيل مهمة فتح المدن التي كانت تحت السيطرة الصليبية ، كما ان هذه المعاملة الحسنة - أتاحت للنصارى مغادرة عكا وغيرها من الحصون فتخلص المسلمون من الصليبيين دون حرب .

وتتضح سياسة صلاح الدين الحكيمة وبعد نظره العسكري ، بتوجهه نحو الساحل الشامي بعد معركة حطين وفتح المدن والحصون الصليبية المنتشرة هناك وعدم توجهه مباشرة نحو تحرير القدس . فقد اختار « ان يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي ، وبخاصة الغرب الاوربي ، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام »^(٢) . وربما قصد أيضا تسهيل الاتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة في الساحل المصري ، وبين تلك الموانئ المنتشرة في الساحل الشامي^(٣) .

ولذلك بعد ان فتحت عكا تقدم العسكر الايوبي نحو فتح الحصون المجاورة لها امثال الناصرة ، قيسارية ، حيفا ، صفورية ، الشقيف ، القولة والطور وغيرها ثم تقدم حسام الدين بن لاجين ، بأمر من خاله صلاح الدين ، نحو مدينة نابلس وحاصرها واستنزل من كان بها من الصليبيين بالامان ، وتسلم قلعتها ، واقرّ أهالي البلد على أموالهم وأملاكهم ، لانهم كانوا مسلمين ، وقد مكثوا في مدينتهم بعد استيلاء الصليبيين عليها^(٤) .

(١) Grousset, op. cit., 11, P. 803.

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٨١٣/٢ .

(٣) Stevenson, op. cit., P. 249.

(٤) الروضتين : ٨٧-٨٨ / ٢ : مفرج الكروب : ٢٠٢-٢٠٣ : السلوك : ٩٤-٩٥ / ١ .

وفي الوقت الذي دخل فيه صلاح الدين عكا وفتحت نابلس ، كان الملك المظفر تقي الدين عمر يحاصر تبين ، ولما لم يتمكن من فتحها - لأنها كانت قلعة حصينة على رأس جبل - كتب الى عمه صلاح الدين يستدعيه ليتولى امر فتحها بنفسه ، وهذا اعتراف ضمني من امراء الاجناد بمقدرة صلاح الدين العسكرية الممتازة ، التي لا يقف أمامها أي حصن مهما كانت مناعته .

وقد خرج صلاح الدين الى تبين استجابة لنداء الملك المظفر ، وحاصرها حصارا شديدا حتى اضطرها الى طلب الامان ، وتسلمها يوم الاحد ١٨ جمادى بعد ان استمهل الصليبيون خمسة أيام لينزلوا بأموالهم ، وقد بذلوا رهائن من مقدميهم وتقربوا الى صلاح الدين باطلاق ما كان عندهم من اسرى المسلمين ، وكانوا يزدون على مائة رجل « فكساهم السلطان ، وسيرهم الى اهلهم ، ولما اخلى الفرنج البلد سيرهم السلطان الى مأنهم ، ومعهم جماعة من العسكر ، فاوصلهم الى صور »^(١) .

وفي النص السابق ما يدل على سياسة صلاح الدين وخلقته . فبالرغم من احتياجه للعسكر في هذه الاوقات الحرجة ، نجده يرسل بالاسرى المسلمين الذين اطلق سراحهم ، الى اهلهم بعد ان كساهم ، ليكسب ودهم وثقتهم ، وليكونوا هم بانفسهم أيضا دليلا ماديا على انتصاره ، حيث سينقلون أخبار انتصاره الى المدن سوف يمرون بها ، ثم لا يخفى بأن ارسال بعضا من عسكره لحماية القوة الصليبية المغلوبة على امرها ، وايصالها الى مأنها - صور - مكرمة من دون الحاق أي ضرر بها ، كانت سياسة في غاية النبل والشهامة ، وبعد النظر ، وربما أراد صلاح الدين بذلك ان يبرهن للصليبيين عامة ، ولاهالي صور خاصة ، بأنه انما جاء ليعيد البلاد لاصحابها الشرعيين ،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٠٦/٢ .

وان أهدافه سامية تترفع عن اراقة الدماء الا عند الضرورة كعاملته لاولئك الذين يغدرون بالمسلمين ويخونون اليهود ، كما فعل بارناط مثلاً ، ومن ثم ليدفع بصليبي صور الى طلب الامان قبل ان يتقدم لفتحها لان فتح صور كان هدفه الثاني بعد فتح القدس^(١) .

وبعد ان استعاد صلاح الدين تبين خرج نحو مدينة صيدا^(٢) ، فلما علم صاحبها الخبر ، غادرها هاربا ، وتركها من غير مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيح البلد الى صلاح الدين فدخلها آمنا مطمئنا ، ونصب على سورها أعلامه الصفر وكان ذلك يوم ٢١ جمادى الاولى سنة ٥٨٣هـ^(٣) .

١ (١) ذكر ابن القادسي بأن صلاح الدين ارسل الى بعض اهله كتابا أوضح لهم فيه انتصاراته وأهدافه ومما جاء فيه : « ٠٠٠ ولم يبق في الساحل من جبيل الى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور ، والعزم مصمم على قصد القدس ٠٠٠ فاذا يسر الله فتح القدس ملنا الى صور والسلام » انظر : الروضتين : ٩١/٢ .

(٢) كانت مدينة صيدا من المعقل الاسلامية القوية والمهمة لدى المسلمين ، وقد قاومت لوحدها الغزو الصليبي ولم تستسلم خوفا كباقي الحصون الاخرى في الساحل الشامي ، الا ان المدينة نتيجة للضغط الشديد الذي لاقتة من الجموع الكثيرة والعدة الوفيرة سقطت بيد الصليبيين سنة ٥٠٤ هـ بالامان بعد ان اخذ اهالي البلد على انفسهم من بلدوين الاول عهدا بعدم الغدر بهم ، الا ان الصليبيين لم يلبثوا ان وضعوا على رؤوس المسلمين المقيمين بصيدا ٢٥ ألف دينار واستحصلت أموالهم بالباطل . انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، سالم ، عبدالعزيز ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا (بيروت : ١٩٧٠) : ٩٢-٩٣ و ٩٧ و ١٠١-١٠٣ .

(٣) الكامل : ٥٤٢/١١ ، الاصفهاني ، الفتح القدسي : ١٠٢-١٠٣ ، الروضتين ٩٠/٢ ، مفرج الكروب : ٢٠٦/٢ ، لمعرفة المزيد عن فتح صلاح الدين لمدينة صيدا وأحوال المسلمين فيها انظر : صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشره الاب لويس شيخو (بيروت ١٨٩٨) : ٣٤ - ٣٨ ، سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ١١٤-١١٨ .

ومن صيدا خرج صلاح الدين الى مدينة عسقلان ، ولم يتجه نحو صور ، لانها أصبحت في هذه الفترة مركز تجمع صليبي الساحل الشامي ، فرأى صلاح الدين قصد عسقلان لان امرها أيسر^(١) . وربما لانتشار عسكره على الساحل ، وعدم اجتماع كلمتهم على صور ، ففضل عسقلان لانها تقع في ملتقى الطرق بين سوريا ومصر^(٢) ، علما بأنه دخل الى صور المركز (كونراد دي مونتفات) في هذه الفترة وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال . فلما دخل صور وجد ان كلمتها متفرقة - رغم الاعداد الكثيرة التي بداخلها - لانه لم يكن لهم أمير ، ولا مقدم يجمعهم فعمل على توحيد كلمتهم بعد ان اشترط عليهم البيع والطاعة له ، فأجابوه الى ذلك فشرع في تحصين البلد وتجديد حفر الخندق ، استعدادا لملاقات صلاح الدين^(٣) .

ومن الجدير بالملاحظة ان عددا من المسلمين كان يسكن صور بجوار الصليبيين في هذه الفترة ، اذ بعد ان احتلها الصليبيون ، استهوى حب البلدة بعض المسلمين فبقوا فيها مع معانة الذلة والمسكنة ، ومشاهدة اسرى المسلمين يرسفون في القيود « ويصرفون في الخدمة الشاقة تحريف العيد ، والاسيرات المسلمات كذلك في اسوقهن خلاخيل الحديد فتفطر لهم الافئدة ولا يغني الاشفاق عنهم شيئا »^(٤) .

ولما خطط صلاح الدين عسكريا بان يكون فتح صور بعد فتح القدس ، لذلك ركز جهده الآن على فتح عسقلان ، واستحضر أثناء فتحها الملك جاي

(١) النوادر السلطانية : ٨٠ .

(٢) Lanepool, Saladin, P. 223. (٣)

(٣) مفرج الكروب : ٢٠٨-٢٠٩ .

(٤) رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٩٠٧) : ٣٠٧ .

لوزجان وجيرارد دي مونثورات مقدم الداوية من سجنهما بدمشق ،
ووعدهما باطلاق سراحهما ان هما ساعده في فتح الحصون الصليبية •
فاستجابا له ، وأرسلا أهالي عسقلان وطلبا منهم تسليم البلد الى
صلاح الدين ، غير ان أهالي عسقلان رفضوا ، فشدّد عليهم الحصار ، حتى
تمكن النصابون من جزء من السور ، فاضطر أهالي البلد الى طلب الامان ،
فأمّنهم صلاح الدين • وسيرهم ونساءهم الى بيت المقدس^(١) •

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرارد ايفاء بالعهد ، لانه ساعده في
فتح حصن غزة • اما الملك جاي فقد اعاده الى نابلس مسجوناً ، وبعث الى
زوجته سيبيل كتابا دعاها فيه للحضور الى نابلس والاقامة مع زوجها ان
شاءت ، فرحبت بالعرض وقدمت الى نابلس^(٢) •

وقد امتازت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الصليبيين في هذه
المرحلة ، بعدم استخدام القوة ، ومنح الامان للبلد الراغب في السلام ،
والايفاء بالعهد عن طريق ايصال المغلوبين الى مأمنهم (صور أو القدس)
من دون الحاق أي ضرر بهم • وقد عاب بعض المؤرخين على صلاح الدين
هذه السياسة ، واتهمه ابن الاثير بتحمل مسؤولية عدم التمكن من فتح
صور فقال : « ولم يكن لاحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين ، فانه هو
جهز اليها جنود الفرنج ، وامدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان
وغير ذلك ، كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور »^(٣) •

والحقيقة ان صلاح الدين لم يكن مخطئاً في اتباعه هذه السياسة ، لان

(١) النوادر السلطانية : ٨٠-٨١ ؛ الروضتين : ٩/٢ ؛ مفرج
الكروب : ٢٠٩/٢-٢١٠ •

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٨١٨/٢-٨١٩ •

(٣) ابن الاثير ، الكامل : ٥٥٥/١١ •

هدفه الاول كان تحرير القدس ، وكان عليه ان يتخذ أحد السيلين : اما ان يتجه مباشرة بعد معركة حطين نحو القدس ويحررها ، ومن ثم يفتح بقية الحصون والمدن المجاورة • أو ان يفتح المدن والحصون المجاورة ثم يتجه نحو القدس •

وقد فضل صلاح الدين الخطة الثانية ، لانه في حالة تنفيذ الخطة الاولى ستكون خطوط رجته عندئذ مهددة ، وسيطلب منه لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية كبيرة لمحاصرة المدن والحصون المجاورة ، أو قطع طرق مواصلاتها المؤدية للقدس كي يتمكن من التصدي لفتح القدس بسلام • كما ان هجومه على القدس مباشرة يؤدي الى استنفار قوات الصليبيين كافة ، فتكون عندئذ قوى الصليبيين مع قوات القدس مجتمعة ضده •

ولما عزم صلاح الدين على تنفيذ خطته الثانية - فتح الحصون أولاً ثم القدس ثانياً - واجه أمامه عدة مدن وحصون كان عليه ان يفتحها مثل عكا ، صور ، عسقلان بيروت وصيدا وغيرهم ، ولو لم يتبع صلاح الدين السياسة السلمية ، لكان عليه ان يضرب بقوة تلك المدن والحصون ، وفي هذا نتائج خطيرة على مستقبل فتوحاته وسمعته • ثم لو اتبع صلاح الدين السياسة الحربية القاسية ضد الصليبيين ، لامتنعت عليه كثير من تلك المدن والحصون ، ولاشغلته طويلاً عن تحقيق مهمته الاولى فتح القدس •

ومن جهة ثانية ، فان صلاح الدين لو لم يمنح الامان للصليبيين ويرسلهم الى صور لاصبح الزخم في القدس شديداً ، ولاستصى عليه فتحها ، ثم لو لم يعلم الصليبيون ان صلاح الدين يسمح لهم بمغادرة حصونهم بسلام مكرمين الى القدس أو صور ، لقاتلوا ضد صلاح الدين حتى الموت •

ولما كان صلاح الدين قد خطط لفتح القدس أولاً ثم صور ، لذلك

فان ارساله للصليبيين المغلوبين على أمرهم الى هذين المدينتين كان تكتيكا عسكريا منه ، قصد به اشغال الصليبيين بمهمة الانتقال ، واضعاف مقاومتهم ، لان القدس وصور سوف تصبحان بيده اذا ما نجحت سياسته .

اما ما قدّر لصور من ان تبقى ، بعد فتح القدس ، عاصية ، وان تكون معقلا للصليبيين ، فان صلاح الدين لم يكن يتوقع مجرى الاحداث في المستقبل ، ولم يكن له علم بأن حملة صليبية ثالثة ، ستكون قوية ، وستضم اعظم ملوك اوربا النصرانية آنئذ ، ستسجه الى صور وتتحصن فيها قبل ان يتمكن صلاح الدين من فتحها . ولذلك « فمن غير التاريخي ان تصور صلاح الدين وكأنه يعدّ الخطط ويوزع قواته للتصدي للهجوم الوشيك من الغرب » (١) .

(١) جب ، صلاح الدين : ١٥٢ .

ثالثا : فتح القدس وشمال الشام (٥٨٣-٥٨٤ هـ)

اقتضت سياسة صلاح الدين الا يتقدم لفتح القدس ، الا بعد ان يفتح الحصون والمدن المجاورة لها ، كي يؤمن خطوط تقدمه اليها ، ويمنع التفاف الاعداء حوله . وقد تمكن من تحقيق هذا الهدف ، وفتح كل الحصون والمدن التي تقع في فلسطين ولم يبق « في الساحل من جيل الى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور »^(١) .

كما اقتضت سياسته أيضا ان يعيى كل قواه قبل ان يتقدم لفتح القدس لانها « كرسي دين النصرانية »^(٢) ، ولان فتحها سيحدث قلقا شديدا في أوساط العالم النصراني الغربي ، الذي ربما اندفع بكل قواه لمحاربة صلاح الدين . ولذلك كان عليه ان يكون مستعدا وقادرا على مواجهة ذلك التحدي قبل ان يفتح القدس ، لان عدم تمكنه من مواجهة ذلك التحدي ، بعد فرحة العالم الاسلامي الكبيرة بفتح القدس ، سيؤدي - من غير شك - الى خيبة أمل مريرة في نفوس المسلمين . لذلك اجل صلاح الدين فتح القدس ، حتى تمكن من تحطيم القوى العسكرية الصليبية المجاورة . بعد ان كان قد اجل تحطيم تلك القوى حتى تمكن من توحيد مصر والشام وبلاد الجزيرة .

وفي ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ٢٢-٩-١١٨٧ م وصل صلاح الدين بقواته الى ظاهر بيت المقدس ، وبقي خمسة أيام يطوف حول سور المدينة لينظر من اين يهاجمه ثم وقع اختياره أخيرا على جهة الشمال فانتقل اليها في العشرين من رجب ، وبقي طوال الليل يعيى قواته ، وينصب المجانيق .

(١) ابن القادسي ، تلخيص ابي شامة ، الروضتين : ٩١/٢ .

(٢) الظاهري ، عز الدين ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ١٨٩٣) : ١٩ .

وحدث في بكرة اليوم التالي قتال شديد بين الطرفين ، فقد كان « كل واحد من الطرفين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً ، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ، ويزجرون ولا ينزجرون » (١) .

ومن النص السابق يتبين ان المهاجمين للمدينة والمدافعين عنها كان يدفعهم للقتال الحمية الدينية ، وانهم كانوا يستमितون في القتال من غير ان يدفعهم اليه أحد ، بل كانوا يمنعون من قبل قادتهم عن الهجوم المستمر خوفاً عليهم من الموت ؟ بينما كانوا هم طوعية يقاتلون . ورغم هذا الاندفاع الواضح الذي تفعله العقيدة في النفوس ، فان الظاهري (ت ٨٧٢هـ) نقل رأياً مفاده ان صلاح الدين تقدم لفتح القدس ، وذلك لان شاباً دمشقياً كان مأسوراً في القدس ، ارسل الى صلاح الدين قصيدة دعاه فيها لتحرير القدس ، وكانت تلك الايات الداعية للفتح (٢) .

وسواء ما قيل ان صلاح الدين فتح القدس لتأثره بأيات من الشعر ، أو لانه أراد ان يجعل لنفسه شهرة كبيرة في العالم الاسلامي يذكرها له التاريخ حتى النهاية فان كونه رجلاً عقائدياً مجباً للجهاد وفنونه ، ينفي عنه مثل تلك المزاعم ، ثم هل كان صلاح الدين بتلك البساطة والعاطفية بحيث يتقدم لفتح مدينة ، ويتحمل مسؤولية اساءة علاقة دولته بالعالم الاوربي

(١) الكامل : ٥٤٧/١١ ؛ مفرج الكروب : ١٢/٢ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢٢١ .

(٢) جاء في القصيدة التي ذكرها الظاهري ما يلي :

يا ايها الملك الذي	لمعالم الصليبان نكس
جاءت اليك ظلامه	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وانا على شرفي مدتس

كتاب زبدة كشف الممالك ، المصدر السابق : ١٩-٢٠ ؛ انظر :
العلمي ، الانس الجليل : ٣١٨/١-٣١٩ .

لاجل عدة آيات من الشعر !! وربما الذي حصل ان صلاح الدين لما تكاملت عنده أسباب الفتح وصلته هذه الايات - ان صحت الرواية - ففسرها البعض - نتيجة لتأثرهم بالشعر - على انها السبب في فتح القدس •

والحقيقة ان صلاح الدين لم يعنيه أمر القدس وفتحها واخراج الصليبيين من أرض الشام ، لولا تفاعله مع العقيدة الاسلامية التي تعتبر الجهاد في سبيل الله من أقدس الامور التي يجب على المسلم تأديته عند اشتداد الاخطار^(١) • أضف الى ذلك ان القدس كانت تتمتع بفضائل دينية كبيرة وشريفة في الاسلام • لذلك اعتبر صلاح الدين فتح القدس ، بحكم عقيدته الاسلامية ، فرض عين واجب عليه تحقيقه ، ولم يكن صلاح الدين جاهل بأمور الجهاد واحكامه ، فلم يكن له حديث الا فيه « وكان الرجل اذا أراد ان يتقرب اليه يحثه على الجهاد ويذكر شيئاً من اخبار الجهاد »^(٢) ، حتى انه كان يستفتي قاضيه ابن شداد ويقول له :

••• « انا استفتيك : ما اشرف الميتات ؟

فقلت : الموت في سبيل الله •

فقال : غاية ما في الباب ان أموت أشرف الميتات »^(٣) •

(١) لمعرفة المزيد عن رأي الاسلام في الجهاد ومدى حثه للمسلمين على القيام به انظر : الدهلوي ، الشيخ احمد ، حجة الله البالغة ، تحقيق السيد سابق (مطبعة الاستقلال لم يذكر السنة) : ٧٨٤/٢ - ٨٠٤ ؛ برهان الدين ، ابي الحسن الهداية (القاهرة ، لم يذكر السنة) : ١٣٥١/٢ - ١٣٨ : السلمي ، كتاب الجهاد انظر المختارات التي نشرها المؤرخ الفرنسي سيفان عمانوئيل في مجلة :

Journal Asiatique, Torne (cliv, 2, 1966), PP. 200-214.

(٢) النوادر السلطانية : ٢١ •

(٣) النوادر السلطانية : ٢٣ •

على أية حال فالتناوشات القريبة من القدس ، انتهت بوصول العسكر
اليوبي سور المدينة ، وتمكنه من احداث ثقب فيه • ورغم كثرة الصليبيين
الموجودين في القدس^(١) ، فقد احدث ذلك الثقب قلقا شديدا في نفوسهم ،
طلبوا الامان على أثره • غير ان صلاح الدين رفض طلبهم - ولاول مرة -
وقال : « لا افعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة
احدى وتسعين واربعمئة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها »^(٢) •
وبعد ان عقد صلاح الدين مجلسا استشاريا مع أصحابه وقادة عسكره غير
موقفه ، ووافق على منح الامان للصليبيين •

ويكمن السبب في ذلك ، ان باليان بن بارزان طلب الامان لنفسه وقدم
الى صلاح الدين مفاوضا ، ولما وجد منه اصرارا على رفض اعطاء الامان
للصليبيين ، هدده بقتل اسرى المسلمين الذين كانوا بالقدس ، وهم خمسة
آلاف أسير ، مقل قتل نسائهم وابنائهم ، ثم قال له بانهم سيخرجون لقتال
المسلمين ، قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه • فاستشار صلاح الدين
أصحابه واجمعوا على اعطائهم الامان ، بعد ان وضعوا على كل رجل من
الصليبيين عشرة دنانير ، وعلى المرأة خمسة ، وعلى الطفل دينارين ، يدفعها
الصليبي في مدة أفصاها أربعين يوما فمن أدى ذلك نجا ، ومن لم يؤدها

(١) قيل ان اعداد الصليبيين الذين كانوا بالقدس ستين ألف رجل
ما بين فارسى وراجل ، سوى من يتبعهم من النساء والولدان • فقد هاجرت
للمدينة اعداد كبيرة من عسقلان والداروم والرملة وغزة وغيرها بحيث امتلأت
الطرق والكنائس ، حتى كان الانسان لا يقدر ان يمشي • انظر : الكامل :
٥٤٩/١١ ؛ الفتح القسي : ٥٢ ؛ النوادر السلطانية : ٨١ ؛ السلوك :
السلوك : ٩٦/١ ؛ زبدة الحلب : ٩٨/٣ •

(٢) الكامل : ٥٤٨/١١ ؛ الروضتين : ٩٥/٢ ؛ مفرج الكروب :

صار مملوكاً^(١) .

وهكذا فتح صلاح الدين القدس في يوم الجمعة ٢٧ - رجب ٥٨٣هـ / ١٢-١٠-١١٨٧م . « ولم يكن صلاح الدين عظيماً كعظمته في هذا الموقف فقد أمر باتشيار الامراء والجنود ليمنعوا أي اعتداء أو اهانة تقع لأي مسيحي وقد توجه اليه آلاف من النساء وبنات الفرسان الذين اسروا أو قتلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة ، فأمر بإطلاق سراح أزواجهن واخوانهن ومنح بعضهم هبات مالية مناسبة »^(٢) .

وكان في القدس إحدى نساء ملوك الروم قد ترهبت ومعها من العبيد والجواري خلق كثير ، اضافة الى ابنة الملك أموري وامرأة البرنس ارناط ، وكثيرات غيرهن ، فاطلقهن صلاح الدين أحراراً يخرجن من القدس بأموالهن وجواريهن ، كما سمح للبطريرك الكبير ان يخرج من القدس بسلام ، ومع كل أموال البيع والكنائس ، وكانت تلك الأموال عظيمة لدرجة انها جلبت أنظار المسلمين ، فتدخلوا لدى صلاح الدين وطلبوا منه السيطرة على تلك الأموال وانفاقها في مصالح العسكر الاسلامي . غير ان صلاح الدين رفض اقتراحهم وقال : « لا أعذر به » ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير ، وسيّر العسكر مع من اطلقهم أحراراً للحفاظ عليهم حتى يصلوا الى مأمنهم^(٣) . بعد ان قسمهم الى ثلاثة مجموعات : مجموعة قادها الداوية ، وأخرى قادها الاسبتارية والمجموعة الثالثة قادها باليان بن بارزان وأرسلهم الى صور وطرابلس مخفورين حفاظاً عليهم من اعتداءات البدو

(١) الكامل : ٥٥٩ ، مفرج الكروب : ٢١٤/٢ .

Lanepool, Saladin, P. 235. (٢)

(٣) مفرج الكروب : ٢١٦-٢١٧/٢ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية : ٨٢٢-٨٢٣ ؛ العريني، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٨٥٥/١ .

المتشربين على الطريق بين القدس وصور وطرابلس^(١) .

وهكذا منح العسكر الاسلامي المنتصر الرحمة للمدينة المقدسة ، ولم تتعرض دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الصليبيين مكروه ، بينما كان الصليبيون منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم^(٢) .
ونتيجة لهذه المعاملة الحسنة ، فقد طلب نصارى الشرق الذين كانوا داخل بيت المقدس من صلاح الدين السماح لهم بالملكوذ داخل القدس ، ولما وافق صلاح الدين ، عمدوا الى شراء ذخائر وأموال الصليبيين الذين خرجوا من القدس .

ولما لم يعتمد صلاح الدين الى ابناء نصارى الشرقيين ومنهم « الارثوذكس » لذلك وقفت الدولة البيزنطية منه موقفا ايجابيا ، خاصة وانها تأتت على عدا مع الصليبيين لاسباب دينية^(٣) . وقد ذكر الدكتور سعيد عاشور بان صلاح الدين أرسل سفارة الى الامبراطور اسحق الثاني ، أخبره عن طريقها بما تم على يديه من فتوحات منها فتح بيت المقدس ، وانه أرسل اليه مع السفارة (١٩٠) فردا من رعايا دولته ، ممن كان قد اسرهم أثناء الحروب التي خاضها ضد الصليبيين^(٤) .

وقد استقبل اسحق الثاني سفارة صلاح الدين بالاكرام نظرا للشكوك التي اتابته من الصليبيين ، فقد كان الامبراطور فردريك قد راسله وطلب

Besant, Jerusalem, P. 400. (١)

Look: Lanepool, Saladin, P. 235; Grousset, (٢)
op. cit., 11, PP. 818-819.

(٣) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب (بيروت ، ١٩٦٥) : ١٦٦/٢ - ١٦٧ ؛ عمر كمال ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية (القاهرة ، ١٩٦٧) : ١٤٦ - ١٤٧ .

٤ عاشور ، الحركة الصليبية : ٨٨٧/٢

منه عقد تحالف ضد صلاح الدين ، والسماح للقوات الصليبية بالمرور غير أراضيهم . غير انه وثق ، على ما يبدو ، من صلاح الدين أكثر من الصليبيين لغدرهم ، فعقد تحالفا مع صلاح الدين مما أثار جوا من القلق في أوساط الممالك الصليبية^(١) .

اما السياسة الداخلية التي اتبعها صلاح الدين داخل بيت المقدس ، فقد تمثلت بإزالة التغيرات التي احدثت بعد احتلال المدينة من قبل الصليبيين سنة ٤٩١ هـ . من ذلك كشف الجدار الساتر لمحراب المسجد الاقصى الذي بنى الصليبيون قد بنوه في وجه المحراب ، كما أعاد نصب المنبر في المسجد الاقصى لإقامة خطبة الجمعة ، وأمر بفرش صحن الجامع بالسطح النفيسة بدلا من الحصر ، كما أضأء المسجد الاقصى بتعليقه القناديل بداخله^(٢) . إضافة الى ان صلاح الدين رتب في المسجد الاقصى من يقوم بوظائف الخطبة والامامة ، ورتب في قبة الصخرة اماما ، وأوقف عليها دارا وارضا وبستانا ، وحمل الى كل المساجد المصاحف والختمات ، كما أمر بصنع ربعات تنصب على الكراسي للجلوس عليها داخل المساجد ، كما رتب لكل المساجد أيضا القومة والمؤذنين^(٣) . وقد أمر صلاح الدين أيضا بفتح المدارس في القدس ، لتدريس الفقه على المذهب الشافعي ، بينما أعاد دار البطريك هرقل ، الذي غادر القدس بعد الفتح ، رباطا للفقراء الصوفية^(٤) .

وفي يوم الجمعة الثانية لافتتاح القدس الموافق ٤ شعبان - ٥٨٣ هـ /

(١) رستم ، المصدر السابق : ١٧١/٢ - ١٧٢ .

(٢) الروضتين : ١٠٨-١٠٩ ، ١١٢-١١٣ ؛ مفرج الكروب :

٢١٧/٢ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٣٠/٢ ؛ العابدي ، محمود ،

مأساة بيت المقدس (عمان ١٩٦٩) : ٤٩ .

(٤) أبو شامة ، الروضتين : ١١٤/٢ .

٩-١٠-١١٨٧م اقيمت في المسجد الاقصى أول خطبة بحضور صلاح الدين وجميع الاجناد والعلماء والمسلمين الذين كانوا في القدس ، بعد ان انشغل المسلمون طوال أسبوع باعادة معالم المسجد الاقصى وبناء المنبر والمحراب ، وكان الامام والخطيب هو القاضي محي الدين بن الزكي بأمر من صلاح الدين ، ونظرا لان هذه الخطبة هي أول خطبة تقام في المسجد الاقصى بعد تحريرها وكونها تعبر عن روح العصر والاسباب التي دفعت صلاح الدين لاكمال الفتوح ، اذكر بعض ما جاء فيها :

» (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (١) «
..... ايها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، لما يسره الله على ايديكم من استرداد هذه الضالة من الامة الضالة ، وردها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها من أيدي المشركين قريبا من مائة عام وهو [أي البيت المقدس] موطن ايكم ابراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام ، وهو مقر الانبياء وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشبه الرحال بعد المسجدين الا اليه جددتم للاسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيرية والهجمات الخالدية اليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الا رجلا ، وغضب عليهم من اجله ، والقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟

..... فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى واياكم ان يستذلکم الشيطان ،

(١) القرآن : ٤٥/٦ .

وان يتداخلكم الطغيان ، فيخيل اليكم ان هذا النصر بسيوفكم الحداد ،
وبخيولكم الجياد وبجلادكم في موضع الجلال ، والله ما النصر الا من عند
الله ، ان الله عزيز حكيم •

... واحذروا - عباد الله - بعد ان شرفكم الله بهذا الفتح الجليل
ان تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة
انكنا • • • والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم واشرف عاداتكم انصروا
الله ينصركم • • • جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء وتطهير بقية
الارض التي اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا اصوله
• • • واعلموا - رحمكم الله - ان هذه فرصة فانتهزوها ومهمة فاخرجوا
اليها هممكم وابرزوها • • • (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا
ماتنين) (١) ، • • • (٢) •

ولهذه الخطبة أهمية كبيرة ، فقد عبرت عن وجدان المسلمين ، وهي
ما زالت الى اليوم محور تفكير المسلمين • فقد اوضحت ان النصر هو من
عند الله ، وان هذا الفتح دليل على محبة الله ورضوانه للمسلمين ، لانه أعاد
اليهم البيت المقدس ، ذا الفضائل الدينية الكبيرة التي تطرقت اليها الخطبة •
مكث صلاح الدين في القدس ثمانية وعشرين يوما ، كان خلالها قد
أعاد للمدينة وجهها الاسلامي ، ثم خرج منها في ٢٥ شعبان ٥٨٣هـ/
١٠-٣-١١٨٧م لانتماء المهمة فوصل الى عكا صحبة أخيه العادل في أول
رمضان • ثم غادرها الى صور فنزل عليها يوم الجمعة ٩ رمضان ٥٨٣هـ/

(١) القرآن : ٦٥/٨ •

(٢) انظر نص الخطبة التي القاها محي الدين بن الزكي في المسجد
الاقصى بعد فتحها سنة ٥٨٣ هـ • الروضتين : ١١٠/٢ - ١١١ ؛ مفرج
الكروب : ٢/٢١٨-٢٢٨ ؛ الانس الجليل : ٣٣٢/١-٣٣٦ ؛ وفيات الاعيان :
١٨٢-١٨٠/٦ •

١٥-١١-١١٨٧م بعد ان عسكر بازاء سورها بعيدا منه على النهر مدة ثلاثة عشر يوما ، حتى تصل اليه العساكر وتأتيه الامدادات لفرض حصار شديد على صور من البر والبحر^(٢) .

كانت صور - كما تبين من قبل - مركز تجمع الصليبيين الهارين من أيدي العسكر الايوبي ، أو الذين خرجوا من قلاعهم باذن من صلاح الدين . وقد تولى قيادة الصليبيين الموجودين فيها المركيس « كونراد مونتقرات » الذي استغل انشغال صلاح الدين بفتح بيت المقدس وعمل على حفر خندق حول صور من البحر الى البحر ، كما جدد بناء السور واحكم امره واستظهر بالعدد والعدة^(١) .

ولما اكتشف صلاح الدين الوسائل الدفاعية التي انشأها كونراد في مدينة صور ، اتبع خطة حكيمة تقوم على دراسة أوضاع البلد وأسواره قبل اتخاذ موقف نهائي بمحاصرته ، وبالإضافة الى ان صلاح الدين لم يحاصر البلد الا بعد ثلاثة عشر يوما من النزول عليه ، فقد وزع امراء العسكرين على جهات مختلفة من السور ليجعل بينهم التنافس من اجل الاسراع في اقتحام البلد . فقد وزع الافضل والعاقل وتقي الدين على أسوار المدينة ، ووكل كلا منهم بناحية خاصة به ، كما قسم العسكر الى ثلاثة أقسام ، وقسم القتال بحيث يكون لكل قسم منه وقت معلوم لقتال الاعداء حتى يستمر القتال ويكمل الاعداء فيضطرون الى التسليم^(٣) .

(١) ابن شداد ، النوادر : ٨٣ ؛ الروضتين : ١١٩/٢ ؛ مفرج الكروب ٢/٢٤٢ .

(٢) مفرج الكروب : ٢/٢٤٣ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٨٦١/١ .

(٣) الكامل : ٥٥٣-٥٥٤ ، سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ١٩٥-١٩٦ .

غير ان صور لم تفتح لشدة حصانتها ، ورغبة صلاح الدين في عدم مواصلة الحصار الطويل ، ففضل مغادرتها لاسباب عسكرية ومناخية • ففي الوقت الذي كانت فيه السفن الاسلامية محاصرة للبلد عن طريق البحر ، اذا بالاسطول الصليبي يهجم ، على حين غفلة في الليل ، عليها ويظفر بخمسة شواني منها^(١) • فلما علم صلاح الدين بالحادث أمر باقي السفن الحربية بالتوجه الى بيروت ، ثم ان فصل الشتاء كان قد دخل وكثرت الامطار ، فأمر العسكر بالتفرق الى اهلهم للاستراحة ، والاستعداد لمواصلة الجهاد في المستقبل القريب ، وسار هو الى عكا حتى دخلت سنة ٥٨٤هـ^(٢) •

ومنذ بداية سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م واصل صلاح الدين الجهاد واستمر طوال ستة أشهر يقاتل من دون توقف • فخرج منذ بداية شهر ربيع الاول حتى نهاية شهر رمضان من سنة ٥٨٤هـ • ولم يعد الى مقر أعماله في دمشق والقدس الا بعد ان فتح اللاذقية وجبله وانطرطوس وصهيون وبكاس وبرزيه ودرساك ، بغراس وصفد وكوكب وعددا كبيرا من الحصون والقلاع المجاورة^(٣) •

(١) يقول كلاري ان صلاح الدين لما حاصر صور ، اشتد بها الغلاء كثيرا ، فعمل المراكيس حيلة حيث امر باخراج بعض سفنهم لتسير بعيدا عن صور لخداع المسلمين وجعلهم يتصورون ان هذه السفن تحاول الهرب ، فلما لحقت السفن الاسلامية بها دون تأهب ، خرجت عليها المراكب الصليبية من صور محملة بالعدد والعدة ، ثم عادة عليها المراكب الاخرى وضربوا الاسطول الاسلامي والحقوا به خسائر فادحة فأضطر صلاح الدين الى مغادرة حصار صور • انظر فتح القسطنطينية : ٧٥-٧٦ •

(١) النوادر السلطانية : ٨٤ ؛ الفتح القسي : ٧٧-٨٠ •

(٢) انظر : عن فتح هذه الحصون : النوادر السلطانية : ٨٤ -

٩٦ ؛ الروضتين : ٢ / ١٢٥-١٣٧ ؛ الكامل : ٢٣-٧ / ١٢ ؛ مفرج الكروب :

وقد امتازت سياسة صلاح الدين في هذه المرحلة بالمزيد من الاعتدال والبعد عن التطرف ضد الاعداء ، واطهاره التزهّد وعدم الخلود الى الراحة ، لانفهام العسكر بأن الهدف الاول هوّ الجهاد في سبيل الله ، وان الدعة والتترف هو سبيل الملوك المحيين لزخرف الدنيا ، بينما التزهّد في الدنيا يدفع الى مواصلة الجهاد وعدم التوقف من دون الالتفات الى مقدار التضحيات . اذ بعد ان فتح صلاح الدين حصن كوكب في شهر ربيع الاول خرج الى انطرطوس لفتحها ومرّ في طريقه بمدينة دمشق ، فوجد متولي الديوان فيها (الصفي بن القابض) قد هيا له دارا جميلة مطلة على الشرفين ، كان انفق فيها أموالا طائلة ، فلما رآها صلاح الدين أعرض عنها وقال لصفي الدين : « ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ؟ » (١) .

وكان صلاح الدين أيضا اذا ما طلب منه العسكر الخلود الى الراحة قليلا في احدى الحصون المفتوحة قبل الانتقال لغيرها يرفض ويلفت انظارهم للحصن الآخر الذي صمم على فتحه ، ويدعوهم الى تناول الغداء فيه . ليكسب العسكر الاستمرارية في العمل من أجل مواصلة الجهاد من جهة ، وليكسبهم العزم والثقة بالنفس من جهة ثانية . كما حدث هذا الامر عند فتح حصن انطرطوس في شهر جمادى الاولى . فبعد ان عزم صلاح الدين على دخول ساحل الشام الاعلى وجد انشغال العسكر بالاسرى والاموال ولما عرض عليه تناول الغداء في حصن كوكب قال : « تتغذى بانطرطوس

٢/٢٥٢-٢٧٤ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٦٧٩-٦٨١ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٤١-٤٢ ؛ السلوك : ١/٩٩-١٠٠ ؛ زبدة الحلب : ٣/١٠٢-١٠٨ ؛

Champdor, Saladin, PP. 193-199; Lanepool, Saladin PP. 236-250.

(١) مفرج الكروب : ٢/٢٥٤ .

ان شاء الله ،^(١) • وفعلًا صدق وعد صلاح الدين وفتحت انطربوس ومدّ
الطعام فيها وحضر الناس الغداء ، وكان صلاح الدين وسطهم فرحًا
مسرورًا^(٢) •

ولم يندفع صلاح الدين هذا الاندفاع في مواصلة الفتوح ، الا بدافع
العقيدة التي كان يحملها والتي اعطته ثقة بالنفس عالية ، جعلته لا يخاف
الموت والقتال ولو اجتمع عليه سائر ملوك الصليبيين • والدليل على ذلك انه
بعد ان فتح مدينة اللاذقية في ٢٣ جمادى الاولى سنة ٥٨٤هـ كانت شواني
صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية ، فطلب مقدم تلك الشواني الصقلي
امانا لنفسه وصعد الى صلاح الدين وقابله واعلن له ان الصليبيين المنتشرين
في مدن وحصون الساحل الشامي خائفين على انفسهم منه ، رغم اشتهاره
بالعدل والاحسان ، وانهم يطلبون منه اعلان الصفح عنهم ليطيعوه ويكونوا
له عبيدا ، والا سيستدعون ملوك الصليبيين جميعا لحربه فقال له
صلاح الدين : « قد أمرنا الله بالجهاد لاعداء الدين ، واقترضه علينا ، فنحن
قائمون في طاعته بأداء ما اقترض علينا من الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على
فتح البلاد ولو اجتمع علينا أهل الارض لتوكلنا على الله تعالى »^(٣) •

وبالرغم من اصرار صلاح الدين على مقاومة الصليبيين في كل مكان ،
الا انه كان ينجح للسلم ويمنح الامان للقلاع والمدن التي تسعى الى
مصالحته • ففي يوم الجمعة ٣ - ربيع الاول - ٥٨٥هـ خرج صلاح الدين
لمحاصرة حصن شقيف ارنون ، فنزل على مرج عيون وكان هذا الحصن
بين الامير الصليبي ارنات صاحب حصن صيدا ، الذي كان من اعظم الناس

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٨٨ •

(٢) أبو شامة ، الروضتين : ١٢٦/٢ •

(٣) الروضتين : ١٢٩/٢ ، مفرج الكروب : ٢٦١/٢ •

مكراً ودهاءاً فقد طلب الاجتماع بصلاح الدين وأظهر له الطاعة وقال :
« أخاف ان يعرف المركيس ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى ،
فانهم عنده ، فاشتهي ان تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده ،
وحينئذ ... نسلم الحصن ... فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى
ما سأل ... على ان يسلم شقيف في جمادى الآخرة » (١) .

ورغم معارضة المسلمين لصلاح الدين على منحه الامان لارناط لأنهم
اكتشفوا خديعته ، فقد كان ينزل الى سوق العسكر الايوبي ويشترى
الاقوات والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه حتى يأتيه المدد من
الصليبيين ، غير ان صلاح الدين لم يغدر به ، وانتظر عليه حتى انتهت
المدة . فلما وجد منه مماثلة جديدة ، قبض عليه ورتب على حصن شقيف
من يحاصره صيفا وشتاء حتى تمكن من فتحه بالامان بعد سنة في الخامس
من ربيع الاول سنة ٥٨٦هـ بعدما فني ما فيه من الازواد (٢) .

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٢٧/١٢ - ٢٨ .

(٢) مفرج الكروب : ٢٨٢-٢٨٤ و ٢٨٩-٢٩٠ و ٣١٢ ؛ زبدة
الحلب : ١٠٨/٣ - ١١٠ ، انظر : الاصفهاني ، الفتح القسي : ١٧٦-١٧٧
و ٢٣٨ ؛ مرآة الزمان ق ١ ، ج ٤٠١/٨ .

رابعاً : موقف صلاح الدين من الحملة الصليبية الثالثة

« فشلت الحملة الصليبية الثالثة • لانه ليس في استطاعة جيش تجرد من القيادة ، ومزقته المنازعات السياسية وبأشر القتال على أرض أجنبية ، ان يحرز النصر على جيوش جمع بينها ووحدتها الحماس الديني ، وانضوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين »

ارنست باركر ، الحروب الصليبية : ٩٢

كان لهزيمة الصليبيين في حطين وما أعقبها من سقوط بيت المقدس بيد صلاح الدين ، وفتح الساحل الشامي ، أثر كبير في احداث رد فعل عنيف لدى العالم المسيحي ، خرج على أثره القسوس والرهبان الى جميع دول العالم الغربي يدعونه النصره على المسلمين واعادة بيت المقدس الى النصرارى^(١) •

وكان أول داع للحملة الصليبية هذه هو رئيس اساقفة صور جوسياس الذي أرسله كونراد (الماركيس) الى غرب اوربا في أواخر صيف سنة ١١٨٧م^(٢) • وقد التقى جوسياس بالبابا اوربان الثالث ووضح

(١) Look, Grousset, op. cit., 11, P. 747, 111, P. 8.

وكان من صدى ذلك القصيدة التي القاها الحكيم ابي الفضل الجلياني سنة ٥٨٥ هـ والتي وصف فيها الدعوة للحرب الصليبية الثالثة نذكر منها :

« لما سبى القدس قالوا كيف نتركها	والرب في حضرة منها تمثله
فكم ملك لهم شق البحار سرى	لينصروا القبر والاقدار تخذله
استصرخوا الاهل والعدوى تمزقهم	واستكشروا المال والهيجا تنفله »

الروضتين : ١٥١/٢ •

Nouveau Petit Larousse Illustré (Paris, (٢)

1939), P. 1307-1308.

له حقيقة موقف الصليبيين بالشام ، ويقال ان البابا صدم من الانباء التي وصلتته وتوفي على اثرها لانه كان كبير السن (*) وقد بادر البابا كريكوري الثامن بارسال الكتب الى كل من ملك انكلترا وفرنسا وامبراطور المانيا ، دعاهم فيها الى ان يتناسوا ما كان بينهم من خصومات ، ويعبثوا قواهم من أجل محاربة صلاح الدين ، وكان الاسقف الصوري جوسياس هو الرسول الموفد الى فرنسا وانكلترا (١) .

ورغم الخلافات التي كانت بين الدول الاوربية وعلى الخصوص بين فرنسا وانكلترا ، فانهما نسيا كل شيء من أجل الاعداد للحرب الجديدة ، بعد ان اتفقا على وجوب الذهاب للمشرق الاسلامي واقتسام كل ما يحصل لديهما من غنائم (٢) وعلى فرض ضريبة عشرية على كل من لم يشترك من رعاياهما في الحرب ضد المسلمين . وقد اطلق على هذه الضريبة اسم « عشور صلاح الدين » (٣) .

(*) Look: Wiet (G) : Histoire de la nation Egyptienne, P. 327; Campbell, (G.A.): The Crusades, P. 286.

نقلا عن : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢١٦ هامش رقم (٣) .
(١) Archer (T.), Kingsford (c.): The crusades

(London 1894, P. 309.

Champdor, Saladin, P. 268. (٢)

ولمعرفة المزيد عن الخلافات التي كانت بين ملك فرنسا وانكلترا وأسبابها انظر :

Runciman, op. cit., Vol, 111, PP. 8-9; (٣)

Besant, Jerusalem, P. 405.

ويقال بأن هذه الضريبة كانت من اولى الضرائب التي فرضت على الاموال المنقولة في انكلترا ، بولارد ، بريطانيا والشرق الاوسط : ٦ .

وكان للأساليب الدعائية التي تقوم على إثارة العواطف الدينية التي اتبعها الصليبيون ، اثر كبير في استقطاب قوى العالم النصراني ضد المسلمين ، فقد لبس الرهبان والقسوس وخلق كثيرون من مشهورهم وفرسانهم السواد ، ودخل بهم البطريك الذي كان بالقدس دول اوروبا النصرانية ، وأخذ يطوف بهم ويشير^(١) . مما اشعلوا روح العداء ضد المسلمين ، ودفعوا بالكثيرين ، نساء ورجالا ان يتطوعوا في الحرب أو يقدموا ما عندهم من أموال عوضا عن انفسهم ، حتى ان أربع شواني امتلأت بالاموال من مدينة رومية الكبرى لوحدها ، بعد ان اثير لدى الصليبيين الباعث النفساني والديني^(٢) .

كان صلاح الدين في هذه الفترة مخيما على شقيف ارنون ، فأتاه الخبر ان الصليبيين خرجوا من صور لمحاصرة عكا بزعامة الملك جاي لوجزنان الذي قطع على نفسه عهدا ، قبل ان يطلق سراحه ، بالا يجارب المسلمين ، غير أنه نكث العهد وعمد الى تجميع القوات الصليبية في محاولة لاستعادة أملاكه^(٣) ، حتى قيل بأنه جمع تحت لوائه ما يقرب من ٢٠٠٠٠ من المقاتلة^(٤) . غير ان صلاح الدين لم يصدق الخبر « ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال »^(٥) عدة أيام حتى يقن صدق الخبر فسارع الى استدعاء العساكر

(١) الكامل : ٣٣-٣٢/١٢ ؛ مفرج الكروب : ٢٨٨-٢٨٩/٢ ؛

الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : ٣٣٠-٣٣١/١ .

(٢) الكامل : ٣٣/١٢ ؛ انظر عاشور ، اوروبا العصور الوسطى

(القاهرة ، ١٩٦١) ٤٦٧-٤٦٦/١ .

Archer, The Crusades, P. 317. (٣)

Lanepool, A History of Egypt, P. 251. (٤)

(٥) النوادر السلطانية : ١٠٣ .

اليه ، وقرر منازل الصليبيين عند حدود صور ، وعدم فتح الطريق أمامهم للوصول الى عكا ، « فانهم ان نزلوا صعب ازالتهم واتعب قتالهم ، فخالفه امراؤه في ذلك ، وقالوا : بل نمضي على أسهل الطرق »^(١) وبذلك اضاع هؤلاء الامراء على المسلمين فرصة طيبة . فلو نفذت خطة صلاح الدين لتمكن العسكر الايوبي القضاء على القوة الصليبية قبل ان يستفحل أمرها ، فقد كان « من الاكيد ان يتمكن صلاح الدين من سحق تلك الشراذم الصليبية في سهولة لولا وصول بشائر الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الاوربي ، مما أمدّ الصليبيين أمام عكا بقوة كبيرة غيرت الموقف تغيرا تاما »^(٢) .

ونتيجة لعدم تنفيذ خطة صلاح الدين ، فقد وصل الصليبيون عكا وحاصروها حصارا شديدا من البحر الى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين اليها طريق . ولذلك انقطع الطريق أمام صلاح الدين للدخول الى عكا فخيّم على تل كيان وأخذ في استدعاء العساكر اليه ، فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، كما أتاه تقي الدين ابن أخيه من حماة ومظفر الدين أمير حرّان والرها وكانت الامدادات تصل المسلمين من البر ، وتأتي الصليبيين من البحر^(٣) .

وقد وصف الشاعر الصليبي امبروز - وهو من المعاصرين للاحداث - ما جرت عليه الاحوال حول عكا ، والامدادات التي كانت تصل كلا الجانبين واوضح بأن اسطولا كبيرا وصل من شمالي فرنسا بعد ان باع قائده كل أراضيه وممتلكاته ، وجلب معه أربعة عشر ألف فارس . كما وصل اسطول من الدنمرك وبيزا ، وبلغ عدد الصليبيين الذين اجتمعوا حول

(٤) مفرج الكروب : ٢٩١/٢ .

(٥) الحركة الصليبية : ٨٥٦/٢ .

(١) الكامل : ٣٤/١٢ ، الروضتين : ١٤٢/٢ .

عكا آتشد أكثر من ثلاثين ألف جندي • غير ان العسكر الاسلامي لم يدعهم في اطمشان ، كما ذكر امبروز ، « فقد غير ان العسكر الاسلامي لم يدعهم في اطمشان ، كما ذكر امبروز ، « فقد كان رجالنا يحملون السلاح طوال الليل لصد هجمات المسلمين ، فقد جاءت قوات صلاح الدين وكانت مؤلفة من العرب والترك والكرد واستولت على جميع البلاد ... كان الاتراك يهاجمونهم ليل نهار ، وضايقوهم حتى لم يجدوا لديهم وقتا للاكل » (١) •

وخلال فترة التقارب هذه بين العسكرين الاسلامي والصليبي قرب عكا حدثت عدة وقعات عسكرية مهمة ، كان النصر في أغلبها للعسكر الايوبي (٢) ، وكانت سياسة صلاح الدين ترمي الى منازلة الصليبيين منازلة جادة للقضاء عليهم ، ولذلك كان يستخدم كل الوسائل العسكرية لاجراجهم من تحصيناتهم وابعادهم عن حصار عكا ليتمكن من دخولها ، غير ان الصليبيين كانوا على علم بأبعاد الموقف وخطورته عليهم ، لذلك لم يشاؤوا

(١) لامب ، شعلة الاسلام : ١٥٧ و ١٥٨ •

(٢) تحدث ابن شداد عن عدد الوقعات التي حدثت بين العسكرين الايوبي والصليبي حول عكا وعدها بأربعة وقعات ، وأهمها وقعة المصاف الاعظم التي انتصر فيها صلاح الدين انتصارا ساحقا ، وقدر عدد ضحايا الصليبيين بأربعة الاف ومائة • وللإطلاع على حوادث هذه الوقعات أنظر : الكامل : ٣٤-٣٥ و ٣٨-٤٠ ؛ النوادر السلطانية : ٩٨-١١٥ ؛ الروضتين : ١٤٣/٢-١٤٧ ؛ مفرج الكروب ٢/٢٩٠-٣٠٢ ؛ السلوك : ١٠٢/١-١٠٥ ؛

Lanepool, Saladin. PP. 259-263; Cahen,
Lesyrie du nord., PP. 430-433.

الاصطدام بالعسكر الايوبي اصطداما جدّيا الا بعد ان تصلهم الامدادات
الاوربية الكبيرة •

ومن بين الوسائل التي استخدمها صلاح الدين ضد الصليبيين ما عرف
باسم قتال الكمائن • فقد علم ان بعض الصليبيين يخرجون من مدينة صور
للاحتطاب ، فرتب لهم كمينا هدف من ورائه اخراج الصليبيين من عكا
لمساندة الصليبيين المنهزمين في صور ، وعندما يخرج هؤلاء يكون
صلاح الدين قد اطبق بقواته العسكرية على الصليبيين وقضى عليهم • فقد
أمر ان يخرج عسكر تبين في نفر يسير من العربان ، فاذا تبعهم الصليبيون
ينهمون أمامهم ، بعد ان ارسل الى عسكر عكا من أخبرهم ان يكونوا على
اهبة الاستعداد ، فاذا تحرك الصليبيون لنصرة أصحابهم يكون العسكر
الايوبي هو القريب من عكا قد هجم على الصليبيين المحاصرين لعكا •

استعد صلاح الدين لتنفيذ هذه الخطة العسكرية استعدادا كاملا فرتب
عسكره ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارسا وأمرهم ان
يناوشوا أمام العدو ثم ينهموا بين يديه حتى يصلوا الى الكمين ، ففعلوا
ذلك ونشبت الحرب بين الطرفين وكانت الخسائر قليلة ، غير ان الخطة لم
تحقق أهدافها كاملة ، نظرا لمخالفة الفرسان الايوبيين خطة صلاح الدين ،
وعدم انهزامهم أمام العسكر أنفة ، ثم دخل الليل فانسحب كلا الطرفين
الى مواقعهم ^(١) •

واضافة الى المساعدات التي تلقتها القوة الصليبية المحاصرة لعكا من
المدن والمقاطعات الاوربية ، فقد وعد اعظم ملوك الغرب آتشد الاشتراك
بحملة عسكرية لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين - على حدّ رأيهم -
وهم فردريك ببروسه امبراطور المانيا ، وفيليب اغسطوس الثاني ملك

(١) الروضتين : ١٤١/٢ •

فرنسا وريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا • وكان امبراطور المانيا اسرع للعمل من غيره ، لان ريتشارد وفيليب كانا متنافسين ويتبادلان الريسة ، ولذلك لم يرد احدهما الابرار قبل الثاني ، خوفا مما قد يحدث في غيابه ، لذلك تأخرا عن الابرار حتى تموز ١١٩١م^(١) •

اما امبراطور المانيا فقد تحرك في جمادى الاولى سنة ٥٨٥ / أيار سنة ١١٨٩م بما يقرب من مائة ألف محارب عن طريق البر مارا بالقسطنطينية ، غير ان الحملة الالمانية باءت بالفشل ولم يصل من رجالها الى عكا الا القليل في أوائل شهر تشرين من سنة ١١٩٠م بعد ان توفي قائد الحملة ، وأصاب اتباعه الانشقاق ، بالاضافة الى ما تعرضت له الحملة الالمانية من هجمات شديدة كان يشنها السلاجقة الاتراك وأهالي حلب والدولة البيزنطية^(٢) •

ورغم ما اشيع عن الحملة الالمانية من قوة البطش وكثرة العدد ، فان صلاح الدين كان ثابت العزيمة ، تمكن بحزمه السياسي والعسكري ان يتغلب على الموقف • اذ ما ان وصلته أخبار هذه الحملة حتى عمد الى ارسال العيون والجواسيس وكتب يستنفر الامصار والاقطار ويستصرهم ،

(١) رنسيان ، المدينة البيزنطية : ٢٠٦-٢٠٧ ؛ المطوي ، محمد ، الحروب الصليبية : ٦٢-٦٣ •

(٢) للاطلاع على سير الحملة الالمانية والصعوبات التي لاقتها واسباب فشلها انظر: النوادر السلطانية : ١١٥ و ١٢٣-١٢٤ و ١٢٤-١٢٨ ؛ الفتح القسي : ٢٦٠-٢٨٨ ؛ مفرج الكروب : ٣١٧/٢-٣٢٥ و ٣٢٩ ؛ الروضتين : ١٥٠/٢ و ١٥٤-١٥٥ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٠٧/٠-٥٠٩ ؛ البداية والنهاية : ٣٣٦/١٢ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : ٣٦١-٣٦٢ ؛ تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٥٩-٣٦١ ؛

cahen, op. cit., PP. 431-432.

Grousset, op. cit., PP. 10-17, Rneiman, op. cit., 111, PP. 13-17.

وبعث بالقاضي بهاء الدين بن شداد الى الخليفة العباسي ببغداد الناصر لدين الله لاعلامه بتطورات الموقف • وقد استجابت الاطراف المعنية كافة لكتب صلاح الدين ، فأرسلت بغداد مثلاً حملين من النفط وجماعة من النفاطين ورفقة موقعة من الخليفة العباسي يقترض فيها صلاح الدين من التجار عشرين الف دينار • وفي ٢٧ ربيع الاول سنة ٥٨٦ هـ وصل اليه الملك الظاهر بعسكر حلب ، ثم وصل اليه عماد الدين بعسكر سنجار ومظفر الدين بعسكر الجزيرة ، اضافة الى عز الدين اتابك الموصل ارسل عسكر الموصل بقيادة ابنه علاء الدين كما ارسلت مصر باساطيلها العسكرية الى سواحل الشام لمساندة القوات البرية^(١) واستجابة هذه المدن والامصار لنداءات صلاح الدين دليل عملي على نجاح الوحدة التي أعادها صلاح الدين ، بقدر ما هو دليل على ان شعور المسلمين كان حياً وواحدًا •

واضافة الى سياسة الاستنفار والاستنصار التي اتبعها صلاح الدين ، فقد أمر امراء بعدم بيع غلة اراضيهم من الحبوب واستجماع التبن ليكون علقاً لخيولهم ، لعل الحرب يطول امدها مع الالمان • ولذلك أخذ الامراء يرسلون الى متولي أمورهم بمنع بيع القلال • يقول ابن الاثير : « ان بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية ، وكان أخي رحمه الله يتولاها فحصل دخلها من خبطة وشعير وتبن • فأرسل اليه في بيع الغلة • ثم وصل اليه كتاب يقول : لا تبع الحبة الفرد ، واستكثر لنا من التبن ؟ ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول : تباع الطعام فما بنا حاجة اليه ، ثم ان الامير قدم الى الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة فقال : لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا اننا ليس لنا بالشام مقام • فكتبت

(١) النوادر السلطانية : ١١٥ و ١١٨ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٣ ؛
الروضتين : ١٥٠/٢ - ١٥١ •

بالمع لتكون ذخيرة لنا اذا جئنا اليكم فلما اهلكهم الله واغنى عنهم ، كتبت
بيسها والانتفاع بشمها»^(١) . وهذا يدل على ان الحملة الالمانية كان لها
ردود فعل قوية وقاسية في نفوس المسلمين لما أشيع عنها من قوة وبطش ،
بحيث ان المسلمين آيسوا من المقام بالشام . غير ان عقدة الخوف من هذه
الحملة ازيلت بسرعة نظرا لفشلها وللسياسة الجيدة التي اتبعتها
صلاح الدين .

ومن غير شك ، فالحملة الالمانية اوثقت التقارب البيزنطي الايوبي ،
المتفق عليه من قبل^(٢) . فقد دفعت بالامبراطور البيزنطي اسحق الثاني ان
يراسل صلاح الدين ويعرفه بكل تحركات الحملة الالمانية . نظرا للاضرار
النهي الحقها الالمان بالاراضي البيزنطية ، وايدائهم لفلاحها ، لذلك كله
فضل اسحاق الثاني محبة صلاح الدين وصداقته على عداوة الصليبيين . وفي
نص الكتاب المرسل من القسطنطينية الى صلاح الدين ما يدل على ذلك :

« . . . قد سار في بلادنا الالمان وما هو عجب فان الاعداء يرجفون
بأشياء كذب على قدر اغراضهم ، ولو تشتهي ان تسمع الحق فانهم قد
تأذوا وتعابوا أكثر مما آذوا فلاحنا بلادنا ، وقد خسروا كثيرا من المال
والدواب والرجل والرجال ، ومات منهم كثير ، وقتلوا ، وبالشدة قد
تخلصوا من أيدي أجناد بلادنا وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون بلادك ،
وان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كثيرة ، ولا يقدر ان ينفعوا جنسهم . . .
ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الفرنج وجنسهم . . . »^(٣) .

وفي الوقت الذي وصلت فيه الحملة الالمانية منطقة الشام عن طريق

(١) الكامل : ٥٠/١٢ .

(٢) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب : ١٦٦/٢

و ١٧١ : عاشور ، الحركة الصليبية : ٨٨٧/٢ .

(١) النوادر السلطانية : ١٣٣ .

البر ، وصل فيه عن طريق البحر سفينة صليبية فيها ثلاثمائة امرأة صليبية « مستحسنة بشبابها وحسنها متزينة قد اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر ... وتأهبن لاسعاد الاشقياء وتلهين على السفاح والسفاد ، من كل زانية مازية ... فاجرة نجلاء كحلاء فوصلن وقد سبلن انفسهن ، وقد من للتبذل اصونهن وانفسهن ، وذكرن انهن قصدن بخروجهن تسيل فروجهن ... وتفردن بما ضربته من الخيم والقباب »^(١) وهذا النص يدلنا على ان الصليبيين استخدموا الجنس كسلاح أيضا في الحملة الصليبية الثالثة ضد المسلمين لاشغالهم عن متابعة مهمة الجهاد . وقد نصب الخيم والقباب بمناطق قريبة من العسكر الاسلامي . مما دفع ببعض الجنود الشبان الى الذهاب الى تلك الخيم والقباب وتعاطي المحرمات . وقد وصفهم الاصفهاني في قوله : « وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ... وابق من الممالك الاغنياء ، والمدابير الجهلاء ، جماعة جذبهم الهوى ، واتبعوا من غوى ، فمنهم من رضى للذلة ومنهم من ندم عن الزلة فتحيل في النقلة »^(٢) .

ولم تقطع الامدادات الصليبية من الغرب الاوربي للصليبيين المحاصرين لعكا ، وكان بين الفترة والاخرى يصل الى الشام عدد لا بأس به من السفن الحربية المحملة بالفرسان والعدد الحربية . ففي ١٢ ربيع الاول سنة ٥٨٧هـ / ٢٠ ابريل سنة ١١٩١م وصل الى عكا فيليب اغسطس

(١) الفتح القسي : ٢٢٨-٢٢٩ : الانس الجليل : ٣٦٢/١ ،

وانظر :

Bercovici (K.): The Crusades (New York, 1929)
P. 154.

نقلا عن : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢٣٢ هامش رقم (٢) .

(٢) الفتح القسي : ٢٣٠ .

ملك فرنسا^(١) ، ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا^(٢) ، الذي دخل جزيرة جزيرة قبرص في ٢٦ ربيع الآخر واستولى عليها ، ثم وصل الى الشواطىء السورية في أوائل حزيران واحرق اسطولا للمسلمين^(٣) . ومنذ هذه اللحظة التي وصل فيها ريتشارد الشام بدأ ميزان القوى يتغير لصالح الصليبيين ، وأصبحت جزيرة قبرص من المراكز المهمة بعد فتحها لتموين بقايا الصليبيين بالشرق ، ومحطة للاتصال بين صليبي الشرق والغرب^(٤) .

وقد ازداد الضغط على عكا حتى سقطت بأيدي الصليبيين ظهر يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ / ١٢ تموز ١١٩١م بعد ان احرق الصليبيون بالمدينة من جهاتها الاربع^(٥) . وبعد ان كان ريتشارد يشاغل

(١) المصدر السابق نفسه ، ان العبري ، تاريخ مختصر الدول : ٢٢٢ ، الروضتين : ١٨٢/٢ ، العربي ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٩٢٢/١ .

(٢) ريتشارد قلب الاسد : نظرا لاهمية انجلترا والدور الايجابي الذي قامت به في مساندة الحروب الصليبية ، فقد اضيفت على ملكها ريتشارد صفات مبالغ فيها بشكل كبير . فهو بدون شك كان من ملوك انكلترا العظماء ، وكان قائدا ذكيا الا انه كان غادرا وما اضيفي عليه من خيال جعله في عداد اصحاب الاساطير . ومن ذلك ما جاء به المؤرخ الصليبي جوافيل في كتاب (الارض المقدسة) قوله : اذا ما انحرفت خيول المسلمين نحو شجرة او اجمه ، فان فرسانها يصرخون بها : ويحكم اتحسبون الملك ريتشارد في اثركم « بولارد ، بريطانيا والشرق الاوسط : ٥ .

Champdor, Saladin, P. 271. (٣)

(٤) عاشور ، قبرص والحروب الصليبية : ٢٩-٣٠ .

الصليبيين لها وما جرى حولها من قتال انظر : الكامل : ٦٥/١٢ : النوادر

(٥) لمعرفة المزيد عن اسباب سقوط عكا وكيفية محاصرة

صلاح الدين ببعض المراسلات كأن يطلب منه طيرا وبعض الفاكهة والتلج وذلك « تفتيرا للعزمات وتضيعا للوقت على المسلمين ، وهم مع ذلك يشتغلون بمجاهدة البلد ومواترة رمية بالمجانيق »^(١) ومن دراسة للنصوص التاريخية يمكن توضيح الاسباب التي أدت الى سقوط عكا بيد الصليبيين :

قاومت عكا الحصار مدة سنتين كاملتين (٥٨٥ - ٥٨٧ هـ / ١١٨٩ - ١١٩١ م) شهدت خلالها أضخم عمليات حربية ، اشتركت فيها كل قوات اوربا الغربية تقريبا بما امتازت به من أساطيل قوية وآلات حربية ضخمة . وعلى الرغم من وحدة القيادة الاسلامية التي كانت بيد صلاح الدين ، الا ان بعض امراء الاجناد ملوا الانتظار الطويل ورغبوا في العودة للاهل والاطوان ، رغم معارضة صلاح الدين المتكررة لهم . غير ان بعضهم أصر على العودة مما احدث نقصا في القوات العسكرية الموجودة قرب عكا امثال عماد الدين زنكي الثاني اتابك سنجار الذي شكى الى صلاح الدين « هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له »^(٢) ، بالاضافة الى ان تقي الدين استأذن من صلاح الدين بعض الوقت لاستجماع العساكر ، غير انه انشغل بأمر جانبيه مما أدى الى نقصان في القوات العسكرية التي كانت مع صلاح الدين . وقد اوضح

السلطانية : ١٧٢-١٧١ ؛ الروضتين ١٨٤/٢-١٨٩ ؛ وفيات الاعيان : ١٩٣-١٩٥/٦ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٣٤٣-٣٤٢ ؛ تاريخ ابن الوردي : ١٤٤-١٤٥/٢ ؛ ١٤٧-١٤٨ ، مرآة الزمان ق ١ : ٨/٤٠٧-٤٠٩ ؛ التاريخ المختصر : ١٠٤-١٠١/٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٤٥ ؛ تاريخ ابن الفرات : ٤ م ، ج ١/٢٢٢-٢٢٤ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٤٧١-٤٧٢ ؛ العسجد المسبوك : ٤٣ ؛ شعلة الاسلام : ٢٠٠-٢١٢ ،

Lanepool, Saladin, PP. 267-273.

(١) تاريخ ابن الفرات : ٤ م ، ج ٢/١٢-١٣ .

(٢) النوادر السلطانية : ١٤٦ .

الاصفهاني هذا الامر فقال : « ونسب السلطان ذلك [أي سقوط عكا] بعد قضاء الله الى تقي الدين ... فانه مضى على ان يعود باضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط واثار في ديار بكر الاختباط والاختلال ، فتتج تأخر نصف العساكر قوات الغرض المروم وكذلك لم يكن في البلد عدد يفي بصونه » (١) .

واضافة الى نقص عدد الجند المدافعين عن عكا ، فان ابن الاثير والاصفهاني يوحيان بأن من أسباب سقوط عكا تواطؤ بعض النصارى الذين كانوا بداخل عكا . فقد كان على خزانة المال الموجودة في عكا قوم من النصارى عمدوا الى الماطلة في صرف الاموال لتجنيد العسكر وكان « اذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة باقامة معرفة وأخرى بغير ذلك ، مما جعل الكثير يتفرق » (٢) . في الوقت الذي خرج فيه بعض نقابي البلد واعان نقابي الصليبيين حتى وقعت أبدان السور وأبراجه (٣) .

وفي الوقت الذي قلت الاقوات على المسلمين المحاصرين بداخل عكا (٤) لشدة الحصار الذي ضرب عليها ، وعدم تمكن العسكر الاسلامي من ايصال الامدادات اليهم كانت الامدادات الصليبية - كما ذكر شامبدور - تصل الى الصليبيين المحاصرين لعكا حتى أصبح عددهم لا يقل عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل . وكان البحر يحميهم ويمدهم بالعدد والعدد من مختلف البلدان الغربية . وكان المسلمون اذا ما أسروا فردا من الصليبيين ، فانهم كانوا لا يقدرّون على التفاهم معهم لاختلاف لغاتهم ، مما

-
- (١) الفتح القسي : ٣٥٧-٣٥٨ .
 - (٢) ابن الاثير ، الكامل : ٥٥/١٢ .
 - (٣) الفتح القسي : ٣٦٦ .
 - (٤) اليافعي ، مرآة الجنان : ٤٣٢/٣ .

جعل من الصعوبة كشف أسرارهم^(١) .

أما ابن الأثير فيعزى أسباب سقوط عكا الى عوامل نفسية أصابت المسلمين المحاصرين بعكا ودفعتهم الى التواني وعدم الاستماتة في المقاومة وكانت هذه العوامل هي :-

١ - عجز صلاح الدين من دفع الصليبيين عن ضرب عكا ، أو إبعادهم عن محاصرتها .

٢ - ان الأمير سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب ، طلب من فيليب ملك فرنسا ان يطلق اسرى المسلمين ويمنحهم الامان ويسلم اليه عوضا عن ذلك عكا ، فلم يجبه فيليب مما احدث في نفوس أهالي عكا وهنا .

٣ - ان اميرين ممن كانوا بعكا لما رأوا فعل المشطوب ، اتخذوا من الليل سترا لهما وركبوا في سفينة صغيرة وخرجوا سرا مع اصحابهم ولحقوا بصكر المسلمين وهما عز الدين ارسل الاسدي وابن عز الدين جاولي . فلما شاع الخبر في اليوم التالي ازداد أهالي عكا وهنا الى وهنهم ، مما دفع بأهالي عكا الى طلب الامان من الصليبيين^(٢) .

وكان من نتائج سقوط عكا ان أصبح أهاليها جميعا اسرى ، رغم انهم أخذوا الامان لانفسهم من الصليبيين حين سلموا البلد اليهم ، الا ان الصليبيين نكثوا العهد الذي قطعوه على انفسهم وقبضوا على جميع المسلمين ووضعوهم في جهة من البلد واستولوا على كل متاعهم وأموالهم . وقد وصف الرحالة ابن جبير ، الذي زار عكا في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٥٨٠هـ / ١٨ ابرل سنة ١١٨٤م الحالة التي أصبحت عليها فقال : « عادت

(١) Saladin le plus pursheros de l'Islam, P. 279.

(٢) ابن الأثير ، الكامل : ٦٨-٦٦/١٢ : ٦٨

مساجدها كنسائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ولم يبق بأيدي المسلمين الا مسجدا صغيرا يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة بعد ان وضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه «^(١) مما يدلنا على المعاملة القاسية التي عامل بها الصليبيون الاسرى المسلمين المغلوبين على أمرهم ، بحيث انهم استولوا على كل أملاكهم ومساجدهم ولم يبقوا لهم الا مسجدا واحدا ، وحتى هذا المسجد الواحد قاسموهم فيه ليشوشوا على المسلمين عباداتهم .

ولم يكتف الصليبيون بذلك ، بل قبض ريتشارد - الذي تزعم الحملة الصليبية الثالثة ، بعد انسحاب فيليب اغسطس الى بلاده - «^(٢) على الاسرى المسلمين وساقهم الى جنوب تل العياضية وأمر بذبحهم جميعا ولم ينبج منهم الا بعض الامراء ليفتدى بهم ريتشارد ببعض اسرى الصليبيين «^(٣) . وكانت المذبحة عظيمة لدرجة ان جميع المؤرخين شرقيين وغربيين استكروها . يقول هارولد لامب « جاءوا بألفين وستمائة من المسلمين الى السهل واحيطوا ببطانيات علقت فوق جبال واوثقت أيديهم وذبحوا بالسيوف ، أو علقوا

(١) رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٩٠٧) : ٣٠٣ .

(٢) بعد سقوط عكا بيد الصليبيين حدثت بعض الاختلافات بين الملكين فيليب اغسطس وريتشارد قلب الاسد . وقد انسحب فيليب الفرنسي على اثرها الى صور في شهر تموز سنة ١١٩١/٩ رجب سنة ٥٨٧ هـ ومنها عاد الى بلاده بعد ان اقسام امام اللوردات بالحفاظ على العهد القاضي بالآلا يلحق ضررا بانكلترا أو بسكانها ، وبذلك تزعم ريتشارد الحركة الصليبية الثالثة في منطقة الشام . لامب ، شعلة الاسلام : ٢١٥ انظر :

Stevenson, op. cit., P. 274.

Lanepool. Saladin. P. 306.

(٣)

شبقا على مرأى من اليزك(*) الاسلامي»^(١) . ويعمل لامب أسباب هذا الغدر والمذبحة الرهيبة فيقول : « ان الصليبيين كانوا واقعين حتى ذلك الحين تحت وطأة المرارة بخسائيرهم في عكا ، وان أغلبهم أي الصليبيين ... كانوا يرون في أعدائهم أي المسلمين كفارا يجب قتلهم انى وجدوا »^(٢) .

ورغم هذا الاعتراف من المؤرخ الغربي لامب بأن الصليبيين كانوا يرون في المسلمين أعداء حقيقيين وكفارا يجب قتلهم ، الا ان بعض المراجع العربية شاعت ان تظهر العلاقة بين الطرفين بأنها كانت علاقة حسنة . يقول الدكتور نظير حسان سعداوي : « كانت العلاقات الاجتماعية السلمية بين الايوبيين والصليبيين ودية عموما رغم ما بين الفريقين من حرب »^(٣) وبالرغم من اعتماد الدكتور سعداوي على نص تاريخي لابن جبير يوضح حسن العلاقة بين المسلمين والصليبيين في عكا قبل الفتح . الا ان نصا تاريخيا واحدا لا يكفي للتدليل على مثل هذا الرأي الخطير ، علما بأنه اذا كانت العلاقة حسنة في منطقة واحدة فان ذلك لا يعني ان العلاقة بين الصليبيين والمسلمين كانت حسنة في سائر المناطق الاخرى . فهذا ابن جبير ، مثلا - الذي تحدث عن حسن العلاقة في عكا يصور العلاقة السيئة والمعاملة اللا انسانية التي كان يلاقها المسلمون في مدينة صور ، حتى انه

(*) اليزك : لفظ فارسي معناه الطلائع ، وتستعمل للدلالة على الفرقة التي تكلف بعملية الاستطلاع ، وكان افرادها يتمنون تمرينا خاصا على جلب الاخبار من معسكر العدو ، سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢٢٠ .

(١) شعلة الاسلام : ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر السابق : ٢١٨ .

(٣) التاريخ الحربي المصري : ٢٦٢-٢٦٣ .

يستكر على المسلمين بقاءهم الى جوار الصليبيين وذلك لان الحرّ الذي يسير منهم في المدينة يشاهد اخوانه من المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة تصريف الصيد^(١) .

وبالرغم من المعاملة اللا انسانية التي عومل بها اسرى الحرب من المسلمين في عكا ، فان صلاح الدين لم يقابل الصليبيين بالمثل . اذ بعد أيام من مذبحة عكا اسر العسكر الايوبي جماعة من الصليبيين قرب عكا وجيء بهم الى صلاح الدين منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيين ، وكان من الطبيعي ان يأمر صلاح الدين بقتلهم ، كما قتل اسرى عكا ، الا انه باسطهم واطعمهم وكساهم ، ثم سيرهم الى دمشق ليودعوا في سجنها^(٢) . وشتان بين سلوك الصليبيين الهمجي الذي اتبعه ريتشارد ، وبين السلوك الانساني الذي اتبعه صلاح الدين ، ليس فقط في عكا أو القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ ، انما في كل المدن والحصون الصليبية التي فتحها ، والتي كان يمنح أهاليها الامان ثم يرسلهم مكرمين الى مأمئهم . وكان لهذه السياسة أثر كبير في استسلام الحصون الصليبية .

وقد وصف الراهب أودو الدويلي معاملة المسلمين للاسرى الصليبيين ، بأنها كانت رحيمة وانسانية ، تختلف عن قسوة الصليبيين على اخوانهم الصليبيين ، بحيث ان المسلمين كانوا يقدمون الخبز والمأوى لأعدائهم الصليبيين ، مما دفعهم الى نبذ دينهم واعتناق عقيدة الاسلام^(٣) . وقد حدث هذا الامر عند حصار الصليبيين لمدينة عكا سنة ٥٨٦هـ

(١) رحلة ابن جبير (لندن ، ١٩٠٧) : ٣٠٧ .

(٢) ابن الفرات ، التاريخ ، م ٤ ، ج ١/٢٤٢ .

(٣) ارنولد ، سير توماس ، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن

ابراهيم حسن ، (القاهرة ، ١٩٥٧) : ١٠٨-١٠٩ .

حيث وجد الصليبيون لهم طريقا الى المعسكر الايوبي ، بعد ان وجدوا فيه المأوى والطعام بعد ان كانت امداداتهم الصليبية قد تأخرت ، وكان حصار عكا قد طال . وازداد سعر المواد الغذائية ، حتى بلغ سعر غرارة الحنطة بأكثر من مائة دينار^(١) . لذلك أخذت الاعداد الكبيرة من الصليبيين تسعى للانضمام الى المعسكر الاسلامي طمعا في المعاملة الانسانية ، وخوفا من الموت جوعا ويعلق السير توماس ارنولد على اولئك المسلمين الذين اهتموا بكسب النصارى وتحويلهم للإسلام فيقول : « وقد يكون من الممتع ان نعرف من هم هؤلاء ... على اننا نعلم ان صلاح الدين العظيم نفسه كان على رأسهم »^(٢) .

معركة ارسوف :

بعد ان غدر ريتشارد بأسرى المسلمين في عكا ، خرج منها بجموع الصليبيين قاصدا استرداد الساحل الشامي الذي كان قد فتحه صلاح الدين وجعل طريقه نحو عسقلان^(٣) . بعد ان اتبع خطة عسكرية جيدة اقتضت مسيره على البرّ قريبا من الساحل ، بينما تسيّر سفنه الحربية في البحر

(١) لمعرفة سوء الاحوال الاقتصادية التي اصابت الصليبيين عند حصار عكا ومدى الغلاء في الاسعار الذي تعرضوا له والذي دفعهم لاعلان اسلامهم انظر : الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٣٠٠ ؛ سبط ابن الجوزي ، مراآة الزمان ، ١ ق ج ١ ٤٠٤/٨ ؛ ابن الفرات ، التاريخ ، ٤ م ، ج ١/٢٤٤ .

(٢) ارنولد ، المصدر السابق نفسه : ١١٠ .

(٣) عسقلان : مدينة بالشام من اعالي فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها عروس الشام ، استولى عليها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ ، واستنقذها صلاح الدين منهم سنة ٥٨٣ هـ ، ثم خربها سنة ٥٨٧ هـ خوفا من استيلاء الصليبيين عليها . تاريخ ابن الفرات (تحقيق حسن محمد الشماع) ٤ م ج ٢/٢٩ هامش رقم (١٠٠) .

لتسانده • ولما علم صلاح الدين بهذه التحركات الصليبية عبأ قواته العسكرية وسار في أعقابهم ، رغبة بمضايقة العسكر الصليبي ومنع تقدمه نحو الساحل بسلام^(١) •

وفي الوقت الذي ابتعدت فيه الجيوش الصليبية عن الساحل ، نتيجة للظروف الطبيعية ، عزم صلاح الدين على الاشتباك معهم بمعركة فاصلة ، وقد اختار قرية دير الراهب موضعا له فنزل بعساكره عليها ، وعند هذا الموضع طلب ريتشارد الاجتماع بالملك العادل - أخي صلاح الدين - وعرض عليه عقد صلح بين الطرفين شريطة ان يعاد الساحل الشامي الى الصليبيين ، فرفض العادل ، وعندها تأهب الطرفان للحرب ، وكان ذلك في يوم السبت ١٤ شعبان سنة ٥٨٧هـ / ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ - بعد ان كان العسكر الايوبي قد ازعج العسكر الصليبي كثيرا وضايقه - فحمل الصليبيون حملة رجل واحد على العسكر الاسلامي وهزمه^(٢) • ولولا دخول العسكر الاسلامي في موضع كثير الشجر عند ارسوف ، لتعرض لخسارة فادحة ، فقد ظن ريتشارد انسحاب المسلمين مكيدة ، فلم يتعقبهم داخل الغابة ولم يتابع انتصاره^(٣) •

وكان لوجود صلاح الدين في ساحة القتال أهمية كبيرة ، نظرا لانه كان يتنقل بين جماعة وأخرى من عسكره ويشتهم على القتال بعد ان كادوا ينهزمون • يقول ابن شداد « فلما رأى السلطان ما نزل بالمسلمين سار حتى اتى طلبه ، فوقف فيه والناس يفرون من القتال ، وكلما رأى فارا من

(١) النوادر السلطانية : ١٧٥ ؛ الروضتين : ١٩٠/٢ - ١٩١ ؛ مفرج الكروب : ٣٦٥-٣٦٦ •

(٢) مفرج الكروب : ٣٦٦-٣٦٧ •

(٣) ابن خلدون ، التاريخ : ٤٧٨/٥ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٩٦٣-٩٦٤ •

الحرب يحضره عنده ، فاجتمع في الطلب خلق عظيم ، ووقف العدو في مقابلتهم على رؤوس التلّول والروابي ، وخاف العدو ان يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة ،^(١) اما باقي العسكر المنهزم ، فان كل من رأى صلاح الدين مع جماعة من الجند واقفين مقابل العدو يعود الى العسكر مسرعا ولا يتجاوز استحياء من صلاح الدين والهزيمة^(٢) .

وقد لعب عسكر الموصل في هذه المعركة دورا مهما ، وبقي من دون سائر العساكر الاسلامية الاخرى صامدا في المعركة لم ينهزم ، حتى جلب أنظار صلاح الدين له ، فتقدم الى مقدمه علاء الدين بن عز الدين مسعود - اتابك الموصل - وشكره على ثبات عسكره^(٣) . وكانت معركة ارسوف هي المعركة الاولى التي تحسّس فيها صلاح الدين قوة ريتشارد وكان من نتيجتها ان اضطر الى تعديل خطته العسكرية في القتال كما سنجد من تخريبه لمدينة عسقلان والرملة .

تخريب مدينة عسقلان :

وبعد هذه الكسرة رحل صلاح الدين الى الرملة في ١٧ شعبان واجتمعت الاثقال والعساكر بها ، فتداول مع أخيه العادل وكبار الامراء في الخطة العسكرية الواجب اتخاذها في المستقبل ، وكان أمر مدينة عسقلان من بين المواضع التي تطرق اليها المجلس^(٤) . وقد اشير على صلاح الدين بخرابها خوفا من ان يدخلها الصليبيون ويقتلوا من بها من المسلمين كما فعلوا بعكا ، فلم يرض بذلك صلاح الدين وندب الناس لدخولها فلم يجبه

(١) النوادر السلطانية : ١٨٤ .

(٢) الروضتين : ١٩١/٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٦٨/٢ .

(٣) ابن شداد ، نفس المصدر والمكان السابق .

(٤) ابو شامة ، نفس المصدر والمكان السابق .

أحد^(١) .

ولما وجد صلاح الدين من عسكره هذا الامتناع من دخول عسقلان ، ورغبتهم في خرابها ، لم يسارع باصدار أوامره في البدء بخرابها ، وبقي طوال الليل مستيقظا يفكر بالامر ، كما استدعى اليه القاضي الفاضل ابن شداد وبدأ الحديث معه في معنى خرابها ، كما احضر ابنه الملك الافضل وشاوره في الامر ، وكان يعرض عن خرابها ويقول : « والله لان افقد أولادي كلهم أحب اليّ من ان اهدم منها حجرا واحدا ، ولكن اذا قضى الله بذلك وعيّن له مصلحة المسلمين طريقا فكيف اصنع ؟ »^(٢) .

وهكذا فضل صلاح الدين مصلحة المسلمين على محبته للبلد فاستدعى الوالي قيصر - وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم - وأمره بهدم أسوار البلد وذلك ليلة الخميس ١٩ شعبان سنة ٥٨٧ هـ ، كما قسم السور على العسكر وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر جزءاً وبرجا معلوما يخربونه ، وكان صلاح الدين وابنه الافضل وسط العسكر يستحثونهم على الاسراع في الخراب قبل ان يسمع الصليبيون بالخبر فيتقدمون اليهم ولا يتمكن من اتمام خرابها فيستولون عليها ، وهي عامرة فيأخذ بها القدس وينقطع بها طريق مصر ،^(٣) .

وقد استمر تخريب واحراق البلد الى نهاية شهر شعبان^(٤) ، ولما تم

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٧٢-٧١/١٢ .

(٢) ابن شداد ، النوادر : ١٨٦ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ١٩٢/٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٤٦/٦ .

(٤) الروضتين : نفس المصدر والمكان السابق ؛ السلوك (القاهرة ، ١٩٣٤) ، ق ١ : ١٠٦/١ .

خرباها وقع الضجيج والبكاء بين أهلها ، لما لحق بهم من الحزن العظيم نظرا لجمال البلد وعظم بنائه وكمال استحكاماته واضطرار اهله الى بيع ما لا يمكن حمله ، حتى بيع مثلا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد ، كما بيع اثنا عشر طيرا من الدجاج بدرهم واحد ، وسار أهله الى مصر والشام متفرقين^(١) .

والاسئلة التي يمكن اثارتها : اذا كان خراب عسقلان قد أضرّ بأهل البلد كثيرا . فهل كان بالامكان تفادي الامر من دون تدمير البلد ؟ وهل نجحت هذه السياسة في حل المشكلة أم لا ؟ وهل كان صلاح الدين مصيبا في اتباعه لهذه السياسة ؟

ان نظرة سطحية للمشكلة ، ربما تدفع الباحث الى اتهام صلاح الدين وتحمله مسؤولية خراب عسقلان . لان خراب بلد ليس بالامر اليسير وبخاصة مثل عسقلان البلد الذي قيل فيه « كان بلدا خفيفا محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه »^(٢) غير ان صلاح الدين لم يأمر بخرابه الا مضطرا ، على كره شديد منه وألم عظيم أحسّ به ، وبعد تداول الامر مع مستشاريه الذين أصرّوا على خرابها خوفا على المسلمين مما قد يقع عليهم ، كما وقع لاهالي عكا .

ولا يخفى بأن موقع مدينة عسقلان المهم بين طريق مصر والقدس هو الذي دفع الى تخريبها اضافة للعوامل السابقة ، فلو سيطر الصليبيون على البلد لتحكموا بالطريق الواصل بين مصر والشام من جهة ولامكنهم اتخاذه مركزا لشن الهجمات على القدس من جهة ثانية . لذلك اختار صلاح الدين الهم على المهم وفضل القدس على عسقلان وقدم الثانية ضحية لسلامة

(١) ابن شداد ، النوادر : ١٨٧ ؛ ابن كثير ؛ البداية والنهاية : ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٢٦٩ .

الاولى فُتدما قرر صلاح الدين ، بعد تفكير ومشاورة ، ضرورة تخريب المدينة ، عجل في هدمها ، وهذا منتهى الحزم والصواب ، فلو سمع الصليبيون بالامر قبل الانتهاء من انجازه لسارعوا اليها واحتلوها وبذلك يخسر صلاح الدين من جهتين : الاولى وقوع المدينة بيد الصليبيين ، والثانية نقمة أهل البلد على تخريب بلدهم • علما بان القائد العسكري لا يدع للظروف والمصادفات ان تتحكم في خطته ، وللحرب أحكام مؤلمة يضطر القائد اليها اضطرارا •

وبعد تخريب عسقلان سار صلاح الدين نحو الرملة فوصلها في ٣ رمضان سنة ٥٨٧هـ وأمر بتخريب حصنها ، ثم خرج منها الى البيت المقدس فوصله يوم الخميس وخرج منه يوم الاثنين ٨ رمضان وتقدم نحو حصن النطرون وأمر بتخريبه أيضا فهدم^(١) •

العلاقة بين ريتشارد وصلاح الدين :

عندما انتهى صلاح الدين من تخريب حصن النطرون وصل اليه من الماركيس (كونراد دي متفرا) رسولا يطلب عقد الصلح معه شريطة منحه بيروت وصيدا وان تكون عكا مقرا لاعماله بعد ان يأخذها من الصليبيين ويجاهرهم العداوة ، كما طلب الرسول ان يبذل له صلاح الدين اليمين على ذلك • فوافق صلاح الدين على هذه الشروط رغبة منه في ان يحدث انشقاقا في القوة الصليبية غير انه اشترط على الماركيس ان يحاصر عكا ويستلمها من الصليبيين أولا ، ثم يمنحه صور وبيروت كأساس لتنفيذ الاتفاقية وبعث بالعدل النجيب يوم الجمعة ١٢ رمضان لاجباره بالامر^(٢) • كي

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٨٩-١٩٠ •

(٢) المصدر السابق : ١٩٠ : الروضتين : ١٩٣/٢ : ابن واصل ، مفرج الكروب ٣٧٢/٢ •

لا يخسر صلاح الدين صور وبيروت خديعة *

وعندما سمع ريتشارد بما حدث من تقارب بين كونراد وصلاح الدين عزم على تجديد الاتصال مع الملك العادل علّه يظفر بصداقة صلاح الدين فيفتوّ الفرصة على كونراد * لذلك راسل العادل ولاطفه وقدم له اقتراحا للسلام يتزوج بمقتضاء العادل بالملكة جوان Joan - اخت ريتشارد وآرملة وليم الثاني ملك صقلية - شريطة ان تكون القدس عاصمة ملكهما ، وان تعود اليهما المدن الساحلية المهمة مثل عكا ويافا ، وان يسكن القدس مع جوان القسوس والرهبان ، اضافة الى انه يجب على العادل ان يرضي فرسان الداوية والاستبارية ببعض القرى^(١) * وكان على الطرفين أيضا ان يطلقا سراح المسجونين ، وان يعيد صلاح الدين الصليب المقدس للصليبيين ، بينما يغادر ريتشارد الى انجلترا^(٢) *

والحقيقة ان هذه عملية مدبرة خطط لها للايقاع بين الاخوين (صلاح الدين والملك العادل) * وكانت ذكية بشكل كبير ، فلو رفض صلاح الدين طلب العادل لوقع الفراق بينهما ، وكان لابد ان يعقب الفراق خصومه تسبب ضعف الجيش الاسلامي وانقسامه * ولو وافق صلاح الدين على طلب العادل ، لانار ريتشارد مشكلة جديدة وهي ان اخته لا تقبل الزواج من مسلم * فان رضي العادل بدين النصرانية فمعنى هذا عودة القدس وما فتحه صلاح الدين من ساحل الشام الى أيدي الصليبيين ، وان رفض العادل قبول دين النصرانية فسوف تعود الحالة الى وضعها الاول

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٧٢/١٢ ؛ الاصفهاني ، الفتح القدسي :

٣٩٣-٣٩٥ ؛ العليمي ، الانس الجليل : ٣٨١/١ *

(٢) Rosebault, Saladin Prince of Chivalry, PP. 280-281.

قبل المفاوضات « ولم يكن هناك أدنى شك بأن ريتشارد كان يحاول السخرية من صحبته ، ولابد انه كان يمزح عندما كتب للسلطان في مسألة عقد الزواج بين جوان والعاذل »^(١) .

ومهما يكن من أمر هذه العملية الخطيرة ، فإن الملك العادل وثق بكلام ريتشارد واحضر عنده جماعة من الامراء وهم علم الدين سليمان وسابق الدين وعزالدين ابن المقدم وحسام الدين بشارة بالإضافة الى القاضي بهاء الدين ابن شداد وشرح لهم ما ذكره له رسول الصليبيين من مسألة زواجه باخت الملك ريتشارد وطلب منهم الذهاب الى صلاح الدين واخباره بالامر ، وجعل ابن شداد المتكلم باسمه والباقيين شهودا . فلما سمعها صلاح الدين وافق عليها ، غير انه كان معتقدا ان الملك ريتشارد لا يوافق على ذلك اصلا وان هذا منه مكر وحيلة^(٢) . فأجاب أخاه على طلبه كي لا يحدث انشقاقا في عسكره .

ولما أخبر العادل بموافقة صلاح الدين على عرضه ، انفذ رسولا الى ريتشارد يعرفه بالموافقة على الشروط التي عرضها ، غير ان ريتشارد أجابه بامتناع أخته عن الزواج من مسلم وعرض عليه دين النصرانية كبديل لحل المشكلة ، غير ان العادل رفض النصرانية وبقي الامر على سابق عهده^(٣) .

وفي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات كان كل جانب مشغولا بالحق الاضرار بخصمه ، فقد استولى الاسطول الاسلامي على مراكب صليبية كان في احدها خمسمائة جندي ، قتل منهم جماعة وأسر

Rosebault, op. cit., P. 280.

(١)

(٢) ابن شداد ، النوادر : ١٩٥-١٩٦ ؛ الاصفهاني ، الفتوح القدسي ٣٩٣-٣٩٤ ؛ مفرج الكروبي : ٣٧١/٢-٣٧٢ .

(٣) نفس المصادر والامكنة السابقة .

الباقين^(١) • علما بأنه اعقب ذلك تبادل الولائم بين العادل وریشارد ، وقد ظهر بأنهما كانا يقضيان يومهما بالتحدث عن تحضير الطعام عند كل منهما مع توجيه نقد ملائم ، وأحيانا فإن يجدان الوقت مناسباً فيتحدثان عن حالة الحرب بين الجانبين وعن كيفية التوصل الى انهاءها • يقول ابن شداد : « ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة ٥٨٧هـ سار الملك العادل الى اليزك ••• وسار الانكثار الى خيمته ••• ووصل معه شيء من طعامهم اذ يي يخلصون به ، فاحتف به الملك العادل على وجه المطايبه ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو واصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل ، وقدم اليه ما كان حمل اليه وتحدثا معظم ذلك النهار ، وتفاصلا عن تواد ومطايبة ومجة أكيدة »^(٢) •

ورغم المناوشات التي كانت تجرى بين الفريقين والاضرار التي كان يلحقها العسكر الاسلامي والاعراب بمؤخرات العسكر الصليبي^(٣) ، فإن ريشارد كان يحاول بعد فشل كل محاولة للصالح ان يتقرب للعادل ويراسل صلاح الدين بطلب عقد الهدنة وذلك للمشكلات الداخلية التي كان يعاني منها الصليبيون وخوف ريشارد على ممتلكاته في انجلترا ، والمنافسات التي كانت دائرة بينه وبين الماركيس وجاي لوزجان^(٤) • هذا بالاضافة الى ان

(١) ابن شداد ، النوادر : ١٩٦ ؛

Rosebault, op. cit., P. 282.

(٢) ابن شداد ، المصدر السابق : ٢٠١ •

(٣) كان من بين الاعراب رجال اشداء يدخلون على مخيمات الصليبيين ويسرقون الرجال وهم احياء بعد ان يضعوا الخناجر على نحورهم فيضطر الصليبي ان يسكت ولا يتجاسر على الكلام ، وكانوا يسرقون مع الرجال معداتهم وأموالهم وخيولهم ، انظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٩٢-١٩٣ •

(٤) لمعرفة المزيد من المشكلة التي وقعت بين كونراد دي مونتفرات

الكتاب الذي أرسله ريتشارد الى اسقف كليرفو يدل على انه كان يعاني من شدة الحرارة وكثرة الانفاق على العساكر اللذين استنفذا قوته وصحته . علما بأن سائر القادة الغربيين قرروا العودة الى بلادهم اذا لم يصلهم الامداد بالاضافة الى تداعي الروح المعنوية للعسكر الصليبي^(١) .

وهكذا كتب ريتشارد الى صلاح الدين ، رغم فشل محادثات السلام التي اجراها مع الملك العادل ، وارسل اليه كتابا جاء فيه :

« ان المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح ، وقد اخذ هذا الامر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، واما البلاد فيعاد اليها ما هو قاطع الاردن ، واما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمن السلطان علينا ونستريح من هذا الغناء الدائم »^(٢) .
غير ان صلاح الدين لم يرض بأنصاف حلول أو تقديم أية تنازلات لاعدائه ولذلك كتب الى ريتشارد جوابا لرسالته :

« القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور ان ننزل عنه ، ولا نقدر على التلطف بذلك بين المسلمين ، اما البلاد فهي لنا في الاصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، واما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة ، ولا يجوز لنا ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة

وجاي لوزنجان والتي هدت وحدة الصليبيين بالشام ، وموقف ريتشارد من هذا النزاع . انظر :

Archer, op. cat., P. 329, 339-340; Setton, op. cit., 1, P. 89.

(١) العربي ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٩٧٠/١ -

٩٧١ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٧٢-٣٧٣ .

الى الاسلام هي اوفى منها» (١) .

وفي عشية يوم السبت ١٩ شوال سنة ٥٨٧ هـ وصل الى صلاح الدين رسول من الملك ريتشارد صحبة شيخ كبير جاوز المائة عام ووضح له بأن ريتشارد يرغب بصداقته وطلب منه ان يكون حكما بين ريتشارد والعاقل في اقتسام ساحل الشام الذي كان صلاح الدين قد منحه لاخيه العادل ، كي لا يوقع على العادل لوما من جانب المسلمين ، ولا على ريتشارد من الصليبيين ، فأجابته صلاح الدين بوعد جميل تضمن عبارات الرضاء . فعاد الرسول مسرورا الى ريتشارد فأرسل الى صلاح الدين رسولا آخر يفتحه بشأن أسرى الحرب . غير ان صلاح الدين لم يكن راغبا في الصلح مع أعدائه خوفا على مستقبل الارض الاسلامية والمسلمين من غدر الصليبيين ، ولذلك رفض الحديث مع الرسول بشأن الاسرى ووضح له بأنه اما ان يكون صلحا عاما بين الطرفين ، واما لا يكون حديث صلح بشأن الاسرى فقط . وكان هدف صلاح الدين من هذه السياسة فسخ قاعدة الصلح التي لوح بها لرسول ريتشارد من قبل . وقد اوضح للقاضي ابن شداد أسباب تغيير موقفه بقوله : « متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ، فاني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج ، والمصلحة الا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » (٢) . ولذلك فان ما ذكره المؤرخ الفرنسي شامبدور Champdor من ان صلاح الدين كان يرفض حديث الصلح مع ريتشارد ، لانه كان يهدف الى توسيع دولته توسيعا لا نهائيا ، وهي وضعية جعلته يكون بين الحرب والسلم (٣) . قول

(١) نفس المصدر السابق : ٣٧٣/٢ .

(٢) ابن شداد ، النوادر : ٢٠٣ .

(٣) Saladin le plus purherous de, Islam, P. 306.

بعيد عن حقيقة صلاح الدين وما كان يهدف اليه • فهو لم يكن يهدف الى توسيع دولته توسيعا لا نهائيا بقدر ما كان يهدف الى اخراج الغزاة من الاراضي التي احتلوها لضعف مقاومة المسلمين في ذلك الوقت • ومن هنا نان يرفض أي حديث للصلح يحل المشكلة حلا شكليا مؤقتا •

اذن ، فان صلاح الدين نان يريد حل المسألة جذريا عن طريق مغادرة الصليبيين لدراضي التي احتلوها ، ولذلك نان يرى ضرورة استمرار القتال ، غير ان ريتشارد نان يريد ان يتوقف القتال وان يتوصل الى عقد هدنة للسلام ، لا لخدمه الحق الاسلامي ، انما لخدمه القضية الصليبية عن طريق الاعراف بقوة الصليبيين في جزء من القدس وساحل الشام • ونان مستعدا لنيل هدنة بالتضحية حتى بابنه اخته البكر ، التي راسل صلاح الدين وعرض عليه تزويجها للملك العادل تاساس لحل المشكلة والوصول الى عقد هدنة للسلام • ، لما عرض على العادل من قبل تزويجه باخته الارملة جوان • غير ان صلاح الدين نان مصرا على عدم تغيير موقفه ، ولذلك كانت المناوشات مستمرة بين الجانبين حتى دخلت سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م • ففي ٣ محرم اغار ريتشارد على سرية للمسلمين وغنم ما نان بها • وفي ١١ محرم كبس الامير عز الدين جرديك تبنى - من أعمال دمشق - على من نزل بها من الصليبيين ووقع بها وأسر منهم اثني عشر رجلا ، وفي ٢ صفر اغار على عسقلان وجاء بثلاثين أسيرا^(٢) •

في هذه الفترة أصبح ريتشارد القائد الاول للصليبيين من دون منازع ، فقد قتل المركيس في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ^(٣) ، وانضم اتباعه لقوات

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢٠٣-٢٠٤ •

(٢) ابو شامة ، الروضتين : ١٩٦/٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٨٠-٣٨١/٢ •

(٣) الكامل : ٧٩-٧٨/١١ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٧١٣/٥ •

ريتشارد الصليبية • كما زال بمقتله الخطر الذي كان يهدد ريتشارد نتيجة
للاتفاق الذي حصل بين الماركيس وصلاح الدين^(١) •

وقد استغل ريتشارد فترة تزعمه للحركة الصليبية ، وانشغال
صلاح الدين بتفريق عساكره لاختد قسط من الراحة ، فنزل في
١١٩٢-٥-٢٤ على قلعة الداروم الواقعة على بعد ٣٠ كم جنوب عسقلان على
طريق مصر واحتلها رغم مقاومة الامير علم الدين جندر القوية له^(٢) • ثم
تقدم في ١٤ جمادي الاولى الى مجدل يابا وجرت عندها معركة صغيرة قتل
فيها فارس اسلامي واحد • ولما رأى صلاح الدين حركة الصليبيين هذه
وانبساطهم في البلاد مع وصول أخبار تقول بأن الصليبيين عزموا على قصد
البيت المقدس كتب الى العساكر من جميع الاطراف ان تسابق بالحضور
اليه^(٣) •

محاولة الصليبيين حصار القدس وفشلهم :

كان من بين المتسابقين للمشول أمام صلاح الدين تلبية لنداء الجهاد
العسكر المصري الذي تجهز بكل ما يملك من عدد وعدة وخرج طالبا
البلاد الشامية ، فعلم الصليبيون بأخبار هذه القافلة وبيتوا لها مكيدة ،
واستخدموا العرب البدو الرّحل المتشربين في المنطقة الواقعة بين مصر
والشام لنقل أخبارها اليهم خطوة بخطوة ، حتى قيل بان ريتشارد - ملك
انجلترا - طاف حول القافلة بصورة عربي ، ورأى ما كانت تحويه من عدد
ومتاع^(٤) لتقدير قوتها • ومن المرجح ان اولئك الاعراب كانوا هم الذين

Look : Rosebault, op. cit., P. 282. (١)

Champdor, Saladin, P. 313. (٢)

(٣) ابن شداد ، النوادر : ٢١٠-٢١١ ؛ ابو شامة ، الروضتين :
١٩٧/٢ •

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٨٤/٢ •

ساعدوا ريتشارد على القيام بمهمة الاستطلاع ضد القافلة المصرية • يقول ابن شداد : « واما الانكثار الملعون فإنه بلغنا انه لما بلغه الخبر [أي خبر وصول القافلة المصرية] لم يصدق به ، فركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبة قريبة الصباح »^(١) مما يدلنا على تحمل اولئك الاعراب للمسؤولية نكبة العسكر المصري ، ومدى خطورتهم في المنطقة ، ولهذا أجبر صلاح الدين بعضهم على الهجرة الى الشام في عهد نورالدين كما تبين ذلك في الفصل الاول • وقد خسر المصريون كثيرا نتيجة لهذه الكسرة • فقد اسر منهم خمسمائة رجل ، واستولى ريتشارد على ما يناهز ثلاثة آلاف جمل^(٢) • كما قوت هذه الكسرة معنوية الصليبيين ودفعتهم للمسير نحو القدس في محاولة للاستيلاء عليها من جديد •

رتب ريتشارد جماعة من عسكره على لدّ ليحفظوا الطريق على من سيمدهم بالميرة وانفذ الكند هرى - الذي احتل مكانة المركيس في مدينة انطاكية - الى صور وطرابلس وعكا لاستجماع العساكر والمسير بها نحو القدس^(٣) • وقد صمم الصليبيون في هذه الغزوة على احتلال القدس واعلنوا أنهم سوف ينسون كل الآلام التي أصابتهم ويقومون برسالتهم في محاربة المسلمين محاربة جادة ، بعد أن أثار فيهم قادتهم روح الحماس الديني ، ومن ذلك قول ريموند لتجمعات الصليبيين السائرة نحو القدس

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢١٤ •

(٢) ابن شداد ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ ابو شامة ،

الروضتين : ١٩٨/٢ •

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٨٥/٢ •

« ان الذي سينهي حياته في سبيل خدمة المسيح لا يعتبر ميتا »^(١) .
وتيجة للتحركات الصليبية هذه ، فقد استدعى صلاح الدين العساكر من مختلف الجهات ، وقام بالاسراع باكمال ترميماته لسور القدس ، حتى انه كان يشغل مع العسكر بنفسه لانتماء المهمة . كما عمد الى افساد المياه الموجودة في ظاهر القدس ، فاخرّب كل الصهاريج المنتشرة هناك بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلا^(٢) . ومن جهة أخرى فقد التفت صلاح الدين الى العمل من أجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين ودفعهم للقتال بحزم وقوة عن طريق تذكيرهم باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله وتعلق رقاب المسلمين وآمالهم بدم المقاتلين . لذلك أمر القاضي بهاء الدين ابن شداد بتجميع العساكر وحثهم على الجهاد ، فاستجمعهم قرب الصخرة في المسجد الاقصى ليلة الخميس ١٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٨ هـ وكان من بينهم أبو الهيجا والمشطوب وجميع الاسدية وطلب منهم مبايعة صلاح الدين على الموت في لقاء العدو كما بايع الصحابة النبي محمد (ص) . وبينما كان ابن شداد ينتظر الجواب من العسكر ، خرج صلاح الدين اليهم والقي فيهم كلمة مؤثرة جاء فيها : « الحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة في ذممكم . فان لو يتم اعتككم - والعياذ بالله - طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام »^(٣) . وقد تأثر العسكر الايوبي كثيرا بكلمة قائده فقام سيف الدين

Champdor, op. cit., P. 314. (١)

(٢) أبو شامة ، الروضتين : ١٩٨/٢ : ابن واصل : مفرج

الكروب : ٣٨٥/٢ : ابن الفرات ، التاريخ ، م ٤ ، ج ٦٨-٦٩ .

(٣) ابن شداد ، النوادر : ٢١٦ .

المشطوب وقال في بعض ما قاله : « والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان نموت » (١) .

ولم يمض الا يوم واحد على اجتماع كلمة الامراء في مساندة صلاح الدين حتى وقع الاختلاف بينهم في الطريقة الواجب اتخاذها للدفاع عن القدس ، وابلغ الامير أبو الهيجا بكتاب أرسله الى صلاح الدين رفض الامراء الدفاع عن القدس من الداخل خوفا مما قد يحدث لهم كما حدث لاهالي عكا (٢) . واقترحوا عليه مواجهة العدو في سهول الجليل الواسعة التي تسمح للعسكر بالتحرك (٣) .

وقد جاءت الظروف موالية لصلاح الدين عندما وصلته أخبار في صبيحة يوم السبت ٢١ جمادى الآخرة / ٤ تموز تخبر بأن الصليبيين مختلفون فيما بينهم ، وان ريتشارد يعارض بشدة حصار بيت المقدس لتعذر الحصول على الماء والكثرة من بداخل البلد وخارجه من العساكر (٤) . وبعد ان كان ريتشارد قد درس وضعية القدس ، والقي نظرة فاحصة على أسوارها من بعد اعلن للصليبيين « بأنه لم يعد البحر على يميننا ولا المستنقعات لكي تحميها ... » وانه يستحيل تطويق أي مكان ما دام صلاح الدين حياً ، وما دام المسلمون محدين مع بعضهم ، واننا لن نستطيع محاصرة القدس لاننا سنواجه في الوقت نفسه قوات صلاح الدين في المعركة » (٥) .

هكذا تقرر الرحيل عن القدس ليعود ريتشارد من جديد الى مفاتحة

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٧٨/٢ .

(٣) Champdor, op. cit., P. 319.

(٤) ابن شداد ، النوادر : ٢١٧ : أبو شامة ، الروضتين :

١٩٩/٢ .

(٥) Champdor, op. cit., P. 315.

(٥)

صلاح الدين بحديث الصلح ، خاصة وان أخبارا جديدة وصلت اليه من الغرب تؤكد حدوث بعض الاضطرابات الداخلية ، مما دفعه الى الاسراع بالعمل ليتمكن من العودة الى بلاده غير انه لم يكن من المعقول ان يعود بدون حل للمشكلة التي كانت بينه وبين صلاح الدين^(١) ، لذلك أرسل الى صلاح الدين كتابا اوضح له فيه حسن نواياه ومحبه له ورغبته الاكيدة بالوصول الى السلام عن طريق عقد هدنة تضمن مصالح الجانبين فاستشار صلاح الدين أصحابه بالامر ، فأجابوه بالمصالحة لتعب العساكر الاسلامية وضجرتها من الحرب ، وانتهت المحادثات بأن تكون القدس للمسلمين ويكون للصليبيين فيها الزيارة فقط من دون ان يؤخذ منهم ضريبة ، وان تخرب عسقلان وما وراءها من البلاد كي لا تكون ملجأ للصليبيين ومركزا يشنون منها غاراتهم على القدس في المستقبل . غير ان ريتشارد رفض تخريب عسقلان ، فانتهى المحادثات بالاتفاق على ان لا يتفقوا^(٢) .

فتح يافا :

ولما فشلت محادثات السلام بين ريتشارد وصلاح الدين ، تقدم صلاح الدين الى يافا يوم الثلاثاء ١ رجب سنة ٥٨٨هـ / ٢٧ تموز سنة ١١٩٢م وتمكن عسكره من ان يحدث ثوبا في سورها ، ثم اسقطت بعض أبدان السور ، مما دفع بالصليبيين الى طلب الامان ، غير ان صلاح الدين اوضح لرسول الصليبيين بأنه لا يقدر على ايقاف القتال بعد ان تمكن العسكر من السور ودخلوا المدينة ، وطلب منه ان ينحاز الصليبيون الى جهة من البلد أو يدخلوا القلعة . فانحازوا اليها ، ودخل العسكر الاسلامي البلد

(١) عاشور ، الحركة الصليبية : ٨٨٥/٢ .

(٢) انظر : ابن شداد : النوادر السلطانية : ٢١٩-٢٢١ ؛
ابو شامة ، الروضتين ١٩٩/٢-٢٠٠ .

واستولى على ما به من أموال وعدد واثاث وبقايا قماش مما كان قد نهبه
العسكر الصليبي من القافلة المصرية التي استولى عليها ريتشارد أثناء عبورها
للشام^(١) .

وما ان علم ريتشارد باستيلاء صلاح الدين على يافا حتى تقدم اليها ،
فانسحب صلاح الدين منها ، لانه لم يشأ الاصطدام مع عدوه داخل حدود
المدينة وفضل الاشتباك معه في ساحات القتال المكشوفة ، ولما وصل ريتشارد
ربض يافا التي كانت بيد صلاح الدين قال : « والله انه لعظيم [أي
صلاح الدين] ، والله ما ظننته يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في
يومين »^(٢) .

ونظرا للضغوط الشديدة التي كان يلاقيها ريتشارد من الصليبيين في
الشام ومن الانكليز الذين كانوا يحثونه على العودة الى وطنه^(٣) ، بالإضافة
الى شدة صلاح الدين ونشاطه في العمليات العسكرية التي كان استيلاؤه على
يافا آخرها ، لذلك فضل عقد هدنة مع صلاح الدين بأي وسيلة كانت ،
وارسل اليه رسولا يطلب منه يافا وعسقلان ويتنازل عن القدس كحل
للمشكلة ، غير ان صلاح الدين رفض طلبه وقدم له اقتراحا بمنحه من
قيسارية الى صور ، فرضي بذلك ريتشارد ، غير انه طلب من صلاح الدين

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٩٥/٢ .

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق : ٣٩٩/٢ . ولم اجد في المصادر
الغربية ما يدل على هذا المعنى . غير ان هذا النص ان دل على شيء انما
يدل على ان يافا كانت بلدا منيعا يتطلب فتحها على الاقل شهرا واحدا ،
غير ان صلاح الدين تمكن من فتحها بيومين من القتال المستمر وفي هذا
مدح لصلاح الدين وتمجيد لسياسته العسكرية .

(٣) لامب ، شعلة الاسلام : ٢٤٧ ؛

Champdor, Saladin, P. 322.

ان يكرمه يافا وعسقلان وقال له : « ان قاعدة الفرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلामه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما . . . » (١) فأجابه صلاح الدين الى طلبه غير انه جعل البلدين مناصفة بين الطرفين : يافا وما وراءها لريتشارد وعسقلان وما وراءها للمسلمين (٢) .

ولم يقنع ريتشارد بذلك وارسل طالبا عسقلان ، وجعلها أساسا لحل المشكلة . الا ان صلاح الدين أصر على بقائها بيد المسلمين أو تخريبها ، وكان يتكلم من مركز القوة نظرا للامدادات العسكرية الكبيرة التي وصلته في تلك الفترة من أطراف مختلفة اذ وصل اليه عسكر الموصل في ٢٦ رجب بقيادة علاء الدين بن عز الدين مسعود - أتابك الموصل - كما وصل اليه عسكر مصر في ٩ شعبان وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الاسدية ، فاضطر ريتشارد الى قبول الصلح والتنازل عن عسقلان ، بعد ان وجد اصرار من صلاح الدين بعدم منحه اياها ، وكان ذلك في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨هـ / ٣١-٨-١١٩٢م وتضمنت شروط الاتفاقية ما يلي :-

- ١ - تكون الهدنة عامة في البر والبحر ومدتها ثلاث سنوات وثلاث شهور أولها الموافق ٢١ شعبان / ٢٢-٩-١١٩٢م .
- ٢ - تكون مدينة عسقلان خرابا .
- ٣ - تكون بلاد الاسماعيلية داخلة في شروط الصلح باقتراح صلاح الدين .

٤ - اشتراط الصليبيون دخول أميري انطاكية وطرابلس الصليبيين

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر والمكان السابق ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب :

٣٩٩/٢ .

• في الصلح •

٥ - تكون مدينة الرملة واللد مناصفة بين الطرفين الصليبي والاسلامي •

٦ - تم هذه الاتفاقية بعد ان يحلف عليها ملوك وأمراء كلا الطرفين^(١) •

حلف كلا الطرفين على مضمون الاتفاقية ، وامر صلاح الدين ان ينادى في معسكرات الجند والاسواق بأن الصلح قد تم فمن شاء من الصليبيين ان يدخل بلاد المسلمين فليفعل • ومن شاء من المسلمين ان يدخل بلاد الصليبيين فليفعل • وكان يوم الصلح يوما مشهودا عمت فيه الفرحة الطائفتين ، واختلط العسكر الصليبي بالاسلامي وذهب جماعة من التجار المسلمين الى يافا في طلب التجارة ، ووصل عدد كبير من الصليبيين الى القدس لاداء الحج ، فعاملهم صلاح الدين معاملة حسنة للغاية ومد لهم موائد الطعام وكان هدفه من ذلك ان يقضي الصليبيون وطهرهم من الزيارة ، ثم يعودوا الى بلادهم وليس في نفوسهم شيء على المسلمين فيأمن شرهم • حتى ان ريتشارد لما علم بكثرة النصارى الذين عمدوا الى زيارة القدس ، كتب الى صلاح الدين يخبره بمنع أي نصراني يدخل القدس الا بموافقته ، غير ان صلاح الدين رفض طلبه واعتذر اليه بأن الحجاج النصارى يصلون الى القدس من مكان بعيد متحملين متاعب الطريق لذلك لا أتمكن من

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢٣٠-٢٣٥ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٣٠٣-٣٠٤ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ٨٥/١٢-٨٦ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٢٠٢-٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤٠٢-٤٠٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٤٨/٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/١٢-٣٥١-٣٥٠ ؛ ابن الوردي ، التاريخ : ١٥٠-١٥١ ؛ ابو الفداء ، المختصر : ١٠٨-١٠٩ •

ردهم (١) •

والسؤال الذي يمكن اثارته : اذا كان صلاح الدين قد هدف من قبل الى منع الاتفاق مع الصليبيين ، ورغب باستمرار القتال معهم حتى يخرجوا من الاراضي الاسلامية التي احتلوها جميعا • فلماذا اذن قبل مهادنتهم في هذه المرة ؟

حقيقة ان التوصل الى عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين ، في هذه الفترة خدمت الطرفين ، لما تمخض عنه الاتفاق من نتائج ايجابية أفاد منها ريتشارد وصلاح الدين على السواء • ولو لم يقع الصلح وحدثت حادثة وفاة صلاح الدين - التي وقعت بعد أقل من سنة من عقد الصلح - لوقع على المسلمين خطر كبير ، ولضاعت على ريتشارد من جهة ثانية ممتلكاته في انجلترا لعدم تمكنه من العودة اليها • ثم ان صلاح الدين لم يقبل بالصلح الا بعد الحاح الامراء عليه وطلبهم منه عقد الصلح مع الاعداء واحتجوا بقولهم : « فانظر الى أحوال البلاد فانها خربت والاجناد فانها تبعت والجياد فانها عطلت وقد اعوزت العلوفات وغلبت الآلات ولا جلب الا من الديار المصرية مع ركوب المخاطر وهؤلاء الفرنج اذا يشؤوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنقاذ المنه والصواب ان تقبل من الله الآية التي انزلها (وان جنحوا للسلم فاجنح لها)^(٢) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها وتكثر في مدة الهدنة غلاتها وأثمارها فاذا عادت أيام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا »^(٣) •

(١) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٤٠-٤٤١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤٠٥-٤٠٦ ؛ العلمي ، الانس الجليل : ٣٩٠/١ •
(٢) انظر : الانفال : ٦١/٨ •
(٣) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٣٤-٤٣٦ •

لذلك فإن قبول صلاح الدين للهدنة مع أعدائه كان لتعب العسكر وملله من الحرب المستمرة ، ثم تعب الخيول التي أجهدوها الجهاد ، وفقدان العدة وغلاء أسعار الغلات والعلوفات • ولاستخدام فترة الهدنة لتعبئة القوى والاعداد للمعارك القادمة من جهة ثانية • ولذا يمكن القول بأن صلاح الدين قبل الهدنة مع الصليبيين لمصلحة المسلمين ، كما كان قد رفضها من قبل لمصلحة المسلمين •

ونتيجة لعقد هذه الهدنة ، فقد عاد صلاح الدين الى القدس في ٤ رمضان واشتغل بعمارة أسوارها وترميم حصونها وتعميق خنادقها ، ولم يغتر بما وقع من صلح مع الصليبيين خوف المكر والخديعة^(١) • وكان يجلس بالقدس بحضرة أهل العلم والدين يناقش ويذاكر في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق وقد وصف لنا البغدادي ، متوفى حوالي سنة ٦٣٢ هـ ، مجلسا من مجالس صلاح الدين الذي حضره بنفسه بعد عودة صلاح الدين للقدس فقال « ... وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم يتذكرون في أصناف العلوم وهو [صلاح الدين] يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع »^(٢) •

ومن جهة ثانية ، فإن ريتشارد اطمئن أيضا لنتائج الصلح مع صلاح الدين فعاد الى بلاده في ٩-١٠-١١٩٢م عن الطريق البري الى انجلترا^(٣) • كما عاد صلاح الدين أيضا الى دمشق - مقر أعماله الاول في

(١) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٤٠ •

(٢) زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت ١٩٦٢) :

(٣) Grousset, op. cit., 111, P. 103.

الشام ومحل سكنى أولاده - فخرج من القدس على طريق الثغور الاسلامية
كتابلس وطبرية وصفد وتبين ثم قصد بيروت وتعهد هذه البلاد وامر
باحكامها ، وفي بيروت نزل في خدمته البرنس - صاحب انطاكية - واجتمع
به فآكرمه صلاح الدين وطيب قلبه ، ثم خرج من بيروت الى دمشق فدخلها
في ٢٦ شوال سنة ٥٨٨هـ ، ولم يمكث فيها طويلا حيث توفي في فجر يوم
الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ بعد مرض أصابه دام ثمانية أيام^(١) .

هكذا انتهى موقف صلاح الدين من القوى الصليبية ، بعد ان قضى
سني حياته يصد هجماتهم المتكررة على منطقة الشام * وقد برهن - استنتاجا
مما سبق - على مقدرة عسكرية كبيرة وفائقة ، وقسوة على النفس في
الاخلاص « فقد صان شرفه وحافظ عليه أكثر من حفاظ الصليبيين على
قانون الفروسية »^(٢) وكان رجلا مستقيما يعرف بظاهره وحسن نواياه ،
لم يستخدم المكر والخديعة حتى مع أعدائه^(٣) ، بينما استغل أعداؤه تلك
الصفات فيه ، فكانوا يشاغلونه بالمواعيد والمراسلات الكاذبة ليسوفوا بها
الاوقات ، كما فعل ريتشارد أثناء حصار عكا ، وارتباط صاحب الشقيف
ارنون^(٤) .

(١) لمعرفة المزيد عن المرض الذي عانى منه صلاح الدين وتوفي
على اثره ، ومدى تأثير الناس وحزنهم على فقد صلاح الدين انظر : ابن
الاثيم ، الكامل : ٩٥/١٢ ؛ الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٥٤-٤٥٦ ،
ابن الحسين ، غاية الاماني ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة
١٩٦٨) ق ٣٣٨-٣٣٩ ؛ ابن خلكان ، الوفيات : ٢٠٠/٦-٢٠٢ .

(٢) لامب ، شعلة الاسلام : ٣٠٣ ؛ انظر : الكامل : ٩٦/١٢ ؛
Engy. Britanica, vol, 19, PP. 864-865.

(٣) كنز الدرر : ١٠٤/٧-١٠٥ .

(٤) لمعرفة المزيد عن تسويق ريتشارد للمسلمين اثناء حصار
عكا انظر : الاصفهاني الفتح القدسي : ٣٤٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب :

غير ان صلاح الدين ، رغم مكر الصليبيين ، وكثرة اعدادهم وامداداتهم ، تمكن من الانتصار عليهم ، فقد حرر القدس ، ومناطق تواجد الصليبيين الاخرى المنتشرة في الشام ، ولم يبق الا مدينة صور وطرابلس مع بعض قلاع نائية •

ولم يكن ذلك الانتصار لولا الصفات المعنوية والمادية التي تحلّى بها صلاح الدين وجنده • فإضافة الى بناء صلاح الدين لتلك الوحدة القوية ، التي امتدت من النيل الى الفرات ، والتي اعتمدت على جمهور المسلمين ، على على القيادات والامراء ، فقد كان الجميع يحاربون أعداءهم بعقيدة ، واثابوا يدخلون المعارك لا حبا بها ، او اشباعا لرغباتهم ، او للحصول على الغنائم • انما كانوا يقاثلون طمعا في تحرير القدس ، تلك البقعة التي شرفتها عقديتهم • فكانوا يرون في القتال « دينا وحملا واجبا ، فلا يحتاج الى باعث سلطاني ، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ... »^(١) والقتال من أجل العقيدة لا يمنع حصولهم على مغائم أعدائهم ، تمشية لعجلة القتال ، وسدا لنفقات الجيش ، ومعاملة بالمثل كما يفعل الاعداء •

اضف الى ذلك الخطط العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين ، ومشاركته الفعلية في الحرب الى جانب قواته العسكرية ، وقد برزت له هذه الميزة حتى في أشد الايام الدامية ، حيث كان يتنقل وسط ميدان المعركة ، يوقظ الهمم ويحيي في الجند الروح الاسلامية^(٢) •

٣٥٥/٢ • ولمعرفة المزيد عن تسويق ارنات لصلاح الدين الذي قصد به مشاغلة صلاح الدين حتى يأتيه المدد من الغرب النصراني ، انظر : الروضتين : ١٣٩/٢ - ١٤٠ : مفرج الكروب ٢/٢٨٢-٢٨٣ •

(١) الكامل : ٥٤٧/١١ ، مفرج الكروب : ١٢/٢ •

(٢) انظر : الروضتين : ٢٥٨/١ : سنا البرق الشامي : ٢١٠/١ -

: ٢١١

Champdor, op. cit., P. 277.

كما ان اتباع خطة الحرب الخاطفة ومباغثة الاعداء ، كانت من أساليب صلاح الدين • وقد تبين هذا واضحا بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م في هجماته المتلاحقة على عكا وصفد وغزة وغيرها من المناطق • وكان صلاح الدين باعتراف أعدائه يقاتل ليل نهار ، بحيث لا يدع للصليبيين وقتا للاكل والراحة^(١) •

ثم ان في استخدام الجيش الايوبي للنار في حروبهم الاثر الواضح في الانتصار على الصليبيين ، خاصة وان استخدام النار قد تطور في عهد صلاح الدين وكان يخلط بمواد أخرى كالفحم والجير والدودة^(٢) salpêtre لرفع حرارته بحيث ان الصليبيين لم يكونوا يقدرّون على اطفاء السهام المحترقة بتلك النيران • كما حدث ذلك سنة ٥٨٦هـ عند محاصرة الصليبيين لمدينة عكا^(٣) •

وقد اوضح المستشرق هاملتون جب بعض تلك المميزات الاخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته على أعدائه فقال : « جاءت بفضل امتلاكه لصفات معنوية (أدبية) لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية الا في القليل • كان رجلا يستمد وحيه من مثال أعلى ذي قوة وثبات ••• وايمان ديني راسخ الاركان • وعندما جاء دور المدن والقلاع المسيحية ، فقد استسلمت هذه بتلك السهولة لسبب رئيسي يعود الى شهرة صلاح الدين في المراعاة الدقيقة للعهود التي يأخذها على نفسه ، وفي سماحة النفس التي

(١) الشاعر أمبروز ، المعاصر لصلاح الدين ، نقلا عن شعلة الاسلام : ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ •

(٢) الدودة : هي المواد السوداء التي تتكون على جدران المنازل القديمة والرخام انظر :

Dictionnaire du Francais contsmparain, P. 1044.

(٣) انظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٣٦ •

لا تعرف المكر والحذر» (١) •

ومما سبق يتبين ان موقف صلاح الدين من الصليبيين كان موقفا حازما • فقد عاملهم معاملة الاعداء الحقيقيين الذين جاءوا الى أرض لم تكن لهم فاعتصبوها ، وكان يجد نفسه المسؤول عن اخراجهم منها • ولذلك تميزت سياسته نحوهم بأنها كانت منحصرة في اعداد العدة وجمع الكلمة ، ومحاربة الصليبيين من اجل اخراجهم من أرض الشام ، ومن ثم ملاحقتهم الى بلادهم لنشر كلمة التوحيد فيما اذا تسمرت الامور • ولذلك خاض العديد من المعارك ضدهم ، واتصر في أغلبها •

وانتهت علاقته بهم ، بالتوصل الى عقد هدنة للسلام مؤقتة ، اضطر الى الموافقة على قبولها ، بحكم طبيعة الظروف القاسية ، واستمرارية الحرب التي انهكت القوى وانفذت العدد والعدد ، وكثرت الامدادات التي كانت تصل الى أعدائه من دول عديدة أوروبية •

الفصل الرابع
سياسة صلاح الدين نحو الخلافة العباسية
والحركة الاسماعيلية

« صلاح الدين والحركة الاسماعيلية »

تتخصر العلاقات السياسية بين صلاح الدين والاسماعيلية في نطاق فترة البحث (٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٧ م) بمجموعة أعمال تمثلت في محاولتين للقضاء على صلاح الدين سنة ٥٧٠ - ٥٧١ هـ / ١١٧٥ - ١١٧٦ م ، اعقبهما هجومه غير المتكامل على حصن مصيف الاسماعيلي سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م والانهاء بعقد صلح بين الطرفين انسحب بموجبه من حصار القلعة ، وقد وردت روايات عن رسائل تهديد كان يرسلها الاسماعيليون الى صلاح الدين في تلك الفترة • ثم في عملية مقتل المركيس (كونراد) صاحب صور سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وعلاقة صلاح الدين بمقتله • وسوف اتطرق الى تبيان ذلك بالتفصيل ، مقدما لذلك بتاريخ موجز لنشوء الحركة الاسماعيلية ، وعلاقتها بالفئات المناوئة لصلاح الدين ليكون البحث وحدة متكاملة •

يبدأ تاريخ الاسماعيلية بوفاة الامام جعفر الصادق (ع) سنة ١٤٨ هـ حيث انقسم أتباعه الى فرقتين أساسيتين^(١) : الاولى جعلت الامامة الى موسى الكاظم فالائمة من نسله حتى الامام الثاني عشر - الامام الغائب - وهم المعروفون الاثني عشرية • والفرقة الثانية جعلت الامامة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ثم الى ابنه محمد بن اسماعيل فالائمة من أبنائه وهم المعروفون بالاسماعيلية^(٢) الذين « شكلوا بعد عمل طويل بالسر ، فرقة فاقت في

(١) وقيل ايضا انقسم اتباع جعفر الصادق بعد وفاته الى ست فرق منها ثلاث رئيسية ، وقيل اثنتان • فبالاضافة الى الفرقتين المنوه عنهما اعلاه ذكرت الفرقة النادرسية وهم الزاعمون بأن جعفرا لم يموت ولا يموت وهو القائم المهدي وسوف يرجع • لويس ، اصول الاسماعيلية : ٩٥-٩٦ •

(٢) الكرمانى ، راحة العقل ، انظر مقدمة المحقق مصطفى غالب :

التحامها وتنظيمها في كل من الجذب التثقيفي والانفعالي كل منافسيها •
ففي مكان التوقعات المشوشة والايمان البدائي بالخوارق للفرق السابقة ،
أحكم عدد من العلماء التمييزين نظاما للعقيدة الدينية على مستوى فلسفي
عال ، (١) •

وعلى أية حال فان بوارد الدعوة الاسماعيلية ظهرت منذ عهد الامام
جعفر الصادق ، وكانت سرية يعمل على ترويجها في الخفاء الامام اسماعيل
في حياة ابيه (١) ، وبمساعدة دعائه الاربعة وهم ميمون القداح ، ومبارك بن
جعفر ، والفضل بن عمر ، وحمدان بن احمد • وفي عهد محمد بن
اسماعيل ، الذي كان على جانب كبير من الثقافة والعبقرية ، انتقل مركز
الدعوة الى (سملا) التي اطلق عليها فيما بعد اسم (محمد آباد) نسبة
اليه (٣) •

وقد استقر محمد بن اسماعيل أخيرا في مدينة تدمر ، وعمل منها على
نشر دعوته وتنظيمها • وعند وفاته سنة ١٩٣ هـ خلفه ابنه (أحمد الوفي)
الذي نقل مركز الدعوة الى مدينة سلمية في سوريا التي أصبحت في عهده

٢٢-٢٣ : سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ٤-٥ ؛ انظر : جب ،
صلاح الدين : ١٦ •

(١) لويس ، الحشيشية : ٤٠ •

(٢) درس المستشرق برنارد لويس الحركة الاسماعيلية ، وناقش
العديد من المصادر التي تحدثت عن اسماعيل بن جعفر الصادق الذي يعتبر
مؤسس الدعوة الاسماعيلية وتوصل الى ما يلي :-

١ - ان اسماعيل مات في حياة ابيه جعفر • ٢ - ان جعفرا نزع
عن اسماعيل حق الامامة بسبب اخلاقه الذميمة • انظر : اصول
الاسماعيلية : ١٠٧-١٠٨ •

(٣) الكرمانلي ، راحة العقل ، انظر مقدمة المحقق مصطفى غالب :
٢٢-٢٣ : سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ٥-٦ •

مركز الدعوة والدعاة ودار هجرة للأئمة المسورين • وعند وفاة الامام الوفي سنة ٢١٢هـ تسلم الامامة ابنه رضي الدين عبدالله الذي انتقلت في عهده الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس الى طور العمل والظهور من أجل تأسيس دولة اسماعيلية قوية • وقد نص على ولده من بعده (عبدالله) الذي توجه الى المغرب واعلن الخلافة الفاطمية هناك • وبذلك قامت الدولة الفاطمية التي انتقلت الى مصر سنة ٣٥٧هـ (١) •

استمر خلفاء الدولة الفاطمية حتى مجيء المستنصر بالله الذي ازداد في عهده نفوذ الوزراء الفاطميين ، فقد استأثر الوزير بدرالدين الجمالي بالسلطة في مصر ، وغالى ابنه الافضل باغتصاب حقوق ولي العهد نزار (٢) ، والبيعة لآخيه الاصغر (المستعلي بالله) • وقد انسحب فريق من الناس اثر هذه البيعة ، وأعلنوا ولائهم لامامة نزار وأولاده من بعده (٣) • وكان على رأس هؤلاء « الحسن بن الصباح (٤) » الذي بدأت في عهده الحركة

(١) انظر : الحشيشية : ٤٣-٤٤ ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ٩-٧ ، احسانا طبري ، نبذة عن الحركة الاسماعيلية ، مجلة العلوم ، ٨٤ ، السنة ١٢ (بيروت ١٩٦٧) : ٣٥ •

(٢) قيل ان الامام المستنصر نص على امامة نزار من بعده ، الا ان الوزير الجمالي ، لحقد قديم بينه وبين نزار ، عين المستعلي بدلا عنه ، ولان المستعلي كان حفيدا للوزير ، لذلك غادر نزار القاهرة صحبة اتباعه المخلصين ، وهذا هو سبب انقسام الدعوة الاسماعيلية ، غالب ، مصطفى ، تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ١٨٢-١٨٣ •

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى : ٢٣٦/١٣ ؛

Ency. Britannica, 11. P. 621

(٤) الحسن بن الصباح : هو الحسن بن علي بن محمد الحميري ، ولد في مدينة قم وكان كوالده من الشيعة الاثني عشرية ، غير انه وقع تحت تأثير احد الدعاة الفاطمية واسمه (عامر دواب) وتنقل على عدد من

الاسماعيلية بطور جديد ، ربما كان السبب في ذلك ان الدعوة الاسماعيلية كانت قد فشلت في تحقيق أهدافها ، والدولة الفاطمية كانت في طريقها الى الانهيار ، لذلك كان لابد من التفكير بأسلوب جديد للعمل من أجل ابقاء روح الثورة ضد الكيان العباسي . وقد أصبحت الحركة الاسماعيلية الجديدة أكثر فعالية وتنظيماً من الدعوة الاسماعيلية القديمة ، فقد غدت « جمعية سرية لم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها الا زعمائها الاقلون وقادة أفكارها المقربون ، بعد ان قطعوا مراحل التكريس واقسموا القسم الغليظ »^(١) . بينما كانت الاكثرية الساحقة من اتباع لا تعرف عن أمر هذه الجمعية الا الشيء القليل ، والذي كان يطلعهم عليه الدعاة وبقدر معلوم^(٢) .

الدعاة الاسماعيلية . وفي رمضان سنة ٤٦٤ هـ حزيران ١٠٧٢م جاء الداعي (ابن العطاش) الى الري والتقى بالحسن بن الصباح ورجاه الذهاب الى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، فذهب اليها بعد ان عمل كوكيل لابن عطاش في مدينة اصفهان لمدة سنتين الحشيشة : ٥٢ ؛

Brown, Aliterary History of Persia, 11, PP. 262-203.

وكان الحسن هذا ، رجلاً طموحاً ، لم يقنع ان يكون مبعوثاً يدعو الى مذهبه ، بل كان يحلم باقامة دولة جديدة ، وكان يقول انه يستطيع ومعه ستة من المؤمنين بمذهبه ان يكون سيد العالم ، وقد تمكن من العودة من مصر الى فارس ثم تسلسل الى قلعة الموت واحتلها وبعدها تمكن اتباعه من السيطرة على عدد من القلاع الحصينة في جبال فارس . صبيح الاعشى : ٢٣٧/١٣ ، شعلة الاسلام : ٤٢ ، انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٤٣٥/٧ ، مصطفى غالب ، اعلام الاسماعيلية (بيروت ، ١٩٦٤) : ٢٢٢-٢٢٨ .

(١) بندلي جوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (القدس : ١٩٢٨) ٩٢ .
(٢) انظر : محمد عبدالفتاح عليان ، قرامطة العراق (القاهرة ، ١٩٠٧) ١٨-١٩ .

وقد اطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة تسميات عديدة منها :
الحشاشين Assassins وهو اصطلاح عام للجماعات القدائية السرية ،
وقد عني به في معظم اللغات الاوربية (القتال) الذي يقتل خلسة أو بالخيانة
« والذي يكون ضحيته شخصية مرموقة ، ودافعة الى ذلك غيرة عمياء أو
جشع »^(١) .

واعتقد آخرون بأن كلمة حشاشين ، جاءت صفة للاسماعيلية لانهم
كانوا يتعاطون الحشيش المخدر ، وان جماعة القدائية الذين كانوا يدفعون
للاغتيالات ، يدفعون الى تعاطي الحشيش المخدر ، حتى يصبحوا كالألات
لتنفيذ مهماتهم^(٢) . وقد وصف الرحالة ماركوبولو المنظمة الاسماعيلية بعد
مائة عام وأكد ما قيل من ان الاسماعيليين كانوا يتعاطون الحشيش
المخدر^(٣) .

غير ان بعض دارسي تاريخ الحركة الاسماعيلية ، وبخاصة
الاسماعيليين منهم قالوا بأن الذين زعموا بأن الاسماعيلية كانوا يتعاطون
الحشيش المخدر واهمون لان الرأي قديم^(٤) ، ولم يرد في كل المصادر

(١) الحشيشية : ١٢-١٣ ، انظر :
Ency. Britannica (Art. Assassins) 11, P. 621,

DuBors, Dictionnaire du France, P. 83.

(٢) هيوارس . ان دائرة المعارف الاسلامية (مادة حشاشين):
٤٣٤/٧ ، انظر احمد امين ، يوم الاسلام : ١٠٣ .
Look : Rosebault, op. cit., 109-111. (٣)

(٤) مما يدل على قدم الرأي القائل بتعاطي الاسماعيليين
للحشيشة ما وجدته عند مقارنتي للقاموس الفرنسي Larousse
ما بين طبعة سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٦٨ لكلمة Assassins . فقد اكدت

الاسماعيلية ما يؤكد^(١) ، وان اصياع الفدائية التام لشيخهم - كما ذكر الاسماعيلي مصطفى غالب - كان بسبب الثقة والايان القوي بالعقيدة والامام المعصوم^(٢) .

وقد سمي الاسماعيلية أيضا بالسبعة ، لان الامام محمد بن اسماعيل هو الامام السابع لهم ، ولتميزهم عن طائفة الاثني عشرية^(٣) . ولان الدور التام سبعة ، كما يعتقد الاسماعيلية ، بدليل ان السماوات والارضين سبع وأيام الاسبوع سبع والاعضاء سبع^(٤) . الخ مما هو متكون من العدد (سبعة) .

وقد سموا أيضا « الباطنية » وذلك لانهم يقولون لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل ، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة اطلقوا عليها اسم « المثل والممثل » أي الظاهر والباطن^(٥) هذا بالاضافة

الطبعة الاولى القول بتعاطي الاسماعيلية للحشيش المخدر ، بينما حذف هذا الرأي من طبعة سنة ١٩٦٨ انظر :

Nouveau petit larousse Illustre (Paris, 1939) P. 1197.

وقارن هذه الصفحة من نفس المصدر السابق مع طبعة سنة ١٩٦٨ صفحة رقم (١١٤٤) .

Look: Ency. de T'slam (Art. Hashishiyya (١)
(Paris, 1971) 111, P. 276.

(٢) تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ١٩٢ .

(٣) انظر : دائرة المعارف الاسلامية (مادة السبعة) ٢٤٥/١١ .
٢٥٩ .

(٤) النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام (القاهرة : ١٩٦٥م)
٣٨٤/١ .

(٥) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل (القاهرة : ١٣٢ هـ)
٢٩/٢ . تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١٥٥/٢ ، راحة العقل : ٤٩ : محمد

الى ما اطلق عليهم من تسميات أخرى كالقرامطة والبابكية والحمرة والملاحدة^(١) وغيرها مما اسماهم بها أعداؤهم •

ورغم هذه التسميات المتعددة ، فاني اعتمدت تسميتهم بالاسماعيلية لانه أقرب الاسماء لواقع الحركة التاريخي ، نسبة للإمام اسماعيل بن جعفر الصادق ، ولان كلمة حشاشين مختلف في امرها ، وهي تسمية حديثة وإذا صح ما قيل في استخدام الاسماعيلية للحشيش المخدر ، فهناك جماعات أخرى تستخدم الحشيش أيضا ، كذلك فالباطنية مصطلح يطلق على كل من يستخدم التأويل الباطني للنصوص المقدسة سواء كان اسماعيليا أو لم يكن ، علما بأن الصوفية تعتمد التأويل الباطني •

وعلى أية حال فإن الحركة الاسماعيلية الجديدة « الحشاشين » ظهرت بشخص الحسن بن الصباح الذي تمكن من احتلال (قلعة الموت) سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م^(٢) الواقعة في سلسلة جبال البز باقليم مازندان^(٣) على بعد خمسين فرسخا شمالي بحر قزوين • والتي ترتفع عن سطح البحر بحوالي ١٠ آلاف قدم^(٤) • وقد أصبحت مركزا للدعوة ما بين سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م الى

كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية (القاهرة : ١٩٥٩) : ١٤٨ و ١٦٣ ؛
Ency. of Islam (Art. Albatinyy), 1, PP. 1098-1099

(١) الملل والنحل : ٢/٢٩ ؛ محمد الديلمي ، بيان مذهب الباطنية وبطلانه (استانبول : ١٩٣٨) : ٣ •

(٢) هيوارس ١٠ : دائرة المعارف الاسلامية (مادة حشاشين) : ٤٣٥/٧

Ency. Britannica (Art. Assassins) Vol. 11,

(٣) وليم لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ، اشرف على ترجمتها محمد مصطفى زيادة (القاهرة ، ١٩٥٩) ٢/٩٥ •

Ency. of Arabic Civilization (The Arab East) P. 63.

سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م^(١) . وقد ساعد سوء الاحوال الاقتصادية والادارية على نشاط هذه الحركة ، كما وجد البعض في هذه الحركة السبيل للتعبير عن سخطهم السياسي تجاه الخلافة العباسية علما بان الدعوة اتخذت لها - في هذه الفترة - اسلوبا جديدا في العمل والتنظيم فاستخدمت الاغتيال وبذلك تحولت من جمعية نظرية تؤمن بالاسلوب السلمي ، الى جماعة حركية تؤمن بالاغتيال والتنظيم السياسي الدقيق^(٢) .

ولم يكف الحسن بن الصباح بنشر دعوته في ايران ، بل أخذ يرسل الدعاة الى سوريا لدعوة الاسماعيليين القدماء الموجودين فيها ، والعمل على ضمهم للدعوة الجديدة ، وقد وجد الحسن في سوريا منطقة ملائمة أكثر من غيرها ، فبالاضافة الى وجود عدد من الدعاة فيها ، فقد كانت منطقة سوريا نادرا ما عرفت الوحدة السياسية كما ان طبيعة أراضيها المتوجة وجبالها العصية تساعد على اتخاذها مركزا للدعوة والدعاة^(٣) .

ومثلما عمل الاسماعيليون في ايران ، حاول اتباعهم في سوريا ، منذ البداية ، العمل بمختلف الوسائل للسيطرة على الحصون والقلاع الحصينة لاتخاذها مقرا لاعمالهم ، واستخدامها « كقواعد في حملة الارهاب »^(٤) التي شنوها ضد أعدائهم من القادة والامراء السنيين ، ومن وجدوا فيه خطرا يهدد دعوتهم .

فقد سيطروا على حصن مصياف والقدموس وفامية ، وكونوا لهم

(١) Ency. de Islam (Arat Alamut) Vol. 1, PP. 364-365.

(٢) انظر : محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية : ٦٣ : طه

احمد شرف ، دولة النزارية (القاهرة : ١٩٥٠) : ١٢٧-١٢٨ .

(٣) الحشيشية : ١١٣-١١٤ .

(٤) الحشيشية : ١١٥ .

جميعيات علنية في دمشق وحلب ، وقاموا بسلسلة من عمليات الاغتيال كان ضحيتها الكثير من كبار رجال الدولة العباسية وامرائها منهم الامير خلف بن ملاعب سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٦م^(١) . وatabك الموصل مودود سنة ٥٠٧هـ^(٢) ، كما قتلوا أيضا آق سنقر البرسقي - اتابك الموصل - سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م في جامع الموصل العتيق أثناء تأديته صلاة الجمعة^(٣) .

وتيجة لهذه الاغتيالات التي قام بها الاسماعيلية في الشام ؛ فقد عظم أمرهم وقويت شوكتهم وخشيتهم الناس وامتلاوا منهم رعبا ، وتمكنوا من دخول عدد من الحصون بأعمال الحيلة ، كسيطرتهم على مدينة بانياس سنة ٥٢٠هـ^(٤) . غير انهم سلموا هذا الحصن للصليبيين سنة ٥٢٤هـ بعد تواطؤهم معهم^(٥) . فقد كان الاسماعيلية قد نكبوا في ذلك العام ، حيث ثار

(١) كان الامير خلف بن ملاعب صاحب حصن أفياميه الذي استولى عليه الاسماعيلية بعد مقتله . ولمعرفة المزيد عنه انظر : ذيل تاريخ دمشق : ١٤٩ ؛ زبدة الحلب ١٥١/٢ .

(٢) كان الامير مودود رجلا مجاهدا عرف بحسن تقواه ، قتله الاسماعيلية بعد انتهائه من صلاة الجمعة في شهر ربيع الاخر سنة ٥٠٧ هـ . دمشق عندما كان غازما على توحيد الجيوش الاسلامية لمحاربة الصليبيين ولمعرفة المزيد عنه انظر : الكامل : ١٠/٤٩٦-٤٩٧ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ١٨٧ .

(٣) كان الامير آق سنقر البرسقي من كبار الامراء المجاهدين ضد الصليبيين ، تقيا عادلا كما وصفته جميع المصادر ، وكان قد كسب مودة اهال الشام ، حتى تبوأ قيادة المسلمين في الدفاع عن اراضيهم ضد الغزاة ، غير ان الاسماعيلية اغتالته لانه هدد مصالحها ، وربما ذلك بتأثير من الصليبيين .

انظر : الكامل : ١٠/٣٣٦-٣٣٧ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢١٤ ؛ زبدة الحلب : ٢/٢٣٥ ، مرآة الزمان : ١١٦-١١٧ ؛ ابن ميسر ، اخبار مصر (القاهرة ١٩١٩) : ٢٠ .

(٤) انظر : الكامل : ١٠/٦٣٢ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢١٥ .

(٥) ذكر ابن شيداد ان الاسماعيلية سيطرت على قلعة بانياس سنة

عليهم الاحداث والعامّة بدمشق وفتكوا بهم وقدر عدد قتلاهم بألف رجل^(١) ، وقيل ستة آلاف^(٢) . مما يدل على اعدادهم الكبيرة التي كانت بدمشق ، وقد تعلم الاسماعيلية بعد هذه النكبة ان المدن الكبيرة لا تصلح ان تكون مركزا لحركتهم .

تجدد نشاط الحركة الاسماعيلية في منطقة الشام ، بعد تلك النكبات ، بوصول داعيتهم الجديد « راشد الدين سنان »^(٣) اليهم . فقد عمل على تنظيم الاسماعيلية في نظام واضح ووضعها في مركز قوي « حتى اعتبر المؤسس والقائد لفرقة »^(٤) . ونقل مقر عمله من حلب الى قلعة مصياف ،

٥٢٠ هـ بقيادة داعيتها بهرام ، ولما قتل بهرام سنة ٥٢٤ هـ ارسل نائبه الاسماعيلي ابو صالح العجمي الصليبيين وبذل لهم تسليم الحصن اليهم ، فوصلوه وتسلموه منه . الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة :
ق ٢ ج ١٤١/٢ .

(١) تاريخ الازمنة : ٣٥ .

(٢) الكامل : ٦٥٧/١٠ ؛ المختصر في اخبار البشر : ٧/٥ .

(٣) راشد الدين سنان : وهو مقدم الاسماعيلية في الشام ، اصله من اهالي عقر السودان ، قرية قرب البصرة ، ذهب الى حصن الموت ، ولما ظهرت له نباهة وعقل سيره صاحب الموت الى حصون الشام لتزعم قيادة الاسماعيلية . وقد جرت له مع سلطان الشام انثذ وهو نورالدين محمود عدة وقعات وتوفي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م . انظر : مرآة الزمان : ق ١ ، ج ٨/٤١٩ ؛ النجوم الزاهرة : ١١٧/٦ مرآة الجنان : ٤٤٨/٣ ؛ ايفانوف دائرة المعارف الاسلامية : ٤٦٩/٩ غير ان ابن جبير وصفه بشيطان الانس ، ويرى ان اتباعه قد اتخذوه الها للباطيل التي كان يزعمها والسحر الذي كان يفعله (رحلة ابن جبير : ٢٢٥) ويذكر الدويهي بأنه استغوى خلائق من اهالي جبال الشام واباح لهم المحرمات (تاريخ الازمنة : ٩٥) .

(٤) Hodgson, The order of Assassins, P. 185.

وأسمي من بداية هذه الفترة (شيخ الجبل)^(١) وكانت مرتبته في الدعوة (داعي دعاة) ويليهِ في المقام (الداعية الكبير) ويليهِ (الداعية العادي) ثم يليهِ (الرفيق) وأخيرا الفداوية الذين اشتهروا بطاعتهم العمياء في تنفيذ أوامر سيدهم شيخ الجبل^(٢) .

وقد جعل سنان الدعوة الاسماعيلية دقيقة في تنظيمها ، تامة في سريتها وبراعة دعايتها ، تلك الدقة التي آمنت بمبدأ « التدرج في الدعوة لما له من اغراء في نفوس الاتباع »^(٣) ، وتلك الدعاية التي اضلت الكثيرين لان الدعاة « كانوا يتكلمون مع الناس على قدر عقولهم ... وكانوا يدخلون على كل فرقة من جهتهم »^(٤) . فقد قدموا للمورعين احتراماً للقرآن والسنة ، وقدموا للمتفتين شرحاً فلسفياً معتمداً على مصادر القدماء ، كما قدموا للحنافيين على الحكم العباسي فلسفة حركة معارضة حسنة التنظيم وقوية^(٥) . ولذلك تمكنت هذه الحركة من كسب الكثير من الاتباع . وقد عدد أبو حامد الغزالي^(٦) الطوائف التي انخرطت في سلك الحركة ، وذكر بأنهم

(١) تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ٢٠٧ و ٢١٢ ؛

Elisseeff, Nur-Din, 1, P. 42

(٢) Brown, Aliteray History of Persia, 11, P. 209.

(٣) علبان ، قرامطة العراق (القاهرة ، ١٩٧٠) : ١٩ .

(٤) الديلمي ، بيان مذهب الباطنية : ١٥ .

(٥) الحشيشية : ٤٠ .

(٦) ابو حامد الغزالي : فقيه وعالم صوفي سني له العديد من المؤلفات غاصر الحسن بن الصباح والوزير نظام الملك ، وحارب الاسماعيلية فكرياً . توفي سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م وللاطلاع على موقفه من الاسماعيلية انظر :

Watt. Muslim Intellectual, P. 73-74.

ولمعرفة المزيد عن حياة الغزالي انظر : المنوفي الحسيني ، جمهرة الاولياء (القاهرة ١٩٦٧) ١/ ١٩٧-٢٠٠ .

ثمانية أصناف وهم : السذج من الناس الذين قلت بصائرهم في أمور الدين ، وأصحاب العاهات من الذين يريدون الوصول الى المراكز بطرق غير شرعية ، واولئك الذين انقطعت الدولة عن اسلافهم بدولة الاسلام من المجوس والنصارى ، كذلك جماعة الملاحدة وأصحاب الملاهي والفسوق وبعض الفلاسفة من الذين وجدوا في رجال الحرنة الاسماعيلية اعوانا لهم وانصارا ، ولان المجتمع الاسلامي من قبل قد نبذهم ، اضيف الى ذلك جماعة من المسلمين ممن اتخذ بمذهبهم وحسبه انه يمثل الحق !^(١) .

وقد اتبع الاسماعيلية أساليب دقيقة وجديدة في الدعوة الى مذهبهم اطلقوا عليها اسم (البلاغ الاكبر) يمر فيها الشخص المراد كسبه للدعوة . قيل هي تسع مراتب واهمها : التكريس والتأسيس ثم التشكيك ثم الربط واخيرا الخلع ثم المسخ . نجعلها بما يلي :- كان الدعاة يبحثون عن الشخص الملائم حتى اذا ما اطمأنوا الى انه أصبح يضع ثقته فيهم اظهروا له ما تناقض من أمور عقيدته ، بعدما يخفون عقيدتهم هم . ثم بعد ذلك يجعلون الشخص يرتبط بهم ، ويقسم لهم القسم الغليظ بعدم اباحة الاسرار ، ليدخل أخيرا في دور المصارحة والتنظيم بعدما يكون قد سلخ من عقيدته الاصلية ،^(٢) .

وتاريخ الاسماعيلية في الشام ، هو تاريخ الاغتيالات التي قاموا بها ضد المؤسسات السنية بصورة عامة « فلم يقاتل الحشيشية عادة الاثني عشرية أو الشيعة الآخرين ، ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود

(١) فضائح الباطنية ، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة ، لم يذكر السنة) : ٣٣-٣٦ .

(٢) انظر : العلوي ، يحيى بن حمزة ، الافحام لافئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بد يزعون ، شركة الاخسكندرية للطباعة (القاهرة ، لم يذكر السنة) : ١٧-١٩ ؛ الديلمي ، بيان مذهب الباطنية : ٥ .

المحليين»^(١) ، وهذا مما يدفع الى التساؤل عن حقيقة التعاون بين الاسماعيلية والصليبيين من جهة ، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية •

ان اتهام الحركة الاسماعيلية بالتواطؤ مع الصليبيين ربما أثير من قبل أعداء الحركة للطعن فيها • الا ان الاغتيالات التي قاموا بها ضد جماعة السنة ، وتعاون اليهود معهم ، ووجود بعض الادلة التي تثبت تعاونهم مع الصليبيين في مراحل مختلفة ، لهي أدلة ترجح صحة تلك التهمة •

ففي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ارسل راشد الدين سنان - كما ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري - وفدا الى امليريك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نورالدين ولوّح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية ، وطلب منه مقابل ذلك الغاء الضريبة التي فرضها فرسان الداوية من الصليبيين على بعض القرى الاسماعيلية • وقد استقبل امليريك وفد الاسماعيلية بحفاوة بالغة واکرام ، لانه أدرك النتائج الايجابية التي ينطوي عليها ذلك الاتفاق^(٢) •

ولما عاد وفد الاسماعيلية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية دمر على أثره ، مما أثار غضب أمليريك ، فبعث بكتاب توبيخ للجنة ، وطلب من مقدم الداوية سجنهم ، كما ارسل الى سنان معذرا واعلمه ان الجنة مالوا عقابهم ، فدفع موقف ملك بيت المقدس الايجابي هذا ، الى بقاء العلاقات طيبة بين الجانبين^(٣) •

(١) الحشيشية : ١٥٣ •

(٢) Elisseeff, Nur Ad-Din, 11, P. 688.

(٣) نفس المصدر والمكان السابق ؛ الحركة الصليبية : ٧٣٤/٢ - ٧٣٥ ؛ دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ١١٣-١١٤ ؛

Runciman, op. cit., 11, PP. 396-397.

منطقة الشام حوالي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م بأنه كان يقيم بين الاسماعيليين في الشام نحو أربعة آلاف يهودي « يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم ، وهم أشداء لا يقدر احد على قتالهم ، وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد »^(١) مما يدل على وجود علاقة راسخة بين زعماء اليهود ببغداد وقادة الحركة الاسماعيلية ، ولولا وجود تلك العلاقة لما ارسل راس الجالوت ببغداد العلماء اليهود لمساندة الحركة الاسماعيلية .

ومن الجدير بالملاحظة ان علاقة مماثلة كانت بين الاسماعيلية ويهود القدس^(٢) . علما بان كاتب الرسائل الاسماعيلية ، الموجهة الى ملك بيت المقدس الصليبي للاتفاق معه على القضاء على الحكم الايوبي في مصر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م أثناء المؤامرة سابقة الذكر ، كان يهوديا^(٣) .

وقد علل بعض المؤرخون هذا الجانب في الحركة الاسماعيلية ، واعتبره مذهباً من مذاهب الشمول في العقيدة Interconfessionalism^(٤) لان الدعوة الاسماعيلية كانت عالمية لم تقتصر على الانتشار بين تابعي دين واحد فقط .

وقد وجد هؤلاء الاسماعيليون في صلاح الدين عدوا كبيرا لهم ، فقد قضى على دولتهم الفاطمية في مصر ، وتقدم الى الشام لتوحيده وضمه الى

(١) رحلة بنيامين : ١٥٣-١٥٤ .

(٢) Hodgson, Loc. cit (٢)

(٣) العماد الاصفهاني ، البرق الشامي تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٨٢/١ .

(٤) انظر : اصول الاسماعيلية : ١٩٤-١٩٨ ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام : ١٠٩-١١٠ .

مصر ، اضم الى ذلك انه من القادة السنين • وفي هذا ما يهدد الكيان الاسماعيلي في منطقة الشام تهديدا خطيرا ، لذلك تعاونوا مع الصليبيين والزنكيين لاجل القضاء عليه ، غير ان محاولاتهم لم تفلح • ففي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م عندما توجه صلاح الدين لحصار حلب ، راسل سعد الدين كمشتكين - اتابك الملك الصالح بن نور الدين - راشد الدين سنان ، وبذل له أموالا كثيرة^(١) ، وعددا من القرى^(٢) ، ثمنا لقتل صلاح الدين • فأرسل سنان جماعة من فداوييه الى المعسكر الايوبي ، فلما وصلوا رأهم أمير اسمه خمارتكين ، فعرفهم لان بلاده قريبا من بعض حصونهم ، فقال لهم : « ما الذي اقدمكم وفي أي شيء جئتم ؟ »^(٣) و « كيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم »^(٤) • فهجموا عليه وقتلوه ، وحمل احدهم على صلاح الدين ليقتله ، فقتل دونه وقاتل الباكون من الاسماعيلية حتى قتلوا جميعا ، بعد ان قتلوا جماعة من العسكر الايوبي^(٥) •

وقد اعتبرت هذه العملية ناجحة بصورة عامة ، لان صلاح الدين لم يتمكن من فتح حلب في تلك السنة ، على أقل تقدير ، فالمحاولة كانت خطيرة ، لانها كانت مفتاح العلاقة بين الجانبين في منطقة الشام ، فقد أوضحت لصلاح الدين ان له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين والصليبيين ، وانه يجب عليه ان يحسب لهم الحساب •

(١) الكامل : ٤١٩/١١ •

(٢) الروضتين : ٢٣٩/١ ، نقلا عن ابن ابي طيء ؛ سنا البرق الشامي : ١٨١/١ •

(٣) الكامل : نفس المصدر والمكان السابق •

(٤) سنا البرق الشامي : ١٨١/١ •

(٥) الكامل : نفس المصدر والمكان السابق ، الروضتين : ٢٣٩/١ ؛

مفرج الكروب ٢/٢٤ ؛ مرآة الزمان : ٣٢٨/٨ ؛ نهر الذهب : ١٠٠-١٠١ •

وعلى الرغم مما قيل من تحريض كمشتكين لراشد الدين سنان ، غير أنه من المستبعد ان يكون ذلك التحريض هو المحرك الاساس الوحيد للقيام بتلك العملية لان سنان كان يعمل لاسباب خاصة به ، وهو ان صلاح الدين منذ ان دخل الشام أصبح العدو الرئيس للحركة الاسماعيلية ، لانه كان يهدف الى اقامة وحدة السنين هناك ومن الواضح ان اقامة مثل تلك الوحدة سيهدد كيان الحركة الاسماعيلية تهديدا خطيرا ، كما ان تحقيق الوحدة السياسية بين مصر والشام يهدد امارات الزنكيين ، لذلك أصبح التقارب بين الامراء الزنكيين والاسماعيلية أمرا طبعيا ، لان صلاح الدين أصبح بالنسبة لهما العدو المشترك . وعلى هذا الاساس قبل سنان مساعدات كمشتكين المادية الى جانب كسبه لتأييد امراء حلب الزنكيين في سبيل تنفيذ مهمة قتل صلاح الدين .

غير ان فشل هذه المحاولة دفعت بسنان - مقدم الاسماعيلية - الى التخطيط مجددا للنيل من صلاح الدين . فأرسل اليه في ٤ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ^(١) ٢٢ أيار سنة ١١٧٦م جماعة من اتباعه بزي الاجناد ، دخلوا بين العسكر الايوبي وباشروا الحرب معهم ، حتى امتزجوا بهم ، انتظارا لفرصة موالية يجهزون فيها على صلاح الدين فيقتلوه^(٢) .

وفي أثناء محاصرة قلعة عزاز التي كانت أهم حصون حلب - لان « حصارها حصار حلب على الحقيقة »^(٣) - تقدم صلاح الدين الى خيمة

(١) النوادر السلطانية : ٥٢ . وقيل ان سنان ارسل الى صلاح الدين جماعة من فدائييه في ١١ ذي القعدة ، الروضتين : ٢٥٨/١ .

(٢) الروضتين ، نفس المصدر والمكان السابق نقلا عن ابن ابي طي .

(٣) سنا البرق الشامي : ٢٠٩/١ .

الامير جاولي الاسدي لتشجيع العسكر على مواصلة القتال ، وفي أثناء ذلك هجم عليه أحد الاسماعيليه وضربه بسكينة على رأسه^(١) ، وكان صلاح الدين محترزا « لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد [من^(٢)] على رأسه »^(٣) فأحس الاسماعيلي بصفائح الحديد ، فمد بالسكينة الى خد صلاح الدين فخدشه ، وجرى منه بعض قطرات من الدم • فامسك صلاح الدين يد الاسماعيلي بيده ، وجعله لا يقدر على الضرب بالكلية • ثم أدركه الامير سيف الدين يازكوج وقتله • ثم هجم اسماعيلي تان على صلاح الدين فاعترضه الامير داود بن منكلان وقتله ، غير انه اصاب بضربة سكين توفي على أثرها بعد عدة أيام • ثم هجم اسماعيلي ثالث لتنفيذ المهمة ، غير ان الامير علي أبو الفوارس عانقه ولم يطلق سراحه حتى طعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه بسيفه وقتله ، وخرج آخر من الخيمة منهزما ، فثار عليه أهل سوق العسكر وقتلوه •

واما صلاح الدين ، فانه عاد من وقته الى خيمته وقد أذهلته المفاجئة ثم استعرض جنده فمن انكره ابعده ومن عرفه أقره • وبعد ذلك أخذ بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول خيمته « على مثال خشب الخركاة »^(٤)

(١) الروضتين ، نفس المصدر والمكان السابق ، نقلا عن العماد الاصفهاني • وقد لخص البنداري نفس الرواية السابقة في : سنا البرق الشامي : ٢١٠/١ •

(٢) اضيفت (من) الى النص ليستقيم المعنى ، لانها ساقطة من الاصل •

(٣) الروضتين ، نفس المصدر والمكان السابق ، نقلا عن ابن ابي طي •

(٤) الخركاة : لفظ فارسي معناه نوع من الخيم يتكون من قطع الخشب معقود بينها على شكل قبة • ويقال انه ايضا قبة تركية وتغطيها

تأزيرا وأوثقه تحجيرا وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب»^(١)، ثم أقام على عزاز واحكم محاصرتها ثمانية وثلاثين يوما حتى فتحها بكرة الاربعاء ١١ ذي الحجة^(٢) من سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م . ولما فرغ منها سار الى حلب لمحاصرتها ، لان من فيها من الامراء كانوا أحد أسباب هذه الغدرة^(٣) .

كان لهذه الهجمة صدى بالغ الاثر في نفوس العسكر الايوبي ، فقد توقف القتال بسببها ذلك اليوم^(٤) ، وهاج الناس واضطرب الجند حتى خاف بعضهم من بعض « فالحجأت الحال الى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر »^(٥) .

حققت هجمة الاسماعيلية الثانية على صلاح الدين بعض أهدافها ،

قطع من البلد . سنا البرق الشامي ٢١١/١ هامش رقم (٧) ، انظر :
النوادر السلطانية : ٢٨ ، هامش (٣) .

(١) سنا البرق الشامي : ٢١٢/١ .

(٢) وقيل فتح صلاح الدين عزاز في ١٢ ذي الحجة ، زبدة الحليب :

٢٩/٣ .

(٣) الروضتين : ٢٥٨-٢٥٩ ، مفرج الكروب : ٤٤-٤٥ ،
سنا البرق الشامي ٢١٢-٢١٣ ولمعرفة المزيد من المصادر والمراجع التي
تحدثت عن هجمة الاسماعيلية الثانية على صلاح الدين انظر : النجوم
الزاهرة : ٧٦/٦ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٣/١٢ ؛ السلوك : ٦١-٦٢ ؛
تاريخ ابن الوردي : ٢٢٣/٢ شذرات الذهب : ٢٣٨-٢٣٩ ؛ كنز الدرر :
٦٠/٧ . الاخبار السنوية : ١٢٩ ؛ نهر الذهب : ١٠١-١٠٢ ؛ تاريخ
الدعوة الاسماعيلية : ٢١٢ ،

Hodgson, op. cit., P. 188; Lewis, The Assassins,
P. 14;

(٤) البداية والنهاية : ٢٩٣/١٢ .

Rosebult, Saladin, PP. 107-108. (٥)

(٦) الروضتين : ٢٥٨-٢٥٩ نقلا عن ابن طيء .

ودلت من غير شك ، على ان الحركة الاسماعيلية كانت دقيقة في تنظيمها وسريتها ، وبراعة أساليبها في عمليات الاغتيال . فبالرغم من وجود عدد من الاسماعيلية داخل العسكر الايوبي غير المعروفين ، فانهم لم يهجموا على صلاح الدين جميعا دفعة واحدة . فربما حقق أحدهم هدف مجيئهم ، فيظل الباقيون غير مكشوفين لتنفيذ مهمات أخرى . ولذلك فلا داعي لاشتراكهم جميعا في هذه العملية . ولما لم يحقق الاول الهدف هجم الثاني ثم الثالث .

دفعت هاتان العمليتان صلاح الدين الى ان يضع حدا لاولئك الاسماعيلية ، الذين وضع خطرهم في الشام ، وباتوا يهددون حياته وحياة امرائه وأمنهم وكانت قلاعهم ممتدة على طول صفحة جبل لبنان ، الذي كان حدا بين بلاد المسلمين ومناطق تواجد الصليبيين ، كوجودهم في انطاكية واللاذقية^(١) . وأهم تلك القلاع والحصون الاسماعيلية الممتدة هناك : مصياف^(*) والقدموس والكهف^(٢) والعليقة والرصافي والمنيقة وغيرها^(٣) .

(١) رحلة ابن جبير : ٢٥٥ .

(٢) كان حصنا القدموس والكهف من الحصون التابعة لمعاملة طرابلس . وهما حصنان منيعان الظاهري ، زبدة كشف الممالك : ٤٨ .

(*) يقع حصن مصياف على الساحل الشامي قرب مدينة طرابلس (معجم البلدان ١٤٤/٥) وكان من امنع الحصون ولذلك اتخذ سنن مركزا لحركته . وقد ملكه سنة ٥٣٥ هـ بطريق الحيلة ، ودخلوا فيه وقتلوا صاحبه مملوك بني منقذ اصحاب شيزر (الكامل : ٣٩/١١ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢٣٣ ؛ الكواكب الدرية : ١١٣) وقد ورد هذا الحصن في الروضتين باسم « مصياف » (١٢٦/١) وفي الكامل « مصياف » (١٣٦/١١) وفي البداية والنهاية « مصيات » (٢٩٥/١٢) .

(٣) القلقشندي : ١٤٦/٤ - ١٤٧ .

لذلك كله رحل صلاح الدين في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م الى هذه الحصون بعزم خرابها وقتل الاسماعيليه فيها • وقد تمكن عسكره من حصار بعضها ونصب عليها المجانيق الكبار ، ثم اوسع من بداخلها قتلا وأسرا وساق أبقارهم وخرّب ديارهم^(١) •

غير ان صلاح الدين لم يتمكن من فتح قلعة مصيف ، التي قاومت الحصار اسبوعا • وتختلف الروايات فيما حدث ، ولماذا انسحب صلاح الدين منها قبل ان يتم فتحها ! وقد ذكر المؤرخ الاسماعيلي أبو فراس عدة روايات خيالية مفادها ان صلاح الدين انسحب من مصيف خوفا من سنان وحفاظا على حياته مما رآه وسمعه من الخوارق التي كان يقوم بها سنان ضده^(٢) • ومن الروايات التي قيلت ان صلاح الدين راسل سنان وطلب منه التسليم ، فأجابه سنان بالرفض ، وذكر استعدادة لمحاربته وفي الليلة نفسها ارسل اليه سنان أحد فدائييه ، فتمكن من دخول خيمة صلاح الدين ووضع له عند رأسه اشعارا تطوي على بعض التهديد^(٣) • وفي الليلة التي

(١) الكامل : ٤٣٦/١١ ؛ الروضتين : ٢٦١/١ ؛ تاريخ الازمنة :

(٢) انظر النص العربي للمؤرخ الاسماعيلي ابو فراس الذي تحدث عن المولى راشد الدين سنان في المجلة التالية :
Journal Asiatique, 7th Series, Vol, IX, 1877,
PP. 455-459.

وقد نقلت بعض روايات ابو فراس في كل من المصادر التالية : تاريخ الدعوة الاسماعيليه : ٢١٢-٢١٣ ؛ شذرات الذهب : ٢٩٤-٢٩٥ ،
Runciman, op. cit, 11, P. 410.
Rosebault, Saladin, PP. 122-114;

لويس ، الحشيشية : ١٣١-١٣٣ ،

(٣) ومن امثلة الاشعار التي ارسلها سنان الى صلاح الدين ما

اعقبها ضرب صلاح الدين حول خيمته نطاقا من الحراس ، وامر بنشر الطحين حوالها • وفي الصباح وجد صلاح الدين سليما ، وقد بدل محل مصايح خيمته • علما بان أحدا من الحراس لم يشاهد أي زائر من البشر يدخل الى الخيمة ، فاستولى على العساكر الرعب ، سيما وقد هبط اليهم رسالة بواسطة سهم من مصياف جاء فيها : « ألا فاعلموا اننا نروح ونغدو كما كنا في السابق ، ولن تموقونا بحال من الاحوال » (١) •

وقد نقل المؤرخ الانكليزي روزبالت Rosebault عددا من

الروايات الاسماعيلية حول سبب مغادرة صلاح الدين مصاييف ، نذكر منها ما يلي : حاصر صلاح الدين سنان مع اثنين من مساعديه ، وعندما أراد التقدم اليهم ببعض امرائه للقبض عليهم وجدوا انفسهم غير قادرين على التقدم ، لقد سيطرت عليهم قوة مخدرة جردتهم من قدرتهم • وقد انزعج صلاح الدين مما حصل ، واعتقد ان هناك قوة خفية تعمل لصالح عدوه ، لذلك طلب مصالحة سنان وكسب جانبه (٢) •

اذن يرى الاسماعيلية ان الخوارق التي كان يعملها سنان والتهديدات التي كان يرسلها صلاح الدين ، هي التي عملت على فشل حصار مصياف • والحقيقة ان هذه الروايات ضعيفة ، فبالاضافة الى عدم وجود ما يسندها تاريخيا وعقليا ، فان الاسماعيلية حاولت اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة

قيل :-

قام الحمام على البازي يهدده وكشرت لاسود الغاب اضبعه
انا منحناك عمرا كي تعيش به ان رضيت والا سوف ننزعه

شذرات الذهب : ٢٩٤-٢٩٥ •

(١) شعلة الاسلام : ٧١-٧٢ •

(٢) Saladin prince of chivlary, PP. 112-114

ولم تفلح في مسعاها • ولو صح انها تمكنت منه - كما قالت هذه الروايات
لقتلتسه •

اما الرواية الثانية ، فتقول ان عساكر صلاح الدين لما قتلت الاسماعيليه
وخربت ديارهم ، شفع فيهم خاله شهاب الدين - صاحب حماة - اذ كان
راشد الدين سنان قد راسله في ذلك لانه جيرانه ، فقبل صلاح الدين شفاعة
خاله فيهم وترك حصار مصياف^(١) • خاصة وانه رأى من بعض امرائه
« ميلا الى الانكفاء »^(٢) •

وقد أشار ابن الاثير الى هذه الرواية الثانية ، غير انه ذكر ان
راشد الدين سنان ، لم يرسل شهاب الدين ويطلب منه التوسط لدى
صلاح الدين بالكف عن حصار مصياف من باب الترجي أو التوسل انما قال
له : « ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وامرائه »^(٣) • ويضيف
ابن الاثير الى ذلك بان العسكر الصلاحي ملّ من طول الانتظار لعدم
التمكن من فتح مصياف ، وكانت أيديهم مملوءة بالغنائم التي كسبوها من
عسكر الموصل وبلد الاسماعيليه ، فطلبوا العودة الى بلادهم للاستراحة ،
فاذن لهم صلاح الدين وسار هو الى مصر^(٤) • ولذلك انتهى حصار
مصياف •

والواقع ان فشل حصار مصياف لم يكن لتهديدات سنان لصلاح الدين
ولخاله شهاب الدين فحسب ، انما كان خوفا من هجوم الصليبيين على بلاد
المسلمين ورغبة في عدم استنزاف المزيد من الوقت • ففي الوقت الذي كان

(١) الروضتين : ٢٦١/١ •

(٢) سنا البرق الشامي ، نقلا عن العماد الاصفهاني : ٢١٨/١ •

(٣) الكامل : ٤٣٦/١١ •

(٤) نفس المصدر والمكان السابق •

فيه صلاح الدين محاصرا للبلد ، أغار الصليبيون على بعض البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم - متولي بعلبك - فقتل منهم جماعة واسر أكثر من مائتين ، واحضرهم عند صلاح الدين على مصيف . فخاف ان يهيج الصليبيون في الشام الاعلى ، وهو بعيد عنهم ، فصالح سنان وعاد الى دمشق^(١) .

ومما يدل على صحة هذا الرأي ما ذكره العماد الاصفهاني في البرق الشامي بقوله : « لولا هذا الحادث لم يصرف عنها الاحداث »^(٢) أي لولا هجوم الصليبيين - سابق الذكر - لم ينصرف صلاح الدين من حصار مصيف . وربما كانت وساطة شهاب الدين قد جاءت في الوقت الذي كان صلاح الدين عازما على مصالحة الاسماعيلية .

وقد وقع ابن الاثير في أخطاء حيث ذكر اشارات تدل على وجود تعاون بين صلاح الدين والاسماعيلية ، وانه استخدمهم لاغتيال أعدائه من الصليبيين . ففي ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م قتل الماركيس (كونراد) أمير مدينة صور^(٣) . وكان سبب قتله - كما لكر ابن الاثير - ان صلاح الدين هو الذي راسل مقدم الاسماعيلية في الشام - راشد الدين سنان - وبذل له عشرة آلاف دينار ثمنا لقتل ريتشارد فلم يمكنه قتله ، ولم ير سنان مصلحة له في ذلك ، فعدل عنه الى قتل الماركيس . فأرسل اليه

(١) الروضتين ، نقلا عن ابن ابى طي : ٢٦١/١ .

(٢) سنا البرق الشامي ، نقلا عن الاصفهاني : ٢١٩/١ ؛
البداية والنهاية : ٢٩٥/١٢ .

(٣) كان الماركيس احد كبار تجار الصليبيين قدم الى صور سنة ٥٨٣ هـ بعد معركة حطين ، وتمكن من تحصين البلد ، وحفر حوله خندقا عميقا من البحر الى البحر في وقت انشغال صلاح الدين بفتح القدس والساحل الشمالي . البداية والنهاية : ٣٢٧/٢ .

اثنين في زي الرهبان الى صور ، مكثا في خدمته ستة أشهر حتى تمكنا منه وقتلاه^(١) .

والحقيقة ان صلاح الدين لم يكن له أية علاقة بقتل الاسماعيليين للمركيس ، لان العملية كانت مدبرة بين راشد الدين سنان وريتشارد قلب الاسد . ومما يدل على ذلك ما يلي :

أولا - ان المركيس كان قد عقد مع صلاح الدين معاهدة اظهر له فيها الطاعة من أجل التصدي لريتشارد الذي عاداه ورغب بالانفراد بزعامة الصليبيين في الساحل الشامي دونه^(٢) . وكان صلاح الدين من جهته يرغب بالاتفاق مع المركيس ومن مصلحته أيضا ان يبقى المركيس حيا لتستمر المعاهدة بين الجانبين ، من أجل اضعاف قوى الصليبيين في الشام عن طريق اثارة النزاع بين المركيس وريتشارد . وقد دلّ على ذلك العماد الاصفهاني بقوله : « ولم يعجبنا قتله وان كان من طواغيت الضلالة ، لانه كان عدو ملك الانكليز ومنازعه »^(٣) .

ثانيا - بعد استقراء المصادر التاريخية ظهر بأن ثمانية مصادر رجحت الرواية القائلة بان مقتل المركيس كان بتعاون ريتشارد مع راشد الدين سنان ، وان روايتين فقط اتهمتا صلاح الدين بتدبير تلك العملية^(٤) .

(١) الكامل : ٧٨-٧٩ ، تاريخ ابن خلدون : ٧١٣/٥ .
Charapdor, Saladin, P. 311.

وقد اعتمد كل من ابن خلدون وشامبندور الفرنسي على رواية ابن الاثير .

(٢) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٣٩٨ .

(٣) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٢١ .

(٤) كانت المصادر التي رجحت تبرئة صلاح الدين من الاشتراك في عملية قتل المركيس هي : الفتح القدسي : ٤٢٠-٤٢١ ؛ النوادر

ثالثا - من الواضح ان اتفاقا بين صلاح الدين والمركيس يهدد مصالح ريتشارد في منطقة الشام ، ولذلك فمن الطبيعي ان يتعاون ريتشارد مع سنان لاجل قتل المركيس خاصة وان الاسماعيليه كانوا من أنصار فرسان الاستبارية الصليبيين ، وكان المركيس من جماعة فرسان الداوية الصليبيين^(١) .

على أية حال فان الصلح تم بين الاسماعيليه وصلاح الدين ، ولم أجد في المصادر التاريخية ، بعد هذه الفترة ، أية اشارة لهجوم الاسماعيليه على صلاح الدين أو بالعكس . والذي يبدو ان صلاح الدين اتبع معهم سياسة حكيمة جعلهم يقفون على الحياد ليتفرغ للصليبيين بعد ان قضى على الدولة الفاطمية^(٢) .

علما بأن الاسماعيليه رغبوا في الصلح قبل صلاح الدين ، لفشل مجاولاتهم المتكررة لاغتياله ، وعدم وجود قوة عسكرية اسماعيلية تتمكن من التصدي للقوات الايوبية لذلك فضلوا وقوف صلاح الدين على الحياد ،

السلطانية : ٢٠٨ ؛ الروضتين : ١٩٦/٢ ؛ مفرج الكروب : ٣٨٢/٢ ؛
مرآة الزمان : ق ١ ج ٨/٤٢٠ ؛ الانس الجليل : ٣٨٥/١ ؛ تاريخ
الازمنة : ٩٣ ؛ انظر : مختصر تاريخ العرب : ٣٢١-٣٢٢ ،

Rosebault, Saladin, P. 283; Hodgson, The order of
Assassins, P. 189, Lewis, The Assassin's P. 117.

اما الروايتان اللتان اتهمتا صلاح الدين بتدبير العملية ، فهما في الحقيقة رواية واحدة ، لان ابن خلدون نقل روايته عن ابن الاثير ، وابن الاثير ، كما تبين من قبل لم يكن من محبي صلاح الدين ، انظر : الكامل :
٧٩-٧٨/١١ ، تاريخ ابن خلدون : ٧١٣/٥ .

Cahen, la Syrie du nord., P. 562. (١)

Kritzeck, Anthology of Islam, P. 162. (٢)

على ان يكون عدوا مباشرا لهم • وكان صلاح الدين من جهته يرغب بمصالحتهم لحصانة قلاعهم. وتهديدهم لحياته وأمنه ، وزغبته في التفرغ الى الجانب الاكثر خطورة على مستقبل سياسته ودولته • وكانت تلك الخطورة متمثلة في تفكك الامارات الزنكية ورغبته بتوحيدها وضمها اليه أولا والقضاء على قوى الصليبيين في الشام وتحرير القدس ثانيا •

ثانيا : صلاح الدين والخلافة العباسية ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ / ١١٧١-١١٩٣ م

كانت الخلافة العباسية في بداية امرها تملك القوة العسكرية والسياسية ولها رئاسة المسلمين الدينية والدينية طبقا لمفهوم الخلافة المعروف^(١) ، وكان الخليفة هو الذي يعين الولاة والسلاطين. الذين كان عليهم الاعتراف بالسيادة العليا للدولة ، وعدم مخالفة أوامر الخليفة ، وتقديم الولاء له ، بالدعاء له في المساجد ، ونقش اسمه على النقود وتقديم الاموال اليه في ذل عام • وكان للخليفة الحق في محاسبة امرائه ، بينما لم يتمكن احد من الامراء تجاوز حقوق الخليفة •

غير ان الضعف الذي انتاب الخلافة العباسية دفع بعض الامراء الى شق عصا الطاعة عليها ، وكان أول من خرج على القاعدة المألوفة ، عمليا ونظريا ، هم الفاطميون الذين لم يكتفوا « بأن يكونوا امراء ذوي سلطة دنيوية فقط ، بل أرادوا ان يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاتخذوا لانفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان سنة ٢٩٧ هـ -

(١) عرف ابن خلدون الخلافة بأنها « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخرية والدينية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشوارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » • مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الكشف (بيروت ، لم يذكر السنة / ١٩١/ •

٩٠٩ هـ ، (١) .

وبعد ذلك استمر ضعف الخلافة العباسية ، مما جعلها تفقد حقوقها الدنيوية في القرن الخامس الهجري ، وصار الخليفة حينئذ رئيسا روحيا لم يبق له سوى بغداد ينازعه عليها المتنازعون^(٢) . غير ان الامراء والسلاطين السنين احتفظوا بولائهم وطاعتهم لتلك السلطة ، ومن اولئك الزنكيون والايوبيون .

عاش صلاح الدين في كنف البيت الزنكي ، الذي كانت علاقته بالخلافة العباسية حسنة للغاية بصورة عامة ، فقد كان نورالدين مثلاً يحترم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله^(٣) كثيراً ، وكان الخليفة العباسي من جهته أيضاً يستجيب لكل نداءات نورالدين ، ويرسل الكتب الى امراء الاطراف يستحثهم فيها على مساندة نورالدين في حربه ضد الصليبيين ، كما كان يرسل اليه في كل مناسبة الخلع الجميلة . ففي سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م مثلاً وصل لنورالدين من المستضيء بأمر الله خلعة عندما دخل

(١) منز ، آدم ، الحضارة الاسلامية : ٢٧٧/١ .

(٢) لمعرفة المزيد عن كيفية سلب اولئك المتغلبين الخلافة العباسية سلطانها ، وكيف ناضل الخلفاء من اجل البقاء . انظر : القزاز ، الحياة السياسية في العراق : ١٣-٤١ ؛ لامب ، شعلة الاسلام : ٤٨ .

(٣) المستضيء بأمر الله : هو الحسن ابو محمد بن المستنجد بالله ، ولد سنة ٥٣٦ هـ واه ام ولد أرمني ، بويغ له بالخلافة يوم موت ابيه سنة ٥٦٦ هـ ، وخطب له بالديار المصرية واليمن ، وكان ذا سيرة حسنة واماماً عادلاً رفع المكوس والمظالم ، توفي سنة ٥٧٥ هـ بعد ان عهد الى ابنه احمد (الناصر لدين الله) بالخلافة في نهاية شوال من السنة . وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة اشهر . الكامل ٤٥٩/١١ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٤-٢٩٥ ، الديار بكر ، تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس : ٣٦٦/٢ .

الموصل فلبسها ولما ملك الموصل خلعها عن ابن أخيه سيف الدين^(١) .

وقد حرص نورالدين ، بصورة عامة ، على كسب رضى الخلافة العباسية ، وربما كان حرصه تابعا من ايمانه بقدسية الخلافة ، ورغبته في الفوز بتأييدها الروحي والمعنوي عند جماهير المسلمين ، ليتمكن من الوقوف بحزم ضد اعدائه امصيين ، وبعض الامراء المسلمين الذين ثابوا لايهايمون في الجهاد^(٢) . ومن الطبيعي جدا ان يستفيد صلاح الدين من سياسة نورالدين هذه ، وان يتعلم منه الطريقة التي يجب بها على السلطان احترام الخليفة وطاعته .

ومن جهة ثانية ، فان صلاح الدين قدّم للخليفة العباسي ولاء وطاعة ، كما ينبغي للمسلم المتمسك بعقيدته ان يقدمها لامام عصره ، خاصة وان صلاح الدين قرأ القرآن والحديث^(٣) ورافق الصوفية ، ودرس مذهب

(١) الكامل : ٣٦٤/١١ - لمعرفة المزيد عن حسن العلاقة بين نورالدين والخلافة العباسية انظر : ابن الاثير ، الباهر : ١٥٤ ؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٩٣-٢٩٤ ؛ ابو شامة ، الروستين : ٨٤/١ ، ١٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٦٩/١ - ٧٠ و ١٩٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٢٦٤-٢٦٥ .

(٢) القزاز ، الحياة السياسية : ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) جاء في تفسير ابن كثير بأن الله سبحانه وتعالى قال : (واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) الذين يأمرون ما أمر به الله ورسوله ، ويحرمون ما حرم الله ورسوله . وقد جاء في الحديث ايضا ان الرسول محمد (ص) قال : « كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء كلما هلك نبي خلفه نبي ، وانه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون ، قالوا : يا رسول الله فماذا تأمرنا ؟ قال : اوفوا ببيعة الاول فالاول واعطوهم حقهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم » . تفسير القرآن العظيم (القاهرة : ١٩٣٧) : ٥١٧/١ . انظر : طبارة ، روح الدين الاسلامي ط ١ (بيروت ، لم تذكر السنة) : ٢٩٤ .

الامام الشافعي ، كما تبين ذلك من قبل ، مما جعله يتفقه بمعنى اطاعة الخليفة ، ويعتبر ذلك جزء من عقيدته ، ففي سنة ٥٢٧هـ كتب صلاح الدين كتابا الى مجاهد الدين بن الصاحب استاذ دار الخلافة جاء فيه : « ونحن لا نتدين الا بطاعة الامام ، ولا نرى ذلك الا من أركان الاسلام ، هذا ما نعد في الملة الحنيفة والدولة الهادية العباسية مما لا يعد مثله » (١) .

صلاح الدين والمستضيء بالله :

في سنة ٥١٧هـ / ١١٢١م. بدأت علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية فقد ثان وزيرا للخليفة الفاطمي وجاءه كتاب من نور الدين بقطع خطبة الخليفة الفاطمي والدعوة للمستضيء بالله العباسي ، ففعل ذلك صلاح الدين طاعة لنور الدين ، واحتراما للخليفة العباسي ، السني المذهب الذين يدين له بالولاء والطاعة .

وقد كاتب صلاح الدين الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي بمناسبة اسقاطه للدولة الفاطمية ، وأوضح له بأن الخلافة العباسية أصبحت هي الظاهرة ، وأن أهل البدعة والخلاف اذا سمعوا بها لم يخروا عليها صما وعميانا » وأن الجمعة أصبحت جامعة والمذلة في شيع الضلال شائعة ، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء » (٢) .

وصل الكتاب الى بغداد ، ففرحت به كثيرا ، وضربت البشائر بها عدة أيام وزينت الطرقات والمحلات ، وظهر من الفرح ما لا حد له ، وسيّرت الخلع الى نور الدين وصلاح الدين ، مع عدد من الاعلام السود (٣) - شعار

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق وسر الخلائق : ٦٤ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٣٤٣-٣٤٤ .

(٣) الكامل : ٣٦٩-٣٧١ وانظر : الروضتين : ١٩٩/١ ؛

مفرج الكروب : ٢١٨/١ ؛ شذرات الذهب : ٢١٩/٤ - ٢٢٠ .

العباسيين - لرفعها فوق المساجد والدواوين ايذانا بسقوط الدولة الفاطمية ،
واعترافا بالتبعية - لبغداد .

بعد وفاة نورالدين سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م واضطراب الاحوال في
منطقة الشام ، تآب صلاح الدين الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي^(١)
واوضح له احوال الشام السياسية المضطربة وتكالب الصليبيين على بلاد
المسلمين ، والاعمال الحسنة التي قام بها بمصر كازالته للدولة الفاطمية ،
كما ذكره بأعمال والده وعمه البطولية ضد الصليبيين ، وبين له الاعمال
العسكرية التي قام بها في اسكات صيحات الخصوم في القسطنطينية وصقلية
الذين كانوا ينوون ضرب الاسلام واحتلال الاسكندرية ، وأوضح له أيضا
سبب فتحه لليمن وضرب المهدي المتدع الذي ادعى الضلال ، واعقب
صلاح الدين بعد كل ذلك برجائه من الخليفة العباسي ان ينعم عليه بتقليد
« جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ،
وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا ، وسيوف عساكرنا ولبن نقيمه من آخ
وولد من بعدنا ، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا مع ما ينعم
به من السمات التي يقتضيها الملك »^(٢) .

استجابات الخلافة لمطالب صلاح الدين ، لذلك انعمت عليه بالسلطنة

(١) ذكر القلقشندي ان صلاح الدين ارسل بالكتاب المشار اليه
اعلاه الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، وليس للمستضيء بأمر الله .
وقد وهم القلقشندي فيما نسب به ، ذلك لان المستضيء بأمر الله توفي في
سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠م ، والكتاب مرسل من القاهرة الى بغداد سنة
٥٧٠ هـ / ١١٧٤م . انظر صبح الاعشى : ٨٢ / ١٣ وقارن مع ما ذكر عن
وفاة المستضيء في : الكامل : ٤٥٩ / ١١ ؛ السلوك : ٦٠ / ١ .

(٢) انظر نص الكتاب الذي ارسله صلاح الدين الى المستضيء بأمر
الله في : صبح الاعشى : ٨٢ / ١٣ - ٩٠ .

على مصر والشام وارسلت اليه رسل دار الخلافة عندما كان محاصرا لحامة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م « بالتشريفات السنية والامثلة الرضية والجنائب العربية والتحف الامامية والتقليد والتملك والتحكيم والتفويض ، فأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع »^(١) . وفي استجابة الخلافة لمطالب صلاح الدين دليل على رغبتها بالاعتماد عليه لأنها وثقت من قوته ، خاصة وان نورالدين قد توفي فأرادت ان يكون صلاح الدين خلفه . وقد كسب هذا التقليد صلاح الدين مهابة وتقدير امراء المسلمين بوجه عام والصليبيين بوجه خاص .

وقد صور الشاعر ابن الدهان ، بلغة الشعر ، العلاقة الحسنة التي كانت بين صلاح الدين والخلافة العباسية في هذه الفترة ، ومدى تأييد بغداد لصلاح الدين والمحبة التي اکتتها له ، وأكد بأن منشور الخلافة والخلع التي ارسلت اليه دليل على اعترافها له بالسلطنة ، وانه أصبح بنظرها معيد الحق لاصحابه الشرعيين ، وأوضح بان الخلافة مقلدة وان صلاح الدين أصبح سوادها ومحجرها والحارس الامين لها^(٢) .

(١) العماد الاصفهاني ، البرق الشامى ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامى : ١٩٢/١ - ١٩٣ : الكامل : ٤٢٢/١١ : الروضتين : ٢٥٠/١ : وانظر: البداية والنهاية: ٢٩٠-٢٩١ : السلوك : ٦٠/١ .
(٢) مما جاء في قصيدة ابن الدهان التي صور فيها علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م ما يلي:-

« وأتاك منشور الخلافة شاكرا	لك ان اعدت الحق حيا منشرا
لما اعدت الحق في اربابه	ورددت للمستوجبيه منبرا
بعث الامام لك الشعار مصورا	للناس انك في الضمير مصورا
واراهم ان الخلافة مقلدة	اصبحت انت سوادها والمحجرا
فأفخر بما فعل الامام على الورى	وكفى بما فعل الخليفة مفخرا
خلع اتتك وللعلی في طيها	نشر وطی عداك في ان تنشرا

ديوان ابن الدهان : ٥٤-٥٣/١ .

ونظرا لاهتمام صلاح الدين باعادة الوحدة بين مصر والشام وما يمكنه
ضمه اليهما من البلاد الاسلامية ، فقد كان بحاجة الى مساندة الخلافة
العباسية له أكثر من نورالدين ، رغم امتلاكه قوة عسكرية كبيرة برية
وبحرية لا تقاس بها قوة نورالدين ، ذلك لان أعداء نورالدين كانوا من
غير المسلمين ، سوى بعض الامراء الذين انخرطوا تحت سلطانه بعدئذ ،
اما صلاح الدين فقد عاداه الامراء المسلمون وبخاصة من الزنكيين الى جانب
الصليبيين ، وكثيرا ما تعاونوا مع الاسماعيليه والصليبيين ضده^(١) .

لهذا كان صلاح الدين يطلع الخلافة العباسية على كل تحركاته
ومنجزاته ليكسب تأييدها ضد الامراء النوريين . ففي سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م
اتفق صلاح الدين مع الملك الصالح - اتابك حلب - على شروط معينة
انسحب بموجبها من حصار حلب ، منها الا يدخل الحليون باتفاق مع طرف
ثالث الا بعد موافقة الطرف الثاني غير ان سيف الدين غازي - اتابك
الموصل - كاتب الملك الصالح ودفعه الى نقض الهدنة فاعلن صلاح الدين
الحرب عليهما - كما تبين ذلك في الفصل الثاني - . وقبل البدء بها كاتب
الخلافة العباسية ليطلعها على حقائق الامور . ووضح لها بأنه اتفق مع الملك
الصالح ليستخدم عساكره ضد الصليبيين ، غير ان سيف الدين غازي جعله
ينقض العهد لذلك طلب من الخليفة العباسي ان يرسل اليه يحذره من
نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وان يعطيه الحق في قتالهم وتضييق الخناق
عليهم ، وان اصروا على غوايتهم يكون صلاح الدين معذورا في مقاتلتهم ،
وكي لا يتهم بقتال المسلمين وترك قتال الصليبيين^(٢) . بعد ان اوضح

(١) القزاز ، الحياة السياسية : ٢٥٦-٢٥٧ .

(٢) انظر نص الكتاب الذي ارسله صلاح الدين الخليفة المستضيء
بأمر الله العباسي سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥م في الروضتين : ١ / ٢٥٤ .

للخليفة العباسي ان أهدافه سامية ، وانه لا يريد من الامراء المسلمين الا ان يعضدوه بما يملكون من قوى لتحرير القدس من رجس الشرك . ثم ليتد الطريق على سيف الدين غازي والملك الصالح وغيرهما من الامراء المسلمين الذين ربما راسلوا الخليفة العباسي واتهموا صلاح الدين بأنه يقاتل طلبا للدنيا ، فيضطر الى اعلان الحرب ضده ، وبذلك يخسر تأييد المسلمين .

صلاح الدين والناصر لدين الله :

استمرت علاقة صلاح الدين بالخليفة العباسي المستضيء بامر الله حسنة حتى وفاته . وعندما تولى الناصر لدين الله^(١) الخلافة في مستهل ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م ، قام صلاح الدين من جانبه بواجب البيعة له ، وارسل الى بغداد رسوله للتعزية بوفاة والده والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة ، كما جرت العادة عليه^(٢) . وكان في تلك الفترة قد توفي سيف الدين غازي

(١) الناصر لدين الله : هو ابو العباس احمد بن المستضيء بامر الله ، ولد سنة ٥٥٣ هـ وامه ام ولد تركية اسمها زمرد ، وبويج له بالخلافة في مستهل ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ ، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ ودامت خلافته حوالي سبع واربعين سنة ولم يل الخلافة اطول مدة منه وقد نشأ نظاما للفتوة وفي ايامه ظهرت القيسي ببغداد والرمي بالبندق ولعب الحمام وتفنن الناس في ذلك . وكانت له عيون على كل سلطان يأتونه بالاخبار ، حتى كان بعض الكبار يعتقد فيه ان له كشفا واطلاعا على المغيبات / الديار بكري ، تاريخ الخميس : ٣٦٦-٣٦٧ / ويرى ابن الاثير انه هو الذي اطمع التتر في البلاد لانه راسلهم في ذلك «فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم» الكامل : ١٢ / ٤٤٠ . والمعروفة المزيد عن هذا الخليفة وسبب انشائه لنظام الفتوة انظر : ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٤-٨ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٧-٣٠٤ ؛ سنبط قنيتوا ، خلاصة الذهب المسبوك : ٢٨٠-٢٨١ .

(٢) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣٤٢-٣٤٣ / ١ ؛ مفرج الكروب : ٩٢ / ٢ .

- اتابك الموصل - وجلس أخوه عز الدين مكانه ، فكتب صلاح الدين الى الخليفة يسأله ان يفوض اليه الامور^(١) . فوصل اليه شيخ الشيوخ صдалدين أبو القاسم عبدالرحيم وشهاب الدين بشير الخاض « بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد في رجب »^(٢) من السنة ، فتلقاهم صلاح الدين بالتعظيم والتمجيد ، وكان قد عرف ما بين شيخ الشيوخ والعماد الاصفهاني من محبة وصداقة فأرسله لاستقباله نيابة عنه ، ثم دعاه لزيارة مصر ، الا انه اعتذر لعزمه الذهاب للحج ، ثم وافق على مرافقة صلاح الدين الى القاهرة ، لزيارة ضريح الامام الشافعي والسير من هناك الى جدة^(٣) .

ويرى القلقشندي ان الخليفة العباسي الناصر لدين الله كان متغيرا على صلاح الدين لتلقبه « بالملك الناصر » ، وانه لما بعث اليه كتاب التقليد افتتحه بجملة « ان اولى من جادت رباعه سحب الاصطناع . . . » ، وان افتتاح الكتب بـ : ان اولى ، أو ان أحق ، انما يكتب « لاصحاب الرتب السافلة التي لا تقارب رتبة الملك ولا ما دونها »^(٤) . غير ان نص كتاب التقليد فيه من الادلة ما يثبت خطأ ما ذكره القلقشندي ، اذ فيه لقب الخليفة الناصر صلاح الدين بـ « الملك الاجل السيد صلاح الدين » ناصر الاسلام عمادالدولة ، جمال الامة ، فخر الملة ، صفى الخلافة ، تاج الملوك والسلاطين ، قانع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمرتدين ، عز

(١) الروضتين : ١٧/٢ : السلوك : ٧٠/١ : انظر السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٥ .

(٢) سنا البرق الشامى : ٣٥٢/١ : انظر : الروضتين : ١٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ٩٥/٢ . شذرات الذهب : ٢٥٤-٢٥٥/٤ ، البداية والنهاية : ٣٠٧/١٢ ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير : ٢٥٨ .

(٣) سنا البرق الشامى : ٣٥٢-٣٥٣/١ .

(٤) مآثر الاناقة في معالم الخلافة : ٨٦/٣ .

المجاهدين الب غازي يوسف بن أيوب - ادام الله علوه - على هذه السجيا مقبلا ...»^(١) . وهذه النعوت الجليلة فيها ما يثبت رضا الخليفة عن صلاح الدين رضا تاما ، فقد جعله تاج الملوك والسلاطين . ثم لو صح ان كلمة « ان اولى » تكتب للرتب السافلة ، فانها قليلة الاهمية في هذا الكتاب نظرا لاحتوائه على أكثر من عشرين كلمة تعظيم . علما بانه لو كان في نفس الخليفة الناصر لدين الله مما قصده القلقشندي لاشار الى ذلك في كتابه هذا ولو تلميحاً وتعريضاً .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الخليفة العباسي أمر صلاح الدين بكتابه السابق بتقوى الله والحفاظ على الصلاة ، وقصد المساجد الجامعة ولزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات ، واحسان السيرة في الرعايا واطهار العدل في الرعية وحفظ الثغور ومجاهدة الكفار والاعتماد في ادارة شؤون البلاد على أصحاب الدين والعفاف ، ثم أشار اليه بواجب شكر الخلافة على ما اسبغت عليه من التأييد والاحترام . وكانت الصيغة مبتدأة ب « وأمره باظهار العدل ... » وأمره بكذا^(٢) . ولم يكن في تلك الصيغة ما يدعو الى الشك في حسن العلاقة بين الطرفين ، لانها كانت اسلوب الخلافة في تلك الفترة التي لم يكن فيها للخليفة سلطان على سلاطينه ، اذ لم يكن يملك الا ان يأمرهم بالعدل والاحسان بين الرعية . وقد أورد القلقشندي أربعة كتب موجهة من الخليفة العباسي الى بعض سلاطينه تضمنت نفس الاسلوب^(٣) .

على أية حال فان صلاح الدين كان مطمئنا لكتاب الخليفة ، وقد تقبله

(١) مآثر الاناقة في معالم الخلافة : ٨٨-٨٧/٣ .

(٢) القلقشندي ، مآثر الانافة : ٩٦-٨٩/٣ .

(٣) نفس المصدر السابق : ٩٩/٣ و ١٠٧-١١٩ و ١٥٢ .

بقبول حسن وكتب اليه يقول : « الخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الاسلام ، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لانه والى ثم وارى ، ولا آخريه طغرل بك لانه نصر ثم حجر ، والخادم خلغ من كان ينازع الخلافة رداها وأساغ الغصة التي أذخر الله للاساعة في سيفه ماءها فرجل الاسماء الكاذبة الراكبة على المنابر ، واعز بتأييد ابراهيمي فكسر الاصنام الباطنة بسيفه الظاهر » (١) .

وقد أدل صلاح الدين على خضوعه للخلافة العباسية بنعت نفسه بالخادم لها كما تبين في افتتاحية كتابه السابق (٢) . كما كانت كل المساجد الواقعة تحت سلطانه تلهج بالدعاء للخليفة العباسي على المنابر ، وكان خطباؤها في كل مناسبة يلبسون شارات الدولة العباسية ، ويرفعون اعلامها السود ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير ذلك عيانا سنة ٥٧٨ هـ ، وذكر ان الخطيب كان يلبس بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود وعمامة سوداء متقلدا سيفا ، ويقف بين رايتين سوداوين (٣) .

ولم يمنح الخليفة الناصر لدين الله العباسي من جهته ، الخلع السوداء والعمامة السوداء لاحد من المقربين أو الامراء ممن يدخل في سلطنة صلاح الدين ، احتراماً وتقديراً لصلاح الدين وتمييزاً له عن غيره ، وكان اذا طلبها منه احدهم رفض طلبه . ففي سنة ٥٧٨ هـ هرب الامير جمال الدين

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٣٠٠ .

(٢) كان صلاح الدين ينعت نفسه (بالخادم) للخليفة العباسي في كل كتاب كان يرسله اليه ، ومثال لذلك الكتاب الذي ارسله سنة ٥٧٩ هـ بعد فتح حلب والذي جاء فيه : الخادم ينهي ان الذي يفتتحه من البلاد ٠٠٠ و « و » سار الخادم الى قلعة حلب . انظر الروضتين : ٤٨/٢ ؛ القلقشندي : ٣٠٤/١٣ .

(٣) رحلة ابن جبير : ٥١ .

خشتريين من الموصل الى بغداد صحبة ثلاثمائة فارس ، وطلب العمل لدى الديوان العزيز ببغداد ، غير ان الخليفة العباسي رفض طلبه حجة ان الارزاق كانت مقررة ولا يوجد زيادة فيها ، واعتقد انه تذرع بهذه الحجة ، لانه لم يرد ان يفقد صداقة أتابكة الموصل ، ولذلك طلب جمال الدين توصية من الخلافة والسماح له بالعودة الى الشام ، للعمل مع صلاح الدين الذي كانت علاقته باتابك الموصل غير حسنة ، وترجى ان يمنحوه خلعة سوداء وعمامة سوداء ، غير ان الخليفة رفض رجاءه وقال : « ان الذي تريد ان تمضي اليه [أي صلاح الدين] ٠٠٠ اذا رأى قد اعطيناك مثل ما اعطيناه ما يطيب له ذلك »^(١) ، مما يدل على رغبة الخليفة الصداقة بالحفاظ على علاقات طيبة مع صلاح الدين .

ورغم ما كان بين الطرفين من صفاء ، الا ان الخليفة العباسي لم يمنح صلاح الدين تقليد ولاية الموصل ، وأرسل اليه رسولا من عده سنة ٥٧٨هـ للتفاوض معه بشأن عقد صلح مع سيف الدين غازي اتابك الموصل والانسحاب من حصار البلد . غير ان صلحا لم يتم مع أتابك الموصل ، وانسحب صلاح الدين الى سنجار في ١٦ شعبان سنة ٥٧٨هـ / ١٥ كانون الاول سنة ١١٨٢م استجابة الامر بالخلافة^(٢) . ولعل السبب في ذلك ، انها لم تنظر بعين الارتياح لتحركات صلاح الدين وانتصاراته ولم ترد ان يمتد سلطان صلاح الدين القوى على حدود أملاكها ، وربما لم تكن قد وثقت بمقاصده بعد ، فأرادت ان تكون الموصل خطا دفاعيا لحدودها من ناحية الشمال .

وقد عاتب صلاح الدين الخلافة العباسية على تصرفها السابق نحوه ،

(١) ابن شاهنشاه ، مضممار الحقائق : ١٢٨-١٢٩ .

(٢) الكامل : ٥٠١/١١ ؛ السلوك ٨٤/١-٥٠ .

بعد فتح آمد في ١٤ محرم سنة ٥٧٩هـ/٦ أيار سنة ١١٨٣م وكتب الى الخليفة يقول : « وهذه آمد لما ارسل اليه مفتاحها ، وهو التقليد فتحها ... ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها ولو بدرجة ادلجها وأخذها ولو بحصاة نبذها » (١) .

غير ان صلاح الدين لم يرتد عن طاعة الخليفة بسبب عدم منحه تقليد الموصل ، واستمر بمكاتبته عن كل ما كان يقوم به ، فمثلا بعد انتصاره في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م كتب الخليفة الناصر لدين الله واطلعه على كل تحركاته ، والانتصارات التي حققها ضد الصليبيين بعد ان خاطبه ب : « الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم » (٢) .

وقد قدّرت الخلافة اخلاص صلاح الدين هذا ، وارسلت اليه بعد فتح القدس لوحا منقوشا مكتوبا عليه بعض الآيات والكلمات لتعليقه بباب المسجد الاقصى ، كان من جملة ما كتب عليه « ... اجرى هذا الفتح على يدي محيي دولته [أي محيي دولة الناصر لدين الله] وسيف نصرته والقائم بطاعته المخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته يوسف بن أيوب معين أمير المؤمنين » (٣) . مما يدل على مدى ثقة الخلافة بصلاح الدين ومحبتها له ، فقد اعتبرته محيي دولتها وسيف نصرتها ، واعترفت له باخلاصه في طاعتها .

ورغم ما كان بين الناصر لدين الله وصلاح الدين من محبة وتقارب ،

(١) الروضتين : ٢/٤٠-٤١ .

(٢) انظر نص كتاب صلاح الدين المرسل الى الناصر لدين الله سنة ٥٨٣ هـ بعد معركة حطين في: القلقشندي ، مآثر الانافة : ٣/٣٠٢-٣٠٨ .

(٣) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ٢٤٦ ؛ خلاصة الذهب المسبوك : ٢٨٠-٢٨١ .

الا انه كان في الديوان العزيز ببغداد من كان يحمل الحقد والحسد
لصلاح الدين ، وينتظر الفرصة الملائمة للايقاع بينه وبين الخلافة * فبعد
ان فتح صلاح الدين القدس امر بانشاء كتاب بشارة للخليفة العباسي ،
وكان مع العسكر الايوبي شاب بغدادى من الاجناد يعرف بالرشيد بن
البوشنجي ، سأل ان يكون هو السفير الى بغداد وتوسط في ذلك ، فأقره
صلاح الدين ، ليس الا لانه من أهالي بغداد ، وهو ادرى بمسالكها من
غيره ، ولم يكن صلاح الدين يعلم بأن هذا الشاب كان محقرا في بلاده *
فلما وصل الى بغداد حقروه وما وقروه * وقد وجد أعداء صلاح الدين
حينئذ - كما قال العماد في البرق الشامي - « الى السعاية طريقا وطلبوا
الشملة استعادة بالخدمة تفريقا واحتلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل وقالوا هذا
يزعم انه يقلب الدولة ويغلب الصولة وانه ينعت بالملك الناصر » (١) .

وقد تأثر الخليفة العباسي بما جرى ، غير انه لم يتسرع باصدار
حكمه على صلاح الدين ، وارسل تاج الدين أبو بكر حامد - اخو العماد
الاصفهاني - الى صلاح الدين استقبالا حسنا اكراما للخليفة ومكانته * ولما
عرض عليه تاج الدين كتاب الخليفة بالعتب اليه ، انكره صلاح الدين وردته ،
ثقة منه بالمحبة المتبادلة بين الطرفين ، وادعى بان علاقته بالخلافة حسنة وانه
قد أقام لها الدعوة في مصر واليمن * وان ما ينعت به من اسم « الملك
الناصر » ، انما هو من عهد الخليفة المستضيء بامر الله * وقال للرسول :
« والآن كل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة ، فهو اسمى لي من
الذي هو اسمي * * * وما عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين » (٢) .

(١) الروضتين : ١٢٧٢ ؛ انظر : مفرج الكروب : ٢/٢٤٨ -

(٢) الروضتين : ١٢٢/٢ •

وقد شعر الديوان العزيز في بغداد بالتسرع في عتابه لصالح الدين ، في هذا الوقت غير المناسب ، فأرسل له كتاب اعتذار ، بخط صاحب قوام الدين بن زياده - استاذ الدار العزيزة - اوضح له فيه المكانة الجليلة والمحبة الكبيرة التي اکتها الخلافة له ، وانه لولا تلك المحبة لما جوهر بالعتاب ، ولترك معه الامر على اختلاله ، كما اعترف له الخليفة بالمنجزات التي حققها ولم ينكرها عليه ، ووصفه بأنه :

« رجل وقته ونسيجه وحده والمربي على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتي من بعده ، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفا ، واستكفى فكفا ، وطب فشفأ ، فكيف يجوز له بسعاده ان يهجن مساعيه الغر المحجلة ويخرج من مكاتته المكرمة المججلة ... » (١) .

هكذا اذن لم تصدق الخلافة العباسية ما روجه أعداء صلاح الدين عليه في الديوان العزيز ، ولذلك اعترفت به رجل عصره الذي يجب على معاصريه ومن يأتي من بعده الاقتداء به لصدقه واخلاصه ، بعد ان وثقت منهما ، فاستمرت علاقتها به حسنة ، ففي الاول من سفر سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م قدم الى صلاح الدين من جهة الخليفة العباسي ضياء الدين عبدالوهاب بن سكينه لاعلامه بولاية العهد لابن الناصر لدين الله ، أبي نصر محمد الملقب بالظاهر ، وكان صلاح الدين يومئذ بدمشق فأمر الخطيب عبدالملك بن زيد الدولي ان يخطب له ، ثم اعلم كافة اولي الامر التابعين لسلطنته بالخطبة لولي العهد الجديد ، ثم جهز الرسول وارسل معه هدايا وتحفا واسارى من الصليبيين للخليفة ، اضافة الى تاج ملك الصليبيين الذي اسر في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م و صليب الصلبوت الذي رفع من القدس بعد

(١) الروضتين : ١٢٢/٢ .

فتح (١) • مما يدل على مدى تقدير صلاح الدين للخليفة العباسي ،
وتعظيمه له ، وعدم التفاته للعتاب الذي ارسل اليه من قبل •

غير ان العلاقة على ما يبدو بين الطرفين اخذت بالتدهور بعد سنة
٥٨٥هـ / ١١٨٩م وذلك ان صلاح الدين طلب مساعدات من الخليفة العباسي ،
كجزء من الاستنفار بعد أمر وزيره وقاضيه ابن شداد من القيام به في
الحادي عشر من رمضان سنة ٥٨٥هـ / الثالث والعشرين من تشرين الاول
سنة ١١٨٩م لجمع الاجناد وتعبئة القوى ضد الصليبيين ، بعد مجيء الحملة
الصليبية الثالثة الى الشام ، وخاصة بعد وصول فردريك بربروسا
- الامبراطور الالماني - في مائة الف مقاتل الى الشرق (٢) • غير ان الخلافة
العباسية لم تعيى طاقاتها العسكرية والمعنوية للوقوف بجانب صلاح الدين ،
واكتفت بارسال حملتين من النفط وخمسة من الزرايين ، ورقعة موقعة من
الخليفة العباسي تتضمن الاذن لصلاح الدين باقتراض عشرين ألف دينار
من التجار ينفقها في الجهاد ، ويحيلهم بها الى الديوان العزيز ، فقبل
صلاح الدين جميع ما وصل مع الرسول ، لانه كان بحاجة اليه ، ورد
الرقعة الى الخليفة (٣) • وقال : « انا في يوم واحد اخرج مثل هذا
واضعافه » (٤) • غير ان ابن الفرات يرى بأن صلاح الدين تقبل كل ما وصل
اليه من الخليفة وقال « كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين ، ولولا صرف

(١) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ١٧٠-١٧٢ ؛ البداية والنهاية :
٣٣٢/١٢ ؛ السلوك ١٠١/١-١٠٢ •

(٢) انظر : النوادر السلطانية : ١١٥ ، ١٢٤-١٢٨ ؛ الروضتين :
١٥٠/٢ ، ١٥٤ •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١١٥ و ١١٨ و ١١٩ ، البداية
والنهاية ٣٣٥/١٢ •

(٤) مرآة الزمان ، ق ٠ ج ٤٠١/٨ •

أموال هذه البلاد الى الجهاد ، لكنت محمولة الى الديوان»^(١) ،
الا ان انفراد ابن الفرات بتلك الرواية ، وكونه من المؤرخين
المتأخرين يرجح اعتماد الرأي الاول ، خاصة وان ابن شداد ، وهو من
المعاصرين للاحداث يقول : « قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول
واستغنى عن الرقعة والتثقيل بها »^(٢) ، مما يدل على ان صلاح الدين
استصغر مساعدات الخليفة واستقلها •

وربما اثر استصغار صلاح الدين واستقاله لمساعدات الخليفة على
العلاقة بين الطرفين • ففي الثاني عشر من شوال سنة ٥٨٧هـ/الثاني من
تشرين الثاني ١١٩١م وصل الى صلاح الدين كتاب من بغداد تقول فيه
الخليفة على صلاح الدين ببض الاقاويل ، منها انه انكر عليه حركات ابن
أخيه تقي الدين عمر في شمال الجزيرة وقصد خلاط ومحاصرتها ، وطلب
منه ارسال القاضي الفاضل الى بغداد لتوضيح بعض الامور المتعلقة بين
الجانبين • فأجاب صلاح الدين على رسالة بغداد ، بأنه غير راض عن
تصرفات ابن أخيه ، وانه انما بعثه لجمع العساكر واستنفارها للجهاد في
سبيل الله ، واعتذر عن ارسال القاضي الفاضل الى بغداد لاصابته ببعض
الامراض ، وعدم تمكنه من تحمل مشقة السفر^(٣) •

هكذا اذن ضعفت علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية في آخر أيامه ،
بعدها كانت قوية • فقد كان صلاح الدين رجلا سنيا متدينا يعتقد بشرعية
الخلافة الروحية ، ويعلم مدى أهمية الخلافة عند جمهور المسلمين • لهذا
حاول الاتصال بها والانتفاع من علاقته الطيبة بالخليفة ذاته •

(١) تاريخ ابن الفرات : م ٤ ، ج ١/٢١١ •

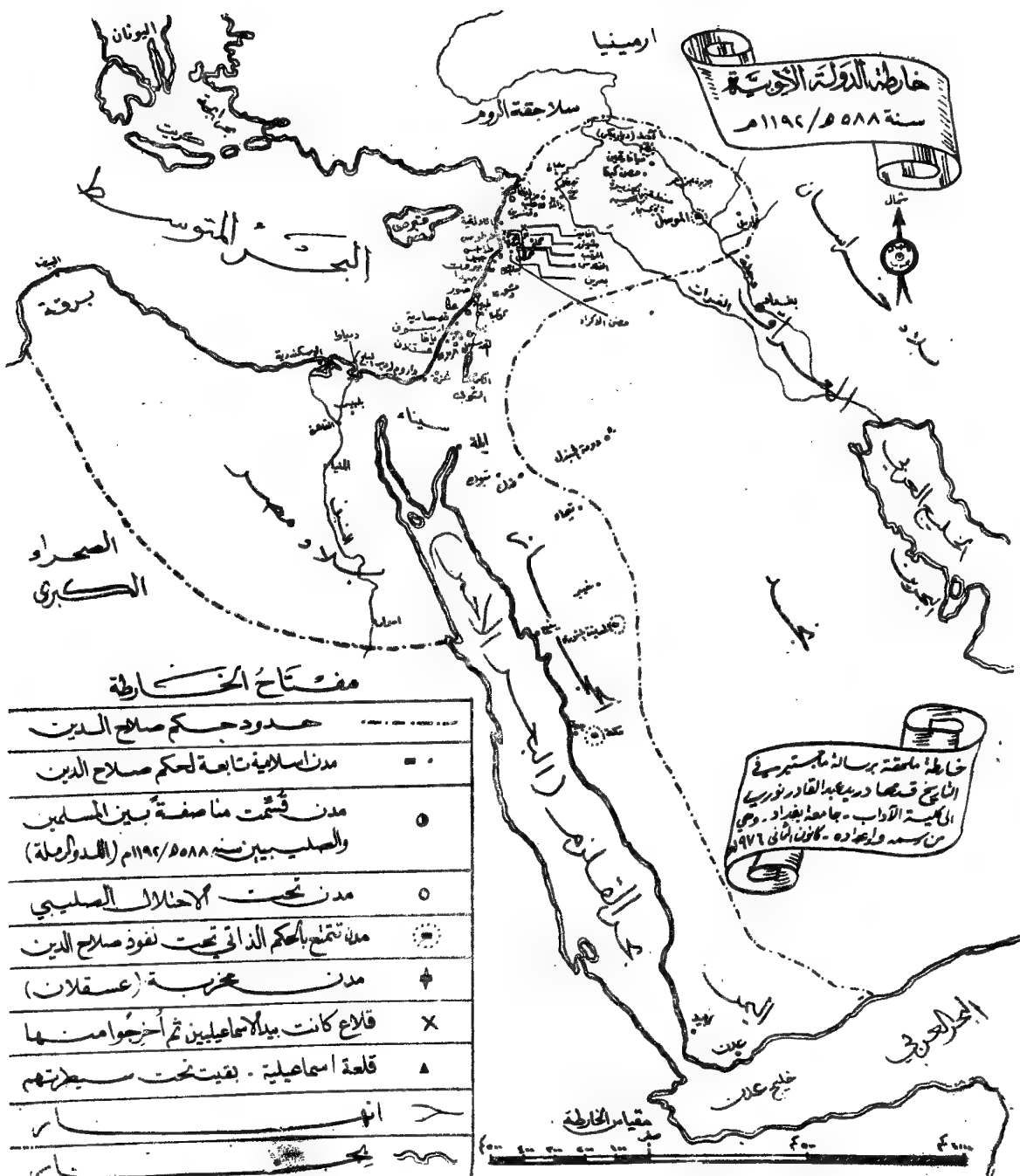
(٢) ابن شداد ، المصدر السابق : ١١٩ •

(٣) الروضتين : ١٩٣/٢ •

والخليفة ، على ضعف منه ، كان يهمه ان يكون ثمة أمير قوي
مجاهد ، كصلاح الدين ، ممن يدين بالولاء له • لهذا أيدته في الظاهر على
أقل تقدير • غير ان الخليفة الناصر لدين الله كان يطمح الى أكثر من
العلاقة الشكلية بينه وبين صلاح الدين فلما لم ير من صلاح الدين علائم
الامتثال التامة ، ظهرت منه بوادر البرود فاضطر صلاح الدين الى التعامل
مع الامراء المستقلين عنه مباشرة ومن دون الرجوع الى الخلافة • وقد عبّر
القاضي الفاضل عن رأي صلاح الدين في سبب تعطيل مكاتبه بغداد عندما
وصف الخلافة بأنها تضرب في حديد بارد عند طلب الذهب الحار^(١) •

(١) انظر : القزائز ، الحياة السياسية : ٢٦٨ ؛ وهامش رقم

(٥) من نفس المصدر والمكان السابق •



الفصل الخامس

السياسة الداخلية

ردّ صلاح الدين على أحد مماليكه ، بعد ان طلب منه شفاعته ضد خصمه فقال له :

« ما عسى ان صنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للمخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممثلة ، وانما أنا عبد الشرع وشحنه فالحق يقضى لك أو عليك » .

صلاح الدين

رحلة ابن جبير : ٢٩٨

« السياسة الداخلية »

ان التنظيمات الادارية والاقتصادية والثقافية في دولة صلاح الدين ، وثيقة الترابط بسياسة صلاح الدين وعلاقته الخارجية ، سواء كان ذلك في تعامله مع الامارات الاسلامية أو الصليبية • اذ ان هذه التنظيمات (السياسة الداخلية) كانت الى حد ما القاعدة التي استند اليها صلاح الدين في توجيه نشاطه نحو التوسع في الشام والتمكن من اتمام الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة •

فمن طريق هذه السياسة استطاع صلاح الدين السيطرة على الوضع الداخلي للامارات الاسلامية التي انضمت اليه ، والسير وفق نظام معين تمكن عن طريقه من استغلال الوسائل الاقتصادية والبشرية والحربية لمحاربة الصليبيين وتحرير القدس •

لذلك فان معرفة السياسة الداخلية والاطلاع على كيفية تعامل صلاح الدين مع امرائه ، على قلة المعلومات أمر ضروري لتوضيح الاساس الداخلي الذي استندت اليه علاقات صلاح الدين الخارجية ، السياسية والعسكرية • وقد تبين ان صلاح الدين أخذ جهاز الدولة النورية والفاطمية وتنظيماتها ، ولم يغير منها الا القليل • وهذا واضح في نظم ادارة البلدان والجيش والتعبئة • والسؤال الذي يمكن ان يطرح هو : هل ان صلاح الدين أقام تنظيماته الادارية والاقتصادية على انقاض جهاز الدول التي سبقت حكمه دون تعديل وتحوير ، ام انه انشأ بالكلية نظاماً جديدة ؟ ام انه أخذ النظم السابقة وكيفها لحاجاته ؟

اتبع صلاح الدين سياسة خاصة به فيما يخص مصروفات الدولة وواراداتها ، وكيفية جمع تلك الواردات ، وكذلك في الاسلوب الذي اتبعه لتغيير نظم الفاطميين في مصر غير انه ، من غير شك ، اقتبس الكثير من نظم

الدولة النورية والفاطمية ، وان سكوت المصادر التاريخية عن بعض التنظيمات والامور الادارية والاقتصادية ... الخ ، في فترات معينة من التاريخ ، لا يعني عدم وجودها . بل من المحتمل ان المصادر باهتمامها بالقضايا العسكرية والسياسية ، قد انشغلت عن ذكر النظم الحضارية . لذلك فان حدوث تحول سياسي أو حربي ، والانتقال من عهد الى عهد آخر ، لا يعني - كما هو واضح من استقراء التاريخ - سقوط التنظيمات القديمة وقيام أخرى جديدة لا علاقة لها بسابقتها ، لان ذلك يناقض استمرارية التماسك الاجتماعي والنظامي والبيروقراطي (الوظيفي) بعد حدوث تلك التغيرات^(١) .

وقد ظهر هذا الجانب واضحا عند صلاح الدين في سياسة تولية الامارة على البدان ، حيث اكتفى في أغلب الاحيان بأخذ البيعة له من الامراء المسلمين وابقاهم في مناصبهم ، بعد ان اشترط عليهم الاشتراك معه في الحرب ضد الصليبيين^(٢) . غير انه في مصر عمل على ازالة الموظفين الفاطميين المواليين للحكم الفاطمي ، ونصب محلهم موظفين سنيين ، حفاظا على أمن الدولة الجديدة ، ورغبة منه في نشر المذهب السني ، كما سيتبين ذلك فيما بعد . وهكذا يمكن القول ان صلاح الدين لم ينشئ مؤسسات ونظما جديدة ، بل أخذ ما كان موجودا منها واكتفى باجراء التعديلات الملائمة عليها .

(١) انظر بهذا لاصدد :

عمادالدين ، امارة بني ارتق ، رسالة دكتوراه : ٢٩٢ .

• ٢٩٢

(٢) انظر مثلا نص المنشور الذي ارسله صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ الى زين الدين كوجك امير اربل بخصوص منحه الامارة . مفرج الكروب : ١٦٣/٢ - ١٦٤ .

اولا : الكتابة والكتاب

أبدى صلاح الدين اهتماما شديدا بمكاتبة أصحابه وامرائه خاصة فيما يتعلق بأمور الجهاد والدعوة اليه • وحفاظا منه على سريتها فقد كان يتفرغ اليها ليلا بعد انصراف أصحابه عنه ، وكذلك ليتمكن من ان يملئها على كتابه بالاسلوب الذي يفضله •

وكان على الكاتب ان يقدم لصلاح الدين مسودة ذلك الكتاب في الصباح الباكر فاذا رضى به وقعه وأمر بإرساله فورا للجهة المقصودة ، والا أمره بتبديله واعادة صياغته ، وقد ذكر العماد الاصفهاني - كاتب صلاح الدين - في البرق الشامي ما يدل على ذلك :

« كان صلاح الدين مشغوبا بمجالسة خواصه من العقلاء ، ومؤانسة ذوي اختصاصه من الفضلاء • فاذا اراد الانصراف بعد هزيع من الليل قام الى صلاة العشاء ، واذا فرغ من الصلاة جماعة تفرق الجمع ورفع الشمع فان كان له حاجة الى انشاء كتاب أو البوح بسر صواب أجلسني وأملى علي مقاصده • وقمت وسهرت تلك الليلة لتحرير الكتب • ثم أبكر اليه واعرضها عليه ، فان رأى الزيادة فيها أو تبديل شيء من معانيها وصل بي الى مقاطعها ، ووقفني على مواضعها • فما ابرح حتى أسوى قوامها واروى أوامها • واذا استضاءها وقد أتممت نصابها توجهت بتوقيعه ويقول [أي صلاح الدين] : توجهها ولا نعوقها ونسدها الى الاغراض ولا نعوقها » (١) •

اما طريقته في ارسال الاجوبة للكتب الواردة اليه ، فقد كان يعمد اما الى تظهيرها وتوقيعها ، أو كتابة كتاب جديد بتوقيع جديد ، ثم يصدره للجهة الوارد منها الكتاب ومن أمثلة تظهيره للكتب ما وجد على كتاب في سطر البسملة لكتاب أرسله اليه القاضي الفاضل سنة ٥٧٤هـ بعد استعداده

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢٣٣/١ - ٢٣٤ •

للذهاب للحج ، وكان قد التمس فيه الفاضل من صلاح الدين الاذن في السفر • وعندما وصل الكتاب الى صلاح الدين ظهره بما يلي : « على خيرة الله تعالى يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما » (١) •

ومن أمثلة الكتب المستقلة التي كان يرسلها صلاح الدين لذوي الحاجة ، الكتاب الذي أرسله بخطه الى بعض امرائه جوابا على كتاب القاضي الفاضل ، سابق الذكر ، وقد اوضح فيه صلاح الدين بأن على الفاضل الا يسير للحج وحده ، بل برفقة جماعة من العسكر خصصهم لحمايته خشية الوقوع بيد الصليبيين • ثم كلفه بانفاق ثلاثة آلاف دينار من مال الجوالي (٢) على فقراء مكة والمدينة ، وجعل هذين الشرطين لازما على الفاضل اذا ما أراد الحصول على موافقته في السفر الى الحج (٣) •

وبدل كتاب صلاح الدين السابق على مدى تقديره لكتابه الذين كانوا بنفس الوقت مستشاريه وقضاته ، بحيث انه يرسل العسكر لايام معدودات ، تنتقل من منطقة الى أخرى حفاظا على قافلة الحجاج التي فيها كاتبه القاضي الفاضل حتى لا يقع أسيرا بيد أعدائه من الصليبيين •

ومن مميزات الكتب في عهد صلاح الدين التزامها الشديد بالصناعة البلاغة والمحسنات البديعة ، كما يتمثل ذلك واضحا في انشاء القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني • والتمثل بالشعر ، والاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة • وفي نص الكتاب المرسل الى امراء

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٧/٢ •

(٢) مال الجوالي : هو المال الذي تجبيه الدولة من اهل النمة من اليهود والنصارى البالغين دون الاطفال والنساء والشيوخ والرهبان والعبيد والمجانين والفقراء (ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، تحقيق ونشر عزيز سوريال عطية (القاهرة ، ١٩٤٣) : ٣١٧ •

(٣) ابو شامة ، نفس المصدر والمكان السابق •

دمشق سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، بخصوص العفو عنهم ما يدل على ذلك :
 « ان الله ملكنا دمشق عناية لا عنوة ولم يكتب فيها بحمد الله الى خطيه
 خطوة ولا حدث عثرة ... فعملوا ... الحق اعزّ بناء والباطل يضمحل
 عفاء ، والزبد يذهب جفاء ، الا وانا رأينا العفو أقرب للتقوى » (١) .
 ويتمثل الاسلوب القرآني في الكتاب السابق بالاعتقاد ان الله هو
 الذي ملك صلاح الدين دمشق (٢) ، ثم بالقول وان الزبد يذهب جفاء (٣) .
 وفي جملة وان العفو أقرب للتقوى (٤) .

ومن أمثلة الايات الشعرية التي زين بها صلاح الدين كتبه ، التي
 كان يرسلها لاقربائه وامرائه ، تلك الايات التي كلف العماد الاصفهاني
 ان يعملها له أثناء حصاره لمدينة بعلبك سنة ٥٧٤هـ وهي :

يا ساكني مصر لا والله مالكم شوقي الذي لذت قلبي لواعجه
 اصبحت اطلب طرق الصبر أسلكها هيهات قد خفيت عني مناهجه (٥)

وما شغف صلاح الدين بتضمين الشعر في كتبه ومراسلاته ، الا
 لملازمته للشعراء ومحبه لهم ، ومطالعه لدواوينهم . وقد ذكر العماد
 الاصفهاني قوله : « وكنت ليلة عند السلطان وهو يذكر جماعة من الشعراء

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ - ١٧٨ .

(٢) اقتبست هذه الجملة من سورة ال عمران : « قل اللهم مالك
 الملك ، تؤتي الملك من تشاء ... » ٣/٢٦ انظر : المعجم المفهرست
 (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ٤٦٧ .

(٣) اقتبست هذه الجملة من سورة الرعد : « فأما الزبد فيذهب
 جفاء ... » ١٣:١٧ (المعجم المفهرست ، ٣٢٩) .

(٤) اقتبست هذه الجملة من سورة البقرة : « وان تعفوا أقرب
 للتقوى ، ٢:٢٣٧ ، (المعجم المفهرست ، ٤٦٦) .

(٥) البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣١٢/١ ؛ وانظر : تاريخ
 ابن الفرات : م ٤ ، ج ١/٦٦ .

وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقذ وهو به مشغوف وقد استحسن قصيدة له طائية * * * (١) وكان الشاعر عرقلة الكلبي من بين الشعراء الذين لازموا صلاح الدين قبل ذهابه الى مصر صحبة عمه أسدالدين شيركوه (٢) .

ورغم ان صلاح الدين لم يقل الشعر ، الا انه - كما ذكر الاصفهاني - كان ناقدا خيرا به ، يعجبه المعنى المعرى واللفظ السهل الابي ، وكان يحفظ من محاسن العرب وقصائد القدماء ، وشوارد الحكماء وكان يكرم على الشعر الجيد (٣) . ومن ذلك انه اكرم الشاعر سعادة الاعمى الف دينار لانه القى أمامه قصيدة طائية فاعجبته . كما اكرم أحد الشعراء أيضا ألف دينار لانه انشد امامه :

الله اكبر جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله راميا (٤)

وكان صلاح الدين يكرم الكتاب ويحرص عليهم ، وكان قد خصص في كل يوم ساعة يجلس فيها معهم ، اما في الليل أو في النهار ، يوقع لهم كل كتاب معد للتصدير (٥) .

ومن شدة حرص صلاح الدين على الكتاب انه خصص لهم بعض المنع والمخصصات والاقطاعات ، كما حكم بعضهم في الديوان السلطاني أيضا ، وقد وصف الاصفهاني لقاء صلاح الدين له ، عند تركه للزنكيين والتجائه لصلاح الدين فقال : « فتلقاني الملك الناصر برحبه ، وبرجبه ورفع حظوظي من الحضيض واهدى الصحة لرجائي المريض ، واعاد

(١) سنا البرق الشامي : ١٨٦/١ .

(٢) الاصفهاني ، خريدة القصر ، ق ٣ ، ج ١٧٨/١ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق .

(٤) بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ، ٢٥ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ١٣ .

المدرسة التي كنت مدرستها اليّ ، وحكمني في ديوانه وعوّّل في سلطانه عليّ وجعل السعود في جميع المقاصد من احلافي ،^(١) .

وممن نبغ في الكتابة في عهد صلاح الدين ، الى جانب العماد الاصفهاني وابن شداد ، القاضي الفاضل عبدالرحيم اليسانبي المتوفى سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م . وقد كان من كتاب ووزراء صلاح الدين المعتمد عليهم . خلفت لنا رسائله الممتازة ، مادة تاريخية قيمة ، وقد امتازت بغزارة المادة وسلامة الاسلوب ووضوحه^(٢) .

ثانيا :- القضاء

اولى صلاح الدين القضاء عناية كبيرة ، فخصص له منزلة عظيمة لما فيه للمصيب من اجر عظيم في الاسلام^(٣) ، بالاضافة الى انه استخدم القضاء ركيزة من الركائز الفكرية ، الى جانب المدارس ، لمحاربته التشيع في مصر وتشجيع المذاهب السنية ، وخاصة المذهب الشافعي الذي كان ينتمي اليه ، لذلك لما أسقط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م صرف جميع قضاة الشيعة ، وعين بدلهم قضاة سنيين^(٤) .

واذا كان صلاح الدين قد خصص للكاتب ساعة من نهار في كل يوم ، فانه خصص يومين كاملين في الاسبوع ، يجلس للعدل بين الناس كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء حتى يصل

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم ٣ ، الخاص بالشام والجزيرة ، ١٤ .

(٢) حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية : ١٦٠ .

(٣) انظر الاحاديث التي ذكرها ابن شداد فيما يخص الحاكم والقاضي العادل في الاسلام ، النوادر ، ١٣ .

(٤) ابن الفرات ، التاريخ : م ٤ ، ج ١/ ١٢٥ ؛ حسن ابراهيم ، المصدر السابق ٣٠٦ .

اليه كل احد ، من كبير وصغير ورجل أو امرأة ، وكان هذا المجلس يعقد في كل اسبوع مهما كانت الاحوال ، سواء كان في سفر أو في حضر • ولم يستغيث به انسان الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته^(١) •

اشتكى اليه يوما رجل في دمشق اسمه ابن زهير علي تقي الدين - ابن أخيه - فأنفذ اليه صلاح الدين في الحال واجلسه في مجلس الحكم رغم محبته له ، ولم يحابه حتى ساواه في المحاكمة واحلفه اليمين بعد ادلاء الخصم بدعواه^(٢) • وكان دائما يقول قولته المشهورة : « اما انا فلائن أخطيء في العفو أحب الي من ان اصيب في العقوبة »^(٣) •

اعترف صلاح الدين الرعية عنده ودائع ، لذلك كان يجهد نفسه في العدل بينهم ويوصي ولاته بذلك • اما القضاة ، فقد اعتبرهم أوتادا للشريعة واجنادا لحفظ كنوزها • وكانت سياسته ان يختار للقضاء قاضيا واحدا لا اثنين ، لديم استقامة الحكم ، وكان يوصي ولاته ان لا يختاروا للقضاء من الرجال الذين يطلبون الحكم ، بل ممن أغفل قلبه عن مشاغل الدنيا وطلب نيل الرياسة • وكان يوصي ولاته بأن يغلظوا بالقول والملامة للرجال الذين يطلبون الوصول لكرسي القضاء • وفي نص الكتاب الذي أرسله صلاح الدين لآخيه الملك العادل ما يدل على ذلك :

« واما القضاة الذين هم للشريعة اوتاد ، ولا مضاء احكامها أجناد ، ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق اليها النفاذ ، فينبغي ان يعول فيهم على الواحد دون الاثنين ، وان يستعان منهم في الفصل بذوي الايدي وفي اليقظة بذوي اليدين ، ومن رام هذا سائلا فليلمه وليغلظ القول في تجريع ملامه ، وليعرف انه ممن رام امرا فأخطأ الطريق في استجلاب مرامه ، وامر الحكام

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ١٣ •

(٢) نفس المصدر السابق : ١٤ •

(٣) ابن جبير ، الرحلة : ٢٩٨ •

لا يتولاه من سألّه ، وانما يتولاه من غفل عنه واغفله « (١) .

ومن القضاة الذين اعتمد عليهم صلاح الدين قاضي القضاة صدرالدين ابن عبد الملك بن درباس الشافعي المذهب الذي ولي قضاء مصر سنة ٥٦٧هـ (٢) والقاضي ابن أبي عصرون الذي ولي القضاء في دمشق سنة ٥٧٢ - ٥٧٣هـ / ١١٧٦ - ١١٧٧م (٣) . والقاضي بهاء الدين بن شداد الذي اتصل بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ . ونظرا لاهتمام ابن شداد بأمور الجهاد ، وتأليفه لصلاح الدين كتابا يشمل فضائل الجهاد فقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر ، ثم القضاء في مدينة القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م (٤) . كما اعتمد صلاح الدين في تمشية أمور القضاء على الفقيه المفسر عز الدين بن عبد السلام (المتوفى سنة ٦٦٠هـ) فولاه القضاء والتدريس في المدرسة الصالحية في مصر (٥) .

ولم يحكم صلاح الدين بهواه ، انما كانت الشريعة الاسلامية الاساس الذي يستند اليه . وكان يعتبر نفسه خادما للشريعة ، مطبقا لاحكامها ، منفذا لحدودها . لذلك لم يكن لصديق أو قريب منزلة عنده في حدود الله . حضر عنده أحد مماليكه المقربين اليه والمتميزين لديه بالحظوة ، وكان قد اعتدى على جمال ، ذكر انه باعه جملا معيا ، فلم يدافع عنه صلاح الدين وقال له : « ما عسى ان اصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه متمثلة ، وانما

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى : ١٣ / ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٦٣ : ابن الفرات ، التاريخ ، ٤م ، ج١ / ١٢٥ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢ / ٤٩ .

(٤) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية : ١٦ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ١٦٣ .

أنا عبد الشرع وشحنته ... فالحق يقضى لك أو عليك» (١) .

ولم يكن الحكم بالعدل بين الرعية فحسب ، بل بينه وبين الرعية أيضا . فلم يميز نفسه عنهم ، وكان يعتبر نفسه كأبي فرد من أفراد المسلمين ، بل أكثرهم حملا وثقلا لانه مكلف بخدمتهم وخدمة الشرع . اشتكى عليه لدى القاضي بهاء الدين ابن شداد في القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م تاجر يدعى (عمر الخلاطي) واتهمه بأنه استولى على مملوك له مع أملاكه ، فلم يغضب صلاح الدين ، وانما ردّ الدعوى حسب الاصول . فقد أتى بالينة ، واستشهد بالشهود على بطلان دعوى خصمه ، بعد ان جلس الى جانب خصمه حتى ساواه في الجلوس . ولما علم ان الرجل انما ادعى بدعواه السابقة طمعا في كرمه ، اكرمه غاية الاكرام وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة (٢) .

وتيجة لعدل صلاح الدين هذا ، فقد أمن الناس الشروع ، وأخذوا يعملون الى ساعات متأخرة من الليل دون خوف على حياتهم أو ممتلكاتهم ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير ذلك عيانا ووصف لنا البلدان التي زارها ، وكيف كان الناس يعملون في الليل ، ومن ذلك قوله في مدينة الاسكندرية سنة ٥٨٧هـ :-

« ومن الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كصرفهم فيه بالنهار في جميع أحوالهم » (٣) .

(١) ابن جبير ، الرحلة : ٢٩٨ .

(٢) انظر نص المحاكمة التي جرت امام القاضي بهاء الدين ابن شداد بين صلاح الدين والتاجر عمر الخلاطي في النوادر السلطانية : ١٦-١٤ .

(٣) رحلة ابن جبير (بيروت : ١٩٦٤) ٤٣ .

ثالث - واردات الدولة

واردات الدولة هي الشريان الرئيس الذي يديم حيويتها ونشاطها • ويعتمد تقدم البلاد ، وتطورها ، ورفاه شعبها ، على حسن استخدام الدولة لمواردها • وهذا هو السبب الذي جعل الدولة العباسية في بداية امرها تقوى على صد هجمات المعتدين ، بينما لم تتمكن من صد تلك الهجمات في الفترة المتأخرة بعد ان ضعفت ميزانيتها نتيجة لقلة مواردها ، بعد انقسامها على نفسها وظهور الدويلات المتعددة •

ولما تمكن صلاح الدين من توحيد مصر والشام وبلاد الجزيرة ، وغيرها من المناطق الاخرى ، ارتفعت واردات دولته ، لذلك تقدم نحو تحقيق هدفه (تحرير القدس) •

ولو لم يكن لصلاح الدين الوارد الكافي الذي يتمكن به من الانفاق على الجيش وبناء التحصينات العسكرية لما تمكن من فتح القدس • وقد اوضح الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس ما عليه واردات الدولة من علاقة في نسبة قوة الدولة وضعفها فقال : « ان المركز المالي لاية دولة يعكس لدرجة كبيرة ما عليه الدولة من قوة أو ضعف ، فالمال دعامة كبرى للملك » (١) •

وقد تعمق ابن خلدون في بيان تلك العلاقة وربط هرم الدولة ، ومن ثم سقوطها بقلّة وكثرة الجبايات في الفصل الذي عقده « ان من طبيعة الملك الترف » ووضح بأن الدولة اذا عظمت كثرت وارداتها وبالتالي زاد مصروفها واسرافها ، واذا زاد اسرافها اقبلت على الهرم ثم السقوط ، لان الاسراف يزيد في مقدار الجبايات في أول الدولة عندما تكون قوية ، بينما لا تستطيع الدولة الضعيفة ان تفرض ضرائب جديدة أو أن تقاسم أرباب

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (القاهرة ١٩٦٩): ٠٣

العمل اتاجهم عند حدوث الازمات^(١) .

والاسئلة التي يمكن ان تثار : اذا كان صلاح الدين قد وسّع سلطانه وازاف الى ملكه مدنا كثيرة ، وتمكن من تحرير الشام من أيدي الصليبيين . فما هي واردات دولته ؟ ومن اين كان يجمعها ؟ وما هي أنواعها ؟ وما هي الطرق التي استخدمها في جمعها وتحصيلها ؟

اعتمد صلاح الدين على الواردات الكثيرة الضخمة التي كانت تجبي من الناس في مصر والشام والجزيرة ، ولكنه ألغى الضرائب الجائرة التي كانت تؤخذ منهم عسفا خلافا للشريعة والاعراف المتبعة . فاسقط عن أهالي مصر مثلا سائر المكوس غير الشرعية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٢) حتى قدر ما أبطله منها في كل سنة مائة الف دينار^(٣) ، مما دفع بالناس في مصر الى الالتفاف حوله .

ومن الجدير بالملاحظة ان واردات مصر كانت بالنسبة لصلاح الدين المصدر الاول الذي كان يعتمد عليه فيما ينفقه على جيشه ومصروفاته الشخصية . لان البلاد الاخرى انما كان قد منحها استقلالا ذاتيا شريطة الاشتراك معه في حروبه ضد الصليبيين . وألغى أيضا مكوس الحجاج في مكة سنة ٥٧٢هـ التي كان يأخذها أمير مكة من حجاج المغرب على عدد الرؤوس . ولم يكن يسمح لاحد بالدخول الا بعد ان يدفع المكس الذي عليه ، والا يحبس فيفوته الوقوف بعرفة . وعوض أمير مكة مبلغ ثمانية آلاف اردب قمح ينقل سنويا الى ساحل جدة^(٤) . وكان مقدار الضريبة

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٧١) : ١٤٠ و ٢٣٥ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٦٨/١٢ .

(٣) المقرئزي ، السلوك : ٧٠/١ .

(٤) الاصفهاني ، البرق الشامي ، انظر تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣٠٤/١ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٣/٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ١ ق ، ج ٣٣٨/٨ .

التي يدفعها الحاج سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية على كل رأس^(١) .

كان الفاطميون ، وخاصة في أواخر أيام دولتهم ، يفرضون ضرائب ثقيلة على حجاج المغرب . وقد دفعت سياسة الفاطميين الحجاج السنيين الى الامتناع عن الذهاب الى الحج عبر الاراضي الفاطمية ، فبقي الحرمان الشريفان مهجورين - كما ذكر القاضي الفاضل - الى ان جاء صلاح الدين فاسقط تلك المكوس ، فقدم للحج خلق لا يحصى^(٢) .

وقد وصف الرحالة ابن جبير الحالة التي كان يعامل بها الامراء الفاطميون حجاج المغرب ووضح بأنهم كانوا يمنعونهم من المرور الى مكة عبر الاراضي المصرية ويعنفونهم وكانهم أسرى بأيديهم فقال :

« رفعت مغارم مكس الحجا ز بأنعامك الشامل الغامر
وأمنت أكتاف تلك البلا د فهان السبيل على العابر
فكم لك بالشرق من حامد وكم لك في الغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا م بمكة من معلى جاهر
يعتف حجاج بيت الاله ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم وناهيك من موقف صاغر
وقد دفعوا بعدما كشفوا كأنهم في يد الاسر »^(٣)

وقد اسقط صلاح الدين أيضا المكوس التي كانت تؤخذ من حجاج وتجار اليمن^(٤) . كما اسقط في سنة ٥٧٨ هـ مكوس وضرائب سنجار^(٥)

(١) ابن جبير ، الرحلة : ٥٦٨ .

(٢) ابو شامة ، الروضتين : ٤/٢ .

(٣) رحلة ابن جبير ، : ٣٠ و ٨ .

(٤) المقرئزي ، السلوك : ٧٤/١ .

(٥) المنصور ، مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١١ .

وأزال في سنة ٥٧٩هـ كل المكوس والضرائب غير الشرعية التي كان يأخذها عماد الدين زنكي الثاني - أخو عز الدين مسعود - اتابك الموصل - من أهالي حلب • وفي نفس السنة أيضا اسقط مكوس الرقة وأصدر منشورا لاهاليها أوضح لهم الاسباب الداعية الى الغاء هذه المكوس • وقد جاء في نص المنشور ما يلي :

« ان اشقى الامراء من سمن كيسه واهزل الخلق ، وابعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماء الحق ، ومن ترك الله شيئا عوضه ، ومن اقرض الله قرضا حسنا وفاه ما اقرضه ولما انتهى امرنا الى فتح الرقة اشرفنا منها على سمن يؤكل وظلم مما أمر الله به ان يقطع ، وامر الظالمون ان يوصل فاجبنا على انفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا ان يضعوا هذه الرسوم باسرها ويلقوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا باسرها ونعق بلد الرقة من رقها ونثبت احكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحققها وقد أمرنا بأن تسدّ هذه الابواب وتعطل وتنسخ هذه الاسباب وتبطل ••• ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين ويسامح بها جميعها جميع الاغنياء ، والمساكين مسامحة ماضية الاحكام مستمرة الايام ••• » (١) •

ويدل هذا النص على ان صلاح الدين اعتبر المكوس ضرائب غير شرعية ، وان أخذها ظلام ، وانه الغاها احتسابا لله تعالى • كما يدل على ان سياسة صلاح الدين في الغاء المكوس كانت سياسة عامة اتخذها في كل المناطق التي أصبحت تابعة لحكمه سواء كانت بيد الامراء المسلمين أو الصليبيين ، لانه الزم كافة ولاته بالغائها ، وعدم جبايتها من الفقراء والاغنياء على السواء • ففي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م مثلا اسقط صلاح الدين الضرائب التي كان يستحصلها الصليبيون من الصلت والبلقا وجبل عوف والسواد

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٤٧/٢ •

والجولان • وكان متولو هذه المناطق من الصليبيين يأخذون نصف حاصل البلاد^(١) •

اذن لم يقرّ صلاح الدين من المكوس والضرائب الا ما هو شرعي امثال ضريبة (مكس الخمس والمتجر) ففي سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م كان عامل صلاح الدين يجبي ضريبة مكس الكارم من تجار اليمن القادمين الى مصر^(٢) • غير اني لم احصل على اي معلومات تؤيد اقرار صلاح الدين لهذه الضريبة ، او جبايتها من مناطق اخرى • كما فرض عامل صلاح الدين في ميناء الاسكندرية ضريبة الخمس والمتجر على التجار الاجانب الذين ثانوا يفدون من ايطاليا وغيرها من المدن الاوربية الاخرى الى الاسكندرية بقصد التجارة • وقد تراوح مقدار هذه الضريبة بين ٢٠٪ و ٣٥٪ من قيمة البضائع التي ثان يجلبها اولئك التجار^(٣) • وربما كانت هذه الضريبة بديل للضرائب التي كانت تأخذها الدول الاوربية من التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون مع بعض الدول كإيطاليا وصقلية وفرنسا مثلاً •

وكانت هذه الواردات الكثيرة التي يجبيها أمير الاسكندرية من التجار الاجانب تنفق في مصالح اهل البلد ، ولا يأخذ منها صلاح الدين شيئاً ، لذلك اصبح اهالي الاسكندرية - كما ذكر الرحالة ابن جبير - في نهاية الرفه واتساع الاحوال « لا يلزمهم وظيف البته ولا فائدة للسلطات بهذا البلد سوى الاوقاف المحبسة المعينة من قبله لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين خاصة ليس له منها سوى ثلاثة اثمانها والخمسة اثمان مضافة للوجوه المذكورة »^(٣) •

(١) الروضتين : ٧٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٩٦/٢ •

(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين : ٣٢٥-٣٢٦ •

(٣) رحلة ابن جبير : ٤٢ •

اما الزكاة ، فقد اعادها صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م بعد اسقاطه للدولة الفاطمية والمذهب الشيعي في مصر ، ايذانا منه للناس بأن مذهب السنة قد عاد ، وان احكام الشريعة الاسلامية تطبق في مصر . وان الزكاة سوف تكون البديل للضرائب والمكوس غير الشرعية التي احدثها الفاطميون^(١) .

اهتم صلاح الدين بجمع واردات الزكاة ، فأشبا في مصر ديوانا يعرف باسم « ديوان الزكاة » وكان يقوم عليه موظف يعرف باسم «متولي الزكاة» . وقد وجد صلاح الدين في الزكاة الطريق الشرقي لتسديد ما عليه من مصروفات . ففي سنة ٥٨٦-٥٨٧هـ / ١١٩٠-١١٩١م كانت حصيللة الزكاة ما يقرب من ١١٨٦١ ديناراً ، فأراد صلاح الدين زيادتها ، نظرا لان دولته بحاجة الى نفقات كثيرة في تلك الفترة^(٢) ، فعين رجلا اسمه ابن حمدان للاشراف على جبايتها ، بعد ان تعهد ابن حمدان بجمع اثنين وخمسين الف دينار في سنة واحدة^(٣) .

اما الوجوه التي كان يأخذ منها صلاح الدين الزكاة ، فقد عددها القاضي ابن مماتي من الذهب والفضة وعروض التجارة والماشية بأنواعها وكذلك من المزروعات مع اعفاء بعض المواد الغذائية الضرورية التي كانت كثيرة الاستهلاك مثل السمسم وبذر الكتان والزيتون والخضر^(٤) .

(١) انظر المقرئزي ، الخطط : ١٠٨/١ .

(٢) في سنة ٥٨٦-٥٨٧ هـ كان صلاح الدين يعاني من ضائقة مالية نظرا لكثرة الامدادات الاوربية التي وصلت الى الصليبيين المحاصرين لعكا ، ومن ثم الخسارة التي تكبدها بعد سقوط عكا ولذلك احتاج الى اموال طائلة . انظر : ابن شداد ، النوادر : ١٤٨-١٥٣ .

(٣) المقرئزي ، الخطط : ١٠٨/١ .

(٤) قوانين الدواوين : ٣١٠-٣١٦ .

اهتم صلاح الدين ايضا بضريبة الخراج^(١) اهتماما كبيرا ، فقد أمر بالنظر في الخراج ، وطريقة جمعه وأوقاته ، ووجد ان طريقة الجمع غير شرعية لاختلاف السنة الشمسية^(٢) . وما يتحملة الفلاح بسبب ذلك الاختلاف من خسارة ، لذلك كتب منشورا بالانشاء الفاضلي بتحويل السنة القبطية الى السنة العربية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وقد جاء فيه :

« ولما استهلكت سنة كذا الهلالية ، وقد تباعد ما بينها وبين السنة الخراجية الى ان صارت غلاتها مستوية الى ما قبلها ، وفي ذلك ما فيه : من أخذ الدراهم المنقود عن غير الوقت المنقود ، وتسمية بيت المال مطلا وقد انجز ، ووصف الحق المتلف بانه دين وقد اعجز واكمل رزق اليوم وتسميته منسوباً الى أمسه ، واخراج المعتد لسنة هلاله الى حساب المعتد سنة شمسه . »

وكان الله تعالى قد أجرى امر هذه الامة على تاريخ منزله عن اللبس موثقاً عن الكبس ، وصرح كتابه العزيز بتحريمه
وقد رأينا باستخارة الله سبحانه والتمن باتباع العوائد التي سلكها السلف ، ولم تسلك فيها السرف ، ان ينسخوا أسماءها من

(١) ضريبة الخراج : هي الضريبة السنوية المفروضة على الاراضي التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة ، والتي يدفعها المزارع لصاحب الارض والذي كان بدوره يؤديها لخزينة الدولة بعد استقطاع مصروفات الارض ، ربيع ، النظم المالية في مصر : ٤١ .

(٢) ان تسابق الشهور العربية عن الشهور الشمسية ، يجعل خراج السنة منسوباً للسنة السابقة ، واستحقاقه في السنة اللاحقة . لذا كانت العادة في مصر انه اذا مضى ثلاث وثلاثون سنة قام المكلفون بشؤون الخراج باعتبار السنة الثالثة والثلاثين السنة الخامسة والثلاثين والغاء ما بينهما . ربيع ، نفس المصدر والمكان السابق .

الخراج ويذهب ما بين السنين من الاضطراب والاعوجاج ...» (١) .

اما المناطق الاخرى غير المصرية ، فان صلاح الدين كان يأخذ منها الخراج حسب مساحة الارض التي تقاس بالفدان ، وكانت الضريبة على القمح والشعير أردبين ونصف للفدان الواحد . وكانت الطريقة ان يجمع الضريبة المنتفعون بالارض ، ومن ثم يسلمونها بدورهم لديوان السلطان (٢) . وهناك ضرائب أخرى كانت موجودة قبل قيام الدولة الايوبية ، وابقاها صلاح الدين على وضعها كالضريبة المفروضة على الفول والحمص ، وتراوحت قيمتها بين (٢٥) الى (٣) أراذب للفدان الواحد . بينما كانت هناك ضرائب نقدية على الحاصلات الزراعية الاخرى تراوحت بين دينار وخمسة دنانير على الفدان . اما الشجر والكروم فقد كان يفرض عليها في السنة الاولى ربع دينار للفدان الواحد ، وفي السنة الرابعة ثلاثة دنانير مساعدة للفلاح لان حمولة الاشجار في السنوات الاولى أقل منها في السنوات التالية .

اما ضريبة الجزية ، فقد كان يأخذها صلاح الدين من أهل الذمة من اليهود والنصارى البالغين ، دون الصبيان والنساء والرهبان والعبيد والمجانين والشيوخ والفقراء ، وكانت تسمى ضريبة الجوالي ، وتختلف باختلاف أحوال الافراد المالية فكان على الشخص من الطبقة العليا ٤٤ دينار ، ومن الطبقة الوسطى ديناران ومن الطبقة السفلى دينار وجزء من الدينار ، باضافة درهمين ونصف لكل الطبقات رسماً لمصروفات الحياة (٣) . ولم يكن في هذه الضريبة ما يرهق أهل الذمة ، فقد كان مقدار ما يدفعونه ، يعادل

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى : ٧٣/١٣ .

(٢) Elisseeff, Nur Ad-Adin, 11, P. 801.

(٣) ابن ماتي ، نفس المصدر السابق ، ٣١٨ .

رسوم الزكاة التي تؤخذ من المسلمين •

ونظرا لان المعادن والاختشاب من المصادر المهمة جدا التي تستخدم في صنع الادوات الحربية كالاقواس والنشاب والسيوف والسفن وغيرها ، لذلك منع صلاح الدين ان يكون لاحد فيها تدخل او اختصاص ، خاصة وان الحرب مع الصليبيين كانت مستمرة • وكان نوع الخراج الذي يؤخذ على غابات الاشجار يعرف باسم « مقرر السنط » • وقد شدد صلاح الدين كثيرا في الحفاظ على تلك الغابات ، وفرض أنواع العقوبات والمصادرات على من يجد في حوزته شيئا منها^(١) •

ومن الضرائب التي كان يستحصلها صلاح الدين أيضا ضريبة (دار الضرب) ، التي تؤخذ من أصحاب الاموال الذين يملكون الذهب والفضة ، لقاء سك النهب ، وكان مقدارها ثلاثا وثلاثين دينارا عن كل ألف دينار ، وعلى العملة الفضية كان الرسم ١٤٣ درهما عن كل ألف درهم^(٢) •

رابعاً - مصروفات الدولة

لم يكن صلاح الدين مهتما بجمع المال والثروة ، وقد صرح بواضح العبارة ان قيمة الاموال عنده لا تزيد على قيمة التراب^(٣) ، ولذلك كان ينفقها جميعا ولم يبال الافلاس ، وكثيرا ما كان يعطي ما في خزائنه ليستلف من امرائه والتجار الكبار لحين وصول الاموال اليه ، رغم ان الواردات التي كانت تجبي كبيرة • ففي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م مثلا حصل صلاح الدين على خزائن الفاطميين بعد اسقاطه لدولتهم ، غير انه انفقها

(١) نفس المصدر السابق ، ٣٤٥ و ٣٤٧ •

(٢) نفس المصدر السابق ، ٣٣٢-٣٣٣ ؛ ربيع ، النظم المالية ،

• ٤٩

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٨ ؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة : ٤٥/١٥ •

جميعاً^(١) • وبعد استيفاء قطيعة القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م أنفذ اليه الملك العادل سبعين ألف دينار في ليلة فعاد الرسول بكرة ذلك اليوم وطلب منه أموالاً لأنه لم يبق لديه ما يخرج به في الانفاق ، فانفذ اليه العادل في الحال ثلاثين ألف دينار أخرى فانفقها^(٢) •

وهذا الاسراف في الانفاق دفع نواب خزائنه لان يخفوا عنه شيئاً مما كان يرد اليهم من أموال « حذرا ان يفاجئهم مهم ، لعلمهم بانه متى علم به أخرجه »^(٣) • وكانت سياسة صلاح الدين في الانفاق ، مبنية على صرف الاموال للمستحقين بل وغير المستحقين أحيانا ، لانه لم يرد ان يندر على ذوي الامال موارد العطاء • كتب اليه أحد الولاة بدمشق سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م « ان الاموال ضائعة ، وان الاطماع فيها راتمة وقد أفنى الجود مجموع الموجود ، وأنا عند الاحتياج الى كف ملء وكفاية مهم لا نجد ما تنفقه ، وان في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها ••• وكانت مبلغ أحد عشر ألف دينار ومائتين ••• فقال [صلاح الدين لكتابه الاصفهاني] اكتب عليها جميعا بالامضاء ولا تذكر على ذوي الامال موارد العطاء ••• فبقيت تلك الرسوم داره والامال بها ساره ، بل تضاعفت عن السنين اضعافا واستضافت الاقفا^(٤) » •

وقد تجاوزت سياسة صلاح الدين هذه في انفاق الاموال ، وعدم اهتمامه بكنزها الى عدم محاسبة موظفي ديوان بيت المال • فقد كان يشرف

(١) انظر البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٢٣/١ ؛
LanePool, A history of Egypt, P. 193.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٤٢/٢ •

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٧ •

(٤) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣١١/١-٣١٢ •

على ديوانه كاتب يعرف بصفى الدين ، فسعي به اليه ، وقدّر ما كان قد أنلفه من الاموال سبعين ألف دينار فلم يطلبها منه ولا ذكره بها ، ثم لم يرض له العطلة فولاه ديوان الجيش^(١) ثم ان رجلا اتهمه باطلا بأنه استولى على مملوكه ، ولما علم انه فعل ذلك طمعا في كرمه ، اكرمه غاية الاكرام ومنحه اقطاعا^(٢) .

ولذلك لم تكن لصلاح الدين سياسة مالية منظمة ، ولم يكن يهتم بميزانية دولته أو يحاول التقريب بين ما يرد اليه وبين ما يصرفه . وكل همه كان منصرفا الى الجهاد والتخفيف عن الناس ، وكسب مودتهم ، الا انه مع ذلك كانت له دواوين خاصة تهتم بشؤون الصرف والانفاق على مرافق الدولة . وقد خصصت أغلب تلك المصروفات فيما يتفق وسياسة الدولة عن طريق صرفها على التحصينات العسكرية وبناء السفن ، والانفاق بسخاء على بناء الزوايا والمدارس والمساجد والحانات واليमारستانات ومنح المخصصات لليتامي والفقراء كما يتبين ذلك فيما بعد .

كان الديوان السلطاني يشرف على شراء الخيول السلطانية والصرف على الاصطبلات وشراء السلع والآلات التي يحتاجها السلطان ، والانفاق على مرتبات الخدم ومصروفات موائد الطعام^(٣) التي كان يقدمها صلاح الدين يوميا لضيوفه ، وكانت العادة ان يجتمع عند صلاح الدين الامراء والاجناد كل يوم بعد صلاة المغرب لتداول الامور ذات الجانب المهم ، وبعد الانتهاء منها يتفرق الجمع ، ليختلي صلاح الدين بكتّابه ان كانت لديه حاجة في مراسلة أحد ولاته^(٤) .

(١) ابن الابار ، اعتبار الكتاب ، ٢٣٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر النبطانية : ١٤-١٦ .

(٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ٣٥٤ .

(٤) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق

ومن أموال الديوان السلطاني كان صلاح الدين يمنح الاموال للشعراء والفقراء ومن يرد اليه طالبا كرمه^(١) . وأحيانا كان يدفع من أموال هذا الديوان للعسكر تشجيعا لهم عند قيامهم ببعض الاعمال العسكرية المجيدة وترغيبا لهم على مواصلة الفتوح والجدية في المعركة كما حدث عند هدم حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥هـ . اذ نادى صلاح الدين في العسكر « من اتانا بقرية من الماء اعطي دينارا » ليتسابق الجند بجلب المياه لاطفاء النيران التي اوقدها الصليبيون في الثقب الذي احدثه العسكر الايوبي في سور الحصن المنيع^(٢) . ومن هذا الديوان أيضا خرجت الهدايا التي كان يرسلها صلاح الدين للخليفة العباسي والحرم المكّي ونورالدين محمود بن زنكي^(٣) .

اما ديوان الجيش فكان يتولى الانفاق على الامور التي تتعلق بالقضايا العسكرية كالتجئة وتوزيع الرواتب على الجند والصرف على الاسلحة وبناء الحصون والقلاع^(٤) . الا ان منح صلاح الدين الاستقلال الذاتي لولائه في حكم الولايات والمدن ، جعل كل أمير يتصرف بواردات مقاطعته بحرية تامة للانفاق على عساكره وبناء الاستحكامات العسكرية التي تزيد في قوة البلد الدفاعية .

غير ان اهتمام صلاح الدين بأمور الجهاد ، دفعه للاهتمام كثيرا

الشامي : ٢٣٤/١ .

(١) انظر : ابن الاثير ، الكامل : ٩٧/١٢ : ابن ابي الاصبغ ،

تحرير التحرير ٦١٦-٦١٧ .

(٢) لامب ، شعلة الاسلام ، ٧٣ .

(٣) انظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة

(القاهرة : ١٩٦٩) ٧٢/١ .

(٤) انظر : ربيع ، النظم المالية : ٦٢-٦٣ .

بالجيش والصرف عليه ، لذلك نجده يخصص المبالغ الطائلة لديوان الجيش ، لانفاقها في بناء الحصون العسكرية ودفع رواتب الجند وما كان يتبعهم من قضاة وصوفية وعربان وسوقه الى غير ذلك • ففي سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م مثلاً بلغت مصروفات صلاح الدين على جيشه ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين الفا • هذا بالاضافة الى مليون دينار أخرى صرفت على العربان والقضاة والصوفية والفقهاء^(١) • وكانت مصروفاته اليومية تزيد أحياناً على أربعين ألف دينار^(٢) •

ومن الدواوين الأخرى التي كان لها حرية الصرف على مرافق الدولة في عهد صلاح الدين ، ديوان الاحباس ، الذي « اختص بشؤون الاوقاف الخاصة والعامة وهو ديوان فاطمي الاصل ابقاه الايوبيون فيما أبقوه من دواوين • ولما كان ذلك الديوان مختصاً في الواقع بأوقاف خيرية ودينية ، فان متولي ذلك الديوان كان يختار من بين العلماء المشهورين بالتقوى والفضائل والقدرة على الفتيا »^(٣) •

كان ناظر هذا الديوان يشرف على رواتب العلماء والفقهاء وأئمة المساجد أيضاً ، فضلاً عن المدرسين الذين يعملون في المدارس التي اوقفها أصحابها للتعليم ، وكذلك يشرف هذا الديوان على الانفاق على المدارس الصلاحية والمارستانات الثلاثة التي شيدها صلاح الدين بالقاهرة والفسطاط

(١) المقرئزي ، السلوك ، ق ١ ج ١ / ٧٥ •

(٢) يمكن ان نستنتج مقدار تلك المصروفات اليومية من رد صلاح الدين على كتاب الخليفة العباسي له سنة ٥٨٦ هـ عندما ارسل له توقيعا بعشرين ألف دينار يستلّفها من التجار مساعدة منه على حرب الصليبيين • غير ان صلاح الدين شق عليه ذلك وقال : « انا في يوم واحد أخرج مثل هذا والله عافه » مرآة الزمان : ق ١ ، ج ٨ / ٤١ •

(٣) ربيع ، النظم المالية : ٧٣ •

والاسكندرية^(١) .

خامسا - المدارس والتعليم :

كان صلاح الدين شديد الاهتمام بنشر العقيدة الاسلامية الصحيحة ، ومحاربة أهل البدع والزيغ^(٢) ، لذلك اهتم بانشاء المساجد ومراكز العبادة والعلم . ومن العوامل التي دفعته الى الاهتمام بالمدارس رغبته في محو آثار الثقافة الفاطمية التي اعتمدت التعليم اسلوبا لنشر دعوتها وتوطيد سلطانها في مصر والمناطق التي كانت تابعة لحكم الفاطميين . فعمد الى انشاء المدارس التي تدرس الفقه والدين على المذاهب السنية وبخاصة المذهب الشافعي ، الذي كان ينتمي اليه صلاح الدين ، بعد ان اغلق المدارس الشيعية^(٣) ، وعلى رأسها الجامع الازهر الذي كان أول مساجد القاهرة الذي بناه الوزير الفاطمي جوهر الصقلي سنة ٣٦١ هـ وأصبح موطناً لنشر الدعوة الشيعية هناك^(*) .

غير انه مما لا شك فيه ان تلك الدعوة أخذت بالاختفاء منذ ان اسقط

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) الجبرتي ، مظهر التقديس : ١٩ .

(٣) انظر : العريني ، مصر في عصر الايوبيين : ٢١٩ ؛ علام ، نعمت اسماعيل ، فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية (القاهرة ١٩٧٤) : ١٣٦ .

(*) اتخذ الفاطميون من المساجد ، التي كانت مراكز العلم آنئذ ، مجالات لنشر علوم الشريعة . ولما كان الازهر اول مسجد لهم ، لذلك اهتموا به واتخذوه جامعة عملية ويرجع الفضل في ذلك الى الوزير يعقوب بن كلس الذي عمل دراسات منظمة للفقه الاسماعيلي في الازهر ورتب خمسة وثلاثين رجلا من الفقهاء ، كانوا يتحلقون في المسجد بعد الصلاة من كل يوم جمعة . المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة ١٩٧٠) : ١٠٥-١٠٦ .

صلاح الدين الدولة الفاطمية ، ومن ثم ابطاله لاقامة خطبة الجمعة في الجامع الازهر ، بعد ان ولي القضاء في مصر صدر الدين بن عبد الملك بن درباس ، الشافعي المذهب الذي نقل الخطبة الى الجامع الحكمي لاتساعه^(١) . واستمرت الخطبة مقطوعة في هذا الجامع قرابة مائة عام حتى اعيدت سنة ٦٦٥هـ في عهد ركن الدين بيبرس^(٢) .

وقد انشأ صلاح الدين عدة مدارس في أنحاء مختلفة ، ومنها المدرسة التي عمرها بالقرافة الصغرى ، مجاورة لضريح الامام الشافعي^(٣) . وكانت هذه المدرسة عظيمة وقد زارها الرحالة ابن جبير ووصفها بقوله : « لم يعمّر بهذه البلاد مثلاً لا اوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد مستقل بذاته بازائها حمام والثففة عليها لاتحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ العالم المعروف نجم الدين الخوباشي وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالاً وتأثقا وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله »^(٤) . مما يدلنا على اهتمام صلاح الدين الكبير لهذه المدرسة محبة بأمامه الشافعي وتقديرا له .

خصص صلاح الدين لهذه المدرسة مبالغ طائلة من الاموال ، فكان راتب المدرس فيها أربعين دينارا وستين رطلا من الخبز في الشهر الواحد . هذا عدا رواتب المعيدين والخدام فيها^(٥) . وقد اوقف صلاح الدين لهذه

(١) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ١٥ .

(٢) ابن ظهير ، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة ١٩٦٩) ، ١٨٣-١٨٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل : ٤٤٠/١١ : المقريري ، السلوك :

٦٣/١ .

(٤) رحلة ابن جبير ، ٤٨ .

(٥) المقريري ، المواعظ والاعتبار : ٤٠٠/٢ .

المدرسة حماما بجوارها وفرنا أمامها وحوانيت خلفها وبمض الرباع وأراضي جزيرة الفيل خارج القاهرة^(١) .

وقد انشأ صلاح الدين مدرسة أخرى مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن علي (رض) ، وجعل أيضا دار عباس^(٢) الوزير الفاطمي مدرسة ، كما بنى مدرسة للشافعية ، وهي التي عرفت بمدرسة ابن زين التجار^(٣) ، أحد أعيان الشافعية الذي درس بها مدة طويلة ، وكانت تقع بجوار جامع عمرو بن العاص ، وعرفت أولا بالمدرسة الناصرية ، ومن أشهر مدرسيها بعد ابن زين التجار الشريف قاضي العسكر^(٤) ، وفي القدس انشأ صلاح الدين مدرسة للشافعية بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وقد فوض أمر التدريس فيها للقاضي بهاء الدين بن شداد^(٥) .

وهناك مدارس أخرى كثيرة أنشئت لتدريس المذاهب السنية الأخرى غير الشافعية ، كالمدرسة السيوفية التي أنشأها صلاح الدين بمصر سنة ٥٧٧هـ / ١١٧٦م وكانت أول مدرسة حنفية أنشئت بمصر ، وأصلها دار الوزير الفاطمي المأمون الشطائحي^(٦) ، وسميت بالسيوفية نسبة لسوق

(١) ربيع ، النظم المالية ، ٧٧ .

(٢) الوزير عباس : هو عباس بن يحيى بن باديس ، مغربي الجنسية يرجع أنه سني المذهب لأنه كان صديق القاضي الشافعي ابن السلار ، وما قيل عنه أنه كان كثير القدح بالخلفاء الفاطميين وقد وزر للخليفة الفاطمي الظافر بالله (٥٤٤-٥٤٩ هـ ١١٤٩-١١٥٤م) واستمرت وزارته سنة وشهرين انظر : المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ٣٠٣ و ٣١٢-٣١٣ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٥٦/٦ .

(٤) المقرئزي ، الخطط : ٢٤٣/٢ ؛ العريني ، مصر في عصر الأيوبيين ، ٢٢١ .

(٥) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ٧٢ .

(٦) المأمون البطائحي : عراقي الجنسية ، مسلم شيعي المذهب

السيوفية الذي كان عند بابها • وقد أوقف عليها صلاح الدين اثنين وثلاثين دكانا وقرر على تدريسها القاضي محمد بن محمد الجبتي^(١) • كما أنشأ صلاح الدين مدارس لتدريس العلوم الفقهية على المذهب المالكي أيضا ، فالمدرسة الصلاحية التي أنشأها بالقرب من اليمارستان النوري^(٢) • وقد نقل صلاح الدين طراز المدارس السلجوقية الذي كان منتشرا في سوريا الى مصر ، وكان ذلك التصميم ينحصر في المبنى المستطيل الذي يتوسطه فناء كبير مربع ، مع وجود ايوان كبير في كل جانب من جوانبه الاربعة ، كما وجد هذا في المدرسة الناصرية مثلا^(٣) •

وتيجة لاهتمام صلاح الدين بالمدارس والتعليم ، فقد حذا حذوه ولاته والمقربون اليه ، وتسابقوا في بناء المدارس وحبس الاوقاف عليها • فقد أنشأ الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب - ابن أخي صلاح الدين - المدرسة التقوية ، التي تسمى أيضا بنظامية الشام • وكانت هذه المدرسة من احدى المدارس الست المشهورة في دمشق ، ومن اشهر من درس فيها فخرالدين بن عساكر الذي انتهت اليه رئاسة الشافعية بالشام^(٤) • كما أسس القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي المدرسة الفاضلية بجوار داره بالقاهرة ، وبدا التدريس فيها في أول محرم من سنة ٥٨٠ هـ •

على طريقة الامامية وقيل كان اسماعيليا • وقد وزر للخليفة الفاطمي الامر (٤٩٥-٥٢٤ هـ / ١١٠٢-١١٣٠ م) من شوال سنة ٥١٥ هـ الى ٤ رمضان سنة ٥١٩ هـ اي كانت مدة وزارته اربع سنوات ، انظر : المناوي ، المصدر السابق ، ٢٠٣ و ٣١٢ •

- (١) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ٤٥ •
- (٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ؛ ق ١ ، ج ١/ ٢٥٣ •
- (٣) علام ، فنون الشرق الاوسط : ١٣٦-١٣٧ •
- (٤) بدوي ، الحياة العقلية ؛ ٦٣-٦٤ •

وكانت تدرس الفقه على المذهب المالكي والشافعي ، وجعل شرطا لمن يدرس فيها ان يكون عالما بالمذهبين^(١) .

اما الطلبة الغريباء ، وطالبوا العلوم العقلية والشرعية ، فقد احاطتهم عناية صلاح الدين الكبيرة ، فكانوا يفدون على المدن الرئيسة التي كانت تحت سلطنته ، وقد وصف الرحالة المعاصر ابن جبير تلك العناية الكبيرة التي كان يقدمها صلاح الدين لاولئك الطلبة وأوضح بأنه خصص لكل طالب غريب مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه العلم الذي يريد ان يتعلمه ، وراتبا شهريا يسد به جميع حاجاته في كل الاحوال ، كما أنشأ حمامات بقرب تلك المدارس ليستحم فيها الطلبة ، ونصب لهم مستشفى قريبا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم . بالاضافة الى انه عين في المستشفى خدما برواتب معينة لينظروا في مصالح المرضى وما يشيرون اليه ، كما رتب أيضا رجالا لهم خبرة بالطب كمساعدى أطباء يقومون بزيارة المرضى الذين لا يقدرون على الوصول الى المستشفى لينقلوا للأطباء أحوالهم حتى يقوموا بمعالجتهم . فاندفع ، نتيجة لهذه الخدمات الجليلة ، الكثير من طلبة العلم ، ومن مناطق مختلفة وخاصة من المغرب الاسلامي ، الى المدن الاسلامية وبالذات الاسكندرية والقاهرة ودمشق^(٢) .

كما شملت رعاية صلاح الدين العلمية أيضا الايتام والمساكين ، الذين اعتبر صلاح الدين نفسه أبا لهم ، لذلك أوجب على نفسه تقديم العون لهم واتاحة فرص العيش أمامهم ، فخصص لهم الاموال الطائلة والوقوف الكثيرة ، بعد ان رتب لكل جماعة منهم معلما خاصا يأخذ من تلك الاوقاف ما يسد نفقة اولئك الايتام من الصبيان وما يقوم بهم وبكسوتهم^(٣) .

(١) نفس المصدر السابق ؛ ٤٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ٤٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ٢٤٥ .

وتعدت اهتمامات صلاح الدين في بناء المدارس ، الى بناء العديد من المساجد والخوانق^(١) والخانات - الفنادق - لايواء المسافرين ، فمنذ ان اسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م • أمر بتحويل العديد من السجون الى المساجد^(٢) • وكان في دمشق خان يسمى بخان ابن الزنجاري ، كان مثارا للشبهات ، فلما بلغ صلاح الدين اخباره ، أمر بهدمه ، فهدم وبني مكانه جامعا أسماه « جامع التوبة »^(٣) • وعندما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م أمر بتجديد مسجدين فيها ، احدهما بسيوفه الباب الصغير والآخر بالباب الشرقي يعرف بمسجد النخلة^(٤) •

اما الخوانق ، فقد عني بها صلاح الدين محبة للصوفية وتقربا اليهم • فمنذ ان تولى الامر ، بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ ، حول دار سعيد السعداء - أحد خدام القصر الفاطمي - الى خانقاه للمتصوفة ، ووقف عليها بستان الجبانية التي بجوار بركة الفيل بالقاهرة • وكان اذا مات أحد المتصوفة وترك عشرين دينارا فما دونها ، تنفق على الفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني • وقد رتب لهؤلاء المتصوفة في كل يوم طعاما ولحما

(١) الخوانق : جمع خانقاه ، وهي الاماكن التي يعدها السلطان وذوي اليسار للمتصوفة ، وكانت تحوي على وسائل الراحة كاملة ليتفرغ المتصوف للعبادة فقط بعد ان يتخلص من رق العيش ، انظر : حمزة ، عبدالمطلب ، الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي والملوكي (القاهرة ١٩٦٨) ، ١٠٤ •

(٢) انظر : ابو شامة ، الروضتين : ١/ ١٩١ ؛ المقرئزي ، الخطط : ١/ ١٨٧ •

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور : ١/ ٧١ •

(٤) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق ١ ، ج ٢/ ٧٦ •

وخبزاً ، وبني لهم حماما بجوارهم • وكانت هذه أول خانقاه بنيت في مصر^(١) .

كما بنى صلاح الدين خانقاه أخرى بدمشق عرفت « بالخانقاه الناصرية » نسبة اليه ، وموقعها خلف قيسارية الصرف ، وكانت داره لما كان واليا بدمشق^(٢) . ونتيجة لاهتمام صلاح الدين ببناء الخانقاه ، فقد قامت اخته ست الشام ام الامير حسام الدين عمر بن لاجين المتوفى سنة ٥٨٧هـ ببناء « الخانقاه الحسامية » عند جبل كحيل شمالي المدرسة الشبلية^(٣) .

اما طرق المواصلات المهمة الخالية من العمارة ، فقد عمد صلاح الدين الى انشاء الخانات عليها ليديم حركة المرور فيها • فمثلا الطريق الواصل بين دمشق وحمص انشأ فيه عند قرية النبك ، خانا عرف « بخان السلطان » ، وكان هذا الخان - كما وصفه الرحالة ابن جبير - في نهاية الوثافة والحسن ، وله باب من حديد ، وفيه ماء جار يتسرب الى سقاية وسط الخان كأنه صهريج • وله منافس ينصب فيها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سرب الارض • كما بنى صلاح الدين أيضا الى جانب هذا الخان ثلاثة خانات أخرى على طول الطريق نفسه بين دمشق وحمص^(٤) .

ولم يهتم صلاح الدين بانشاء المساجد ودور العلم فحسب ، بل أثر التقرب من العلماء والفقهاء والصوفية ، واغدى عليهم كرمه واحسانه ،

(١) حمزة ، الحركة الفكرية ، ١٠٤ •

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة : ق ١ ، ج ٢/١٩٣ •

(٣) نفس المصدر السابق : ١٩١ •

(٤) رحلة ابن جبير : ٢٥٩ •

وكان اذا سمع بأحدهم زاره في داره ليقتبس من انواره • ففي ذي الحجة سنة ٥٧١هـ قدم الى دمشق الواعظ أبو الفتوح عبدالسلام يوسف التنوخي ، فحضر عند صلاح الدين وجالسه وكان مما أورد له أبياتا من الشعر كان يهواها صلاح الدين تدل على تشبعه بروح الصوفية وهي :-

يا مالكا مهجتي يا منتهى أملسي	يا حاضرا شاهدا في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقك	حتى اذا صرت تمثالا من الصور
اجريت في قلبي روحا منورة	تمر فيه كجري اناء في الشجر
جمعتني من صفا روح منورة	وهيكل صغته من معدن كدر
ان غبت فيك فيا فخري ويا شرفي	وان حضرت فيا سمعي ويا بصري
تبدو فتمحو رسومي ثم تشبها	زان تغيب غني عشت بالاثري ^(١)

ومما يدل على محبة صلاح الدين للصوفية ، انه كان اذا حضر « عنده الفقراء والصوفية يعمل لهم السماع فاذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير^(٢) » ، ثم ما أثر عنه انه كان متقشفا في ملبسه ومأكله لا يلبس الا الكتان والصوف ، ولم يعرف منه انه تخطى مكروها^(٣) . كما كان يوقف القرى بما تملك من موارد وأرباح خدمة للزوايا ودور الفقراء • ففي صفر من سنة ٥٧٢هـ مثلاً أوقف صلاح الدين قرية خزم على الزاوية الغزالية ، ومن يشتغل بها بالعلوم الشرعية بعد ان جعل النظر فيها للشيخ قطب الدين النيسابوري^(٤) .

ولم يهتم صلاح الدين بالصوفية فحسب ، بل بالعلماء والفقهاء أيضا ،

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٩٣/١٢ •

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ٩٧/١٢ •

(٣) العصامي ، سمط النجوم : ٨/٤ •

(٤) ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٩٥/١٢ •

مما دفعهم لزيارته وملازمته • ومن العلماء الذين قدموا الى دمشق محبة به وطمعا في احسانه أبو الحسن علي الهروي صاحب كتاب (الاشارات الى معرفة الزيارات) • وهو من مواليد الموصل تنقل في البلاد الاسلامية • ثم نزل بالاسكندرية سنة ٥٧٠ هـ ١١٧٤ م ، فارسله واليها أبو القسم بن حمود الى صلاح الدين بكتاب يطلب فيه منه اعداد حملة لغزو جزيرة صقلية • كما ورد الى صلاح الدين ايضا الرحالة عبداللطيف البغدادي ، الذي رافق صلاح الدين في فتوحاته الاخيرة ودخل القدس معه سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م فآثره صلاح الدين ورتب له ولاولاده مائة دينار في الشهر • ولا يخفى بان صلاح الدين قرّب اليه العماد الاصفهاني وابن شداد والفاضل الفاضل وغيرهم ممن كتبوا لديه او تولوا القضاء في عهده ، كما سيتبين ذلك في الصفحات التالية •

ورغم اهتمام صلاح الدين بالعلماء والفقهاء كثيرا ، غير انه لم يقبل منهم من يفسد على الناس عقائدهم بتعليمهم السحر والشعوذة وغيرها من العلوم التي لا يقبلها الاسلام • ومن ذلك انه امر ولده الملك الظاهر بحلب سنة ٥٨٧ هـ بقتل الشهاب السهروردي الفيلسوف الذي اتهمه خصمه بأنه كان يدرس علم الاوائل والسحر والمنطق والسيماء ويعلمها للناس بحلب^(٢) • وقد كان الملك الظاهر قد قرّب اليه السهروردي كثيرا ، فلما أمره والده بقتله ، حبسه حتى مات جوعا باختيار السهروردي نفسه^(٣) •

(١) زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، ١٦٣-١٦٤ و ١٨١-١٨٢ •

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ١١٤/٦ - ١١٥ ؛ بدري ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ٢٩١ •

(٣) الغساني ، المسجد المسبوك : ٤٩ ، ولمعرفة المزيد عن آراء السهروردي الاستشرافية وسبب قتله انظر : عبداللطيف حمزة ، الحركة

والواقع ان السهروردي لم يكن ممن يتعلمون السحر والشعوذة ويعمون بها للناس بل كان رجلا صادقا تعمق في فهم ظاهر الاسلام ، فوصل الى مواطن معانيه ، غير انه لم يستطع السيطرة على نفسه ، فأباح لعوام الناس ما نأبى ان يجول فيها ، وما توصل اليه من نتائج ، بعد ان كان قد افنى ذاته في حب الله • الا ان صلاح الدين لم يعلم بهذه الحقيقة وصدق الواشين عليه فامر بقتله كما جاء آنفا •

سادسا - ادارة المدن والقلاع :

انتقل التنظيم المالي في عهد صلاح الدين من نظام منح الرواتب والاعطيات النقدية للامراء وامشرفين على ادارة القلاع والحصون ، الذي كان متبعاً في العصر العباسي واليوهني ، الى نظام منح المدن والقلاع للامراء عن طريق منحهم الاستقلال الذاتي ، بعد ان يتعهدوا بالولاء والاخلاص للسلطان ، والحفاظ على ما تحت ايديهم وتقديم الامدادات العسكرية من رجال واعتدة عند الطلب ، وقد ذكر المقرئزي ان عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين ان تجبى أموال الخراج ثم تفرق في الامراء والاجناد بحسب مقاديرهم ورتبهم ، وقد اطلق على هذا النظام في صدر الاسلام اسم « العطاء » وما زال الامر على هذه الصورة حتى جاءت دولة السلاجقة^(١) ، فرأى نظام الملك « ان يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر اقطاعه ، لانه رأى في تسليم الاراضي الى المقطعين عمارتها ، لاعتناء مقطعيها بأمرها • بخلاف ما اذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد فان الخرق يتسع ويتدخل الخلل في البلاد »^(٢) •

الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول (القاهرة ١٩٦٨) :
١١٩-١١٥ •

(١) المقرئزي ، الخطط (القاهرة ١٣٢٤ هـ) : ١٥٣/١ •

(٢) نفس المصدر السابق : ١٥٤/١ •

وقد لاحظ الدكتو ابراهيم طرخان عدة أمور في موضوع النظم
الاقطاعية في العصر الايوبي وأوضح أولا بأن نظام الملك - الذي وزر
لألب ارسلان السلجوقي (٤٥٧ - ٤٦٤هـ) - لم يكن مبتكر لهذا النظام ،
انما سبقه في ذلك البويهيون الذين أساءوا التصرف في حكومتهم حتى
خربوا البلاد ، مما دفع بنظام الملك ان يختار هذا الاسلوب لاصلاح
البلاد . ثم ما كان من اتساع رقعة الدولة السلجوقية ثانيا ، حيث تطلب
ذلك نوعا من الاستقلال الذاتي تمنحه السلطة العليا للامراء . وثالثا ان
هذه الاقطاعات لم تكن تملكها ، انما كانت استغلالا وكان الجندي اذا ورث
أباه ، فانه لا يرث الا حق الاستغلال ، وهذا هو وجه الاختلاف عن الاقطاع
في الغرب . ورابعا ان هذا الاقطاع تضمن معنى الحكم والولاية . وقد
انتقل هذا النظام عن السلاجقة الى الدولة الزنكية ، فالدولة الايوبية ثم الى
دولة المماليك^(١) .

ومن بين الذين تولوا ادارة بعض المناطق في الدولة السلجوقية على
طريقة منحهم اقطاعات معينة ، قسيم الدولة آق سنقر أبو عماد الدين زنكي ،
الذي امتد اقطاعه من حلب الى الموصل^(٢) . وقد درج على ذلك ابنه
نور الدين محمود فاقطع أسد الدين شيركوه مدينة حمص وأعمالها ، واقطع
نجم الدين أيوب مدينة دمشق ، كما اشتمل اقطاع صلاح الدين على بعض
جهات حلب وكفر طاب . كل ذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يقدمها
اولئك الامراء للدولة النورية^(٣) .

(١) النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ،
٢٢-٢١ .

(٢) النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، ٢٩ .

(٣) ربيع ، النظم المالية ، ٢٦ .

وكانت عادة نورالدين - كما ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي - « انه اذا قطع أميراً اقطاعاً وعيّن بعبرته ضياعاً قرر عليه رجالاً ذوي عدد ، لا ينقصون في خيل وسلاح وعدد • فاذا نقص مغل الاقطاع عن المبلغ أتم له نقداً من خزائنه »^(١) • مما يدلنا على ان هذا النظام ابتكر لمصلحة السلطة العليا لا لمصلحة الامراء فقط •

من هنا جاء تطبيق صلاح الدين لهذا النظام الذي كان من الطبيعي ان يعمل به نظراً لانه شاهده وعاش فيه • ومنذ أن تولى الوزارة في مصر عمد الى استلام كافة الاقطاعات التي كانت بيد الضباط الفاطميين ، ووزعها على امرائه^(٢) كجزء من المخطط الشامل الذي اعتمده لتقوية مذهب السنة في مصر ، وتثبيت سياسة صلاح الدين في هذا النظام من موقفه من أخيه الملك العادل سنة ٥٧٩هـ عندما طلب منحه الاستقلال بمدينة حلب وان يمنحه كتاباً يتضمن الاعتراف باستقلاله التام بها ، غير ان صلاح الدين رفض طلبه وقال : « أظننت ان البلاد تباع ، أو ما علمت ان البلاد لاهلها المرابطين بها ، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لاموالهم »^(٣) •

اذن كانت غاية صلاح الدين من هذه السياسة ان يتكلف أحد الثقة من الامراء بادارة المدن والقلاع ، بعد ان يتعهد ذلك الأمير بتحمل مسؤولية ادارة تلك المدن ، وان يساند صلاح الدين بعساكره في أوقات الحروب • فكان اقتطاع صلاح الدين المناطق لولائه معناه استنابهم في ادارة ذلك البلد وتحملهم عوضاً عنه مؤنته • ففي سنة ٥٨٠هـ كتب صلاح الدين

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٢٢/١ •

(٢) انظر : النوادر السلطانية : ٤١ ؛

Elisseeff, Nur Ad-Din, 111, P. 728.

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٥٢/٢ •

من مدينة دمشق لزين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك منشورا
باربل وما حولها من البلاد والقلاع وذلك لدخوله في طاعته وانفصاله عن
عز الدين مسعود - اتابك الموصل - جاء فيه ما يدل على ان هدف صلاح الدين
من منح الاقطاعات للامراء انما كان لمصلحة المسلمين وخدمة لقضية الجهاد
في سبيل الله ، وان الامير الذي تكون خطته السياسية مفقة مع ذلك الهدف
يبقى في الامارة ، ومن اتبع هواه يعزل ومما جاء في نص المنشور ما يلي :

« ان الله لما مكن لنا في الارض ، ووفقنا في اعزاز الحق واطهاره
لاداء الفرض ، رأينا ان تقدم فرض الجهاد في سبيل الله فتوضح سبيله ،
وتقبل على اعلاء الدين وتنصر فيله ، وتدعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى
غزو أعدائه • ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استئزال
نصره من سمائه • فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضة واقتناء هذه الفضيلة
يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن اخلد
الى الارض واتبع هواه واعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنايه ،
فان تاب ورجع قبلناه ، وان أصر على غوايته ازلنا يده وعزلناه » (١) •

ورغم منح صلاح الدين الحرية التامة لولاته في التصرف في ادارة
مقاطعاتهم ، غير انه كان يكتبهم ويوضح لهم الطريق الذي يجب ان يسلكوه ،
وكيف يجب عليهم ان يعملوا ليكسبوا رضاء رعاياهم • وكان الوالي الظالم
لا مكانة له بين امراء صلاح الدين • ففي الثاني من رمضان سنة ٥٧٨هـ
بعد ان تسلم صلاح الدين مدينة سنجار عرج الى نصيبين ، وكانت بيد الامير
حسام الدين أبي الهيجا السمين ، فشكا أهالي البلد من معاملته ، فعزله
وأخذه معه دارا التي كانت بيد الامير صمصام الدين بهرام الارتقي (٢) •

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٦٣/٢ - ١٦٤ •

(٢) الروضتين : ١٢٤/٢ ؛ مفرج الكروب : ٢٢٤/٢ •

ومن الوصية التي كتبها صلاح الدين لابنه الملك الظاهر بدمشق سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م نستدل على ان صلاح الدين كان يقيس استقامة الوالي بمدى تمسكه بتقوى الله التي هي رأس كل خير ، ثم في عدم استخدامه للقوة وسفك الدماء ثانيا ، وبمداواة الامراء وأرباب الدولة ثالثا • وقد جاء في نص الوصية ما يلي :

« اوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وأمرك بما أمرك الله به فانه سبب نجاتك • واحذر من الدماء والدخول فيها ، والتقلد لها • فان الدم لا ينام ، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فانت اميني وأمين الله عليهم • واوصيك بحفظ قلوب الامراء وأرباب الدولة والاكابر ، فما بلغت ما بلغت الا بمداواة الناس ولا تحقد على أحد ، فان الموت لا يبقى على أحد ••• » (١) •

كما وجد صلاح الدين في الاموال أيضا طريقا آخر يجب ان يسلكه الولاة لكسب الناس • فقد كتب بالانشاء العمادي سنة ٥٧٤هـ الى أخيه شمس الدولة يحثه على البر والاحسان ويعدده بأنه لا يحاسبه فيما يعطيه للناس ، لان الانفاق عليهم يقربهم اليه ، بعد ان ضرب له مثلا الخليفة معاوية الذي أجاز عبدالله بن جعفر بعشرة آلاف درهم لينفقها على الناس ، الا انه لم يعد الى بيته الا بعد ان تحمل خمسة ملايين درهم دينا كسب بها بني هاشم وبني أمية وأهل الحرمين (٢) •

وقد وجد صلاح الدين في استخدام الوسائل السياسية طريقا آخر من الطرق التي يجب على ولاته ان يستخدموها للقضاء على الاشرار والعصاة

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب : ١٢٣/٣ •

(٢) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢٩٨/١ •

من الناس من الذين يملكون القوة والرجال ، حتى يتمكن الوالي من كسب تأييد الرعية ضدهم • ففي سنة ٥٧٤هـ كتب صلاح الدين بالانشاء الفاضلي لاحد ولاته ينصحه في الاحتراز من رجل كثير الشر فقال له : « واما فلان فانه بطل كثير الشر والحيلة والمال والرجلة ، فلا تحتقرنه ، وبعد ان ايقظته فلا تتم عنه • والحيلة في بعض الاوقات ترجع على القوة ، على ان الباغي مخذول ، ومن سل سيف بغى فهو عما قليل به مقتول وواجب ان يظهر العذر ويؤتى به على عين

فما حسن ان يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر » (١)

وقد وجد صلاح الدين في استقالة الولاة والمقطعين ، استقامة الرعية ولذلك كان يبحث الامراء على الاستقامة في كل أحوالهم ويدعوهم الى محاربة المنكرات وازالة أسبابها وتحصين كل مهتوكة من النساء الزانيات حتى يقضى على الزنا داخل البلاد ففي سنة ٥٧٤هـ كتب صلاح الدين ل اخيه الملك العادل بخصوص ازالة المنكرات التي علم بوجودها ببعض المناطق ، فاستدعى الملك العادل أحد الولاة وسلم اليه ما كتبه صلاح الدين من الانكار العنيف • ولما أشار المخاطب الى جهات تحمي بيوت المنكرات قال له : « لو استقام العود لما اعوج ظله ، ولو تنتهى أنت لانتهى غيرك ، ولكنك ملجئ على انكارها لانك شريك فيه » (٢) •

لذلك لم يعتمد صلاح الدين الا على الصالحين والصادقين في تمشية أمور الجهاد من الولاة ، وربما نقل بعض الولاة من مقطعاتهم تمشياً مع

(١) نفس المصدر السابق : ٣٠٢/١ - لم أعثر على اسم البطل الموما اليه اعلاه ، لان الاصفهاني لم يذكر اسمه واكتفى بقوله : « واما فلان » ، كما اني لم اجد في المصادر الاخرى ما يشير الى مثل هذه الرواية •

(٢) سنا البرق الشامي : ٣٠٢/١ •

تلك الخطة • ففي سنة ٥٧٩هـ لما كان صلاح الدين محاصرا لحسن الكرك جاء من مصر أخوه الملك العادل وطلب منه مدينة حلب ، فأقطعه إياها ، وعوض الملك المظفر عنها بمصر وأعمالها ، وذلك لان الملك العادل كان أكثر مقدرة من المظفر • وقد جاء بنص كتاب صلاح الدين « ••• وفوضنا اليه هذه البلاد ووليناها إياها تولية من قد عرف قيامه بحق الولاية وانتهائه في مصالح الاسلام الى الغاية ••• وتوفره على الجهاد في سبيل الله بحرا وبراء » (١) •

ومما تتصف به توقعات صلاح الدين للامراء عند منحهم المقطعات انها كانت تبدأ على الاغلب بذكر البسملة ، ويعقبها عبارات الحمد لله تعالى ثم الصلاة على رسوله محمد (ص) ثم موضوع التوقيع ومن أمثلة تلك التوقعات ما جاء في منشور صلاح الدين لجمال الدين حجي بن كرامة بن بختر وهو :

« الحمد لله وبه توفيقى »

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن مضمونه بعد الترجمة : (بأجراء الامير جمال الدولة حجي بن كرامة على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور لما وصل الى الخدمة السلطانية وتحققنا ما جرى عليه من جانب الكفار خذلهم الله ، وهو ملكه ورثه من أبيه وجده وهي :

سرحمور وعين كسور ورمطون والدوير وطرده وعين دارفيل وكفر عميه وذلك حسبنا منا عليه واحتسابا بمناصحته وخدمته ونهضه في العدو المناغر له) والتاريخ كتب بأرض بيروت في العشر الآخر من جمادى

(١) ابن شاهنشاه ، مضممار اللحقائق ١٥٦-١٥٧ •

الاولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة» (١) •

كان ديوان الجيش هو المسؤول عن توزيع المقطعات وتغييرها بالنسبة لاجناد السلطان واجناد الامراء • وكانت وظيفة هذا الديوان اثبات أسماء المقطعين من الامراء واقطاعاتهم على اختلاف درجاتهم وجميع أفراد الجيش دون استثناء • وكان من واجبه أيضا منح دخول اقطاعات الاجناد ، فكان الجندي اذا انتقل الى اقطاع جديد للمرة الاولى فانه يأخذ دخل اقطاعه من تاريخ تعيينه عليه لا من أول السنة الهلالية أو الخراجية ، وكان على هذا الديوان ان يحصى غيابات الجندي عن الخدمة دون اذن شرعي ، ويقوم بخضم الاموال التي تعادل غيابه (٢) •

ولم يخرج صلاح الدين في تعيين الامراء على العادة الجارية في عصره وجيله ، وهي ان يسند الى أبنائه وأقربائه الوظائف المهمة ، واخصها الولايات على البلدان وامارة قطعات الجيش •

فقد ولّى مثلاً أخاه توران شاه على اليمن بعد عام من دخوله مصر ، واستخلف أخاه طغتكين على دمشق بعد استخلاصها من أيدي الزنكيين ، وأعطى حماة لابن عمه تقي الدين بعد ثلاثة أعوام ، كما اقطع حمص لمحمد بن شيركوه (٣) • وفي سنة ٥٨٢هـ أحضر ابنه الافضل واقطعه مدينة دمشق كما اقطع ابن عمه مدينة حماة ومنبج والمعة وكفر طاب وميفارقين وجبل جور بجميع أعمالها (٤) •

(١) ابن يحيى ، تاريخ بيروت واخبار الامراء البحريين من بني المغرب نشر وتعليق لويس شيخو (بيروت ١٨٩٨) : ٧٥-٧٦ •

(٢) ربيع ، النظم المالية : ٣٨-٣٩ و ٦٢-٦٣ •

(٣) انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٠/٢ و ٢٣ و ٣٥ •

(٤) ابن ايوب ، المنتخبات ، ٢٨٧-٢٨٨ •

وفي أواخر أيام صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٩٣م أعد أولاده ليتولوا الحكم من بعده ، فتولى الأفضل ، وهو أكبرهم ، حكم دمشق بعد ان حلفت له العساكر جميعا ، وقد ملك بعد وفاة والده الى جانب دمشق الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهو نين وتنين وجميع الاعمال الى الداروم ، بينما ملك العزيز عثمان مصر ، اما حلب وجميع اعمالها مثل تل باشر واعزاز وغير ذلك فكانت من نصيب الظاهر غازي ، بينما تولى ابناء عمومتهم حكم حماة وحمص وبعلبك . اما الجزيرة وديار بكر فقد ظلت على حالها اقطاعا للعادل^(١) .

وكان من الطبيعي عند وفاة صلاح الدين ، ان يعمل كل حاكم على توسيع أملاكه لذلك فان الصراع بين حكام المدن والاقاليم كان طيعيا ، فلم تثن سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الخلاف بين اولاده وسائر أفراد أسرته^(٢) . فحاصر العزيز اخاه الأفضل في دمشق وتدخل العادل والظاهر صاحب حلب في وقف النزاع بين الاخوين . غير ان الحرب ثارت بينهما من جديد ، وبعد أن فشلت مساعي السلام ، تدخل الملك العادل واستخدم القوة لحل الازمة وتمكن من كسب جانب العزيز - وانتزاع دمشق من يد الأفضل . ثم تقدم الى منطقة الجزيرة وتمكن من توطيد حكمه فيها بعد ان حكم دمشق نيابة عن الأفضل^(٣) . وبذلك جمع العادل شمل دولة صلاح الدين الصغيرة وكان ذلك سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٨م بعد ان مدّ

(١) ابن الاثير : الكامل : ٩٧-٩٨ و ٩٩ : ابو شامة ،
الروضتين : ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) انظر : بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٦٠-٣٦١ ؛
جب ، صلاح الدين ٢٠٢-٢٠٣ : لامب ، شعلة الاسلام ، ٣٠٤ .

(٣) العريني ، الماليك : ٣٥ .

سلطانه على الكثير من شبه الجزيرة العربية وسوريا الجنوبية والقدس وشرق الاردن ونودي به سلطانا في مصر^(١) .

سابعا - «الجيش والتعبئة»

استمد صلاح الدين قوته ، وفاز بانتصاراته العظيمة ضد الصليبيين ، من الجيش الذي أعدّه ، والذي نما نموا كبيرا بعد توحيد الشام ومصر . ونظرا لكون الجيش هو الاداة الفعالة التي يستطيع بها تحقيق هداافه القاضية بتحرير القدس ، لذلك اولاه عناية كبيرة ، فأشأ له ديوانا خاصا عرف « بديوان الجيش » خصص له ميزانية كبيرة واعطاه الحرية التامة للصرف على الاجناد ومنحهم المخصصات ، فضلا عن توزيع الاقطاعات لهم ، بعد ان يكون المسؤول فيه قد احتفظ بسجل يحوى كافة اسماء الاجناد واقطاعاتهم ورواتبهم ودرجاتهم .

ولما كان صلاح الدين قد قدم بعساكر من الشام الى مصر ، ثم أسس دولته الايوبية فيها ، بعد اسقاط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ م ، لذلك فمن الطبيعي ان تكون نواة عسكره الاولى متكونة من بعض عساكر الدولة النورية ، وعدد من أجناد الدولة الفاطمية . ذلك انه من المستبعد ان يكون صلاح الدين قد حلّ كافة اجناد الدولة الفاطمية ، او يكون قد استغنى عنهم في المرحلة الاولى ، كما انه من الطبيعي جدا ان ينضم عدد لا بأس به من اجناد الدولة الفاطمية ممن تستهويهم المصلحة ، او ممن يدفعهم حب العمل في الجيش ، بالاضافة الى اولئك الناقمين على الفاطميين من السكان المصريين .

ففي سنة ٥٦٤هـ عندما خرجت الحملة النورية الثالثة الى مصر بقيادة

(١) لامب ، شعلة الاسلام : ٣٠٥ .

شيركوه - عم صلاح الدين - كان يرفقها ثمانية آلاف فارس ، كان نورالدين محمود بن زنكي قد اختار له منها الفبي فارس ، بعد ان كان قد جهزه بما يحتاج اليه واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة . اما بقية العساكر فكان شيركوه قد استأجرها بالمال^(١) . ويحتمل ان يكون الستة الاف فارس الذين استأجرهم شيركوه او بعضهم على أقل تقدير من الفرسان التركمان من قبيلة « ياروق » لان قائدهم كان عين الدولة الياروقي^(٢) . وكان الى جانب هذه الاعداد من الاجناد ، قوات شيركوه الخاصة البالغ عددها خمسمائة جندي طبقا لما اورده ابن ابي طيء عند حديثه عن تركات اسدالدين شيركوه بعد وفاته في مصر سنة ٥٦٤هـ حيث قال : « وخلف مالا كثيرا ٠٠٠ وجماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الاسدية »^(٣) .

وبتولي صلاح الدين للوزارة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ ، خلفا لعمه شيركوه ، انسحب جماعة من الاجناد النورية الى الشام ، يقول ابن ابي طيء : « ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ٠٠٠ حسده من كان معه بالديار المصرية من الامراء الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نورالدين ، ثم انهم فارقوه وصاروا الى الشام »^(٤) . بينما بقي الى جانبه جماعة الاسدية التي انشأها عمه شيركوه . غير ان صلاح الدين عوض عن ذلك النقص بالفرقة العسكرية الجديدة التي انشأها ، والتي كانت تدعى « بالصلاحية » نسبة اليه . وقد شرع باستبدال الامراء الفاطميين

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٣٣٦/١١ : ابو شامة ، الروضتين :

١٥٥/١ : ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٥٥/١٢ .

(٢) جب ، صلاح الدين : ١٥٤ .

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ١٧٢-١٧٣ .

(٤) نفس المصدر السابق : ١٧٣/١ .

المقطعين ممن بقي معه من العساكر فازداد حجم جيشه باستمرار خلال السنوات الخمس التالية عن طريق التجنيد في الفرق التابعة له وتحت لواء امرته^(١) .

وفي القاهرة يوم الثامن من محرم سنة ٥٦٧هـ / ١١ أيلول سنة ١١٧١م أقيم عرض عسكري للقوات العسكرية المصرية ، وصالح الدين لم ينزل وزيرا للخليفة الفاطمي ونائبا عن نورالدين ، وقد شهد ذلك العرض رسل البيزنطيين والصليبيين ، واستمر يوما وشطرا من الليل ، وكان عدد الجيش النظامي الذي شهد العرض مائة وسبعة وأربعين طلبا^(٢) ، والغائب عشرون طلبا ، وبلغ عدد الحاضرين اربعة عشر الف فارس وغالبهم من الطواشية^(٣) الذي يتقاضى الفارس منهم من ٧٠٠ الى ١٢٠٠ دينار كما له جندي يحمل سلاحه في الحرب بالاضافة الى ان ديوان الجيش كان يصرف له متاع فارس وعدته وما بحوزته من الخيل والجمال وغير ذلك . اما بقية اعداد الجيش فكانوا من القراغلامية^(٤) . يضاف اليهم العربان

(١) جب ، صلاح الدين : ١٥٥-١٥٦ .

(٢) الطلب : هو في لغة الغز الاتراك وحدة مؤلفة من الامير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس الى مائة فارس الى سبعين فارسا ، انظر : جب ، صلاح الدين ، ١٦١ ، وقيل اللفظ كردي . انظر ابن شداد ، النوادر ٢٤٠ هامش رقم (٣) .

(٣) الطواشية : هو الجندي من الفئة الاولى الذي هو اعلى مرتبة من الجنود النظاميين . العريني ، مصر في عصر لايوبيين : ١٥٤ هامش رقم (١) ؛ جب صلاح الدين : ١٦١ هامش (٣١) .

(٤) القراغلامية : وهم الجنود العاديون ، الاقل مرتبة من الطواشية ، العريني ، نفس المصدر والمكان لسابق ، هامش (٢) ، جب ، نفس المصدر والمكان السابق . وكان هؤلاء القراغلامية مكلفين بمراقبة الطرق اثناء سير الجيوش ، ويطلق عليهم اليوم اسم (فرق الاستطلاع) انظر :

الملحقون بالجيش^(١) .

وقد لعب هؤلاء العربان دورا مهما في الدفاع عن الاراضي الاسلامية ضد الصليبيين ، وكان لقبائل طي التي لمع اسمها في ايام الفاطميين فضلا كبير في ذلك وقد كافأهم صلاح الدين على مواقفهم الايجابية ، ونقل منهم جرما وتعلبة الى الحوف الشرقي واسكنهم مساحات واسعة من ارض جنام . ومن المحتمل ان المنطقة لم تتسع لجموعهم فاتجهوا الى صحارى مصر خاصة وانهم كانوا متعودين حياة الاطراف^(٢) .

ويرى المستشرق جب ان تلك الاعداد من الاجناد التابعة لصلاح الدين كانت كبيرة ، وكان لابد لها من اجهاد موارد مصر المالية ، ولذلك اتخذ صلاح الدين بعض الخطوات لتخفيف الاعباء والنفقات « اولا بواسطة ارسال فرقة كبيرة من الجند الى اليمن سنة ١١٧٤ م ٠٠٠ ثم في اقدمه على قطع اخبار جماعة من الاكراد سنة ١١٧٧ م بحجة مسؤوليتهم عن هزيمة السلطان وعسكره عند تل الرملة »^(٣) .

المقريزي ، السلوك ، ق ١ ، ج ١/٧٥ هامش رقم (٣) . بينما يعتقد لين بول ان القرغلامية هم فرق المشاة القديمة للدولة الفاطمية ، ذات السلاح الثقيل والمتحدرة من السودان . انظر : Saladia, P. 154 غير ان لين بول واهم فيما ذهب اليه لان الفرق المصرية الفاطمية كانت في سجلات منفصلة عن هذه اللفظة التي تسدل على الجنود ذوي الرتب الوضيعة ، او على الخيالة من غير المماليك ، انظر : جب ، المصدر السابق : ١٦٢ هامش رقم (٣٢) .

- (١) القاضي الفاضل نقلا عن : المقريزي ، السلوك : ٧٥/١ ؛ جب ، المصدر السابق ١٦٠-١٦١ ؛ ربيع ، النظم المالية : ٦٤ .
- (٢) المقريزي ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل ، تحقيق وتأليف عبدالمجيد عابدين (القاهرة ١٩٦١) ، ١١٧ .
- (٣) صلاح الدين : ١٦٢ .

حقيقة ان اعداد اجناد صلاح الدين كانت كثيرة ، غير ان واردات مصر كانت اكثر مما كان يصرف على تلك الاجناد . ولو لم يكن وارد مصر يفي بنفقات الاجناد ويفيض على ذلك لما تقدم صلاح الدين نحو الشام لتحقيق الوحدة ، ولما ارسل بعضا من قواته نحو اليمن ، وارى ان الاستاذ جب واهم باعتقاده ان صلاح الدين فتح اليمن تخلصا من مصروفات الجند ، لانه لم يفتح الا للشروع التي فان يقوم بها امير اليمن الشيعي المذهب الذي ادعى لنفسه الامامة ، وسفك الدماء وسبي المسلمين^(١) . ولا يخفى بان صلاح الدين اسقط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وكان من الطبيعي ان يتبع اتباعهم في كل مكان للقضاء عليهم ، وهذا هو الذي دفعه لفتح اليمن علما بانه فتحها وهو في غاية القوة ، ولو كانت وارداته لا تفي بمصروفات اجناده لكانت قوته ضعيفة ، لان المركز المالي يعكس ما عليه الدولة من قوة أو ضعف^(٢) ، ولتحول الاجناد الى الاعمال التي يكسبون منها معيشتهم ، وقد اوضح ابن شداد ما كانت عليه قوة دولة صلاح الدين عند تقدمه لفتح اليمن فقال « ولما كان سنة سبع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم »^(٣) .

كما اخطأ الاستاذ جب بحق صلاح الدين وناقض نفسه باعتقاده أن صلاح الدين قطع اخبار جماعة من الاكراد بحجة انهم كانوا السبب في الرملة لتخفيف مصروفات دولته . ذلك لان صلاح الدين كان صادقا في عمله ، وانه لم يتجن على اولئك الاكراد ، لانهم كانوا فعلا السبب في تلك

(١) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، تلخيص ابو شامة ، الروضتين : ٢١٦/١ .

(٢) انظر ما فات من تفسير لاهمية الواردات في الدولة صفحة رقم (٤٠٤) .

(٣) ابو شامة ، نفس المصدر والمكان السابق .

الهزيمة - كما ورد تبيان ذلك في الفصل الثالث - علماً بأن صلاح الدين لم يعرف عنه باعتراف المؤرخين جميعاً ، ومنهم من جاب ، انه كان يستخدم الطرق اللاتشرعية ، وخاصة قطع أرزاق الناس ، عندما تعوزه الاموال الكافية للاتفاق عليهم^(١) .

على اية حال فان اعداد الجيش الايوبي في مصر كانت في ازدياد ، اذ بعد عشر سنوات من العرض الذي شهده صلاح الدين في مصر والذي كانت عدته حوالي ١٤ر٠٠٠ فارس ، بلغت عدة العساكر في مصر في رجب من سنة ٥٧٧هـ/١٨١١م « ثمانية آلاف وستمائة وأربعين وامراء مائة احدى عشر وطواشية ستة الاف وتسعمائة وستة وسبعين الف وسبعين الفا وخمسمائة دينار »^(٢) . هذا بالاضافة الى الجند العاطلين الذين انحلت عنهم رواتبهم او اقطاعاتهم ، وعن العربان والقضاة والفقهاء والصوفية والدواوين ولا يقل ما كان يصرف عليهم عن مليون دينار^(٣) .

واضافة الى القوات العسكرية التي شكلها صلاح الدين في مصر ، فانه اضاف اليها قوات الشام والجزيرة وديار بكر وغيرها من المناطق التي دخلت تحت سلطانه ففي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م عندما دخل دمشق كان فيها ما يقرب من الف جندي^(٤) انضموا جميعاً الى السبعمئة جندي الذي جاء بهم صلاح الدين من مصر^(٥) . وبعد دخول حمص وحماة في الوحدة سنة

(١) انظر : الدواداري ، كنز الدرر : ١٠٤/٧ - ١٠٥ : جب ، صلاح الدين : ١٩٥ .

(٢) المقرئزي ، السلوك : ٧٥/١ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق ، انظر : الخطط : ٨٦/١ - ٨٧ : ربيع ، النظم المالية : ٦٥ - ٦٦ .

(٤) العماد الاصفهاني ، البرق الشامى : ٣ ورقة ١١٧ نقلا عن : جب ، صلاح الدين : ١٦٦ .

(٥) البنداري ، سينا البرق الشامى : ١٦٦ - ١٦٧ :

سنة ٥٧١-٥٧٢هـ/١١٧٦م انضمت قواتهما الى صلاح الدين وكان في حمص ما يقرب من خمسمائة جندي على وجه التقريب ، بينما كان في حماة ما يقرب من الف جندي^(١) . وفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م اضيف ايضا الى قواته حوالي الفا فارس حلبي بعد انضمام حلب اليه^(٢) .

اما قوات الموصل والجزيرة . فان ابن الاثير قدرها بحوالي ستة الاف وخمسمائة نقلا عن جريدة العرض وترتيب العسكر التي اطلعها عليها اخوه مجد الدين الذي كان كاتب ديوان الجند لدى النوريين في الموصل ، ورفض قول الاصفهاني الذي ادعى بان عدد اجناد الموصل وتوابعها كان عشرين الفا^(٣) . وقد اصبحت تلك القوات جميعا تحت تصرف صلاح الدين بعد سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م السنة التي تم فيها عقد الصلح مع الموصليين .

وكان كل امير يتصرف بحرية تامة بالاتفاق على جيشه وتعبئته ، الا انه كان عليه ان يدفع بذلك العسكر الى حيث تقدمت قوات صلاح الدين لحرب الصليبيين . وكان اساس كل اتفاق بين صلاح الدين والامراء المسلمين ان تنضم قواتهم العسكرية الى قواته عند اعلان الجهاد ضد الصليبيين وقد ورد في نص كل الاتفاقيات المعقودة بينه وبين الامراء المسلمين ، الوارد ذكرها في الفصل الثاني ، ما يدل على ذلك .

من هذه التجمعات اذن كانت تتكون جيوش صلاح الدين الكبيرة التي كان يعيها تصديا للغزاة الصليبيين ، وكانت تصل احيانا اربعة عشر الف جندي او اقل او اكثر . ففي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وصل عدد الجيوش

(١) جب ، صلاح الدين : ١٦٦-١٦٧ .

(٢) نفس المصدر السابق : ١٦٨ .

(٣) الكامل : ٤٢٩/١١ .

الذين اشتركوا في معركة حطين اثني عشر الف جندي^(١) .

واضافة الى هذه الاجناد النظامية ، فقد اعتمد صلاح الدين على قبائل التركمان والعرب والاكرد ، وكان كثيرا ما يستدعيهم عند الحاجة فيلبون النداء جبا في الجهاد او طعما في الغنيمة . ومن بين العشائر الكردية التي ساهمت في تكوين جيش صلاح الدين واشتركت معه في حروبه ضد الصليبيين ، القبائل الهذارية والمهرانية والسهلانية والسورانية والحميدية ثم الرزازية^(٢) . بينما ساهمت قبائل بنو منقذ ، اصحاب شيسيزر^(٣) ، وقبائل بنو طيء^(٤) ، وكانا على رأس القبائل العربية التي شاركت في الحروب ضد الصليبيين الى جانب صلاح الدين .

ويضيف الاستاذ جب الى ما سبق من العساكر التي كانت تؤلف جيوش صلاح جماعة الاجناد^(٥) الذين كانوا يقاتلون بالرمح والسيف . اضافة الى جماعة المشاة (الراجلون) الذين يؤلفون الحجارين والنقابيين

(١) انظر : الروضتين : ٧٦/٢ .

(٢) زكي ، محمد امين ، تاريخ الكرد وكردستان ، ترجمة محمد علي عوني (القاهرة ، ١٩٦١) : ١٤٥/١ .

(٣) جب ، صلاح الدين : ١٧٢ .

(٤) انظر : المقرئزي ، البيان والاعراب : ١٧ .

(٥) اجناد : تستخدم هذه اللفظة في المصادر على معاني ثلاثة : فهي تستخدم بصيغة الجمع للفظ جندي (اجناد) . وتطلق على الفرسان في القوات النظامية . وتستخدم في صيغة اسم الجمع للدلالة على القوات العسكرية كلها في منطقة ما . (جب ، صلاح الدين : ١٧٤) وهي الولايات او الاقاليم العسكرية المجاورة لبلاد العدو . فكانت بلاد الشام مثلا قد قسمت الى اربعة اجناد في دمشق وحمص والاردن وفلسطين . العمري وزملائه ، الجيش العربي في صدر الدولة العباسية (بغداد ١٩٦٣) ، ١٢٣ .

والخرسانية الذين يقاتلون في الدبابات^(١) ، كما يرد الى جانب هؤلاء ذكر « الجاندرية » الذين ربما كانوا من المولجين بعمليات الحصار^(٢) . وأرى أن الجماعات من العسكر لا يمثلون جماعات مستقلة في جيش صلاح الدين ، انما كانوا أصنافاً فيه ، لذلك فان وجودهم في الجيش الايوبي لا يزيد في عدده ، لانهم جزء منه .

التعبئة والتموين :

اعتبر صلاح الدين من القادة العسكريين الافذاذ الذين لهم القابلية والقدرة على قتال الاعداء قتالا مستمرا دون هواده ومن غير كلل . فقد خاض حروبا مستمرة على مختلف الجهات ما يقرب من ثلاثين سنة ، حتى انه كان اذا عقد صلحا او مهادنة مع الصليبيين يستمر في مناوشتهم خوفا من غدرهم ، ولم يعرف عنه انه خاض معركة او حاصر مدينة الا وحسب لها حسابها من النصر او الهزيمة ، وخطط لها التخطيط الكافي الذي اعطاه الثقة بالنصر والنفس معا ، وفي حصار القدس وفتحها مثلا دليل على ذلك .

وكان من خطط صلاح الدين انه يعتمد الى تقسيم جنده الى عدة اقسام ووجبات ليتولى احدهم بعد الاخر في حصار البلد كي لا يقف القتال لحظة يتقوى بها العدو ، وكى يكون له من عسكره جماعة مستريحة في كل وقت

(١) الدبابة : كانت في اول امرها عبارة عن برج مربع الشكل مصنوع من كتل خشبية صلبة مثبت على قاعدة خشبية تجلس على اربع عجلات وفي البرج طبقتان من الخشب ثم تطورت في عهد الدولة العباسية حتى صارت ضخمة ومرتفعة تسحب على سرت او ثمانى عجلات وتتسع لعشرة رجال . بداخلها سلالم مستعرضة تنتهي الى شرفات تقابل شرفات الحصون ليتسلق المقاتلون اليها بواسطتها ، العمري ، المصدر السابق : ١٢٠ .

(٢) جب ، المصدر السابق : ١٧٤-١٧٦ .

مستعدة لمواصلة القتال^(١) . وكان صلاح الدين في كل الاحوال قريبا من
العسكر او بين جنوده وسط المعارك ويده زمام القيادة والتعبئة وترتيب
المهمات وحض الأجناد وحثهم على القتال ، ليكون المقاتل اذا كان برأى
من صلاح الدين قد احتد وأشد^(٢) .

وكانت لدى صلاح الدين خطة للحرب كاملة ، من التخطيط الى
التطبيق ، فقد كان يستخدم التنظيم المتبع في التعبئة وهو نفس النظام الذي
استخدمه المسلمون من قبل . وكان يتألف من عسكر المقدمة ثم عسكر
القلب الذي يكون صلاح الدين وحرسه الشخصي فيه ، ثم عسكر اخر
يكون محله عن يمين صلاح الدين يسمى باليمين ، وعسكر اخر من ناحية
اليسار بالميسرة ، واخيرا العسكر الذي يكون من وراء العسكر كله يسمى
بالمؤخرة او الساقة . وكان الى جانب هؤلاء فرق الاستطلاع والكناء^(٣) .
واحيانا كان صلاح الدين يضع احد الاطراف الى جانب الاخر ليزيد في
قوته ، او يضعه مكان الاخر ، كان يضع الميسرة في القلب او اليمين في
الميسرة ليوهم عدوه حسب مقتضيات المعركة^(٤) .

اما ادامة العسكر (التموين) ، فكان الجندي يعتمد بالدرجة الاولى
على ما يحمله معه من مواد غذائية بسيطة ، اضافة الى ما كان يستولي عليه
من مؤن العدو المهزوم والمؤن المخزونة التي كان يعثر عليها داخل المدن
والحصون المفتوحة . ففي سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م عندما توجه صلاح الدين
لحرب الصليبيين ابان معركة الرملة نودي بالعسكر ان يتزود بمؤن تكفيه

(١) انظر : ابن شداد ، النوادر : ٩٢ .

(٢) البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢١٠-٢١١ ؛

Champdor, Saladin, P. 277.

(٣) انظر : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢٢٥ .

(٤) انظر : ابن شداد ، النوادر : ٥٣ و ٦٢ .

لمدة عشرة ايام اخر زيادة للاستظهار^(١) .

اما الحملات الكبيرة المنظمة التي كان يقودها صلاح الدين ، فكانت ترافقها قافلة كبيرة للتموين تحوى كل ما يحتاج اليه الجند ، على انه لم ترد تفصيلات كثيرة توضح كيفية توزيع تلك الارزاق والمؤن على الجيش . والظاهر انه كانت هناك جماعة خاصة تقوم بتوزيع تلك المؤن والارزاق على القادة وامراء الجيوش ليقوم كل قائد بتوزيع تلك المؤن على امراء جيشه ، ثم يقوم كل امير بدوره بتوزيعها على الجنود التابعين له .

هذا بالاضافة الى وجود اماكن خاصة ذات تملأ كل واحدة منها بمادة من المواد الحربية بعد ان يعين مواضعها ، ليقصدها الجندي عند الحاجة ، او عند نفاذ مؤنته . كما حدث هذا في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ حيث عين صلاح الدين سبعين موضعاً ملاًه بالانشاب ليقصدها من عسكره من خلت جماعه منها^(٢) .

وقد وصف الرحالة عبداللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩هـ) السوق الذي كان يرافق عسكر صلاح الدين المحاصر لمكا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ، ووصفه ، على ما فيه من مبالغة ، يدل على عظم حجم قوافل التموين التي كانت ترافق العسكر . فقد كان السوق ذا مساحة فسيحة فيه مائة واربعون دكان يطار . ودكاكين للطباخين يملك الواحد منهم ما يقرب من ثمانية وعشرين قدرا يسع الواحد منها رأس غنم واحد . وقد بلغت عدة الدكاكين سبعة الاف دكان ، كل واحدة منها مثل مائة دكان من دكاكين المدينة ، وكان منها دكاكين تباع البز العتيق والجديد ، وازافة الى ذلك فقد كان يرافق العسكر اصحاب الحمامات لينشئوا الحمامات البسيطة ليستحم الجند فيها ، ويتطهروا . وكان عدد الحمامات اكثر من الف

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٢٧٠/١ .

(٢) الروضتين : ٧٦/٢ .

حمام كان اكثر ما يتولاها المغاربة • فقد كان يجتمع منهم اثنان او ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ثم يأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا ، ثم يسترونه بالحطب والحصير ، ويقطعون حطبا من البساتين التي حولهم ويحمون الماء في قدور ، حيث تكون عندها الحمام جاهزة للاستعمال^(١) •

ولم يكن هذا العدد من الحمامات مبالغا فيه ، نظرا لبساطة وسهولة عمل الحمام وكثرة الحاجة اليه • ولهذا السبب نفسه انتشرت الحمامات الجماعية بشكل كبير قرب المساجد وفي الاماكن العامة في المدن الرئيسية كحلب ودمشق والقاهرة^(٢) •

ثامنا :- البحرية

كان البحر المتوسط بحرا اسلاميا في القرن العاشر الميلادي ، ولم يكن لاي من الدول الاوربية سلطان عليه ، وكان على تلك الدول اذا ما أرادت ان تمخر عباب ذلك البحر ان تخطب ود المسلمين المطلقة دولهم عليه^(٣) •

ولما أخذ البيزنطيون في مناورة المسلمين ، واستولوا على اقریطش (كريت) وهددوا بعض المدن الشامية بعد سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م عمد الخليفة الفاطمي المعز الدين الله الى الاهتمام بالاسطول البحري خاصة وانه اراد ان يتابع انتصاراته في شمال افريقيا ، باتصارات اخرى في الشام للقضاء على الاخطار التي كانت تهدد سلطانه في مصر^(٤) • فانشأ دارا لصناعة السفن في

(١) المقرئزي ، السلوك (القاهرة ، ١٩١٤) ، ق ١ ، ج ١ / ٩٤ •

(٢) لمعرفة المزيد عن الحمامات الجماعية المنتشرة في مدن الشام

والجزيرة انظر :

Elisseeff, Nur Ad-Din, 111, P.P. 850-851.

(٣) انظر : متز ، الحضارة الاسلامية : ٤٣١-٤٣٢ •

(٤) ماهر ، سعاد ، البحرية في مصر الاسلامية (القاهرة ، د:ت):

مصر والاسكندرية ودمياط ، كما انشأ دارا اخرى بالمقس^(١) بنى فيها ستمائة مركب وصفت بحسن الوثاقه وكبر الحجم^(٢) .

وقد سار على سياسة المعز لدين الله الخلفاء الفاطميون من بعده ، فعمدوا الى انشاء أنواع مختلفة من السفن الحربية ، وسيروها الى بلاد ساحل الشام مثل صور وعكا وعسقلان . وقد ورد في المصادر التاريخية ما يدل على أن الاسطول المصرى بلغ حدا كبيرا من التقدم والنظام . فقد حبست عليه إقطاعات كبيرة ، ودلت سجلات الاسطول على ان قادة الاسطول كانوا عشرة ، يعين احدهم رئيسا للاسطول ، ويساعده المقدم والقاوش والباقون ملاحون . وكانت عدة الاسطول ايام المعز تزيد على ستمائة قطة واخر ما صارت اليه في آخر الدولة الفاطمية نحو الثمانين شونة ، وعشر مسطحات وعشر حمالات^(٣) .

أصبحت هذه القوة البحرية تابعة لصلاح الدين ، بعد توليه الامر في مصر اثر اسقاطه الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٦٩م . وقد خصها

٩٦ : العريني في عصر الايوبيين : ١٦٥ : حسن ، النظم الاسلامية : ٢٢١ .

(١) ترى الدكتورة سعاد ماهر ان الروم حاولوا الاستيلاء على بيت المقدس ففشلوا وكانت تلك المحاولة هي الدافع القوي للخليفة المعز والسبب المباشر لأن ينشئ دارا لصناعة السفن بالمقس ، بالاضافة الى دارين آخرين في كل من الروضة والفسطاط . (البحرية في مصر : ٩٧) .

(٢) حسن ، النظم الاسلامية : ٢٢١ .

(٣) انظر : المقرئ ، الخطط (طبعة بولاق) : ١٩٣/٢ : ماهر ، للبحرية في مصر : ٩٧ .

صلاح الدين بكامل عنايته وافرد لها ديوانا خاصا اسماء « ديوان الاسطول » .
وكانت الملاحة في عهده قد شملت بحرين منفصلين وهما : بحر القلزم
(الاحمر) والبحر المتوسط وذلك لان برزخ السويس كان حائلا دون
اتصال هذين البحرين . واذا ما أريد نقل بعض قطعات السفن البحرية
الايوبية من البحر الابيض الى البحر الاحمر ، فانه كان يجب حملها على
ظهور الجمال عبر الصحراء الى البحر الاحمر^(١) .

وقد ادرك صلاح الدين أهمية الاسطول البحري ، وما يسديه من
فوائد عظيمة في الدفاع عن المناطق الساحلية ضد العدوان الصليبي ، وخاصة
بعد ان هوجمت مدينة الاسكندرية وحوصرت من طريق البحر^(٢) . كما
ان تحقيق الاهداف التي كان يصبو اليها في تحرير القدس وطرده الصليبيين
من الشام تتطلب وجود بحرية قوية ومنظمة للقضاء على البحرية الصليبية
التي كانت متمركزة في سواحل بعض مدن الشام كصور وعسقلان وعكا .
لذلك كله اتجه صلاح الدين في سياسته الى تقوية وتحصين الثغور البحرية
المصرية ، الموجودة في دمياط والاسكندرية وتيس ورشيد وعيناب^(٣)

(١) حدث هذا الامر سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م عنوما نقل البرنس
ارناط بعض مراكبه الى البحر الاحمر ، وعندما تتبع الملك العادل تلك
المراكب والقي القبض عليها عندما حاولت ضرب اراضي الحجاز (انظر
صفحة ٤٦٦ من الرسالة) .

(٢) انظر حصار الصليبيين لمدينة الاسكندرية : الفصل الثالث
صفحة ٢٥٢-٢٥٦ .

(٣) كان ثغر الاسكندرية - من بين الثغور البحرية الموجودة في
مصر - اعظمهما قدرا وافخمها امرا واكثرها واردا فقد كان له زكاة الجوالي
ودار الضرب كما اضيفت اليه واردات الضرائب الكمركية . وللإطلاع على
تقييم هذه الثغور ووارداتها انظر : ابن مماتي ، قوانين الدواوين :
٣٢٧-٣٢٥ .

وشحنها بالسفن والمقاتلين ، بالإضافة الى تولية أمورها الى أصحاب الكفاءات من الامراء المقربين • ليأمن جانبهم ، وليكون على ثقة من ان أمير البحر يعمل بصدق على تقدم الاسطول ، وانه يقف الى جانبه عند الازمات •

لذلك كله نصب أخاه الملك العادل ابا بكر محمد ابن أيوب على راس ديوان الاسطول^(١) ، وخصص له خراج الفيوم بأعمالها ، وخراج مناطق أخرى مهمة في البرين الشرقي والغربي وغيرها من الاقطاعات ، حتى بلغت الاموال التي كانت تجبي لديوان الاسطول من زكاة مصر خمسين ألف دينار ونيفا في السنة الواحدة^(٢) • كما خصص صلاح الدين لديوان الاسطول مراكب خاصة لجمع الاموال والاخشاب للاسطول عرفت باسم (المراكب الملوحة)^(٣) • والارجح ان هذه السفن كانت تجمع الاخشاب وغيرها من المواد المستعملة في بناء المراكب ، لدور صناعة السفن التي كانت منتشرة في بعض الثغور البحرية ، كثغر الاسكندرية ودمياط • وربما استخدمت هذه المراكب لنقل ما تحتاج اليه السفن المعطوبة في المياه ، من أخشاب ومواد أخرى مع الصناع من دور صناعة السفن •

وتيجة لاهتمام صلاح الدين بأمر الاسطول ، فقد عظمت قوته البحرية ، وازداد عدد قطعاته حتى بلغت سنة ٥٧٥هـ / ١٨٧٩م مثلاً ثمانون سفينة بين صغيرة وكبيرة^(٤) ، عدا القطع التي كانت تابعة للدولة الفاطمية ، دُوِّنَ بها البلاد الرومية ومراكز تجمعات الصليبيين المنتشرة في حوض البحر الابيض • منها توافق انتصاره البري على تجمعات الصليبيين في معركة مرج العيون ، انتصاره البحري على بعض السفن الصليبية الكبيرة ، فدمرها

-
- (١) المقرئزي ، السلوك : ١٠٨/١
 - (٢) ماهر ، البحرية في مصر : ٣٠٤
 - (٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين : ٣٤٨
 - (٤) ابو شامة ، الروضتين : ١١/٢

وقاد اثنين منها الى ثغر الاسكندرية صحبة ألف أسير^(١) . وفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨١م انتصر الاسطول البحري أيضا على بعض مراكب صليبية كانت قد خرجت من القسطنطينية اثر فتنة وقعت بين الصليبيين والروم ، وتمكن من السيطرة على سفينة كبيرة واغتنام ما كان بها من ذخائر مع أسر أربعمائة صليبي^(٢) .

ونتيجة لاهتمام صلاح الدين بتحرير القدس . فقد فكّر في الاستيلاء على ميناء بيروت ليكون قاعدة بحرية للاسطول المصري في شرق البحر المتوسط ، يمكن من خلاله ان يتزود بما يحتاج اليه من مؤن بدلا من العودة الى مصر ، اختصاراً للوقت وتعصيда لقواه في الشام . علما بأن الاتفاق على الاسطول في بيروت يساهم في تقوية واردات ديوان الاسطول في مصر ، ويعمل على تخفيض مصروفاته . لذلك أمر صلاح الدين أخاه الملك العادل سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م باعداد حملة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة حربية لمباغنة مدينة بيروت من جهة البحر ، بينما يكون هو بقواته البرية قد حاصرها من جهة البر . وكان صلاح الدين عازما على ملازمة حصار المدينة حتى يفتحها ، غير ان نزول سفينة صليبية ، فيها جمع عظيم منهم على دمياط ، كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس ، وأسر المسلمين لالف وستمائة وسبعين أسيرا منهم . ووصول رسالة من صاحب حرّان يطلب فيها سرعة قدومهم الى الفرات ، دفعت بصلاح الدين الى ترك حصار بيروت^(٣) .

(١) نفس المصدر السابق ، ٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ٧٧/٢ .

(٢) الروضتين : ٣٢/٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل : ٤٨٢/١١ ؛ ماهر ، البحرية في مصر :

١٠٥ ، العربي ، مصر في عصر الايوبيين : ١٧٧ .

ومن المواقف الحازمة التي قام بها الاسطول البحري في عهد صلاح الدين تصديه للهجمات الصليبية التي كرسها البرنس ارنات (ريجنالد شايون) - أمير حصن الكرك والشوبك - للاستيلاء على أراضي الحجاز والسيطرة على طريق التجارة البحري في البحر الاحمر . ففي شوال من سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م نقل البرنس ارنات أخشاب سفنه على ظهر الجبال الى بحر ايلة ، ثم جمعها وركبها في اسرع وقت وشحنها بالمقاتلة وسيرها في البحر الاحمر ، فصار قسم منها نحو عيذاب لقطع طريق التجارة ثم التوجه الى أرض الحجاز لمضايقة المدينة المنورة . فلما وصل الخبر الى الملك العادل بمصر ، أمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ - متولي الاسطول بمصر - بتجهيز اسطوله وتتبع مراكب الصليبيين . وقد تمكن لؤلؤ هذا من الانتصار على السفن الصليبية وتدميرها وأخذ الصليبيين اسرى الى مصر (١) .

وكان السبب في خسارة الصليبيين وفشل خطتهم في الاستيلاء على البحر الاحمر والاراضي المقدسة ، عدم معرفتهم ان بعض قطع الاسطول الايوبي كانت مرابطة في قواعد الشتوية (٢) . ثم ان بعض المراكب كانت قد خصصت للحفاظ على سلامة سواحل مصر من هجوم الصليبيين عليها

(١) لمعرفة تفصيل عملية هجوم ارنات على الحجاز ونزوله البحر الاحمر انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١١ / ٤٩٠-٤٩١ ؛ رحلة ابن جبير : ٥٨-٦٠ ؛ ابو شامة الروضتين : ٣٥/٢-٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكرب : ١٢٧/٢-١٣١ .

(٢) كانت حركة الاسطول البحري في فصل الشتاء في حالة ركود تقريبا ، فقد كانت غزواته لا تزيد على عشرين ليلة ، ويكون ذلك في آخر شباط ، فيقيم رجال البحرية الى اوائل آذار ثم يرجعون ليربعوا دوابهم ، (ماهر ، البحرية في مصر : ٣٠٥) .

أثناء غياب العساكر • لذلك ما ان علم أمير الاسطول البحري بالهجوم الصليبي ، حتى بادر بالتصدي لها • وبذلك لم يحقق الصليبيون من غزوتهم أية نتيجة في البحر الاحمر^(١) • بل بالعكس وجهوا غناية الاسطول الايوبي للحفاظ على سواحل الحجاز من مغبة هجوم صليبي آخر •

وفي السنوات التالية من ٥٨٠هـ/١١٨٤م الى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م لم يشترك الاسطول البحري بعمليات ناجحة ضد الصليبيين لان صلاح الدين تفرغ لمقاومة أعدائه على البر بعيدا عن الساحل • غير انه من الطبيعي ان السفن التجارية كانت تقوم برحلاتها الاعتيادية بين الشرق والغرب ، وان طريق المواصلات البحري بين الشام ومصر كان مفتوحا ، وان المراكب الحربية كانت تراقب عن كثب تحركات السفن الحربية الصليبية •

وبعد معركة حطين سنة ٥٨٢هـ/١١٨٧م نهضت البحرية من جديد ، لتغير الخطط الحربية بالنسبة لصلاح الدين ، وتقدمه نحو ساحل الشام لاجراج الصليبيين منه ، لذلك كان الاسطول اليد العاملة الثانية الى جانب القوة العسكرية البرية في تنفيذ تلك المهام • ولما فتحت بعض المدن الساحلية ، كعكا مثلا ، اتخذت قواعد بحرية للسفن المصرية ، في مساندة صلاح الدين لاكمال فتح المدن الاخرى المطلة على ساحل البحر •

وقد ذكر العماد الاصفهاني ان عكا كانت القاعدة البحرية للسفن المصرية التي ساندت صلاح الدين في حصار مدينة صور بعد فتح القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م • ففي أثناء مسير صلاح الدين لحصار صور برأ ، استدعى الاسطول المصري الذي كان راسيا بعكا ، فجاء منه عشر شواني ، تمكن بها صلاح الدين من حصار البلد برا وبحرا^(٢) •

(١) انظر : العريني ، مصري في عصر الايوبيين : ١٧٩ •

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٤٣/٢ •

غير ان الغرور الذي أصاب البحارة المسلمين ، الذين كانوا في الشواني السابقة ، وعدم تنفيذهم وصية رئيسهم (عبدالمحسن)^(١) في اخذ الحذر واليقظة من اسطول الصليبيين ، الذي كان قد فرّ أمام الاسطول الاسلامي قرب ساحل صور ، أدى بهم الى التهاون ، بعد ان كانوا قد سهروا ثم غلبهم النوم ، فهجم عليهم الاسطول الصليبي عند السحر ، وتمكن من الظفر بخمسة من المراكب الاسلامية مع اسر مقدميها ورئيسها^(٢) .

وعلى الرغم من القوة والقدرة التي كان يملكها الاسطول البحري في عهد صلاح الدين ، الا انه لم يتمكن من الوقوف بحزم أمام القطعات البحرية الكبيرة والقوية التي وصلت البحر المتوسط برفقة الحملة الصليبية الثالثة ، لذلك لم أجد في المصادر التاريخية ما يدل على نشاط عسكري بحري كبير لصلاح الدين بعد سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م الا قليلا ، منها انه تمكن من الاتصال بعكا عن طريق البحر أثناء محاصرة الصليبيين لها في ١٥ ذي القعدة ٥٨٦هـ / ٢٥ ايلول ١١٩٠م وتمكنه من الاستيلاء على سفينتين من سفن الاعداء^(٣) .

اما معدات السفن الحربية ، فقد كانت جزءاً من معدات العصور الوسطى التي تمثلت بالزرد والخوذ والتراس والرماح والكلاليب ، والسلاسل التي في رؤسها رمانة حديد « الباسليقات » وغيرها . وكان في

(١) ذكر ابن شداد ان رئيس البحارة كان رجلاً يقال له (عبدالمحسن) النوادر : ٨٤ . بينما ذكر العماد الاصفهاني ان الرئيس كان (عبدالسلام المغربي) وان متوليّه كان (بدران الفارسي) مفرج الكروب : ٢ / ٢٤٤-٢٤٥ .

(٢) النوادر السلطانية : ٨٤ ؛ مفرج الكروب : ٢ / ٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) النوادر السلطانية : ١٢٢ ؛ مفرج الكروب : ٢ / ٣٠٥ .

السفينة صناديق توضع في أعلى السوارى مفتوحة من أعلاها يسمونها « التوايت » يصعد اليها الرجال قبل الاقتراب عن سفن الاعداء ، ومعهم أحجار صغيرة ، أو قوارير النفط أو غيرها من المواد الحارقة أو الخارقة لرمي الاعداء بها . كذلك كان في السفينة اللحم ، وهي أداة كالفأس توضع في مقدم السفينة وتتكون من حديدة طويلة كسنان الرمح ، تستخدم لطعن الاعداء وثقبها واذا دنا المسلمون من مراكب العدو القوا عليها الكلاب لسحبها وشدها ثم يرمون عليها ألواح كالجسور ويمبرون اليها ويقاتلون أصحابها^(١) .

مما سبق يتبين انه اجتمع لصالح الدين اسطول بحري ثابت وقوي لا ينقصه شيء من أسلحة القتال ثقيلة وخفيفة ، ولا ينقص قواده المعرفة بأحوال البحر ، وتسيير السفن ، وقيادة المعارك ، والحنكة والدهاء . وان صلاح الدين كان شديد الاعتناء بالاسطول ، كثير انفاق الاموال عليه . وانه اعتمد عليه في ردّ نائبات الزمان وحصار المدن الساحلية وقلاعها . فقد حاصر به عكا وفتحها ، كما استفاد منه في محاصرة الصليبيين الذين حاصروا عكا ، وفي حصار مدينة صور . وكانت له قواعد بحرية في مصر وبيروت ، يستدعي منها السفن الحربية عند الحاجة .

(١) ماهر ، البحرية في مصر : ٢٠٣-٢٠٤ : انظر : الصالح ،
النظم الاسلامية (بيروت : ١٩٦٥) : ٥١٣ .

قائمة المصادر حسب تاريخ الوفاة

- ١ - القرآن الكريم •
الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف - ت : ٣٨٧هـ (١) •
- ٢ - مفاتيح العلوم ، تصحيح ونشر ادارة الطباعة المنيرية ، (القاهرة : ١٣٤٢هـ) •
ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي النصاروي - من أعيان القرن الرابع الهجري •
- ٣ - صورة الارض (ليدن : ١٩٣٨م) •
مسكويه ، علي أحمد بن محمد - ت : ٤٢١هـ •
- ٤ - تجارب الامم وتعاقب الهمم (القاهرة : ١٢٣٤م) •
الكرمانى ، أحمد حميد الدين (من مؤرخي ق ٥هـ) •
- ٥ - راحة العقل ، تحقيق مصطفى غالب (بيروت ١٩٦٧م) •
الغزالي ، أبو حامد - ت : ٥٠٥هـ •
- ٦ - فضائح الباطنية (القاهرة ، د : ت) •
الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم - ت : ٥٤٨هـ •
- ٧ - الملل والنحل (القاهرة : ١٣٢٠هـ) •
ابن القلاسي ، أبو يعلى حمزة - ت : ٥٥٥هـ •
- ٨ - ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدرؤز (القاهرة : ١٩٠٨) •
عمارة اليمني ، نجم الدين أبو محمد - ت : ٥٦٩هـ •

(١) وقيل متوفى سنة ٣٨٠هـ انظر : (رضا كحالة ، معجم المؤلفين دمشق : ١٩٦٠) : ٢٩/٩ ، وقيل متوفى سنة ٣٨٣هـ انظر : السامر ، الدولة الحمدانية : ٣٨٤/١ •

- ٩ - كتاب النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، تصحيح هرتويغ
 درنبرغ (شالون : ١٨٩٧) •
 بنيامين ، الربيعي بن يونه التطيلي - ت ٥٦٩ هـ •
- ١٠ - رحلة بنيامين ، ترجمه عن العبرية عزرا حداد (بغداد : ١٩٤٥) •
 ابن الدهان الموصلية ، عبدالله بن أسعد - ت : ٥٨١ هـ •
- ١١ - ديوان ابن الدهان ، تحقيق عبدالله الجبوري (بغداد : ١٩٦٨) •
 ابن منقذ ، اسامة بن مرشد الشيزري - ت : ٥٨٤ هـ •
- ١٢ - كتاب الاعتبار ، حرره فيليب حتي (برنستون : ١٩٣٠) •
 برهان الدين ، أبو الحسن عبد الجليل - ت : ٥٩٣ هـ •
- ١٣ - الهداية (القاهرة ، د : ت) •
 الاصفهاني ، عماد الدين ابن عبدالله محمد بن محمد - ت : ٥٩٧ هـ
- ١٤ - أ - خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الاول ، ج ٣ الخاص
 بالبلاد الشامية والفراتية ، تحقيق د. شكري فيصل
 (دمشق : ١٩٦٨) •
- ١٥ - ب - خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الثالث ، الجزء
 الثالث الخاص بشعراء الشام ، تحقيق د. شكري فيصل
 (دمشق : ١٩٥٥) •
- ١٦ - ج - كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي (ليدن : ١٨٨٧) •
 ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد - ت :
 ٥٩٧ هـ •
- ١٧ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدرآباد الدكن : ١٣٥٨ هـ) •
 ابن الساعاتي ، بهاء الدين أبو الحسن الخراساني - ت : ٦٠٤ هـ •

- ١٨ - ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق د. انيس المقدسي (بيروت : ١٩٣٨) .
- ابن مماني ، الاسعد شرف الدين - ت : ٦٠٦ هـ .
- ١٩ - كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية (القاهرة : ١٩٤٣) .
- ابن سناء الملك ، القاضي السعيد عز الدين أبي القلم - ت : ٦٠٨ هـ .
- ٢٠ - ديوان ابن سناء الملك ، تصحيح وتعليق د. محمد عبدالحق (الهند : ١٩٥٨) .
- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني - ت : ٦١٤ هـ .
- ٢١ - رحلة ابن جبير (لندن : ١٩٠٧ و بيروت : ١٩٦٤) .
- ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي - ت : ٦١٧ هـ .
- ٢٢ - مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د. حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) .
- ابن الاثير ، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني - ت : ٦٣٠ هـ .
- ٢٣ - الكامل في التاريخ ، م ١١ - ١٢ (بيروت : ١٩٦٦) .
- ٢٤ - — ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبدالقادر أحمد طليعات (القاهرة : ١٩٦٣) .
- ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع - ت : ٦٣٢ هـ .

- ٢٥ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق
د. جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) *
- البنداري ، قوام الدين أبو الفتح علي بن محمد - ت : ٦٤٣ هـ *
- ٢٦ - أ - تاريخ دولة آل سلجوق وهو مختصر لكتاب « تواريخ آل
سلجوق » للعماد الاصفهاني (القاهرة : ١٣١٨ هـ) *
- ٢٧ - ب - سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب « البرق الشامي »
للعقاد الاصفهاني تحقيق د. رمضان ششن (بيروت :
١٩٧١) *
- سبط ابن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر يوسف - ت :
٦٥٤ هـ *
- ٢٨ - مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ق ١ ، ج ٨ (حيدرآباد الدكن :
١٩٥١) *
- ابن أبي الاصبغ ، أبو محمد زكي الدين ابن محمد المصري -
ت : ٦٥٤ هـ *
- ٢٩ - تحرير التحرير ، تحقيق د. حفني محمد شرف (القاهرة :
١٣٨٣ هـ) *
- ابن الابار ، محمد بن عبدالله أبي بكر القضاعي - ت : ٦٥٨ هـ *
- ٣٠ - اعتبار الكتاب ، تحقيق صالح الاشتر (دمشق : ١٩٦١) *
- ابن العديم ، كمال الدين أبو القاسم - عمر - ت : ٦٦٠ هـ *
- ٣١ - زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان (بيروت :
١٩٦٨) *
- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد بن عبدالرحمن - ت : ٦٦٥ هـ *

٣٢ - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (القاهرة :
١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ) (١) •

ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف - ت : ٦٧٧ هـ •

٣٣ - أخبار مصر ، تحقيق هنري ماسيه (القاهرة : ١٩١٩) •

ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد - ت : ٦٨١ هـ •

٣٤ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين
عبد الحميد (القاهرة : ١٩٤٩) •

ابن شداد ، عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي - ت : ٦٨٤ هـ •

٣٥ - أ - الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، قسم لبنان
والاردن وفلسطين ق ٢ ، ج ٢ ، تحقيق سامي الدهان
(دمشق : ١٩٦٢) •

٣٦ - ب - الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، قسم مدينة
دمشق ، ق ١ ، ج ٢ ، تحقيق سامي الدهان (دمشق :
١٩٥٦) •

ابن سعيد ، أبو الحسن الاندلسي - ت : ٦٨٥ هـ •

٣٧ - النصوص الياقة ، تحقيق ابراهيم الاياري (القاهرة : ١٩٤٥) •

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم - ت : ٦٩٧ هـ •

٣٨ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال
(القاهرة ١٩٥٧) •

ابن الكازروني ، علي بن محمد البغدادي - ت : ٦٩٧ هـ •

(١) كذا ورد العنوان على صفحة العنوان في الكتاب المطبوع
والصحيح ما ورد في داخل الكتاب وهو : « كتاب الروضتين ٠٠٠ الخ » •

- ٣٩ - مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ،
تحقيق د. مصطفى جوّاد (بغداد ١٩٧٠) •
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد - ت : ٧١١ هـ •
- ٤٠ - لسان العرب (بيروت : ١٩٥٨ م) •
- سنبط قنيتو ، عبدالرحمن بن ابراهيم الاربلي - ت : ٧١٧ هـ •
- ٤١ - خلاصة الذهب المسبوك ، تصحيح مكّي السيد جاسم (بغداد :
د : ت) •
- أبو الفدا ، عمادالدين اسماعيل بن نورالدين - ت : ٧٣٢ هـ •
- ٤٢ - المختصر في أخبار البشر (بيروت د : ت) •
- الدواداري ، أبي بكر بن عبدالله بن أبيك - ت : حوالي سنة
٧٣٥ هـ •
- ٤٣ - كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق : سعيد عبدالفتاح عاشور
(القاهرة : ١٩٧٢ م) •
- ابن عبدالحق ، صفى الدين عبدالمؤمن - ت : ٧٣٩ هـ •
- ٤٤ - مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد
البجاوي (القاهرة ١٩٥٤ م) •
- اليمني ، تاج الدين عبدالباقى عبدالمجيد - ت : ٧٤٣ هـ •
- ٤٥ - تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن من تاريخ اليمن ، تحقيق :
مصطفى حجازي (اليمن : ١٩٦٥) •
- العلوي ، يحيى بن حمزة - ت : ٧٤٥ هـ •
- ٤٦ - الافحام لافئدة الباطنية الطعام ، تحقيق فيصل بديزغون (شركة
الاسكندرية للطباعة ، د : ت) •

- ابن الوردي ، أبو حفص زين الدين عمر - ت : ٧٤٩ هـ •
- ٤٧ - تاريخ ابن الوردي (النجف : ١٩٦٩ م) •
- اليافعي ، أبو محمد عبدالله بن اسعد - ت : ٧٦٨ هـ •
- ٤٨ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
(حيدر آباد الدكن : ١٩٧٠) •
- ابن كثير ، عماد الدين ابن أبي الفداء اسماعيل - ت : ٧٧٤ هـ •
- ٤٩ - أ - البداية والنهاية (القاهرة ١٩٣٢ م) •
- ٥٠ - ب - تفسير القرآن العظيم (القاهرة : ١٩٣٧) •
- ابن قاضي شهبة ، بدر الدين - ت : ٧٧٤ هـ •
- ٥١ - الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق - د • محمود زاير
(بيروت : ١٩١٨) •
- ابن أيوب ، تاج الدين شاهنشاه - ت : ق ٦ هـ •
- ٥٢ - منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة ، مطبوع في ذيل كتاب
سيرة صلاح الدين لابن شداد (القاهرة : ١٣١٧ هـ) •
- الغساني ، أبو العباس اسماعيل بن العباس - ت : ٨٠٣ هـ •
- ٥٣ - المسجد المسبوك والجوهر المخبوك في طبقات الخلفاء والملوك ،
تحقيق : شاكر محمود عبد المنعم (بغداد : ١٩٧٠) •
- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم - ت : ٨٠٧ هـ •
- ٥٤ - تاريخ ابن الفرات ، تحقيق : حسن محمد الشماع (بصرة
١٩٦٧ م) •
- ابن خلدون ، عبد الرحمن - ت : ٨٠٨ هـ •

- ٥٥ - أ - تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المتبداً والخبر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (بيروت : ١٩٦١م) .
- ٥٦ - ب - المقدمة (القاهرة طبعة مصطفى محمد) (د : ت) و (طبعة
بيروت ١٩٧١) *
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي - ت : ٨٢١ هـ .
- ٥٧ - أ - صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) .
- ٥٨ - ب - ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح الثمر ، غنى بطبعه
وتصحيحه : محمود سلامة (القاهرة ١٣٢٤ هـ : ١٩٠٦ م) .
- ٥٩ - ج - مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج
(كويت : ١٩٦٤ م) .
- ٦٠ - المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي - ت : ٨٤٥ هـ .
- ٦٠ - — ، أ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (القاهرة
١٣٢٤ هـ / ١٩١١ م) .
- ٦١ - — ، ب - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى
زيادة (القاهرة : ١٩٣٩ م) .
- ٦٢ - — ، ج - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع
دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل ، تحقيق
وتأليف عبدالمجيد عابدين (القاهرة ١٩٦١) .
- الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين - ت : ٨٧٣ هـ .
- ٦٣ - كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس :
١٨٩٣ م) .

- ابن تغري بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف - ت : ٨٧٤هـ .
- ٦٤ - النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة : ١٩٣٥م) • (١٣٥٣هـ) •
السخاوي ، شمس الدين - ت : ٩٠٢هـ .
- ٦٥ - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (القاهرة ١٩٥٧) •
السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر - ت : ٩١١هـ .
- ٦٦ - — ، أ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة : ١٣٢١هـ) •
- ٦٧ - — ، ب - تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين (القاهرة ١٣٥١هـ) •
ابن الشحنة ، أبو الوليد محمد الجلبى - ت : ٩٢١هـ .
- ٦٨ - روضة المناظر في أخبار الاوائل والاواخر مذكور بهامش الكامل في التاريخ لابن الاثير (القاهرة : ١٢٩٠هـ) •
- ٨٨ - العليمي ، عبدالرحمن الجبري العمري - ت : ٩٢٧هـ .
- ٦٩ - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (التجف ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) •
- ابن أياس ، محمد بن أحمد - ت : ٩٣٠هـ .
- ٧٠ - بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة : ١٣١١هـ) •
الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن - ت ٩٦٦هـ .
- ٧١ - تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس (القاهرة : ١٢٨٣هـ) •
ابن ظهيرة ، جلال الله جمال الدين محمد - ت : ٩٨٦هـ .

- ٧٢ - الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة : ١٩٦٩) •
- ابن يحيى ، صالح - من مؤرخي القرن ٩هـ •
- ٧٣ - تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحريين من بني العرب ، نشره وعلق عليه لويس شيخو اليموني (بيروت : ١٨٩٨ م) •
- ابن العماد ، عبدالحى الحنبلي - ت : ١٠٨٩هـ •
- ٧٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت د : ت) •
- (و ط • مكتبة القدس : ١٣٥٠هـ) •
- ابن الحسين ، يحيى بن القاسم بن علي - ت : ١١٠٠هـ •
- ٧٥ - غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق - سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة : ١٩٦٨) •
- العصامي المكي ، عبدالملك بن الحسين - ت : ١١١١هـ •
- ٧٦ - سمط النجوم العوالي في أبناء الاوائل والتوالي (القاهرة د : ت) •
- الجبرتي ، عبدالرحمن بن الحسن - ت : ١٢٤١هـ •
- ٧٧ - مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، تحقيق حسن محمد جوهر وزميله (مطبعة الرسالة : ١٩٦٩) •
- الدهلوي ، الشيخ أحمد عبدالرحيم - من أعيان القرن ١٢هـ •
- ٧٨ - حجة الله البالغة ، تحقيق السيد سابق (مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة ، ٣ : ت) •
- القنوجي ، أبو الطيب صديق بن حسن - ت : ١٣٠٧هـ •
- ٧٩ - التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الاخر والاوّل ، تصحيح وتعليق عبدالحكيم شرف الدين (القاهرة ١٩٦٣ م) •

- ٨٠ - مجهول المؤلف ، ذكر الدولة الايوبية وغيرها ، مخطوط بمكتبة
الاقواق العامة بالموصل ٦/٢١ زيواني) •
برهان الدين ؤ الشيخ
- ٨١ - منتخب في فضائل بيت المقدس ، مخطوط بمكتبة المتحف في بغداد
رقم (١٠٢٣) •

المراجع الحديثة

- أبو حديد ، محمد فريد •
- ٨٢ - صلاح الدين الايوبي وعصره (القاهرة : ١٩٢٧م) •
أبو زهرة ، محمد •
- ٨٣ - الشافعي ، حياته وعصره وآرائه وفقهه (القاهرة : ١٩٤٨م) •
ارنولد ، سير توماس
- ٨٤ - الدعوة الى الاسلام ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن (القاهرة :
١٩٥٧م) •
أمين ، أحمد
- ٨٥ - يوم الاسلام (القاهرة : ١٩٥٨م) •
أمين ، حسين
- ٨٦ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد : ١٩٦٥م) •
باركر ، ارست
- ٨٧ - الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت ،
د : ت) •
بدوي ، أحمد

- ٨٨ - أ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام
(القاهرة ، د : ت) •
- ٨٩ - ب - الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام
(القاهرة ، د : ت) •
- ٩٠ - ج - صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه (القاهرة :
١٩٦٠ م) •
بروكلمان ، كارل
- ٩١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي
(بيروت ، ١٩٦٥) •
بولارد ، سر ويدر
- ٩٢ - بريطانيا والشرق الاوسط منذ اقدم العصور حتى سنة ١٩٥٢ ،
ترجمة : حسن احمد السلیمان (بغداد : ١٩٥٧ م) •
يومى ، علي
- ٩٣ - قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة ١٩٥٤ م) •
توفيق ، عمر كمال
- ٩٤ - تاريخ الامبراطورية البيزنطية (القاهرة : ١٩٧٠ م) •
جب ، هاملتون آر
- ٩٥ - صلاح الدين الايوبي ، تحرير يوسف أيش (بيروت : ١٩٧٣ م) •
جوزي ، بندلي
- ٩٦ - من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (الاندلس : ١٩٢٨ م) •
حاطوم ، نورالدين

- ٩٧ - تاريخ العصر الوسيط في اوربا (دمشق ١٩٦٧ م) •
جبشي ، حسن
- ٩٨ - نورالدين والصليبيون (القاهرة : ١٩٤٨ م) •
حتشي ، فيليب
- ٩٩ - لبنان في التاريخ ، ترجمة : انيس فريحة (بيروت : ١٩٥٩ م) •
حمدي ، حافظ احمد
- ١٠٠ - الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي (القاهرة ١٩٥٠ م) •
الحريري ، سيد علي
- ١٠١ - الاخبار السنية في الحروب الصليبية (مصر ١٨٩٩ م) •
حسن ، حسن ابراهيم وعلي ابراهيم حسن
- ١٠٢ - أ - الفاطميون في مصر (القاهرة ، ١٩٤٢ م) •
ب - ١٠٣ - النظم الاسلامية (القاهرة ، ١٩٧٠ م) •
حسن ، علي ابراهيم
- ١٠٤ - التاريخ الاسلامي العام (القاهرة ، ١٩٥٩ م) •
حسين ، محمد عواد ورفاقه
- ١٠٥ - تاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور (القاهرة ،
١٩٦٣) •
حسين ، محمد كامل
- ١٠٦ - أ - دراسات في الشعر في العصر الايوبي (القاهرة ، د : ت) •
ب - ١٠٧ - طائفة الاسماعيلية ، تاريخها ، تنظيمها ، عقائدها (القاهرة ،
١٩٥٩) •

- ١٠٨ - ج - في ادب مصر الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٣) •
الحسيني ، المتوفي
- ١٠٩ - جمهرة الاولياء (القاهرة ، ١٩٦٧) •
حمزة ، عبداللطيف
- ١١٠ - أ - ادب الحروب الصليبية (القاهرة ، د : ت) •
- ١١١ - ب - الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي
الاول (القاهرة ، ١٩٦٨) •
خليل ، عمادالدين
- ١١٢ - امارة بني ارتق ، وهي رسالة معدة لئيل درجة الدكتوراه ،
اشراف الدكتور حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٦٨) •
- ١١٣ - دائرة المعارف الاسلامية ، نقلها للعربية احمد الشتاوي ورفاقه
(القاهرة ، ١٩٣٣) •
الدويهي ، البطريك اسطفانوس
- ١١٤ - تاريخ الازمنة ١٠٩٥ هـ - ١٦٩٩ م نشره على اصوله وعلق عليه
الاب فرديناند توتل اليسوعي ، مجلة المشرق (بيروت ، ١٩٥١) •
الديلمى ، محمد
- ١١٥ - بيان مذهب الباطنية وبطلانه (استانبول ، ١٩٣٨) •
ديورانت ، ر • ل
- ١١٦ - قصة الحضارة ، ترجمة : زكي محمد نجيب (القاهرة ، ١٩٦٥) •
الديوهجي ، سعيد
- ١١٧ - الموصل في العهد الاتابكي (بغداد ، ١٩٥٨) •
رائسيان ، ستيفن

- ١١٨ - المدينة اليزنطية - الحروب الصليبية - ترجمة : د . صالح احمد العلي (بغداد ، ١٩٥٦) •
ريبع ، حسين محمد
- ١١٩ - النظم المالية في مصر زمن الايوبيين (القاهرة : ١٩٦٤) •
رستم ، أسد
- ١٢٠ - الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (القاهرة ، ١٩٦٥) •
رضا يحالة ، عمر
- ١٢١ - معجم المؤلفين (دمشق ، ١٩٦٠) •
الريس ، محمد ضياء الدين
- ١٢٢ - الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (القاهرة ، ١٩٦٩) •
ريتنز ، جورج وغيره من المستشرقين
- ١٢٣ - دراسات اسلامية • ترجم باشراف د . نيقولا زيادة (بيروت ، ١٩٦٠) •
الزركلي ، خير الدين
- ١٢٤ - الاعلام (مطبعة كوستانسوماس ١٩٥٦ م) •
زيادة ، محمد مصطفى
- ١٢٥ - حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة (القاهرة ، ١٩٦١ م) •
زيادة ، نيقولا
- ١٢٦ - الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت ، ١٩٦٢ م) •
زامباور ، ادواردفون

- ١٢٧ - معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ج ١-٢
اخرجه الدكتور زكي محمد حسن وحسن احمد محمود
(القاهرة : ١٩٥١) •
زيدان ، جرجي
- ١٢٨ - تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة ، ١٩٥٤ م) •
سالم ، د • عبدالعزيز
- ١٢٩ - تاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي (القاهرة،
١٩٦١ م) •
سالم ، د • عبدالعزيز
- ١٣٠ - دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر في العصر الاسلامي
(بيروت ، ١٩٧٠) •
السامر ، فيصل
- ١٣١ - الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ج ١-٢ (بغداد ، ١٩٧٣ م) •
سرور ، محمد جمال الدين
- ١٣٢ - مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٠) •
سعداوي ، نظير حسان
- ١٣٣ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين (القاهرة ، ١٩٥٧) •
سلام ، محمد زغلول
- ١٣٤ - الادب في عصر صلاح الدين (القاهرة ، ١٩٥٩) •
شرف ، طه أحمد
- ١٣٥ - دولة النزارية (القاهرة ، ١٩٥٠) •
شريف ، محمد بديع

١٣٦ - مداخل لدراسة مطامع اليهود في فلسطين قديما وحديثا (القاهرة ، ١٩٧٣) •

الشيال ، جمال الدين

١٣٧ - تاريخ مصر الاسلامية (العصر الايوبي) (القاهرة ، ١٩٦٧) •

١٣٨ - ابن التاريخ مقالة من « اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية »
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (القاهرة ، ١٩٧٠) •

طيارة ، عفيف عبدالفتاح

١٣٩ - روح الدين الاسلامي (بيروت ، د : ت) •

طرخان ، ابراهيم علي

١٤٠ - النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٨) •

طه ، أبو بكر جلال

١٤١ - صلاح الدين الايوبي اسد القارتين (بغداد ، ١٩٦٧) •

العابدي محمود

• مأساة بيت المقدس (عمان ، ١٩٦٩) •

عاشور ، سعيد عبدالفتاح

١٤٣ - أ - الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي
في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٣) •

١٤٤ - ب - اوربا العصور الوسطى ، التاريخي السياسي (القاهرة ، ١٩٦١) •

١٤٥ - ج - قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ، ١٩٥٧) •

- ١٤٦ - د - الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سلسلة أعلام العرب
(٤١) (القاهرة ١٩٦٥) •
عبدالباقي ، محمد فؤاد
- ١٤٧ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (القاهرة : ١٣٦٤ هـ) •
عبدالعزيز ، سيد الاهل
- ١٤٩ - أيام صلاح الدين (القاهرة ، ١٩٦٤) •
عثمان ، فتحي
- ١٤٩ - الحدود الاسلامية اليزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال
الحضاري الكتاب الاول (القاهرة ، د : ت) •
العريني ، السيد الباز
- ١٥٠ - أ - الشرق الادنى في العصور الوسطى ، القسم الاول (اليوميين)
(بيروت ١٩٦٧) •
- ١٥١ - ب - الممالك (بيروت ١٩٦٧) •
- ١٥٢ - ج - مصر في عصر الايوبيين (سلسلة الالف كتاب عدد ٢٦٩)
القاهرة لم يذكر السنة •
- ١٥٣ - العقيسي ، نجيب
المستشرقون (القاهرة ، ١٩٦٤) •
علام ، نعمت اسماعيل
- ١٥٤ - فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية (القاهرة ، ١٩٧٤) •
علي ، سيد أمير
- ١٥٥ - مختصر تاريخ العرب ، ترجمة : عفيف البعلبكي (بيروت ،
١٩٦٧) •

- عليان ، محمد عبدالفتاح
- ١٥٦ - قرامطة العراق (القاهرة ، ١٩٧٠) •
- العمري ، عبدالله ورفقاؤه
- ١٥٧ - الجيش العربي في صدرالدولة العباسية (بغداد : ١٩٦٣) •
- غالب ، مصطفى
- ١٥٨ - تاريخ الدعوة الاسماعيليه (دمشق ، ١٩٥٣ م) •
- ١٥٩ - اعلام الاسماعيليه (بيروت ، ١٩٦٤) •
- الغزي ، كامل بن حسين بن محمد البالي
- ١٦٠ - نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب ، ١٩٢٦ م) •
- غرايبة ، عبدالكريم
- ١٦١ - العرب والاتراك ، دراسة لتطور العلاقات بين الامتين خلال الف سنة (دمشق : ١٩٦١ م) •
- فروخ ، عمر
- ١٦٢ - تاريخ الفكر الفكر العربي الى ايام ابن خلدون (بيروت ، ١٩٧٢) •
- فشر ، هـ . أ . ل
- ١٦٣ - تاريخ اوربا (العصور للوسطى) ، القسم الاول ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة وزميله (القاهرة : ١٩٦٦) •
- القزاز ، محمد صالح داؤد
- ١٦٤ - الحياة السياسية في العصر العباسي الاخير (النجف ، ١٩٧١) •
- كلاري ، روبرت
- ١٦٥ - فتح القسطنطينية على يد الصليبية ، ترجمها عن الفرنسية وقدم لها الدكتور حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٦٤) •
- كويلرينج ، ت . و زملائه

١٦٦ - الشرق الادنى مجتمعة وثقافته ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن
محمد ايوب (القاهرة د : ت) •

لامب ، هارولد

١٦٧ - شعلة الاسلام ، ترجمة : محمود عبدالله (بغداد ، ١٩٦٧) •

١٦٨ - لين بول ، استانلي طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمه من الفارسية
مكي طاهر الكعبي (بغداد : ١٩٦٨) •
لانجر ، وليم

١٦٩ - موسوعة تاريخ الاسلام ، اشرف على ترجمتها : محمد مصطفى
زيادة (القاهرة ١٩٥٩) •

لويس ، برنارد

١٧٠ - أ - اصول الاسماعيلية ، نقله الى العربية (خليل احمد جلدو
ورفيقه ، القاهرة ٢ : ت) •

١٧١ - ب - الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ، نقله الى
العربية د • شهيل زكار (بيروت ، ١٩٧١) •

١٧٢ - ج - الغرب والشرق الاوسط تعريب نبيل صبحي (لاغوس ،
١٩٦٥) •

ماجد ، عبدالمعتم

١٧٣ - أ - تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ،
١٩٦٣) •

١٧٤ - ب - ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر (الاسكندرية ،
١٩٦٨) •

- ١٧٥ - ج - نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٥) .
ماهر ، سعاد
- ١٧٦ - البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية (القاهرة ، د : ت) .
مبارك ، علي
- ١٧٧ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة (القاهرة ، ١٩٦٩) .
- ١٧٨ - مجاني الادب جمع ونشر لويس شيخو (بيروت ، ١٩٢٣) .
- ١٧٩ - مجلة العلوم ، العدد (٨) ، السنة (١٢) نبذة حول الحركة
الاسماعيلية (بيروت ، ١٩٦٧) .
- ١٨٠ - مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الاول ، تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٨) .
محمود ، حسن سلمان
- ١٨١ - تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي (بغداد ، ١٩٦٩) .
سعد ، مصطفى محمد
- ١٨٢ - الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٠) .
- ١٨٣ - المشرق ، مجلة كاثوليكية ، السنة (٤٣) الجزء (٢) (بيروت ،
١٩٤٩) .
- المطوى محمد العروسي
- ١٨٤ - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (تونس ، ١٩٥٤) .
المصري ، حسين مجيد
- ١٨٥ - عمارة اليمني (القاهرة ١٩٦١) .
مؤنس ، حسين
- ١٨٦ - صلات بين العرب والفرس والترك (القاهرة ، ١٩٧١) .
المناعي ، محمد حمدي

- ١٨٧ - (الوزارة في العصر الفاطمي) (القاهرة ، ١٩٧٠) •
مؤنس ، حسين
- ١٨٨ - نورالدين محمود (القاهرة ، ١٩٥٩) •
النجار ، أحمد
- ١٨٩ - الانتاج الادبي في مدينة الاسكندرية في العصرين الفاطمي والايوبي
(القاهرة ، ١٩٦٤) •
النشار ، علي سامي
- ١٩٠ - نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام (القاهرة ، ١٩٦٥) •
هامرتن ، السير جون • أ
- ١٩١ - تاريخ العالم ، نشره بالانكليزية السير هامرتن واشرف على ترجمته
ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم (القاهرة ، د : ت) •
يوسف ، جوزيف نسيم
- ١٩٢ - العرب والروم/ واللاتين في الحرب الصليبية الاولى (القاهرة ،
١٩٦٧) •

المصادر الاجنبية

- 193 — Archer (T.), Kingsford (c.):
The Crusades, London, 1894.
- 194 — Atiya (Aziz S.):
Crusade, Commerce and Culture, London,
1962.
- 195 — Besent (W.) and Palmer (E.H.):
Jerusalem, The City of Herod and Saladin,
London, 1899.

- 196 — Browne (Edward G.):
A literary history of Persia Vol. II, Cambridge,
1951.
- 197 — Bulletin of the School of Oriental and African
Studies University of London, Vol. XV (Part:
2,3), London, 1953.
- وفي القسم الثاني مقال للمستشرق برنارد لويس بعنوان :
- 198 — Saladin and the Assassins.
- وفي القسم الثالث مقال طويل باللغة العربية عن تاريخ مدينة صفد
مختارة من قبل المستشرق برنارد لويس أيضا .
- 199 — Cahen (Claude):
La syrie du nord al'epoque des croisadeset
la principaute franque dantioche, paris, 1940.
- 200 — Champdor (Albert):
Saladin le plus purheros de l'islam, Editions
Albin Micher, Paris, 1956.
- 201 — Daniel (Norman):
MIslam on the West the Making of an Image,
Edinburgh, 1966.
- 202 — Dictionnaire du Francais Contemporain
Jean du Bois etdtsqutres Anteurs Paris, 1966.
- 203 — Dozy (R.):
Supplement Aux Dictionnaires Arabs, II.
Paris: 1967.

- 204 — Eliseeff (Nikita):
Nur Ad-Din 1118-1174, Tome III Damas, 1967.
- 205 — Enciyclopedia de L'Islam: (Art. Hashishiyya)
Vol. III, Paris, 1971.
- 206 — Encyclopaedia of Islam
Vol, I, (Art: Al-Bathaniyya) London, 1960.
- 207 — Encyclopaedia Britanica (Art: Assassin), Vol.
II U.S.A, 1965.
- 208 — Encyclopaedia of Arabic Civilization:
The Arab East, London, 1966.
- 209 — Grousset (Rene):
Histoire des Croisdeset du royaume frame
dejerusalem, Tome II, Paris, 1935.
- 210 — Hodgson (Marshall G.S.):
The Oorder of Assassins the struggle of the
early Nizari Ismae-lis Aganist Islamic world,
London, 1955.
- 211 — Journal Asiatique:
Peridique Trimestriel, Pubble Parla Societe
MAsiatique, Fascicule n. 2 and Vol. IX, 1877:
- 212 — King (E.J):
The Knights Hospitallers in the Holy land,
London, 1931.
- 213 — Kritzeek (James):
Anthology of Islam literature, London, 1964.
- 214 — Lane Pool (S.):
A History of Egypt in the middle ages
London, 1968.

- 215 — B. Saldin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1898.
- 216 — Laransse Universel, Vol. 2 (Art. Craisades) Paris, 1922.
- 217 — Lewis (Bernard):
The Assassins, A Radical Section Islam London, 1967.
- 218 — Minorsky (v.):
Studies in Caucasian history, London, 1953.
- 219 — Nouveque Petit Larouss
Claude Auge et paul Auge Article, Croisades, Paris, 1939.
- 220 — Oumara du yeme
Savie et son CEUVRE, Hartwig derenburg,
Tom II, Vie de Oumaradu yemen, Paris, 1904.
- 221 — Rosebault (Charlies J.)
222 — Runciman (Stevan):
A History of the Crusades, Vol. III, London, 1957.
- 223 — Saint Bernerd,
Etl'esprit Cistercien Dom Jean Le clercq
Paris, 1966.
- 224 — Setton (K.M.):
A History of the Crusades (2 Vols) Pennsylvanis, 1958.
- 225 — Sivan (Emmanuel):
L'Islam et la Croisade Ideologie et propagande

dans les Reactions Musulmanes aux Croisades,
Paris, 1968.

226 — Stevenson (W.R.):

The Crusaders in the East Cambridge, 1907.

227 — Watt (W. M. Montgomery)

Muslim Intellectual

MA as a study of Al-Ghazali, Edinburgh, 1963.

المحتويات

الصفحة	المواضيع
٣	الاهـداء
٥	المقدمة

تحليل المصادر والمراجع

١٤	أ - المصادر العربية المعاصرة لصلااح الدين
٢٩	ب - المصادر الصليبية المعاصرة لصلااح الدين
٣١	ج - مفاضلة بين المصادر العربية المعاصرة لصلااح الدين
٣٢	د - المصادر العربية غير المعاصرة لصلااح الدين
٤٢	هـ - المراجع العربية والاجنبية الحديثة والدوريات

الفصل الاول : نشأة الدولة الايوبية

٤٨	اولا - احوال المسلمين السياسية في القرن السادس الهجري/١١٢ م
٥٠	اسباب الحروب الصليبية
٥٤	اسباب الصليبيين في الاستيلاء على المدن والقلاع الاسلامية
	اثر الشعراء والفقهاء في اثارة روح الجهاد ضد العدوان
٥٨	الصليبي

ثانيا - المولد والنشأة

٦٢	اصل صلاح الدين
٦٦	علاقة اسرة صلاح الدين بالزنكيين
٧٠	تولية صلاح الدين رئاسة شرطة دمشق سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥ م
٧٣	ثالثا - دخول صلاح الدين مصر وتقلده الوزارة الفاطمية
	اسباب ذهاب صلاح الدين الى مصر في المرة الاولى سنة
٧٤	٥٥٨هـ/١١٦٣ م

الصفحة	المواضيع
٧٧	الحملة الثانية الى مصر سنة ٥٦٢هـ / ١٦٦م
٨٤	الحملة الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م
٨٨	مقتل شاور وتولي شيركوه الوزارة الفاطمية
٨٩	تولي صلاح الدين وزارة الخليفة الفاطمي واسباب ذلك
	رابعا - سياسة صلاح الدين العامة منذ توليه الوزارة حتى سنة
٩٥	٥٧٠هـ / ١١٧٤م
٩٧	السيطرة على القطاع العسكري
٩٨	ثورة الجند السودان وفشلها
٩٩	الهجوم الصليبي على مدينة دمياط وفشلها
١٠٢	موقف صلاح الدين من اعراب سيناء
١٠٣	القضاء على الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م
١٠٩	علاقة صلاح الدين بنورالدين محمود بن زنكي
	الفصل الثاني : سياسة صلاح الدين الايوبي في اعادة الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة
	اولا - اضطراب الاحوال السياسية بعد وفاة نورالدين والاسباب
١١٩	الموجبة لتقدم صلاح الدين نحو الشام سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٧م
	ثانيا - مسير صلاح الدين من مصر الى الشام وسيطرته على كل من
١٣٩	دمشق وحمص وحماة سنة ٥٧٠هـ
	ثالثا - موقف صلاح الدين من الملك الصالح بن نورالدين حتى وفاة
١٥٥	سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م
١٥٩	حصار حلب الاول سنة ٥٧٠هـ
	انتصار صلاح الدين على امراء الموصل وحلب في قرون حماة
١٦٧	وانتظام الصلح بين الجانبين
	نقض سيف الدين غازي - امير الموصل - معاهدة الصلح مع
١٧٦	صلاح الدين
١٩٥	انتظام الصلح بين صلاح الدين وامراء الموصل وحلب سنة ٥٧٢هـ
	رابعا - موقف صلاح الدين من امراء الموصل منذ وفاة سيف الدين

٢٠٣	غازي سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م حتى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٥م
٢١٤	وامتلاكه كلا من سنجار وحلب
٢٢٢	حصار الموصل الاول سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م
٢٢٥	فتح سنجار وتبعيتها لصالح الدين سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م
٢٣١	فتح آمد واهميتها في انضمام الارائقة الى صلاح الدين
	فتح صلاح الدين حلب وتمام الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة
	خامسا - حصار الموصل والصلح عليها وتمام الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة
٢٤١	حصار الموصل الثاني سنة ٥٨١هـ / ١١٨٤م
٢٤٨	حصار الموصل الثالث وتمام الصلح عليها
٢٥٢	نتائج الفصل
	الفصل الثالث : موقف صلاح الدين من القوى الصليبية
	٥٧٠-٥٨٨هـ / ١١٧٤-١١٩٢م
	اولا - صلاح الدين والصليبيون في فترة الاعداد لبناء الوحدة
٢٥٩	٥٧٠-٥٨٨هـ / ١١٧٤-١١٨٦م
٢٦٠	١ - فشل حصار الصليبيين للاسكندرية ٥٧٠هـ / ١١٧٤م
٢٦٩	٢ - خسارة صلاح الدين في معركة الرملة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م
٢٧٥	٣ - تخريب صلاح الدين حصن بيت الاحزان الصليبي
٢٨٢	سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م
	٤ - مناقشة الاراء حول موارد دولة صلاح الدين
٢٨٦	ثانيا - معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م
٢٨٦	١ - نقض البرنس ارناط لاتفاقية السلام
٢٨٩	٢ - فتح مدينة طبرية
٢٩٧	٣ - فتح مدينة عكا
٣٠٢	٤ - مميزات سياسة صلاح الدين في هذه المرحلة
٣٠٥	ثالثا - فتح صلاح الدين القدس وشمال الشام ٥٨٣-٥٨٤هـ

- ١ - دوافع فتح القدس ٣٠٦
- ٢ - معاملة صلاح الدين للصليبيين بعد فتح القدس ٣٠٩
- ٣ - صلاح الدين والامبراطور البيزنطي ٣١٠
- ٤ - اول خطبة القيت في المسجد الاقصى بعد فتح القدس ٣١٢
- ٥ - تحرير صلاح الدين لشمال الشام ٣١٣
- رابعا - موقف صلاح الدين من الحملة الصليبية الثالثة ٣١٩
- ١ - حصار الصليبيين لمدينة عكا ٣٢١
- ٢ - فشل الحملة الالمانية ٣٢٥
- ٣ - سقوط عكا بيد الصليبيين ٣٢٩
- ٤ - معركة ارسوف سنة ٥٨٧هـ ٣٣٦
- ٥ - تخريب مدينة عسقلان ٣٣٨
- ٦ - العلاقة بين ريتشارد وصلاح الدين ٣٤١
- ٧ - محاولة الصليبيين حصار القدس وفشلهم ٣٤٨
- ٨ - فتح يافا ٣٥٢
- ٩ - الهدنة بين الصليبيين والمسلمين وشروطها ٣٥٤

الفصل الرابع : سياسة صلاح الدين نحو الخلافة العباسية

والحركة الاسماعيلية

- اولا - صلاح الدين والحركة الاسماعيلية ٣٦٢
- ١ - تاريخ الحركة الاسماعيلية ٣٦٢
- ٢ - التسميات التي اطلقت على الاسماعيلية ٣٦٧
- ٣ - اثر راشد الدين سنان في تطوير الحركة الاسماعيلية ٣٧٢
- ٤ - اساليب الحركة الاسماعيلية ٣٧٣
- ٥ - علاقة الاسماعيلية باليهود والنصارى ٣٧٥
- ٦ - محاولة اغتيال صلاح الدين الاولى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ٣٧٨
- ٧ - محاولة اغتيال صلاح الدين الثانية سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م ٣٧٩

- ٨ - هجوم صلاح الدين على المواقع الاسماعيلية وحصار
مصيف ٢٨٢
- ٩ - اسباب انسحاب صلاح الدين من مصيف ٢٨٣
- ١٠ - علاقة صلاح الدين بمقتل المركيس كانراد الصليبي
سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ٢٨٦
- ثانيا - صلاح الدين والخلافة العباسية ٢٨٩
- ١ - ضعف الخلافة العباسية ٢٨٩
- ٢ - أسباب احترام صلاح الدين للخليفة العباسي ٢٩٠
- ٣ - صلاح الدين والمستضيء بالله ٢٩٢
- ٤ - صلاح الدين والناصر لدين الله ٢٩٦
- (خارطة توضح حدود دولة صلاح الدين) ٤٠٧
- الفصل الخامس : السياسة الداخلية** ٤٠٩
- أولا - الكتابة والكتاب ٤١١
- ثانيا - القضاء ٤١٥
- ثالثا - واردات الدولة ٤١٩
- رابعا - مصروفات الدولة ٤٢٧
- خامسا - المدارس والتعليم ٤٣٢
- سادسا - ادارة المدن والقلع ٤٤١
- سابعا - الجيش والتعبئة ٤٥٠
- ثامنا - البحرية ٤٦١
- قائمة المصادر حسب تاريخ الوفاة ٤٧٠
- قائمة المراجع الحديثة ٤٨٠
- المراجع الاجنبية ٤٩١

peace was concluded between them.

The fourth chapter was devoted to study Salahuddeen's attitude towards the Isma'ilite movement (The Assassins) as well as his stand towards the Abbassid Caliphate, why he fought the Isma'ilites and finally the real reasons why he reached peace with them.

In the fifth and final chapter I discussed the cultural systems and Salahuddeen internal policy. I talked about correspondence and the writers, about justice, the state incomes and expenses and the interest shown by Salahuddeen towards schools and education. Then I analysed the relationship between him and his princes (province rulers) and how he ran the towns and forts. The chapter ends up with a study about the army and the rules and regulations of army mobilization and on the navy, the types of boats and vessels and their significance.

This thesis consists of five chapters, The first chapter deals with the political conditions of the Muslims in the sixth century of the Hijra, the reasons of the Crusades, the methods and techniques used by the Crusaders to take over the Muslim regions, the policy of Salahul Deen when he became a minister of the Fatimites in 567 A.H./1171 AD to 570 A.H./1174 AD. In this way, the first chapter makes the foundation and the cornerstone of the other chapters.

In the second chapter I discussed the attitude of Salahul Deen towards the Muslim rulers, his policy in reunifying Egypt, Syria and Al-Jazeera in the pernod 570 A.H./582 AD. 1174 AD — 1186 A.D. after showing the turmoil in the political conditions after the death of Nour Deen. I also discussed the reasons why Salahul Deen marched from Egypt to Syria. Then I analysed the attitude of Salahul Deen towards the people of Mosul, Aleppo, Amid and Sinjar. The third chapter deals with Salahulddin's attitude towards the crusade forces and why he fought them. It also discusses the most important battles between the two sides such as Hitteen battle which paved the way to the recapture of Jerusalem.

A little extra attention has been paid to the conditions in Jerusalem before and after it was recaptured and to the first speech Salahuddeen delivered of Al-Aqsá mosque after it was liberated. This was followed by Salahuddeen's attitude towards the Third Crusade and his efforts in standing against its attacks. Then I discussed the relationship between Salahuddeen and Richard, the Lion-Hearted and why

systems which had a great impact in developing those policies. This is what encouraged me to participate the study of this serious subject.

The Muslim East was at that era living the sequences of literary, religious and intellectual revolution which developed in reaction to the challenge aroused by the Crusaders as a result of their invasion of Syria and taking over of Jerusalem in 492 A.H./1099 A.D. The Muslim masses every now and then staged revolts against their rulers urging them to move fast towards putting an end to that aggression. But the weakness of the Abbassid Caliphate and the differences and feuds among the Muslim rulers especially after the death of the Sultan of Greater Syria Nouril Deen Zeuki in addition to the cooperation between some of those rulers and the Crusaders made it necessary the emergence of efficient leader who could challenge the existing conditions and occupy the place that became vacant after the death of Nouril Deen and endeavour to unify the nation and liberate Jerusalem.

As a result of the talents which Salahul Deen had, he was able to replace Nouri Deen, unify Syria, Egypt and Al-Jazeera and Lead the armies of the unified countries to fight the Crusaders. He started later he liberated Jerusalem in 583 A.H./1187 AD. his struggle in 570 A.H./1174 AD and thirteen years Five years later he forced his enemies to sign a peace treaty and withdraw from Syria after the failure of the third Crusade.

100

The Policy of Salahul Deen Al-Ayoubi
in Greater Syria and Al-Jazeera 570-589

A. H./1174 — 1193 AD.

Salahul Deen are constitutes a serviouir experience full of events and lessons which require more study and research. What makes a study on Salahul Deen, his holy wars, the problems he encountered, and the solutions he offered useful and inspiring to our Arab nation is the fact that he lived in an era whose conditions, circumstances and events are to a certain extent, similar to those of our present era.

Motivated by my intention to participate with my nation in looking for solutions to its problems and to live our issues.

I have closen the subject of this thesis which shows how Salahul Deen could unify this nation and liberate Jerusalem hoping that it will help in stirring up our people to work for liberation and unity.

Moreover, the Arabic Library is still in need of a book which fully discusses the policy of Salahul Deen since most contemporary Arabic references restrict themselves to the military and political aspects of the life of Salahul Deen. They may make casual mentions as they discuss the relations between the East and the West or the Crusades in general. Still in its early stage is the study on Salahul Deen's internal and foreign policies, his attitude towards the Crusaders, the Abassid Caliphate, the Ismailites and the Atabeks as well as the administrative and economic

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٩٠٧ لسنة ١٩٧٦